

كايل جون أندرسون

فرقة العمال المصرية

العِرق والفضاء والمكان في الحرب العالمية الأولى

ترجمة ومراجعة

شكري مجاهد

ترجمة

محمد صلاح علي

3478



فرقة العمال المصرية

العِرق والفضاء والمكان في الحرب العالمية الأولى

تأليف: كايل جون أندرسون
ترجمة ومراجعة: شكرى مجاهد
ترجمة: محمد صلاح علي



٢٠٢٣

المركز القومى للترجمة

أسسه جابر عصفور فى أكتوبر ٢٠٠٦

مدير المركز: كرمة سامى

- العدد: 3478
- فرقة العمال المصرية
- المؤلف: كايل جون أندرسون
- ترجمة ومراجعة: شكرى مجاهد
- ترجمة: محمد صلاح على
- الطبعة الأولى 2023
- المشرف على الإصدارات: حسن كامل

هذه ترجمة:

The Egyptian Labor Corps :
Race , Space , and Place in the First World War
By: Kyle Anderson

Published by arrangement with the University of Texas Press.

رقم الإيداع: (٢٠٢٣/١١٨٧٤م) الترقيم الدولى: 978-977-92-2704-7

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

Fax: 27354554 Tel: 27354524 E-mail: nctegypt@nctegypt.org

إلى الآلاف الذين بذلوا نفوسهم وهم يعملون في فرقة العمال المصرية، وفرقة النقل بالجمال، والجمَّالة المعينين، وفرقة النقل بالأحصنة، وفيلق الهجَّانة الإمبراطوري، والخدمة البيطرية.

فهرس المحتويات

مقدمة الترجمة

يفخر مركز بومبيدو في باريس بتصميمه الفريد الذي يتعمد كشف ما يفرض العرف الهندسي ستره؛ فهو يضع «الدَرج المتحرك والسباكة والأسلاك وأنابيب المجاري في "واجهات" المباني حتى يراها الجميع». يعادل هذا التصميم الهندسي الغريب في عالم التأريخ، كما نفهم من كلام مؤرخ الحرب الباردة المبرز وفيلسوف التاريخ جون لويس جاديس، أن يكشف المؤرخ نواياه ودوافعه الشخصية وأثرها في نظرته إلى موضوع بحثه واختيار منهجه كما يقول في كتابه المهم **المشهد التاريخي: كيف يرسم المؤرخون خارطة الماضي**. يقول جاديس في واحدة من الفقرات المفتاحية في الكتاب:

> من كان يتوقع أننا ندرس اليوم محاكم التفتيش بعيون طحان إيطالي من القرن السادس عشر، أو فرنسا قبل الثورة من منظور خادم صيني متمرد، أو سنوات الاستقلال الأمريكي الأولى عن طريق قابلة من نيو إنجلاند؟ إن أعمالًا مثل الجبن والدود تأليف كارلو جننزبيرج، ومسألة هو تأليف جوناثان سبينس، وحكاية قابلة تأليف لوريال تاتشر أولريخ جاءت نتيجة حسن الحظ الذي حفظ مصادر فتحت نوافذ على زمن آخر.[١]

ينطبق هذا على حالة الكتاب الذي بين أيدينا تأليفًا وترجمة حيث يقول المؤلف: «اعتاد المؤرخون التواري فيما يكتبون من نصوص، لكن أحد دوافع عملي في هذا الكتاب كان السعي إلى فهم تجربتي الشخصية في الحياة والعمل في مصر». ولكاتب هذه المقدمة وأحد مترجميْه الاثنين دافع شخصي وهو أنه حفيد أحد أفراد فرقة العمال المصرية التي يؤرخ الكتاب لنشأتها ودورها في الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ وتشكيل خارطة المنطقة الجغرافية والسياسية تشكيلًا لم تتجاوزه حتى اللحظة الراهنة. ولا غرو أن يختلط الشخصي بالتاريخي في متن كتابنا هذا وفي مقدمته هذه اختلاطَ الذوبان.

ولا يفوتني هنا أن أذكر طرفًا من ظروف ترجمة الكتاب التي تضافرت قَدَرًا ليخرج واحد من أهم ما قدمه المركز القومي للترجمة من كتبٍ في السنوات الأخيرة. كانت الدكتورة كرمة سامي هي أول من وقع على الكتاب وما إن قررتْ أن يكون من مترجمات المركز حتى

١ **المشهد التاريخي: كيف يرسم المؤرخون خارطة الماضي**، ترجمة شكري مجاهد، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، ٢٠١٦.

اقترحته عليَّ وهي لا تدري صلتي الشخصية بموضوعه كما سيرد. أما سبب ترجمته بالاشتراك مع المترجم الشاب المتميز محمد صلاح فيُكمل أضلاع مثلث ما قد يسميه ڤينابلز وإخوانه **قَدَرية المصريين**، لكني لا أجد المصادفة خيرَ تفسير لخروج هذه الترجمة إلى النور؛ حيث نشرَ أحدُ مستكشفي الكتب المعروفين على شبكات التواصل الاجتماعي غلافَ الكتاب واقترح أن تقوم جهةٌ بترجمته فألمحتُ إليه أني سأفعل. بعدها علمت أن محمد صلاح على صلة بالمؤلف وكان قد ترجم بحثه الذي صار الفصل الثاني في الكتاب. لم أتردد في اقتراح اسمه على الدكتورة كرمة ولم تتردد في الموافقة؛ وإنَّ الجهد البحثي الذي بذله ومستوى الترجمة الذي قدمه يجعلني أسترجع الموقف بسعادةٍ غامرة.

عرفتُ حقيقة فرقة العمال المصرية قبل أن أعرف اسمها، ذلك أن جدي المباشر **محمد مجاهد إبراهيم** ذهب في شبابه إلى مارسيليا في فرنسا وإلى مكانٍ ما في تركيا للعمل في نحت الحجر، وأعلم أنه أصيب برصاصة استقرت في أعلى ظهره لم تخرج منه قط وسببت له انحناءةً دائمة كما أنه فقد إحدى عينيه. لم يحكِ جدي أمامي سوى واقعة واحدة حدثت في ذلك المكان والزمان البعيدين وهي أنه نجح في فلق صخرة ضخمة إلى نصفين بضربة واحدة من «الشاحوطة»[٢] وكوفئ على ذلك «بحُق نشوق» وتربيتةٍ على كتفه وكلمة تشجيع من الضابط الإنجليزي «جود، جود!» مع نظرة إعجاب منه ومن بقية العمال. تضاعف ارتباطي بالكتاب حين عرفت أن حكاية جدي لم تكن حكاية عجائز، بل تاريخًا حيًا إذ نعرف من الكتاب أن مسابقات العمل والرياضة والغناء كانت شائعة في معسكرات فرقة العمال وكان نجاح جدي في فلق الحجر في إطار مسابقة من بين هذه المسابقات.

ويلزم هنا التنبيه إلى أن أغلب الوثائق وأوثقها تقول إن ذلك التنظيم الذي جمع العمال المصريين كان اسمه **فرقة العمال المصرية** كما سمينا هذا الكتاب، وليس فيلق العمال المصريين. وإن تسميتها بـ «الفيلق المصري» أو «فيلق الأشغال المصري» أو «فيلق العمل المصري» لدلالةٌ على قلة التحقيق والتدقيق؛ إذ إن هذه التسمية الأخيرة لم تبدأ في الظهور إلا في الترجمة الرسمية لتقرير ملنر التي صدرت عن قلم المطبوعات المصري، ونُشِرت في الصحف المصرية في يوم الحادي والعشرين من فبراير من عام ١٩٢١. ويبدو أن كل من جاء بعدها ممن ذكر هذا الاسم قد استمده منها.

إن اسم الفرقة الأصلي والوارد في كل الوثائق البريطانية الرسمية وغير الرسمية هو الاسم الإنجليزي (Egyptian Labor Corps)، ولم نقع على الكثير من الوثائق الرسمية التي

---

[٢] أداة لكسر الحجر وتسويته لها رأس حديدي مزدوج مسنن من الطرفين بأسنان كالتروس.

ترجع للحكومة المصرية بها ذكرٌ مباشر وصريح لاسم الفرقة، ووقعنا فحسب على مرسوم سلطاني صدر عن السلطان فؤاد الأول بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩١٧م نُشر نصه في جريدة الأفكار بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٧، بإعفاء كل من تطوع لمدة عام بلا انقطاع في الفرقة من الخدمة العسكرية، جاء فيه: «يُعفى من الالتزام بهذه الخدمة إذا تطوع وخدم بلا انقطاع مدة عام كامل بفرقة العمال المصرية».

وكذلك الأمر عند مراجعة أعداد جريدة الأهرام وبعض أعداد جريدة المقطم والأفكار والأهالي في الفترة بين عامي ١٩١٥ و ١٩٢٠م، وبعض الكتابات الفكرية المعاصرة للفرقة والتالية عليها؛ إذ نطمئن إلى أن الاسم الذي شاع للفرقة في الصحافة وبين الناس في هذه الفترة هو «فرقة العمال المصرية» أو «فرقة العمال المصريون»، وهو الاسم الذي ورد في أكثر من تقرير مختلف المصدر، كأن يكون تقريرًا عسكريًا رسميًا أو قرارًا سلطانيًا أو خبرًا أو تقريرًا صحفيًا. ووردت مرةً واحدة كلٌ من مسميات «فرقة الفَعَلة» و «فرقة العَمَلة» و «قسم الأشغال المصري».

أما الواقعة الثانية أنني عرفت من الكتاب استدلالًا كيف التحق محمد مجاهد بفرقة العمال؛ فقد التحق بها تعاقدًا عن طريق عبد الحميد الذي أجرت مجلة روز اليوسف الحوار الشهير الوحيد معه، وأكاد أجزم بل أجزم أن الرجلين كانا معًا وكانا صديقين. يقول عبد الحميد إنه «ابن الخارطة الجديدة» وجدي ابن «عرب اليسار» وكان الحيان متلاصقين قبل أن يفصلهما طريق صلاح سالم. ولا يمكن أن يكون الرجلان في سن واحد ومهنة واحدة -نحّات حجر- وحي واحد ولهما تجربة السفر نفسها في الحرب العالمية الأولى ولم يكونا صديقين ورفيقي عمل وسفر.

أراد المؤلف أن يفهم تجربته الشخصية في الحياة والعمل في مصر، وأنا أردت أن أعرف جزءًا مهمًا من تاريخ عائلتي ووطني.

وفيما يلي خواطر عن مواضع وأفكار كان لها تأثير كبير عليَّ شخصيًا وعلى بنية سردية الكتاب، لكنها ليست بحال محاولة لتلخيص الأفكار ولا البنية لأن المؤلف أدى هذا الدور أداءً يستحق عليه كل الشكر.

كان في كلمة إهداء الكتاب استحضارٌ لمن غُيِّبوا في المسارد التاريخية شرقًا وغربًا لأنهم لم يكونوا من البيض ولا من حملة السلاح؛ فقد كانوا يحملون كل شيء إلا السلاح. كان رجال فرقة العمال يحملون الفؤوس وغيرها مما يستخدم في الحفر والتعمير والبناء والحمل وهي الأعمال «المطلوبة» من الآلاف المذكورين في الإهداء بجِمالهم وخيولهم

وغيرها. وهذا الإهداء يشبه كلمة التقديم التي تسبق العروض أو النصوص المسرحية، ولن يختلف قارئان للكتاب على أن «العرض» الذي تمثله فصول الكتاب سينبذ الأبطال المعروفين، ويتولى عن خشبة المسرح المعتادة ويأتي بعمال المسرح بكل صنوفهم ويجعلهم أبطال العرض. إن عمل هذا الكتاب هو جمع أشتات كل من عملوا في دراما الحرب العالمية الأولى؛ فيتتبع رحلتهم من بلادهم ويدخل معسكراتهم، ويتلمس في فضاء المعسكرات والفن والفرق والمستشفيات أصواتَهم الضائعة.

ومن اللافت أن من قام بعملية جمع المادة العلمية التي بنى منها وبها المؤلف سرديته، وبعث مشهد الحرب المرئي والصوتي، أغلبهم أوروبيون دفعهم الفضول التاريخي والرغبة في مراجعة الرواية التاريخية الأوروبية المتوارثة المليئة بالثقوب حتى كادت تفقد مصداقيتها. فكان بحثهم خارج ميدان المعركة، وكانت النتيجة تبديل عناصر الصورة بين المقدمة والخلفية وما يتبع ذلك من ذروة الانتقال عبر خط اللون. فالمشهد الأمامي المعتاد أبيضُ يخالطه لون الدم وصوت الرصاص والقذائف، والخلفية أغلبها سمراء لا تخلو من دماء سببها رصاص «الأعداء»، أي من على الجانب الآخر، ورصاص من أتوا بهم ليعاونوهم على كسب الحرب؛ لكنهم لم يعدوهم منهم قط، وكان لون التراب المختلط بالعرق اللون السائد على وجوه وأجساد من استُجلبوا طوعًا أو كرهًا ليبنوا مسرح الحرب ولا يُذكر لهم فيها دور.

هدف الكتاب، كما يصرِّح مؤلفه، هو توثيق تجربة رجال فرقة العمال المصرية في الحرب العالمية الأولى؛ لأنها من المساحات الفارغة في سجلات الحرب، إذ «لم يكن لدى غالب الكتاب والقراء من الجمهور الناطق بالإنجليزية اهتمام يذكر بقصص رجال غير بيض يعملون وراء خطوط الجبهة في الوقت الذي يعود فيه رجالهم إلى الوطن يلفهم المجد». وعبارة «غير بيض» من أهم مفاتيح بناء الكتاب وأدواته التحليلية والتفسيرية. ذلك أن «العرق أهم عدسة تحليلية نظر بها المتابعون المعاصرون إلى فرقة العمال»، ويوازيها في الأهمية عبارة «الأجناس التابعة»، التي تحمل دلالات سياسية تستند إلى مزاعم علمية تسوِّغ التراتبية السياسية، وهي مستمدة مباشرة من مذهب التطور الدارويني.

أما المترتبات على تحويل خط اللون الذي يميز بين البيض جنودًا وضباطًا وأطباء وغيرهم، وبين حملة الفؤوس والمقاطف السمر؛ فهو الحق في المعاملة الإنسانية التي تبدأ بقرار المشاركة في الحرب، وهو ما يبرز في أكثر من فصل من فصول الكتاب، كما تبين العناوين، ولاسيما «السخرة الجديدة» و«العبودية لا أرضاها» و«العرق والفضاء في

معسكرات فرقة العمال المصرية». فإن تغريب المصريين بوصفهم من جنس آخر يسوِّغ للبريطانيين إكراههم على المشاركة في الحرب، وتكليفهم بأعمال فوق طاقتهم مع قلة الطعام والتجهيزات، وأدناها عدم توفر أحذية تَقِيهم قسوة الصخور الحادة والرمال الحارقة. ومن عجبٍ أن يعبِّر المصريون عن هذا بعبارة لم أكن أعرف أصلها قبل قراءة هذا الكتاب، وهي عبارة «من الدار إلى النار»، التي اخترتها ترجمة بديلة لعبارة «من الوطن إلى الجبهة»؛ ولو أنني لا أجد دليلًا على هذا سوى حدسي اللغوي وما سمعته من جدتي من أنهم أخذوا زوجها من «الدار إلى النار».

يترتب على ذلك أيضًا فرض تفسيرات عنصرية على السلوك الإنساني الطبيعي بصرف النظر عن اللون والجنس؛ ومن ذلك تفسير البريطانيين يأسَ الرجال وتفضيل الموت على العمل بلا تقدير ولا مقابل ولا ضرورات الحياة بأنه «قَدَرية شرقية» ولعله يقصد جبرية، وهي واحدة من ترسانة الأدوات التفسيرية المفضَّلة لوضع «الأجناس التابعة» في إطار ينفي الفردية وينفي الخصوصية التاريخية والثقافية لأي موقف، وهي ترسانة التصورات الاستشراقية الاستعمارية. ومن أدوات هذه الترسانة تصوير المقهور بصورة المتعصب الجاهل الماكر وجعل منظومة الصفات القادحة هذه في إطار «النوازع الشرقية» التي تتجاوز التاريخ والجغرافيا والسياسة والنشأة الفردية. ومن أطرف ما يُذكر في الكتاب في هذا الصدد تسويغ الضباط الإنجليز عدم تزويد العمال بالأحذية تسويغًا بيولوجيًا داروينيًا فيقول أحدهم إن «طول اعتيادهم [أي العمال المصريين] الحفاء جعل باطن أقدامهم سميكة كالجلد المدبوغ».

لن يفوت قارئ الكتاب ملاحظة نسق المفارقات الذي يرصده المؤلف ويبني عليه روايته الجديدة، وكلها مفارقات ترتبط ارتباطًا وثيقًا بصورة مسرح الحرب وأبطالها وعمال المسرح أو أدواته، والمقارنة بين تمثيل الطرفين هي أهم مصادر هذه المفارقات. فهذا اللورد كرومر يفاخر بأن إلغاء السخرة من أهم منجزاته ومنجزات الإمبراطورية؛ وحين لا يجد ما يكفي من «متطوعين» أو «متعاقدين»، يفرض نظام السخرة ولا يجد في ذلك شيئًا من تناقض. ومن أطرف ما يذكر في هذا الكتاب أن هذه السخرة طالت المصريين وبهائمهم وجِمالهم؛ فتذكر تقارير فرقة الجمَّالة أن الجمال المصرية كانت تقاوم ذلك التجنيد الإجباري فتعصي الأوامر وتعض الجمالة عديمي الخبرة أو غير أصحابها. وقد مثَّل عنف الجمال هذا مشكلة كبيرة للبريطانيين؛ لكن ترسانة التصورات الاستشراقية لم تكن كافية لتفسير سلوك الجمال.

لكن أهم المفارقات وأكثرها دلالة هي مفارقة التمثيل؛ فإن ما في يدنا من سجلات دوَّنها العمال نادرة، والمقارنة هنا بين مئات الصفحات التي كتبها الضابط ڤينابلز وثلاث صفحات ونصف كتبها عبد الحميد. للبريطاني صورة فوتوغرافية تصوره شابًا، ولعبد الحميد صورة رسمها رسّام له تصوره شيخًا. ويولِّد هذا مفارقة أكبر وهي أن وصف الحياة داخل معسكرات فرقة العمال لابد أن يأتي من المصدر البريطاني، ومنه يُستخلص المحذوف والمسكوت عنه والمشوَّه.

ومن المفارقات الدالة أيضًا وصف الفرقة بالمصرية، وهو وصف يشير إلى جسد الفرقة أو البلد الذي استجلبت منه وليس الرأس أو القادة. وقد ترتب على هذا فصل عنيف بين الجسد المصري والرأس البريطاني الذي لم يكد يفهم الجسد الذي يحركه.

ومن مظاهر هذا التنافر بين الرأس البريطاني والجسد المصري، غير التفسيرات الاستشراقية، الجهلُ بالثقافة المصرية. وقد حكي هذا في واحد من أمتع فصول الكتاب، وهو الفصل السادس، الذي «يعيد بناء المشهد الصوتي لمعسكرات فرقة العمال المصرية في أثناء الحرب». فنستمع إلى أغانٍ معروفة ومرتجلة؛ لكنها نُقلت إلينا عبر الأذن والقلم الإنجليزيين، وكان على المؤلف تجميع أشتات تلك «الأصوات المفقودة».

ومن أبرز مفارقات الحرب التي يبرزها الكتاب هي ما أسميه مفارقة «الأسير الموالي» التي تفسر عددًا من أشد مشاهد الكتاب عنفًا وإيلامًا، وتمسني أنا شخصيًا، وهي مشاهد قمع تمرد العمال على سوء المعاملة وعلى العمل المتواصل ومنع الإجازات. فقد كان عقاب «الشغب» الرمي بالرصاص بحكم محكمة وبغيرها. ولم تكن هذه هي معاملة الجنود المتظلمين؛ بل معاملة «الأسير الموالي» الذي أبدى شيئًا من الاعتراض؛ فقد أطلق البريطانيون الرصاص على العمال المعترضين ومات منهم عدد كبير وجرح عدد آخر. ولعل الرصاصة التي استقرت في أعلى ظهر محمد مجاهد إبراهيم كانت في حدثٍ كهذا. أما الصوت الذي كان يصاحب إطلاق الرصاص فكان «ستبقون هنا بالقوة يا أولاد الكلاب!». المفارقة الحادة هنا أن البريطانيين أرادوا أن يشيع اسم فرقة العمال «المتطوعين» على اسم الفرقة. وكما تقرأ في الكتاب صدر الحكم بالإعدام على «محمود محمد أحمد» لأنه ضرب إنجليزيًا بالعصا على رأسه ونُفِّذ فيه؛ رغم أن ملابسات الواقعة لا تثبت عليه الاتهام وبرغم أنه ليس جنديًا. أما المفارقة الدالة؛ فهي أن تلك المظاهرات في المعسكرات كانت متزامنة مع المظاهرات التي اجتاحت مصر في عام ١٩١٩. وكانت هذه فرصة لتحليل ذكي يقدمه المؤلف لعلاقة فرقة العمال بالثورة، اختلفنا معه أو اتفقنا، وعلاقتها

بالحياة السياسية في مصر، وظهور حزب الوفد وتغير خارطة السياسة المصرية، وهو موضوع يستحق جهود الباحثين في تاريخ الحركة الوطنية في مصر، وتستحق حتمًا أن يكون مدخلًا جديدًا يعيد ترتيب الأدوار؛ بل ترتيب المشهد التاريخي برمته.

شكري مجاهد

حفيد **محمد مجاهد إبراهيم**

نحات الحجر بفرقة العمال المصرية

القاهرة – ١١ أبريل ٢٠٢٣

قائمة الاختصارات

فيلق خدمات الجيش	ASC
فرقة النقل بالجمال	CTC
التجريدة المصرية	EEF
فرقة العمال المصرية	ELC
سكك حديد مصر	ESR
المحكمة العسكرية الميدانية	FGCM
فرقة الهجّانة المعينين	HCT
إدارة النقل الملكية الأسترالية	HMAT
المفوضية الإمبراطورية لمقابر الحرب	IWGC
حملة البحر المتوسط	MEF
ضابط صف	NCO
إدارة أراضي العدو المحتلة	OETA
سلاح الجو الملكي	RAF
الفيلق الطبي الملكي البريطاني	RAMC
فيلق المدفعية الملكي البريطاني	RAOC

تنويه عن النص الإنجليزي

لقد نقلتُ الكلمات المكتوبة بالعربية الفصحى الحديثة صوتيًا وفقًا لنظام المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط (IJMES). وقد حذفتُ علامات التشكيل من أسماء الأعلام والألقاب. أما الشخصيات التاريخية التي شاع لها نقلٌ صوتي في الإنجليزية، فأضفته بين هلالين. وأما العامية المصرية فقد نقلتها صوتيًا وفقًا لصيغةٍ معدلة من نظام المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، إذ أستخدمُ (g) بدل (j)، و(s) محل (t)، وأحيانًا تتحول القاف إلى همزة.

شكرٌ وتقدير

قال مايلز ديفيز ذات مرة «ربما يمر على الواحد منّا زمنٌ طويل؛ حتى يجد الصوت الذي يعبِّر عنه». ولقد وقعتُ على الموضوعات الواردة في كتابنا هذا منذ سنوات طويلة، ولم أبدأ الكتابة حتى ميزتُ ما يستحق الإبراز منها فيما أرجو. وعاونني في رحلة الكتابة أناس كثر. فأشكر أولًا مشرفي وأستاذي زياد فهمي، الذي كان أول من عرَّفني بأمر فرقة العمال المصرية. إن تأثيره الفكري بادٍ جلي في هذا الكتاب، أما أهم درس تعلمته منه فهـو أن الأكاديمي المحترف لا يتخلى عن إنسانيته. وساعدنـي كلٌّ من ديبـورا سـتار (Deborah Starr) ومصطفى الميناوي أثناء وجودي في جامعة كورنل. وما كان هذا الكتاب ليُنشر إلا بتعاون فريق عمل دار نشر جامعة تكساس، وعلى الأخص جيم بَر (Jim Burr)، وكذلك كانت تعليقات المراجعين المجهولين شديدة النفع؛ وقد ضمَّنتها المخطوطة بطرائق عديدة.

وقد تمكنتُ من إتمام هذا البحث بفضل الدعم السخي الذي قدمته بعض المؤسسات؛ إذ أعطاني مركز ماريو إينودي (Mario Einaudi Center) بجامعة كورنل منحة ميشيل سيكّا (Michele Sicca) لزيارة سجلات المحفوظات القومية في لندن. وقد ساهم مركز البحوث الأمريكي بمصر (ARCE) ومنتدى بحوث العلوم الاجتماعية (SSRC) بتمويلٍ أعانني على وضع بناء القصة. ووفرمركز البحوث الأمريكي لي بيئةً بحثية داعمة في القاهرة، برفقة زملاء منهم نفرتيتي تكلا وزوي جريفيث (Zoe Griffith) وأندرو سايمون (Andrew Simon) ومحرم حنا وجيسون براونلي (Jason Brownlee) ونهى رضوان. وإني مدين كذلك لخالد فهمي ومدام أميرة ومحمد ربيح على مساعدتي في طلبي (المرفوض) لاستخدام دار الكتب والوثائق المصرية، وأشكر لطيفة سالم وأشرف صبري على لقائي بالقاهرة وإرشادي إلى مصادر أوليّة قيمة. وأتقدم بالشكر أيضًا إلى فريق هوى الحرية، ومنهم ليلى سليمان وعالية مسلّم وزينب مجدي على لقائي وتنبيهي إلى مصادر مهمة من الثقافة الشعبية. وقد ساعدني عمرو شعبان عبد الله ونرمين حسن سيد مساعدةً عظيمة في مراحل متعددة طوال عملي على هذا المشروع، إذ منحاني رؤية أعمق للثقافة المصرية ومعها صداقةً دائمة.

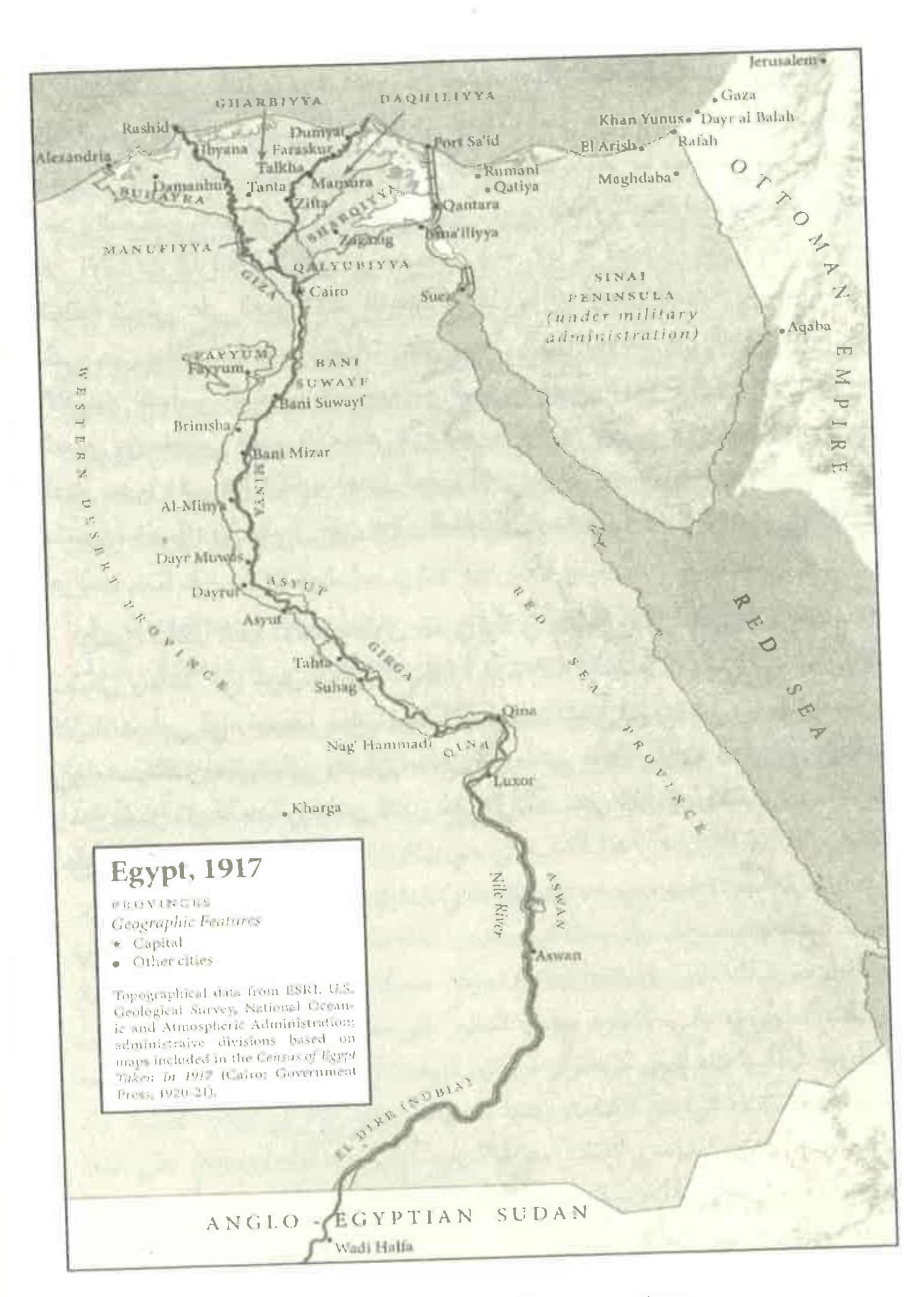
وأدين بالفضل إلى كثير من الزملاء والأصدقاء والمعارف الذين قدموا أشكالًا مختلفة من العون. ففي أول بحثي، كان ناثان براون (Nathan Brown) والراحل إليس جولدبرج (Ellis Goldberg) وجينيفر دِر (Jennifer Derr) وآنا ماجواير (Anna Maguire) وبيتر جران

(Peter Gran) وسانتانو داس (Santanu Das) خير من نظر فيما كتبت قبل النشر. ونظمت إلكا أيكهوف (Elka Eickhof) مجموعة قراءة في المركز الهولندي الفلمنكي بالقاهرة (NVIC) كانت بمنزلة شريان الحياة طوال رحلة بحثي، وكان يحضرها بانتظام كلٌّ من كلير بانيتا (Claire Panetta) وباتريتشيا كوبالا (Patricia Kubala) وإيان ستيل (Ian Steele) وإدنا بونهوم (Edna Bonhomme) ولارا إياد وفريد ي. فريد ويقين عبد المجيد. وقد استفدتُ كثيرًا من التعليقات العميقة والأمثلة الاحترافية التي ضربها زملائي في كلية صني (جامعة ولاية نيويورك) في أولد ويستبري، ومنهم خوان بابلو جالفس (Juan Pablo Galvis) وجودي وَلش (Judy Walsh) وسيلفي كاندي (Sylvie Kande) وجينجيي سونج (Jingyi Song) وخافيير ماريشو (Xavier Marecheaux) وشيلسي شيلدز-ماس (Chelsea Shields-Mas) وروبرت مفيسِن (Robert Mevissen) وكارول كويرك (Carol Quirke). وفي صيف عام ٢٠١٩، نظم نيل كتشلي (Neil Ketchley) ورشةً عن ثورات ما بين الحربين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، والتي مثلت لي منتدىً مهمًا لأطور فيه أفكاري حول ثورة ١٩١٩. وقد أسهم حسين عمر وآرون جيكس (Aaron Jakes) وعلا حريري ودانييل نيب (Daniel Neep) وإلينا فيتساديني (Elena Vezzadini) وكاثرين هولز (Katharine Halls) في إثارة مناقشاتٍ رائعة.

لم أبدأ بحثي وأنا في ذهني أن أكتب كتابًا عن العرق في مصر، لكني وجدتُ عند اطلاعي على المصادر أن العرق هو أهم عدسةٍ تحليلية نظر بها المتابعون المعاصرون إلى فرقة العمال المصرية. وقد كان عملي في حرم أولد ويستبري بجامعة ولاية نيويورك، وكتابتي الصيغة الأولى من هذا الكتاب في حي بيدفورد-ستايفسنت (بيد-ستوي) في أوج اشتعال حركة «حياة السود مهمة» (Black Lives Matter)، كانا معًا بيئةً مثالية لسبر غور قضايا العرق والعنصرية. وقد بدأتُ في حضور حلقة بحث طلاب الدراسات العليا التي تعدها الدكتورة لانا باربر (Llana Barber) بعنوان «حركات العدالة الاجتماعية في تاريخ الولايات المتحدة»، وإني لأشكرها جزيل الشكر على تعليقاتها الناجعة على أجزاءٍ من مخطوطة الكتاب. كما أشكر كريستوفر س. روز (Cristopher S. Rose) على بحوثه المهمة وإسهاماته المتعددة في هذا الكتاب، ومنها الخريطة الموضوعة في صدر الكتاب. وقد ساعدتني صياغتي لملخص الكتاب مع فرانسيس هاسو (Francess Hasso) على شحذ تفكيري. وأود أن أشكر كلًا من إيف تروت-بُول (Eve Troutt-Powell) وجميل أيدِن (Cemil Aydın) وبوب فيتاليس (Bob Vitalis) وأمنية الشاكري ومروة الشاكري، على بحوثهم الرائدة في مجال العرق في مصر الحديثة والشرق الأوسط بشكلٍ عام. فما كان لهذا الكتاب أن يرى النور لولا أعمالهم.

اعتاد المؤرخون التواريَ فيما يكتبون من نصوص، لكن أحد دوافع عملي في هذا الكتاب كان السعي إلى فهم تجربتي الشخصية في الحياة والعمل في مصر. فقد كان من حولي يذكّرونني طوال الوقت بأنني «خواجة» أي أجنبي أبيض، وهو ما سمح لي بالوصول إلى بعض المصادر والمساحات، ومَنَع عني غيرها. ومع ذلك، وأثناء القراءة، واصلتُ التجاوز عن الإشارات العرقية فيما أقرأ من مصادر، ظانًا أنها لا تعدو أن تكون ضوضاء في الخلفية تشوش على العمل الأهم المرتبط بتحليل مواقع العمال الطبقية وقيمهم الثقافية. لكني حين بدأتُ آخذ هذه الإشارات على محمل الجد، تحولت عن المنهج القائم على الاقتصاد السياسي المكتوب للتضامن مع المشروع القومي، وبدأت في ملاحظة التماثل العميق بين مفهومي العرق والأمة في فترة الحرب العالمية الأولى. إن من يختلفون مع هذا النهج سيرون في هذا الكتاب أجنبيًا أبيض آخر يستغل مصادر مصر التاريخية لأجل مكسبٍ شخصي، ولا نعلم إن كان هؤلاء المتشككون سيجدون شيئًا ذا قيمة في هذا الكتاب أم لا.

وأخيرًا، سأظل شديد الامتنان طوال عمري لوالديَّ جانيس وجون، اللذيْن بذلا التضحيات لتعليمي وساعدا في غرس معاني المسئولية الأخلاقية والفضول العلمي في نفسي. وقد كان لدعم أمي لي، تحريريًا وعلميًا وماليًا وعاطفيًا، أهميةً قصوى في بدء هذا المشروع واتمامه. وكانت أختي ويتني وصهري ستيفن إلى جانبي طوال سنوات عملي على الكتاب. وأخيرًا أشكر شريكة حياتي ماجي لَندون على إزكائها حبي للقراءة، وكلبتنا روزي على ما تجلبه في حياتي من بهجة.



خريطة مصر، بإذنٍ من كريستوفر س. روز.

مقدمة

تقبع مقابر أدِنكِرك (Adinkerke) العسكرية بين فرنسا وبلجيكا، في بقعةٍ من الأرض الزراعية شقها في السنوات الأخيرة طريقٌ سريع مزدحم، فأصبح الوصول إليها غير ممكن إلا سيرًا على الأقدام في مسارٍ عشبي طوله خمسون مترًا يعبر الأرض الزراعية المقابلة للطريق السريع. ولا يوحي طنينُ السيارات قرب شواهد القبور القليلة هذه بأن هذا المكان كان في الحرب العالمية الأولى موقعًا لمركز علاجٍ للمصابين. فهنا، فُرِز آلاف الشباب المحمولين من الجبهات القريبة وفق خطورة حالاتهم وقُدِّمت لهم الرعاية. أما تعيسو الحظ منهم الذين لم يتعافوا فقد كُرِّموا بشواهد قبور كلها من أحجار البورتلاند، وهو نوع من الأحجار الجيرية الملساء بُني منها قصر باكنجهام وكاتدرائية سان بول في لندن.

تنتظم مساحة المقابر على شكلٍ يقترب من الطريقة التي تنظم بها خريطة العالم اليوم، أي بالجنسية. فمدخل المقابر يقع في الركن الجنوبي الغربي منها، وعلى اليسار مباشرة تجد طوابيرَ من الشواهد تمتد من الشمال إلى الجنوب لتحيي ذكرى مقتل مئتين واثنين وعشرين (٢٢٢) رجلًا من بريطانيا العظمى وشعوب الإمبراطورية البريطانية وحلفائهم. وإلى الشمال من المكان، تجد مئةً واثنين وأربعين (١٤٢) قبرًا للقوات الألمانية وحلفائها، ومعهم مجموعة فرعية كبيرة من الجنود التشيك، كلها تنتظم في صفوف تمتد من الشرق إلى الغرب.

لكن إن سرتَ إلى الأمام مباشرةً بدل الانعطاف يسارًا، ربما تلاحظ شاهدَ قبرٍ يقف وحيدًا مدسوسًا في الركن الجنوبي الشرقي من المقابر. ويجب عليك الدورانُ كي تقرأ ما عليه، فتجعل وجهك قبالة المدخل الأمامي وظهرك للطريق السريع، لتجد شاهدَ قبر ثابت هارون محمد، وقد توارى في ظل شجرةٍ طويلة مولّيًا وجهه ناحية الشرق. وفي حين تزينت المقابر الأخرى في المكان بالصلبان أو الشارات الوطنية، فإن قبر محمد زُيِّن بكلمات من القرآن هي: «إنا لله وإنا إليه راجعون» كتبت بخط عربي جميل، وتبين أنه المسلم الوحيد المدفون في أدِنكِرك. فمن كان ثابت هارون محمد؟ وكيف سافر من

وطنه حتى شواطئ بلجيكا الشمالية؟ ولمَ يبدو شاهدُ قبره غريبًا في هذا المكانِ المنظَّم حسب الأمم؟



صورة (١): شاهد قبر ثابت هارون محمد. مقابر أدِنكِرك العسكرية، بلجيكا، الثامن من مايو من عام ٢٠١٥م، ويكي ميديا كومونز:

https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Adinkerke_Military_Cemetery04.jpg

للأسف، لا تقدِّم أدلة الوثائق معلوماتٍ كافية لمعرفة سيرة حياة محمد هارون بكثير تفصيل، إذ ربما قضى متأثرًا بجراحه إثر غارةٍ جوية على أرصفة دَنكِرك (Dunkirk) أو كاليه (Calais)، عندما قصف سلاح الجو الألماني مجموعةً من العمال المهاجرين قبل عدة أشهر من وفاته في السادس من سبتمبر من عام ١٩١٧م. أو ربما عمِل في منطقة الجيش الرابع يستخرج نفايات المعادن والذخيرة خلف خطوط القتال في أثناء معركة إيبر الثالثة[١]. لا يمكننا الجزم بأي الرأيين؛ لأن تقارير تسجيل المقبرة، التي تحوي سطورًا كثيرة أو فقرات عن الجنود البيض المدفونين في أدِنكِرك، لا تخبرنا إلا بدرجته العسكرية وتاريخ وفاته، ولم تذكر أية تفاصيل سوى اسم الهيئة التي خدم فيها وهي: «فرقة العمال المصرية»[٢].

كان إحياء ذكرى قتلى القوات التابعة للإمبراطورية البريطانية في الحربين العالميتين من مهام المفوضية الإمبراطورية لمقابر الحرب (IWGC: التي سُمِّيت بمفوضية الكومنولث لمقابر الحرب في عام ١٩٦٠م). وقد وضع مؤسسها فابيان وير (Fabian Ware) المبادئ التي ستسير عليها بعد ذلك. فكتب يقول: «لا بد من أن يحصل الجميع في الموت، من الجنرال وحتى النفر، ومن كل الأعراق والأديان، على تكريمٍ متساوٍ تحت نصب تذكاري»[٣]. كان وير يرى نفسه رائدًا يُرسي احترامًا من نوعٍ جديد للجندي العادي في الجيش البريطاني الذي كان منذ قرنٍ مضى يدفنُ جنود المشاة والحيوانات جميعًا في حفرٍ مفتوحة[٤]. ويسمِّي توماس لاكور (Thomas Laqueur) نمط

---

(١) وصلت السرايا الثانية والخامسة والسادسة والسبعون من فرقة العمال المصرية إلى دنكِرك على بعد عشرين كيلومترًا غرب أدِنكِرك بين شهري مارس ومايو من عام ١٩١٧م. وكانت كاليه، الواقعة على بعد ستين كيلومترًا من أدِنكِرك، هي ثاني أقرب مدينة اشتغل فيها عمال الفرقة المصرية على الأرصفة الفرنسية. إذ وُزِّعت السرايا الحادية والثانية والثالثة والرابعة والثمانون على منطقة الجيش الرابع، واشتركت في إطلاق هجوم برمائي على الألمان في الساحل البلجيكي على بعد عشرين كيلومترًا شرق أدِنكِرك في أثناء معركة إيبر الثالثة.

The National Archives, London, War Office (hereafter cited as TNA, WO) 137/37: «Report on British Labour", November 14, 1919.

(٢) أما التفاصيل المدوَّنة عن الجنود البريطانيين المدفونين في أدِنكِرك فاشتملت على معلومات عن سريتهم وكتيبتهم وسبب موتهم وأقرب أقربائهم ومسقط رأسهم. انظر:

"Index No. B 172, Adinkerke Military Cemetery", *Grave Registration Reports*, Imperial War Graves Commission, from Commonwealth War Graves Commission, accessed August 14, 2018, https://www.cwgc.org/find-war-dead/casualty/164133/sabit -harun-mohamed/

(3) Longworth, *Unending Vigil*, 33.

(4) Barret, "Subalterns at War", 156–176.

التذكر هذا لدى وير بأنه «اسمية تذكارية مفرطة»، ويقصد بذلك النصبَ التذكارية التي صممها على الجبهة الغربية وتضم قوائم طويلةً من أسماء الجنود البريطانيين والهنود[٥].

أما خارج أوروبا، فلم تولِ المفوضية الإمبراطورية مثل هذه الأهمية لأسماء الموتى. فنصُب رجال فرقة العمال المصرية الذين قضوا في فلسطين لا تحوي إلا ألواحًا تذكارية منقوشةً بالإنجليزية والعربية، تذكر فحسب الأعداد الإجمالية للضحايا المدفونين بالقرب منها. فنجد في حيفا لوحةً نصها: «مئة وستة رجال من فرقة العمال المصرية مدفونون قريبًا من هنا»[٦]. وقد توصلت ميشيل باري (Michèle Barret) في دراستها حول مقابر الحرب الاستعمارية في شرق أفريقيا البريطانية إلى أن ما يسمى بمبدأ المعاملة المتساوية الذي اتبعته الدراسات التي عن المفوضية الإمبراطورية لمقابر الحرب قد انتُهِك انتهاكًا مستمرًا في التمييز بين ما سمّاه المسئولون «المقابر البيضاء» ومقابر «الأهالي» الأفارقة[٧]. وكذلك الأمر في حالة فرقة العمال المصرية، إذ يُقدَّر عدد من ماتوا منها في خدمة الإمبراطورية البريطانية في فلسطين بأكثر من عشرة آلاف شخص، لكن وفقًا لسجلات المفوضية الإمبراطورية، لا يوجد في المقابر هناك إلا مئتان وعشرون[٨]. والكثير من رجال الفرقة ممن ماتوا في الحرب لم تُعرف هوياتهم، ورقدوا في مقابر غير معرَّفة. ومن هذا الباب، كان ثابت هارون محمد من المحظوظين، فعلى الأقل حظيتت جثته بدفنٍ وتكريم. فقد كانت المفوضية الإمبراطورية لمقابر الحرب، بل الإمبراطورية البريطانية كلها، تغيِّر قواعدها عندما تنتقل إلى الجانب الآخر من خط اللون العالمي.

فرقة العمال المصرية

يروي هذا الكتاب القصة المنسية لفرقة العمال المصرية. ففي أثناء الحرب العالمية الأولى فرض البريطانيون الأحكام العرفية في مصر، وجنَّدوا ما يقرب من نصف مليون شاب من أمثال ثابت هارون محمد، كان غالبهم من الريف وجُنِّد كثير منهم بالقوة، وذلك ليشتغلوا عمالًا عسكريين في أوروبا والشرق الأوسط. فاشتغلوا بالشحن والتفريغ على أرصفة فرنسا وإيطاليا، وحفروا خنادق في غاليبولي، وساقوا الجمال المحمَّلة بالمؤن في صحاري ليبيا والسودان وسيناء، وأدوا دورًا شرطيًا لفرض النظام بين سكان بغداد المحتلة ومثّلوا أغلب قوام قوات العمال العسكرية[٩] في أثناء التقدم

---

(5) Laqueur, "Memory and Naming", 150–167.

(6) Fuchs, "Sites of Memory.

(7) Barret, "Subalterns at War", 158.

(8) Fuchs, "Sites of Memory", 8.

(9) Ruiz, "Manly Spectacles."

عبر فلسطين ونحو سوريا التي كانت ثاني أكبر مسرحٍ للحرب. لقد أنشأت فرقة العمال العسكرية مئات الأميال من خطوط السكك الحديدية وأنابيب المياه الواصلة بين مصر وفلسطين، والتي أصبحت أساس البنية التحتية للإمبراطورية البريطانية طوال جيلٍ بعد ذلك.

يوثِّق كتاب فرقة العمال المصرية تجربة هؤلاء الرجال في الحرب، ويتتبعهم حتى الثورة المصرية في عام ١٩١٩م. وأهم ما في الأمر أن الكتاب يحلل كيف أثَّر هؤلاء العمال على ما عاصرهم من أفكارٍ حول الهوية العرقية للمصريين، وكيف تأثروا بها. إذا كان العرق عدسةً مهمة نظرت من خلالها السلطات البريطانية والمصرية إلى رجال فرقة العمال، فإن البريطانيين وحلفاءهم كانوا يرون فرقة العمال المصرية جزءًا من «فيلق العمال الملوَّنين»، واشتغل عمال مصر جنبًا إلى جنب عمالٍ من أماكن بعيدة من أمثال الصين وجنوب أفريقيا والهند وفيتنام وجزر الهند الغربية وفيجي[١٠]. وكان ذلك أجلى مثلٍ يرى فيه العالم ما عرفه الأمريكيون الأفارقة لما لا يقل عن جيلٍ كامل باسم «خط اللون». ففي عام ١٨٨١م، استعمل فردريك دوغلاس (Frederick Douglass) المصطلح للإشارة إلى نظام الفصل العنصري في الجنوب الأميركي بعد فشل إعادة الإعمار[١١]، ثم أعاد وليَم دو بوا (W. E. B. Du Bois) صياغته لأول مرة على مستوً عالمي في خطابٍ ألقاه في عام ١٩٠٠م على الأكاديمية الأميركية للزنوج (American Negro Academy) شدد فيه على أن «خط اللون يطوّق العالم و... أن المشكلة الاجتماعية في القرن العشرين ستكون علاقة العالم المتحضر بأعراق البشر الداكنة»[١٢]. وقد احتدت تلك المشكلة العالمية التي شخَّصها دو بوا بعد أقل من عقدين، وذلك بفعل التنقلات الكبرى للعمال المصنَّفين عرقيًا في الحرب العالمية الأولى؛ ومع اشتعال الحرب، قاوم ملايين الناس على الجانب الآخر من خط اللون ذلك التسخير غير المسبوق[١٣].

---

[10] Xu, Strangers; Starling and Lee, *No Labour, No Battle*; Stovall, "Color Line."

[11] Douglass, "The Color Line."

[12] Murphy, Shadowing, 13.

وانظر لأول ظهورٍ لتعبير «خط اللون العالمي»:

Du Bois, *Souls of Black Folk*, 359.

[١٣] انظر عن تمرد سنغافورة في عام ١٩١٥م:

Harper, "Singapore, 1915».

وعن تمرد الفصح في أيرلندا في عام ١٩١٦م، انظر:

McGarry, *The Rising*.



صورة (٢): رجالٌ من فرقة العمال المصرية في شغلٍ على أرصفة مدينة بولون بفرنسا في عام ١٩١٧م. [من] متحف الحرب الإمبراطوري بلندن.

كان منظر الشباب المساقين من قراهم للعمل في الخارج، وكانوا غالبًا مربوطين معًا بحبلٍ سميك، لا يذكّر سكان مصر في ذلك الوقت إلا بالعبودية. فبحلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان أغلب الرقيق في مصر من بلاد السودان، أي إفريقيا السوداء، وخاصةً الشباب المُسخَّرين منهم في الأعمال الشاقة[١٤]. وقد استمرت العبودية خلسةً حتى بعد إلغائها رسميًا في عام ١٨٧٧م، مع ربطها في الثقافة الشعبية المصرية بسواد البشرة والأصول الأفريقية[١٥]. ولذلك، حينما رأى المصريون المتعلمون من سكان المدن فلاحي الريف – ممن اعتبروهم مستودع الأصالة القومية المصرية[١٦] في حالةٍ

وعن مجزرة أمريتسار (Amritsar) في عام ١٩١٩م وانتفاضات الهند البريطانية الأخرى في الحرب وبعدها، انظر:

Lloyd, *Amritsar Massacre.*

(١٤) وفقًا لكتاب مختارات حديث، «هناك شبه إجماع على ... الربط الشعبي بين لون الأفارقة وأصلهم –أي «السواد» والانتساب إلى أفريقيا جنوب الصحراءوبين مكانة الذليل. والظاهر أن مرد ذلك إلى كون عددٍ كبير من العبيد من الأفارقة جنوب الصحراء».

Cuno and Walz, Race and Slavery, 8.

أما في القاهرة، كان الأغلب هم الإماء السوداوات، انظر:

Walz, "Black Slavery."

أما في ريف مصر، فكان هناك ثلاث حالات يعمل فيها السود المستعبدون في الزراعة: في عزب عائلة محمد علي المالكة أو من أقطعتهم الأراضي، وفي تشغيل خزانات المياه في مدينة إسنا في الصعيد، وفي القرى ومزارع القطن بدلتا النيل. انظر:

Cuno, "African Slaves."

(15) Troutt-Powell, *A Different Shade.*

(16) Gasper, *Power of Representation.*

تشبه العبودية، أدركوا كيف أن المصريين يُصنَّفون عرقيًا في الحرب بأنهم «ملوَّنون». وأنا أرى أن ثورة عام ١٩١٩م كانت، من بين ما كانت، محاولةً مقابلة لصياغةِ مفهومٍ مختلف عن الهوية العرقية المصرية، والتي أسميها القومية العرقية.



صورة (٣): رجلان يقودان جملًا للإسعاف في العريش في عام ١٩١٧م. [من] متحف الحرب الإمبراطوري بلندن.



صورة (٤): رجال من فرقة العمال المصرية يفرغون [شحنة] فحم فى بيروت فى عام ١٩١٨م. [من] متحف الحرب الإمبراطورى بلندن



صورة (٥): سرية من فرقة العمال المصرية في مدينة بولون بفرنسا في عام ١٩١٧م. [من] متحف الحرب الإمبراطوري بلندن.

رواية قصة فرقة العمال المصرية

من اللافت للانتباه ذاك الحجم الهائل لجهود تجنيد فرقة العمال المصرية، التي انتهت إلى تجنيد ما يقرب من أربعة في المئة (٤%) من السكان، وأثَّرت على الكثيرين غيرهم تأثيرًا غير مباشر[١٧]. لكن الأشد إثارةً للدهشة هو الحدُ الذي وصل إليه نسيان هذه القصة اليوم. يمكننا عزو جزءٍ من ذلك إلى الإخفاء المتعمد للمصادر، إذ منعت الرقابة البريطانية القاسية على الصحافة المصرية في أثناء الحرب أيَ تغطية لفرقة العمال غير متحيزة للرؤية البريطانية. ولم يكن لدى غالب الكتاب والقراء من الجمهور الناطق بالإنجليزية اهتمامٌ يُذكر بقصص رجالٍ غير بيض يعملون وراء خطوط الجبهة في الوقت الذي يعود فيه «جنودهم *Tommies*» إلى الوطن يلفهم المجد. ونجد أحد المراسلين في جريدة سيدني مورننغ هيرالد (Sydney Morning Herald) قد سمَّى فرقة العمال المصرية «جيشًا خلف الجيش المقاتل ... لا يحظى بالأضواء ... ولا المجد... وبالكاد يُشكرون على كل أعمالهم»[١٨]. وانتقل جهل المتابعين المعاصرين [هذا] إلى

---

[١٧] اقترب سكان مصر في تعداد عام ١٩١٧م من اثني عشر مليونًا وسبعمئة ألف نسمة. انظر:
Khalifa, Population, 3.

[18] «Behind the Lines", *Sydney Morning Herald*, November 2, 1916, 6.

الذاكرة الشعبية، بل لم تكد فرقة العمال تُذكر في سيل الحلقات الإذاعية والعروض المتحفية والوثائقيات والفعاليات التي تحتفل بالذكرى المئوية «للحرب العالمية الكونية الأولى»[١٩].

وقد بدأ المؤرخون في العقد الماضي في الانتباه لفرقة العمال المصرية، فذُكرت في كتابات تتعلق بتموين الجيش البريطاني وعماله[٢٠]، وكتب ماريو رويز (Mario Ruiz) مقالةً عن استعمال صورهم في جهود الدعاية البريطانية[٢١]، وكتبت عالية مسلّم مؤخرًا مقالاتٍ بالعربية والإنجليزية عن تجارب رجال فرقة العمال المصرية في الخارج وحتى ثورة عام ١٩١٩م[٢٢]. ويجمع كتاب فرقة العمال المصرية هذه المصادر وغيرها في أول دراسة في حجم كتاب عن فرقة العمال بين عامي ١٩١٤ و١٩١٩م.

إن الجهل بفرقة العمال المصرية اليوم يرجع أيضًا إلى توجهات التأريخ. فمؤرخو مصر الحديثة رأوا طويلًا أن فترة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين شكّلتها قوتان متنافستان هما الإمبراطورية البريطانية والدولة القومية المصرية الناشئة. فالباحثون الذين ينصب اهتمامهم على دراسة الإمبريالية البريطانية غالبًا لا يجدون لمصر دورًا يعدو كونها مورد المواد الخام مثل القطن [٢٣]. وكانت دراسات الرأسمالية العالمية وعلاقتها بالإمبريالية والقومية حاضرة حضورًا بارزًا في هذه الكتابات، وغالبًا

---

(١٩) نشطت هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) للغاية في الاحتفاء بجيوش المستعمرات التي خدمت في الحرب العالمية الأولى، لكن نادرًا ما ذُكرت فرقة العمال المصرية في أي من برامجها. انظر:

The World's War, Soldiers of Empire, and The War That Changed.

وكذلك تجاهلت قناة الجزيرة فرقة العمال في فيلمها الوثائقي المكوَّن من ثلاثة أجزاء: «الحرب العالمية الأولى في عيون العرب».

(20) Ulrichsen, *Logistics and Politics*; Starling and Lee, *No Labour, No Battle*.

(21) Ruiz, "Photography."

(22) Mossallam, "Strikes, Riots, and Laughter,"; Mossallam, "Ya Aziz 'Aini,"

عالية مسلم، الوجه الآخر لثورة ١٩١٩ المصريّة: ثورة فلّاحي الهماميّة.

(23) Owen, *Cotton and the Egyptian Economy*; 'Abbas and El-Dessouky, The Large Landowning Class

[ترجم المؤلفان الكتاب إلى العربية بعنوان «كبار الملاك والفلاحين في مصر» [المترجمان]؛ علي بركات، تطور الملكية الزراعية في مصر وأثره على الحركة السياسية ١٨١٣-١٩١٤م؛

Mitchell, *Colonising Egypt*; Mitchell, *Rule of Experts*

[صدر الكتابان بالعربية على الترتيب بعنوان «استعمار مصر» بترجمة بشير السباعي وأحمد حسان و«حكم الخبراء» بترجمة بشير السباعي وشريف يونس] [المترجمان]؛

Derr, *The Lived Nile*.

ما رُويت قصة العمال في مصر بوصفها حكاية تشكل «طبقة عاملة وطنية»[٢٤]. أما دور مصر المهم بوصفها قاعدةً عسكرية بريطانية، والعلاقة بين البنى التحتية للحرب والتجارة[٢٥] فلم يحصلا بعدُ على التقدير الكافي. ونشأ عن ذلك أن الكثير من مؤرخي الإمبراطورية البريطانية في مصر جعلوا الحرب العالمية الأولى فترةً استثنائية، بما يعني أنها لا يسعها أن تكشف كل تجارب فترة الاحتلال[٢٦].

وفي الوقت عينه، كانت الحرب لدى المؤرخين القوميين المصريين من أمثال عبد الرحمن الرافعي مقدمةً لتطورٍ أهم، ألا وهو ثورة عام ١٩١٩م، إذ كانت تلك هي اللحظة التي توحَّد فيها المصريون ليعبِّروا عن «فضل الشعب»[٢٧]. ووفقَ التأويل القومي، كان أهم أثرٍ لفرقة العمال المصرية أنها ساعدت عمال الريف وفلاحيه أن يدركوا «هويتهم الحقيقية» بوصفهم مصريين[٢٨]. وبهذا المعنى، كانت فرقة العمال المصرية «شظيةً» من شظايا الأمة، بتعبير بارثا تشاترجي (Partha Chatterjee)، مؤرخ الهند في عهد الاستعمار. ومن ثم، رُويت قصتهم بقدر ما يناسب نشأة كيان قومي متجانس. ويقول تشاترجي إنه يبقى على عاتق المؤرخين استعادة تفرد هذه الشظايا التي لا يمكن دومًا اختزال مخيلاتها وأشكال تضامنها في مفهوم القومية[٢٩].

---

(24) Beinin and Lockman, *Workers on the Nile*.

(25) Cowen, *Deadly Life of Logistics*.

(٢٦) نجد لدى روبرت تيجنور (Robert Tignor) مثالًا على ذلك، إذ يغفل كتابه ذو المجلدين عن تاريخ النفوذ البريطاني في مصر فترة ما بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨م كلها.
انظر:

Tignor, *Modernization*, and Tignor, *State*.

أما بينِن (Beinin) ولوكمان (Lockman) فيقفزان من الفصل الخامس «النشاط العمالي ١٨٩٩-١٩١٤م» إلى الفصل السادس «١٩١٩: انتفاضة عمالية وثورة وطنية»، ويتناولان الحرب العالمية الأولى في صفحتين ويذكران فرقة العمال المصرية في جملةٍ واحدة. انظر:

Beinin and Lockman, *Workers on the Nile*.

(٢٧) عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١م، ص١٧.

(٢٨) كتبت لطيفة سالم عن فرقة العمال المصرية قائلة: «كانت رحلة عودة هؤلاء -لمن كُتبت له العودة- أصعب من الرحيل، امتلأت بالعذاب والمشقة واللهفة والحنين لأرض الوطن بعد ذلك الحرمان الطويل والغربة القاسية التي انعكست فيما رددوه من كلماتٍ فاضت بالشوق والحب لمصر». انظر لطيفة سالم، مصر في الحرب، ص٢٦٤. وقالت قبل ذلك عن تجنيدهم: «لم يجذب [الفلاحَ المصري] للعمل في الجيش أيُ شعور وطني». لطيفة سالم، مصر في الحرب، ص٢٤٨.

(٢٩) يقول تشاترجي إن «المسألة ... لم تعد مسألة ... تفكيك المزاعم الشمولية في التأريخ القومي. بل أصبحت المهمة الآن هي تتبع الأشكال المحددة التي ظهرت في المجال الذي حدده مشروع الحداثة القومية الساعي للهيمنة، وفي حالات المقاومة المتشظية لهذا المشروع التطبيعي، وذلك في إطار تاريخيتهم المشروطة شرطًا متبادلًا».

إذا كانت المؤسسة التاريخية قد تجاهلت المشاركين في فرقة العمال أو تغافلت عنهم، فقد احتفظت الثقافة الشعبية، ومنها الأغاني والروايات والأفلام، بذكرياتهم. فنجد أغنية سيد درويش «سالمة يا سلامة» (١٩١٨م) تسرد تجارب فرقة العمال المصرية على الجماهير، وكذلك تُليت قصص الحواديت في جميع أنحاء الريف وكانت أحيانًا كل ما تبقى من أخبار لدى العائلة عن أحبابهم الذين أرسِلوا للخدمة [في الفرقة][٣٠]. ومع مرور الزمن، صوّرت روايات من قبيل بين القصرين (١٩٥٦م) لنجيب محفوظ، وأفلام من مثيل سيد درويش (١٩٦٦م) لأحمد بدرخان، مشاهدَ لرجالٍ يُجنَّدون في فرقة العمال في الحرب العالمية الأولى. وفي التسعينيات، حفظ كتابا مذكرات قرية (١٩٩٦م) لعصمت سيف الدولة، والفيلق (١٩٩٩م) لأمين عز الدين، ذكرى فرقة العمال لجيلٍ جديد[٣١]. ونواجه في هذا الكتاب مرارًا وتكرارًا الفجوة بين الذاكرة الرسمية والثقافة الشعبية، فكما يبيِّن الفصل السادس، كان رجال فرقة العمال المصرية يشغلون المساحات حولهم بأصوات الموسيقى والمسرح والكلام ليعينوا أنفسهم على تحمل ظروف الحرب القاسية، وعاشت ذكرياتهم عبر الكثير من هذه الوسائط نفسها.

شهدت الذكرى المئوية للحرب العالمية الأولى فورانًا في الاحتفالات العامة بفرقة العمال في مصر. ففي الفترة بين عامي ٢٠١٣ و٢٠١٧م، كان هناك أكثر من فعالية رسمية تحتفل «بإسهامات مصر في الحرب العالمية الأولى»، جاء في أغلبها بعضُ ذكرٍ لفرقة العمال المصرية[٣٢]. وفي هذه الفترة، خرج على شاشات التلفاز رجلٌ من الإسكندرية يُدعى أشرف صبري، مُدعيًا أنه باحث في التاريخ، وروى نسخته من قصص العمال. ففي مارس من عام ٢٠١٦م، تحدث على قناة أون تي في المصرية عن مجموعةٍ من الصور والمقاطع المصورة لفرقة العمال، قائلًا:

«دول كانوا شعبنا ... في أسبوعين بس، ما كانش يقدروا يبقوا جنود بالشكل ده، لكن تحت جلد كل واحد مننا مصري جندي فعلًا. من أيام الفراعنة احنا نتوارث هذه الجندية»[٣٣].

Chatterjee, *The Nation*, 13.

(٣٠) أمين عز الدين، **أول دراسة عن سبب هام من أسباب ثورة ١٩١٩**، مجلة المصور، مارس ١٩٦٩.

(٣١) عصمت سيف الدولة، **مشايخ جبل البداري**؛ أمين عز الدين، **الفيلق**.

(32) K. Fahmy, "The Great Theft."

[ترجم المؤلف الدكتور خالد فهمي هذه الدراسة ونشرها في مجلة بدايات في العددين ٢٣-٢٤ لعام ٢٠١٩ بعنوان «السطو على التاريخ: الجيش المصريّ في الحرب العالميّة الأولى»، وهي متوفرة على الرابط: https://bidayatmag.com/node/1050؛ تاريخ الدخول: ١-١٠-٢٠٢٢م –المترجمان]

(33) «Sabah ON", YouTube, accessed May 18, 2016, https://www.youtube.com/watch?v=QIZRaB-Swwo.

[غُيِّرت إعدادات الحلقة المذكورة على اليوتيوب، فلم يعد ممكنًا مشاهدتها، فاعتمدنا على نقل المؤلف لنصها –المترجمان]

كان ارتباط صبري بنسخةٍ عسكرية من القومية المصرية أمرًا جليًا، لكن وصفه فرقة العمال المصرية بأنها «إسهام الجيش المصري في الحرب العالمية الأولى» لا يتسق والأدبيات التاريخية. فالجيش الإنجليزي المصري في ذلك الوقت لم تُنشر قواته إلا في دارفور، أما فرقة العمال فكانت كيانًا منفصلًا بُعث إلى أوروبا والشرق الأوسط، ولم يشترك في أي قتال مباشرةً. ولم يُحمّل المصريون السلاح في ميادين الحرب الكبرى أبدًا، على عكس الجنود الجزائريين الذي جنّدهم الفرنسيون[٣٤]. ومن ثم، يثير العجبَ سماعنا تسمية عمال الفرقة بجنود الجيش المصري، وقد هاجم المؤرخ خالد فهمي بعض مزاعم صبري على التلفزيون المصري[٣٥].

كان موقف صبري من فرقة العمال المصرية في حديثه في مارس من عام ٢٠١٦م يخدم غرضًا سياسيًا واضحًا. فكما أشار فهمي، بعد أن وصلت حكومةٌ عسكريةٌ جديدة إلى السلطة في مصر في أعقاب انتفاضة الفترة بين عامي ٢٠١١ و٢٠١٣م، والمشهورة باسم «الربيع العربي»، اشتد اهتمام أنصار الجيش المصري بتركيب سرديةٍ تربط الجيش بالأمة ربطًا وثيقًا[٣٦]. وباستعمال حالة فرقة العمال دليلًا على الروح العسكرية الكامنة «تحت جلد كل واحد مننا ... من أيام الفراعنة»، يقيم صبري هذا الربط بتوظيف فهمٍ للهوية الجمعية المصرية يشير له الباحثون باسم الفرعونية[٣٧]، وقد اعتمد على مفهومٍ قديم عما يميز المصريين، وذلك بجعل فرقة العمال حلقةً من حلقات سلسلة من الخدمة العسكرية تربط أهل مصر المعاصرين بمن عاشوا فيها منذ ألف عام.

القومية العرقية والتحول المكاني

يشير الفصل الثامن من هذا الكتاب إلى علاقة تاريخية بين فرقة العمال والفرعونية أعمق من مجرد تصادف ذكرهما معًا في خطاب صبري. كانت الفرعونية تشديدًا على

---

(٣٤) شاركت بعض قوات الجيش المصري في الحملات التي قادها البريطانيون ضد العثمانيين على قناة السويس في عام ١٩١٥م، وفي السودان ضد قوات علي بن دينار سلطان دارفور في الفترة بين عامي ١٩١٦ و١٩١٨م. وللمزيد عن الجنود الجزائريين، انظر:

Koller, "Recruitment of Colonial Troops."

(35) K. Fahmy, "The Great Theft";

«أربا بجيش مصر الوطني»، تلفزيون العربي، تاريخ الدخول: ٢٠ مايو ٢٠١٦م: http://www.alaraby.tv/Article/2042.

[الرابط غير متاح حاليًا على موقع القناة، لكنه متاح على الرابط المسجل التالي: https://web.archive.org/web/20151122043711/http://www.alaraby.tv/Article/2042 –المترجمان]

(36) K. Fahmy, "The Great Theft."

(٣٧) انظر:

Wendell, *Evolution*; Reid, *Whose Pharoahs*; Colla, *Conflicted Antiquities*.

جوهر مصر المتفرد في مقابل الجماعات الأخرى التي ارتبطت بها في مخيلة أواخر عهد الإمبراطوريات. وقد حلل المؤرخان إسرائيل جرشوني (Israel Gershoni) وجيمس جانكَوسكي (James Jankowski) كيف ربَط ما سموه بالفرعونية الهوية المصرية بالعالم العثماني/الإسلامي من ناحية، وبالعالم العربي من ناحيةٍ أخرى(٣٨). وكان للحرب العالمية الأولى أهمية في هذا الصدد، إذ قلَّص التفكك النهائي للإمبراطورية العثمانية إمكانيات التماهي مع الخليفة، وألقى دعم البريطانيين للثورة العربية بظلال الشك على القومية العربية. وفي نظر جرشوني وجانكَوسكي، كانت الفرعونية في العشرينيات والثلاثينيات تعبيرًا عن «قومية قطرية» مثَّلت فاصلًا بين هاتين الهويتين المتباعدتين جغرافيًا(٣٩).

لكن جرشوني وجانكَوسكي يتجاهلان فرقة العمال المصرية وتصنيف المصريين عرقيًا في الحرب بوصفهم ملوَّنين، وهذا يغفل جانبًا آخر مهمًا من جوانب الفرعونية بوصفها منطقًا إقصائيًا، ألا وهو تشديدها على السيادة المصرية وأهلية المصريين لحكم الأفارقة السود. إذ يدفعان، مستعيرين نظريات القومية البنائية التي شَهَرها أنتوني ديفيد سميث (Anthony D. Smith)، بأن مجموعةً من المفكرين قد حوَّلوا «عناصر موضوعية

---

(38) Gershoni and Jankowski, *Egypt, Islam, and the Arabs.*

(٣٩) فمثلًا، يقرأ جرشوني وجانكَوسكي في كتابات محمد حسين هيكل في فترة الحرب عبارات التفاخر بـ «وحدة وادي النيل» بوصفها تعبيرًا عن «نظرية قومية قطرية مصرية». انظر:

Gershoni and Jankowski, *Egypt, Islam, and the Arabs*, 36.

لكن كما بيَّنت إيف تروت بُول، تتجاهل هذه القراءة استعمال العبارة لعرض فكرة التفوق العرقي المصري، والأهلية لحكم السودانيين والإثيوبيين السود القاطنين أعلى النهر. انظر:

Troutt-Powell, *A Different Shade*, chap. 4.

يمكننا قراءة كتابات هيكل بوصفها دعوة إلى توسع مأمول في الهوية الجمعية خارج الحدود الضيقة للانتماءات الطائفية والقروية، تحمل دلالةً على أن المصريين أرقى عرقيًا من الأفارقة السود. ووفقًا لجرشوني وجانكَوسكي، فإن هيكل استعار من داعية المذهب الطبيعي الفرنسي إيبولِت أدولف تِن (Hippolyte Adolph Taine) مفهومًا عن العرق قالا عنه إنه «لم يكن بيولوجيًا في المطلق ولا في جزءٍ أساسي منه، ويجب ألا يُربط بما تلاه من نظريات عرقية» انظر:

Gershoni and Jankowski, Egypt, Islam, and the Arabs, 35.

لكن هيكل كتب ما كتب بعد أكثر من خمسين عامًا على نشر عمل تِن، ولم يكن له بد من أن يتأثر بالتيارات الفكرية الوسيطة. وقدَّمت أمنية الشاكري تفسيرًا لكتابات هيكل أكثر انسجامًا مع ديناميات العرقية بوصفها أيديولوجيا في أواخر العهد الإمبراطوري، ووضعت هيكل جنبًا إلى جنب آخرين في قائمة من المفكرين الذين «أنجعوا فزعموا وجود رابطة بيولوجية أو عرقية بين الفراعنة القدماء والمصريين المحدثين». انظر:

El Shakry, Great Social Laboratory, 62.

[وقد ترجم الأستاذ أحمد محمود هذا الكتاب وصدر عن المركز القومي للترجمة بعنوان المعمل الاجتماعي الكبير، في عام ٢٠١٦. –المترجمان]

قائمة خارج الوعي البشري» إلى «أيديولوجيا قومية»(٤٠)، منها «الأرض **والعرق** واللغة والنسب والدين والتاريخ وما إلى ذلك (التوكيد مضاف)»، ويقولان إن هذه «العوامل الطبيعية» هي «مجرد المادة الخام للقومية، أما الوعي والإرادة فهما المحرِّكان المسئولان عن ... تحويل هذه العناصر الموضوعية، وإسباغ معنىً جديدٍ عليها»(٤١). ومن ثم تنتهي هذه العملية، وفقًا لجرشوني وجانكَوسكي، إلى أن «يصبح العرق "أمة"»، وكأن الاثنين مفهومان متنافران، أو أن الثاني يتضمن «قطيعةً معرفية» مع الأول(٤٢).

لكن فكرة وجود عرقٍ مصري متفرد، كما نقول في هذا الكتاب، كانت بمنزلة الأيديولوجيا، والأهم أنها كانت أيديولوجيا تتقاطع بطرقٍ شتى مع القومية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وبحلول فترة الحرب العالمية الأولى، تضمنت أفكار الهوية العرقية المصرية مجموعةً متقلبة من المفاهيم التي نشأت في حوارٍ مع أشكالٍ أخرى من تقسيمات البشر النظرية، منها الدين والطبقة والجنس والعائلة والإمبراطورية والأمة. وكان مما عسَّر على المؤرخين إدراك أثر أفكار العرق على القومية في مصر المصطلحاتُ كثيفة الحمولة المفاهيمية والمرادفاتُ المتعددة المستعملة في المصادر العربية للتعبير عنها، وسيتعمق الفصل الثامن في تفصيل هذا الأمر. لكن ربما مثَّلت سوسيولوجيا إنتاج المعرفة في العالم الأنجلوأميركي عاملًا أكبر، حيث

---

(40) Anthony D. Smith, *Ethnic Origin of Nations.*

(41) Gershoni and Jankowski, *Egypt, Islam, and the Arabs*, vii–viii.

(42) Gershoni and Jankowski, *Egypt, Islam, and the Arabs*, vii–viii.

وقد اشتهر وصف ألتوسير (Althusser) «للقطيعة المعرفية» بين «علمٍ ما والأيديولوجيا النظرية التي كان موضوع معارفها فكرًا« قبل تأسيس العلم». انظر:

Louis Althusser, For Marx (New York: Penguin, 1969), 13.

فالقطيعة إذن هي اللحظة التي يحل فيها العلم محل الخرافات السابقة عليه، ويدرك الناس طبيعة المعضلة التي يواجهونها في الواقع.

ونجد في المعاجم التاريخية أن كلمتي «race» و«nation» لهما معنىً متشابه، لكنهما يرجعان لأصلين مختلفين. فكلمة nation مشتقة من الفعل اللاتيني nasci ومعناه «أن يولد»، وترتبط لدى الرومان بأفكار من نوع القبيلة والتناسل والأصل. انتقل ذلك إلى الفرنسية القديمة في كلمة nacion وحملت معنىً مضافًا عن البلد أو الوطن. كان المعنى اللاتيني القديم من عوامل استعمال لفظ «native» في إنجليزية القرن الخامس عشر للإشارة إلى سكان أمريكا الشمالية الأصليين، في حين أن المعنى الجديد اقتصر على الجماعات السياسية القريبة جغرافيًا. ونجد قراءة ألطف لجرشوني وجانكَوسكي تقول إن المصريين حاولوا تغيير حالتهم من التعامل بوصفهم «natives» أهالي البلاد» إلى أن يصبحوا أبناء «nation أمة» قائمةً بذاتها. لكن هذه القراءة ستتطلب الاعتراف بأن أفكار العرق بنىً معرفية تتغير بتغير أفكار الأمم، وليست «مواد خامًا» تقع «خارج الوعي البشري».

أشارت توني موريسن (Toni Morrison) إلى وجود «عرفٍ يفرض إغفال» العرق وأثره العميق على النظام العالمي الذي نحيا فيه اليوم ومنذ الحرب العالمية الثانية[٤٣].

لقد نشط الكتاب والمفكرون القوميون المصريون من أوائل القرن العشرين في منطقة التداخل بين التعبيرات العلمية العالمية والتراث الإسلامي الذي استعمل مجازات عضوية للتعبير عن «الجسم» الاجتماعي. فحفروا في إطار هذه الحدود النظرية مساحةً لهوية مصرية متفردة تقف في وجه الجماعات الأخرى التي ارتبطت بها في مخيلة أواخر عهد الإمبراطورية، تشمل، في فترة الحرب على الأخص، المسلمين والعرب، و«الملوّنين» عمومًا. فإن أدركنا مفهوم العرق بوصفه تصنيفًا متغيرًا يسبغ معنىً ما على سماتٍ بشرية جسدية معينة، كي يربط الأفراد بطوائف اجتماعية تتكاثر بالتوالد[٤٤]، فيُعقل ساعتها النظر إلى حرص الفرعونية على إبراز النسب البيولوجي بين المصريين القدماء والمحدثين بوصفه نوعًا من القومية العرقية.

وأنا أستخدم تعبير «القومية العرقية» هنا للإشارة إلى أي خطاب قومي يشدد على اعتبار المفاهيم البيولوجية مكوّنات أساسية في تشكيل الهوية القومية. ويصوّر القوميون العرقيون الأمةَ كائنًا حيًا، ويتخيلون العلاقات بين الجماعات القومية الفرعية علاقاتٍ تكافلية، ويقيسون الانتماء والنقاء القوميين بمعايير النسب والأصل. ففي وسط أوروبا وجنوبها الشرقي في الفترة بين عامي ١٩٠٠ و١٩٤٠م، كان الفلاحون يُعدُّون «المستودع العرقي» للأمة، واندمجت القومية العرقية مع علم اليوجينيا (تحسين النسل أو العرق)[٤٥]. وفي تنجانيقا وتنزانيا في عهد الاستعمار في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، قامت القومية العرقية على خطابات راسخة عن «الحضارة» (*ustaarabu* «استعربوا [أن يصبحوا كالعرب]») ولعبت على التآخذ الدلالي بين معنيي العرق والأمة في الكلمة السواحيلية *taifa* (طائفة) لتشدد على هويةٍ أفريقية تعلي شأن الانتساب الأبوي إلى القارة الأفريقية[٤٦]. وأرى ما تراه مروة الشاكري وإيليز كيه برتن (Elise K. Burton)، أن الكلمة العربية **أمة** أصبحت تشير إلى تآخذ مفاهيمي مشابه بين العرق والأمة في مصر، بما عطل قوة العلمنة [الكامنة] في خطابات العنصرية العلمية

(43) Morrison, *Playing in the Dark*; Vitalis, *America's Kingdom*, 16.
(44) Miles, *Racism*, 75.
(45) Weindling and Turda, *Blood and Homeland*.
(46) Brennan, "Realizing Civilization."

الأوروبية وخطابات اليوجينيا، وعسَّر على مؤرخي اليوم تقدير أثر هذه الخطابات على الفكر القومي[٤٧].

لمفهوم العرق أمثلة تضرب في عمق التاريخ وفي سياقاتٍ متعددة[٤٨]، أما الخطاب العالمي عن سيادة البيض فتشكَّل في القرن التاسع عشر؛ رتَّب ذاك الخطابُ شعوب العالم كلها ترتيبًا هرميًا ووضع البيض على رأسهم. وكما بيَّن إيفان هانافورد (Ivan Hannaford)، كان تقسيم البشر إلى جماعاتٍ أساسية من قبيل الشرق والغرب المرحلةَ الأولى من مراحل نشوء فكرة العرق في أوروبا[٤٩]. وقد انتقد إدوارد سعيد في حقل دراسات الشرق الأوسط التمييزَ بين الشرق والغرب انتقادًا ذائع الصيت، إذ هاجم محاولات المستشرقين الأكاديميين في دراساتهم خلق «تمييزٍ أنطولوجي وإبستيمولوجي» بين الذوات الغربية والآخرين الشرقيين[٥٠]. لكن الفترة بين عامي ١٨٧٠ و١٩١٤م مثَّلت «بلوغ فكرة العرق ذروتها»[٥١]. وبحلول ذلك الوقت، حلت محل محاولاتِ المستشرقين النصية تتبعَ الخطوط العامة «للحضارات» المختلفة أشكالُ معرفةٍ أكثر علمية تقوم على مراقبة الأجساد[٥٢]. وكان اشتهار نظرية داروين عن التطور في النصف الثاني من القرن العشرين محرِّكًا أساسيًا نحو هذا التحول، إذ نزل الجنس

---

(٤٧) فوفقًا للشاكري، انتهت عملية ترجمة داروين إلى العربية «إلى تنقية القراءات العنصرية لمناقشات لوبون حول "تطور الأجناس"، وحوَّلتها إلى جدالٍ حول كمال الأمم». انظر:

Elshakry, Reading Darwin, 12; Burton, Genetic Crossroads, 14–15.

[ترجم الأستاذ محمد سعد كامل كتاب مروة الشاكري إلى العربية بعنوان **قراءة داروين في الفكر العربي (١٨٦٠–١٩٥٠)**، وصدر عن مركز نماء للبحوث والدراسات في عام ٢٠١٧. وقد نقلنا عنه ترجمة الأجزاء المنقولة في هذا الكتاب، وأوردنا مكان النقولات في الترجمة العربية. –المترجمان]

(٤٨) تشتق الكلمة الإنجليزية «race» من الكلمة الفرنسية الوسيطة ***race*** التي تعني «صنفًا من الأشخاص أو الحيوانات أو النباتات»، ونجد شواهد لها من القرن السادس عشر مع مترادفات من مثيل ***razza*** الإسبانية، أو ***raza*** البرتغالية. وفي حين يؤكد هواد (Hoad) أنها «مجهولة الأصل»، فإن إرنست كلاين (Ernest Klein) يرجح اشتقاقها من الكلمة العربية رأس، التي تعني «رأس الكائن»، وتحمل كذلك معاني «البداية» أو «الأصل». انظر:

Hoad, *Concise Oxford Dictionary*; Klein, *Klein's Comprehensive*, 613.

وإن صح ترجيح كلاين، فإن ذلك يشدد بمزيدٍ من التأكيد على الجذور العميقة لمفهوم العرق في التراث العربي، وهو ما سأفصِّل في دراسته في الفصل الثامن.

(49) Hannaford, *Race*, 227.

(50) Said, *Orientalism*, 2.

(51) Hannaford, *Race*, 187.

(52) El Shakry, *Great Social Laboratory*, 30.

البشري عن عرش مكانته الخاصة التي شغلها قبل ذلك، واعتُبر العرق البشري صنفًا من أصناف الحيوان التي تجب دراستها علميًا[٥٣].

وقد نشأت العلوم الاجتماعية البريطانية من قبيل الأنثروبولوجيا والجغرافيا البشرية، مترافقةً مع تحولٍ تجاه سياسة حكم المستعمرات حكمًا غير مباشر. إذ أثار تمرد القوات البنغالية في عام ١٨٥٧م شعورًا بخيبة الأمل في المحاولات السابقة لـ «تحضير» الهند البريطانية، مع عداءٍ «لأهالي البلاد ناكري الجميل». وقد أبرزت كارونا مانتينا (Karuna Mantena) أن هاتين النزعتين قد اجتمعتا «فشدَّتا من صلابة التوجهات العرقية نحو غير الأوروبيين» في إنجلترا في العهد الفيكتوري[٥٤]. وغيَّر الحكام الإمبرياليون بعد التمرد من منهجهم؛ إذ حاولوا استعمال معرفتهم التجريبية بمن وصفوا بأهل البلاد، وذلك ليحكموا وفق ما اصطلحوا الآن على تسميته بـ «ثقافة» البلد المستعمَر مهما كان[٥٥]. فنجد أنه بحلول أواخر القرن التاسع عشر، طبَّقت السلطات البريطانية في أماكن منها الهند ومصر أحدث نظريات العلوم الاجتماعية، التي وضعت معارف عن تصنيف الأعراق تصنيفًا مفصَّلًا، تخيلوا أنها ستعينهم على حكم الإمبراطورية على نحو أفضل.

وفي الوقت عينه، وضع محمد علي، العسكري والسياسي العثماني، قواعد هوية مصرية متميزة يمكن تصنيفها عرقيًا. فمحمد علي ولِد في قَوَلة باليونان، وأُرسل مع سريةٍ من الألبان لاسترجاع مصر من نابليون في عام ١٨٠١م. كان منافسوه الأوائل هم المماليك، وهم طبقة من الرقيق الأبيض جُلبوا من القوقاز وظلوا لفترةٍ طويلة صفوة الحكم والعسكرية في مصر. ذبح محمد علي المماليك، لكن النخبة العثمانية المصرية التي تشكلت حول عائلته الملكية ظلت تشتري الرقيق من القوقاز، وخاصة البيض من النساء ممن أصبحن محظياتٍ في حريم النخبة[٥٦].

انخرط محمد علي في مشروع طموح لبناء دولةٍ فأنشأ جيشًا حديثًا عبر سلسلة من الحملات على بلاد السودان، ثم ساعد احتلاله لها على تغييرها تمامًا، وذلك مع مأسسة الرق في مصر. كانت بلاد السودان -وهي تعني بالضبط «بلاد السود» تعني لدى الجغرافيين المسلمين في القرون الوسطى كل الأرض الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء

---

(53) Hannaford, *Race*; Elshakry, *Reading Darwin*.

(54) Mantena, *Alibis*, 5.

(55) Sartori, *Bengal*.

(56) Cuno, *Modernizing Marriage*, 26.

الكبرى(٥٧). كان الرقيق يُجلب من هناك منذ وقتٍ طويل، لكن أشكال العمل التي كانوا يكرهون عليها تضعهم عند طرف سلسلةٍ في طرفها الآخر يقف الأرقاء البيض من أمثال المماليك(٥٨). وفي عام ١٨٢٠م، انتبه محمد علي إلى السودان بوصفها مصدرًا للجنود الطائعين الطيِّعين، وبدأ حملته لغزو البلاد واحتلالها(٥٩)، وأصبحت السودان تحت حكمه مركزًا لتجارة الرقيق، وارتفع عدد العبيد القادمين من وراء الصحراء الكبرى، وازداد تدفقهم من الخرطوم إلى مصر تدفقًا متقطعًا طوال القرن التاسع عشر(٦٠). لكن لمَّا هلك الكثير من العبيد في الرحلة المضنية التي كانت تمتد لأربعين يومًا سيرًا على الأقدام من الخرطوم إلى أسيوط، بدأ محمد علي تجنيد الفلاحين في جيشه. كان هؤلاء الرجال وعائلاتهم هم غالبية سكان مصر. وفي صورته الأخيرة، جمع جيش محمد علي المماليكَ والضباط العثمانيين الأحرار معًا لقيادة الأفارقة السود المسترقين والفلاحين المجندين(٦١).

بحلول عام ١٨٤٠م، اشتد عضد هذا الجيش حتى شكَّل خطرًا حقيقيًا على السلطان العثماني، ونمت إمبراطورية محمد علي لتشمل السودان والحجاز وسوريا. لكن الإمبراطورية البريطانية تدخلت وجردت حملةً صغيرة ضد جيش محمد علي لخوفها من احتمالات التدخل الروسي إن انهار العثمانيون، فقبل محمد علي بعد الحملة بشروط معاهدة لندن التي قلَّصت حجم جيشه وأعادته إلى الحظيرة العثمانية، ولم يخرج إلا بتنازلٍ واحدٍ مهم، ألا وهو أن أي حاكم لمصر العثمانية يجب أن يكون بعد ذلك من نسله الملكي. وأخذت الحكومة المصرية ومستعمرتها في السودان تتميز تحت حكم أسرة محمد علي جيلًا بعد جيل عن بقية الإمبراطورية العثمانية.

وظل البريطانيون في عقود منتصف القرن التاسع عشر في سعيهم وراء التحالف مع العثمانيين، وطُرِحت في ذلك الوقت فكرة التحالف «الإسلامي» بينهما؛ إذ أدركا أنهما يحكمان معًا غالب مسلمي العالم(٦٢). لكن توجه البريطانيين ناحية العثمانيين بدأ في التغير في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر؛ إذ أدت سلسلة من أعمال العنف

---

(57) Troutt-Powell, *Different Shade*, 31.

(58) Toledano, *As if Silent*, 12.

(59) K. Fahmy, *All the Pasha's Men*, 86.

[ترجم شريف يونس الكتاب إلى العربية بعنوان كل رجال الباشا، وصدر عن دار الشروق في عام ٢٠٠١م. – المترجمان]

(60) Cuno and Walz, *Race and Slavery.*

(61) Helal, "Ali's First Army."

(62) Aydin, *Idea of the Muslim World.*

الشديدة ضد الجماعات المسيحية في جبل لبنان إلى ربط الجمهور البريطاني بين العثمانيين وبين «التعصب» الإسلامي[٦٣]. وقد دفع هذا الخطاب نحو نفي التنوع الديني للإمبراطورية العثمانية، واستُبدِل بتاريخ تأكيد الأوروبيين الطويل على أن العثمانيين هم مثال التسامح الاجتماعي، تأكيداتٌ أخرى على أن العثمانيين أشدُّ المسلمين تعصبًا.[٦٤]

أخذ تصوير المسلمين بالتعصب يتخذ شكلًا صريحًا في الاصطلاحات العلمية في فكر القرن التاسع عشر، حتى وصل للذورة فيما أسماه جميل أيدِن (Cemil Aydın) «جعل المسلمين عرقًا»[٦٥]. ربط مفهوم العرق المسلم بين المصريين والعثمانيين وغيرهم من المسلمين في الهند البريطانية، وجمعهم معًا بوصفهم أحد ما سمي في مخيلة الإمبراطورية في أواخر عهدها بالأعراق التابعة. وعندما تحولت سلطات الإمبراطورية عن تحالفها السابق مع العثمانيين ضد روسيا، تغافلت عن دعم الروس الحركات القومية المسيحية في البلقان شمال غرب الإمبراطورية العثمانية في عام ١٨٧٨م. ثم تحالفت في الوقت عينه مع الفرنسيين ألدِّ أعدائهم للجور على الامتيازات المالية الخاصة بالحكومة العثمانية في مصر، وشنوا حربًا أخرى على مصر واحتلوها عسكريًا في عام ١٨٨٢م، كما سنرى تفصيلًا في الفصل الأول من الكتاب. ووفقًا لأيدِن، «تحولت فكرة وحدة العالم الإسلامي، التي برزت أولًا في هيئة تحالف عثماني بريطاني ضد روسيا، إلى أطروحة مناهضةٍ للبريطانيين [وللعنصرية] في أعقاب الغزو البريطاني لمصر»[٦٦].

ومن المفارقات أن يتبع المفكرون العثمانيون مسلمات الفكر العلمي الاجتماعي البريطاني وأن يرفضوا نتائجه، وذلك بنفي دونية المسلمين. وكما يرد في الفصل الثامن، روّج مفكرون من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في ذلك الوقت لفكرة «حضارة إسلامية» فريدة. ويفترض هذا المفهوم أن المسلمين، بوصفهم جماعةً، مختلفون اختلافًا جوهريًا عن المسيحيين البيض، لكنهم [أي المسلمين] مؤهلون لأن يوصفوا بأنهم «متمدنون»[٦٧]. وفي الوقت عينه، أطلق حاكم مصر في ذلك الوقت، إسماعيل حفيد محمد علي، حملاتٍ عسكريةٍ متجددة على السودان، ووسَّع طموحاته حول حوض النيل في شرق أفريقيا، وقد أبدعت إيف تروت بُول (Eve Troutt-Powell) في تسمية تلك

---

(63) Makdisi, *Culture of Sectarianism.*

(64) Makdisi, *Age of Coexistence.*

(65) Aydin, *Idea of the Muslim World.*

(66) Aydin, *Idea of the Muslim World.*

وللمزيد عن الأبعاد المناهضة للعنصرية في أيديولوجيا الجامعة الإسلامية، انظر:

Aydin, *Politics of Anti-Westernism.*

(67) Aydin, *Idea of the Muslim World.*

الحملات بأنها «مهمة إسلامية لنشر المدنية»[٦٨]. وقد استعانت العائلة الملكية في إعادة هيكلة الجيش المصري في هذه الحملات بالجنود الفارين من الجنوب من الحرب الأهلية الأميركية في أثناء إعادة الإعمار، من بينهم ضباط الكونفدرالية السابقين هنري هوبكنز سِبلي (Henry Hopkins Sibley) ووليام وينج لورنج (William Wing Loring)[٦٩].

لقد ازداد تقدير المؤرخين في العقدين الماضيين لأهمية أثر مفهوم العرق في مصر في ذلك الوقت. فوفقًا لرأي تروت بُول، سعى المصريون وراء إثبات قدرتهم على حكم أنفسهم في أواخر عهد الإمبراطورية عبر الهيمنة على الأفارقة السود في إمبراطورية خاصةٍ بهم[٧٠]. وكذلك ذكرت أمنية الشاكري أن العائلة الملكية أسست الجمعيةَ الجغرافية الخديوية وانتقت مجموعةً من «الشذوذات» المستَغربة التي جمعها الجيش الملكي في أثناء حملاته الأفريقية. وكذلك احتفظت الجمعية بمجموعةٍ إثنوغرافية من الأعمال الفنية المصرية الفريدة من أجل «حفظ سمات العرق [المصري]»[٧١]. وفي أولى سنوات الحرب العالمية الأولى، قام الأمير فؤاد -الذي أصبح ملكًا على مصر حتى عام ١٩٣٦م على محاولةٍ لبعث الجمعية، وتوسعة مجال عملها لتشمل إثنوغرافيات أكثر للجماعات مصرية السمات، وخاصةً الفلاحين[٧٢].

خطا الباحثون ذوو النزعة الثقافية، من أمثال تروت بول والشاكري، خطوات واسعة في دراسة تاريخ العرق والتصنيف العرقي في مصر، ويبني هذا الكتاب على جهودهم، مركزًا على معرفة المصريين مسألة العرق بالمعايشة فيما تركت غالبيتهم لنا ورائهم من بضائع وخدمات بدل أن يتركوا نصوصًا نقرؤها. وإذ أستعين بتراث نظرية العرق النقدية التي فصّل فيها فقهاء القانون في الولايات المتحدة، أرى أن أفكار العرق في مصر

---

(68) Troutt-Powell, *A Different Shade.*

(69) Loring, *Confederate Soldier.*

(70) Troutt-Powell, *A Different Shade.*

(71) El Shakry, *Great Social Laboratory*, 29

ووفقًا للشاكري، «خلال [أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وحتى الحرب]، شملت المصطلحات العديدة المستخدمة لتسمية ما نشير إليه الآن بـ "الجنس" مصطلحات "الأجناس البشرية" و"السلالات البشرية" و"الأصناف البشرية" و"الأنواع البشرية" و"العناصر البشرية" و"طبقات الأمم" بل و"الشعوب"، وهى تشير جميعها إلى غموض أفكار الفروق بين البشر، إن لم يكن عدم ثباتها على شكل بعينه». وقد فصّلنا فى الفصلين الثانى والثامن فى استكشاف التحولات الدلالية للألفاظ العرقية فى مصر، والتي تعقدت بفعل عملية ترجمة الأفكار الأوروبية إلى اللغة العربية. [ص ١١١ من الترجمة العربية -المترجمان]

(72) El Shakry, *Great Social Laboratory*, 42–45.

وللمزيد عن نسبة مصريي الريف إلى المصرية في صحف ما قبل الحرب، انظر:

Gasper, *Power of Representation.*

كانت على درجة من الأهمية جعلتها تتبدى في تحولاتٍ مكانية محددة، منها انتقال البشر والأشياء من مكانٍ لآخر والفصل والتمييز في توزيع الموارد. فكما يشدد عالم الجغرافيا النقدية إدوارد سوجا (Edward Soja)، «لا يوجد أي واقع اجتماعي بلا حيز مكاني، ولا توجد أي عمليات اجتماعية بلا فضاء»[٧٣]. وإن ربط أهمية الأفكار المتعلقة بالعرق بإحداث تغيرٍ في الحيز المكاني هو الجزء الأول من نموذج كيث إيوكي (Keith Aoki) عن كيفية اكتساب العرق معنىً سياسيًا، الذي أوجزه في ثلاث كلمات هي: العرق، والفضاء، والمكان[٧٤].

وفي استكمال هذا الثالوث إبعادٌ للمشهد عن ولاية السلطات التي تأمر بالتحول المكاني إلى ولاية الرعايا الذين أكرِهوا على سكنى أحيزة مكانية جديدة ومن ثم خلق حسٍ بالمكان يجمع بينهم[٧٥]. ولأن الأفكار العرقية تُحدث تغيرًا في الحيز المكاني، فإن الكثير من الناس يُكرَهون على تعديل حياتهم طلبًا للتكيف، فيخلقون هوياتٍ جماعية جديدة لا يسعها الخروج عن حدود الحيز المكاني التي ترسمها السلطات، ويشكّلون علاقات تكافل مع القريبين منهم، لكن كثيرًا ممن على الجانب الآخر من خط اللون العالمي لا يتجاورون إلا بسبب تاريخٍ طويلٍ من الفصل العنصري والعنف وما عايشوه من حرمان من الموارد. ووفقًا لإطار إيوكي، فإن فكرة وجود أعراق منفصلة -وهو ما يناقض الواقع للوهلة الأولى- أصبحت ذات معنىً سياسي ما إن انتبه لها ثم اعتنقها مَنْ كانوا المعنيين الأوائل بالخطاب العنصري.

خطة هذا الكتاب

تتتبع فصول هذا الكتاب التطور التاريخي للعرق والفضاء والمكان فيما يخص رجال فرقة العمال المصرية، فيبيّن الفصل الأول أن فرقة العمال نشأت بسبب الرابطة التي تطورت على مر القرن التاسع عشر الحافل بالأحداث بين فكرة العرق والعمل العسكري. في أول الأمر، وعدَ صناع القرار البريطانيون ألا يجنّدوا المصريين في الحرب، وذلك لأنهم صنّفوا المصريين عرقيًا على أنهم مسلمون، فأصبح عسيرًا عليهم تخيل المصريين في صراعٍ مباشر مع الإمبراطورية العثمانية. لكن مع دوران رحى الحرب وفشل دعوة الخليفة إلى الجهاد، برزت أفكار أخرى عن الهوية العرقية للمصريين. استمرت الحرب وتغيرت نظرة السلطات البريطانية إلى المصريين فرأت فيهم مصدرًا للقوة العاملة وصنفتهم عرقيًا مع الشعوب السوداء والبنية وشعوب شرق آسيا والسكان الأصليين في

---

(73) Soja, *Thirdspace*, 46.

(74) Aoki, "Space Invaders"; Aoki, "Race, Space, and Place."

(75) Hayden, *Power of Place*.

جميع أنحاء العالم. وطوال القرن التاسع عشر الحافل بالأحداث، وضع القائمون على إدارة الإمبراطورية البريطانية مجموعةً كاملة من الأفكار حول أي الأعراق أنسب لأي عملٍ من الأعمال العسكرية، وذلك عبر تاريخ طويل من الحروب الاستعمارية الممتدة جغرافيًا. ومع ما فرضته الحرب العالمية الأولى من تحدياتٍ لوجستية غير مسبوقة، لجأ الحلفاء إلى حلولٍ جاهزة لمشكلات اللوجستيات العسكرية، وقرروا تصنيف الرجال من مختلف أنحاء العالم غير الأبيض فيما عرف بالفرنسية بالقوة السوداء (force noire). وكانت فرقة العمال المصرية جزءًا من هذه الجهود في أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ولذلك ينتهي الفصل الأول باستقصاء أدوارهم في ميادين الحرب المختلفة.

اكتملت خطة تشكيل فرقة العمال المصرية وكُلِّفت الإدارة الإمبراطورية في مصر بتنفيذها. ويحلل الفصلان الثاني والثالث عمليات تجنيد العمال ثم نقلهم إلى خارج مصر. فيركز الفصل الثاني على عملية التجنيد التي فرضت على الموظفين المحليين في وزارة الداخلية مهمة جمع العمال. وقد كان لدى طبقة مسئولي الحكومة في مصر -المعروفين بالأعيان- أفكارٌ مستقاة من الداروينية الاجتماعية ومن التراث الإسلامي، تجعلهم يرون أنهم مخولون أخلاقيًا لحثِّ العمال على «التطوع» في فرقة العمال. لكن عملية تجنيد الفرقة تركَّزت في يد ذوي السلطة في القرى، وهم العمد، الذين لجأوا إلى استعمال القوة لتجنيد عدد الرجال المطلوب منهم، وهو ما انتهى إلى انفجار أعمال عنفٍ اجتاحت الريف كله في صيف عام ١٩١٨م، أي قبل عامٍ تقريبًا من ثورة عام ١٩١٩م. وقد أدى هذا العنف إلى مراجعة عملية اتخاذ القرار الإمبراطورية، فأعاد مسئولو الدولة الاستعمارية فرض نظام العمل بالسخرة الذي زعم الاحتلال البريطاني أنه ألغاه قبل جيلٍ مضى.

وكذلك اعتمد نظام نقل العمال من الريف إلى الحرب على البنى التحتية التي أنشأتها الدولة الاستعمارية قبلها، وتغيرت البيئة العمرانية للمراكز والمدن في جميع أنحاء مصر لتتكيف مع عمليات التعبئة أيام الحرب. يتتبع الفصل الثالث رحلة المجندين منذ إخراجهم من مقرات احتجاز المراكز المكدسة، ثم اجتيازهم الفحص الطبي، ثم نقلهم عبر شبكة سكك حديد مصر إلى المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية، ثم تدريبهم وتجهيزهم في مستودعات إمدادٍ جديدة قبل السفر. كان الشباب المتوجهون إلى أوروبا والدردنيل والعراق يسافرون على متن سفنٍ بخارية في بحارٍ هائجة، وربما هاجمتهم الغواصات الألمانية في طريقهم. وتمكن بعض المجندين من استغلال نقلهم لصالحهم، فتحينوا الفرص للفرار تجنبًا للخدمة في هذا الجيش. ويستعين هذا الفصل بمفهوم هنري

لوفيڤر (Henri Lefebvre) المهم عن «إنتاج» الفضاء في إثبات أن ضرورات الحرب صاغت هذه العملية في مصر، بقدر ما صاغتها الرأسمالية العالمية.

لم يكن وصول عمال الفرقة المصرية إلى محطتهم الأخيرة، سوى بداية عملهم. فيشرح الفصل الرابع كيف طُلب منهم تنفيذ كل ما يمكن تخيله تقريبًا من الأعمال اللوجستية، من قبيل شحن السفن وتفريغها وقيادة الجمال، وبناء المستودعات ومنشآت الموانئ، وشق الطرق والسكك الحديدية، ومد أنابيب المياه. ففي حملة سيناء–فلسطين، لم يكن التقدم العسكري ممكنًا لولا فرقة العمال المصرية التي مدت أكثر من مئةٍ وثلاثين ميلًا من خطوط السكك الحديدية التي تربط مصر بفلسطين. وقد أصبح ما عُرف باسم الخط الحديدي العابر للصحراء أساسَ الهجوم البريطاني على سوريا العثمانية، بمساعدة البنيةَ التحتية التي مكَّنت لحكم الانتداب البريطاني على فلسطين في الفترة ما بين الحربين. وبذلك أصبح عمال الفرقة المصرية في موقعٍ فريد بأن أصبحوا في آن واحدٍ "المفعول به" في عملية تغيير الحيز المكاني و"فاعلها المؤثر".

أما الفصول الخامس والسادس والسابع فتنظر نظرة تحليلية إلى المعسكرات التي عاش فيها رجال فرقة العمال المصرية في منطقة التداخل بين العرق والفضاء والمكان. ينطلق الفصل الخامس من توثيق أثر الأفكار العرقية في أواخر عهد الإمبراطورية على تمثيلات فرقة العمال المصرية لدى المراقبين البريطانيين، لكنه يتتبع أيضًا الكيفية التي أثّرت بها هذه الأفكار على تشكل الحيز المكاني للمعسكرات. إذ فُصل رجال فرقة العمال المصرية عن الضباط البيض والجماعات القريبة المحيطة، وحصلوا على حصص غذائية رديئة، ومُنعوا الأحذية، وكل ذلك على أساس سماتهم العرقية المزعومة. بل إن تصنيف فرقة العمال المصرية عرقيًا جاء على حساب فضاء الجسد؛ إذ فرض الضباط والمشرفون الانضباط بالعنف.

أما الفصل السادس فيعيد بناء المشهد الصوتي لمعسكرات فرقة العمال المصرية في أثناء الحرب؛ إذ إن التركيز على الصوت يمكّننا من الاستماع إلى الأصوات المفقودة لفرقة العمال، الذين لم يتركوا أي روايات مدوَّنة. وقد وصفت هذه الأصوات في كتابات الضباط البريطانيين بأنها «غريبة» أو «مثيرة للفضول»، أو حتى «مثيرة للشفقة». وقد نشأ شعور بالاغتراب لدى البيض، ولنا أن نعدَّ هذا دليلًا على أن رجال فرقة العمال المصرية أنشأوا مشهدهم الصوتي الخاص، الذي هيمن على حياة المعسكرات، وليس هذا بمستغرب، إذا وضعنا في الاعتبار التفاوت العددي الكبير بين رجال الفرقة وضباطهم البريطانيين. وقد استعمل الرجال الصوت في أغراض عدة، منها

شغل الفراغ، ونقل المعلومات، وبناء العلاقات بينهم وبين بعض وبينهم وبين ضباطهم، وتهوين العمل، والصلة بالله، والضحك، والبكاء.

أما الفصل السابع فيوثّق سلوك رجال فرقة العمال المصرية في ممارسة فاعليتهم السياسية في المعسكرات. ولأن أفعالهم هذه كان أساسها توكيد وجود هويةٍ جماعية، فقد اختلفت عن أي نشاطٍ آخر مارسوه في أثناء خدمتهم. ومع فصلهم ونقلهم والإساءة إليهم فقد تغلبوا في النهاية معًا على العديد من العوائق، وأقام رجال فرقة العمال المصرية علاقات تضامن جماعية ولم يُثنِهم شيء عن الفخر بعملهم. اكتست بعض علاقات التضامن هذه كساءً سياسيًا، فأثارت الفرقة عددًا من الاحتجاجات والإضرابات والتمردات على الضباط البريطانيين في أثناء الحرب. ومن هذه الزاوية، تمثل معسكرات فرقة العمال المصرية عالمًا مصغرًا يتبدى فيه تفاعل العرق والفضاء والمكان معًا لإنتاج هويات جماعية جديدة مسيَّسة.

ينتقل الفصلان الأخيران بالمشهد إلى مصر وينظران كيف أثَّرت الفرقة على ثورة عام ١٩١٩م رمزيًا وعمليًا. فيدرس الفصل الثامن تمثيل رجال الفرقة المصرية بوصفهم «خُطفوا» وعوملوا «كالزنوج» أو «الوحوش الأفريقية» في كتابات القوميين في اليوميات والمذكرات والمراسلات الرسمية والكتب، في أثناء ثورة ١٩١٩م أو بعدها. وأزعم أن القوة الحاشدة التي امتلكتها صورُ التمثيل هذه اعتمدت على تحدي الحكام البريطانيين بسبب خطأ تصنيفهم للهوية العرقية المصرية. ففي رد فعلٍ على قهرهم الناتج عن فكرة تفوق الجنس الأبيض وتصنيف المصريين عرقيًا مع الأفارقة السود بوصفهم «شعبًا ملونًا»، وضع السياسيون القوميون وعموم المفكرين المصريين، الفلاحين -ومنهم رجال فرقة العمال المصرية في المركز بوصفهم رمزًا للجوهر القومي، بطرقٍ أدت إلى ما يسميه الأنثروبولوجيون عمل ترسيم حدودٍ عرقية[٧٦]. جعل ذلك بعض القادة السياسيين، من أمثال سعد زغلول ومحمد عبده، وبعض المفكرين، من أمثال سلامة موسى ومحمد صبري [السوربوني] وأحمد لطفي السيد، مناضلين متوسطين بين الريف والحضر، كانوا «مصريين حقيقيين»، وهم بالنسب ورثة «حضارة» عتيقة، وأسمى من الأفارقة السود، ولا يستحقون الخضوع السياسي لسيادة البيض. وكذلك، مكَّن هذا الخطاب عن القومية العرقيةِ المصريين في الريف من ربط أنفسهم بقادةٍ أصلهم من الريف.

لكن القومية العرقية المصرية أغفلت الاختلافات بين من سمَّتهم «مصريين»، مثلها في ذلك مثل كل المساعي التي استهدفت تشكيل جماهير من الرعايا باستخدام التصنيف العرقي. ويبيِّن الفصل التاسع أن عمال الفرقة المصرية كثيرًا ما خالفوا ما تمليه عليهم

(76) Wimmer, "Elementary Strategies."

الثورة التي من المفترض أنها أُطلقت باسمهم، فظلوا موالين لضباطهم البريطانيين وحلوا محل من أضرب من العمال المتضامنين مع القضية القومية، بل أسسوا حزبًا سياسيًا خاصًا يعارض القوميين من التيار العام. وتقدم كثير من تواريخ ثورة عام ١٩١٩م مواقف الكتاب والسياسيين القوميين بوصفها ممثلةً لأفكار ملايين الناس وخيالاتهم السياسية ومعبِّرةً عنها، وبذلك تُغفِل ما كان بين هؤلاء الملايين من اختلافات ويستحضر هذا «المخبرين الوطنيين» الذين درستهم جياتري سبيفاك دراسة ناقدة، وكانوا جزءًا أساسيًا من الأنثروبولوجيا الفيكتورية[٧٧]. لكن هذا الفصل يعارض الروايات التاريخية التي تضع كتّاب الحضر المتعلمين في المركز، وتُعامل المصريين بوصفهم عرقًا، متبنيةً في ذلك نظرية في الفعل السياسي تفترض أن طبيعة الهوية الجماعية تحددها الظروف العارضة والتاريخ.

المصادر والمنهجية

يمثل تشكيل فرقة العمال المصرية لحظةً نادرة ركَّز فيها الكثير من المراقبين على مجموعةٍ من العمال والفلاحين من خارج النخبة من أبناء الريف المصري. ويمثل هذا الكتاب نتيجة مشروع بحثي متعدد الأماكن يجمع هذه الملاحظات بثلاث لغات من سجلات محفوظات في أربع دول. لقد شكَّلت المصادر التي حصلنا عليها من لندن العمودَ الفقري لروايتنا. إذ كان المسئولون البريطانيون، بوصفهم ممثلين عن وزارة الخارجية في القاهرة، في موقعٍ فريد يسمح لهم بملاحظة الحوادث على الأرض في مصر. وفوق ذلك، احتوت سجلات المحفوظات البريطانية على المراسلات الداخلية للحكومة المصرية؛ إذ كان في كل وزارة مستشارٌ بريطاني. إن اتساع المصادر البريطانية عن مصر وعمقها يجعل منها أساسًا مهمًا للمؤرخين المهتمين بهذه الفترة.

لكن الاعتماد على السجلات الاستعمارية يثير عددًا من المشكلات. فالدولة الاستعمارية بسبب تركيزها على مجموعةٍ ضيقةٍ من المصالح، لم تولِ حياة الناس العاديين اهتمامًا يُذكر، إلا لضرورة. ولذلك، التجأ المؤرخون المهتمون بالناس من غير النخب، وخاصة أهل الريف، إلى دراسة التمردات العنيفة، نظرًا لكونها الحالات الوحيدة التي يركز فيها رجال الإدارة الإمبراطورية على هذه الجماعات. وينتقد جيمس سكوت (James Scott)، في كتابه أسلحة الضعفاء (الصادر عام ١٩٨٥م)، أولئك الذين يركِّزون حصرًا على أعمال المقاومة العنيفة، من أمثال التظاهرات الهائلة في ثورة عام ١٩١٩م. ويقول بأن الميل نحو إسباغ الطابع الرومانسي على الانتفاضات العنيفة الضخمة

---

[77] Spivak, *Critique of Postcolonial Reason.*

يتجاهل أفعال المقاومة اليومية من قبيل إبطاء العمل والفرار من الخدمة وما تسميه الدولة «النشاط الإجرامي»(٧٨). وبهذا المعنى، فإن منهج سكوت يشبه آن ستولر (Ann Stoler) التي تحث الدارسين على قراءة سجلات المحفوظات قراءةً «مخالفةً للسائد»، وذلك عبر البحث عن الكيفية التي يمثل بها الفاعلون الأقوى موضوعات الخطاب، والحذر من أخذ كلماتهم دون نظر.

لقد وجدتُ كتابات تنطوي على مقاومةٍ في مصادر الثقافة الشعبية، من قبيل المحادثات والكلام والنكات في الصحافة الساخرة والأغاني والقصائد والمسرح. ولأن العديد من هذه النصوص صيغ بالعامية المصرية، يجب النظر إليها باعتبارها سجلاتٍ لأفعالٍ كلامية؛ إذ يمكن للمصريين جميعًا أن يفهموها بغض النظر عن مستوى تعليمهم. وقد لفت باحثون مثل والتر أرمبروست (Walter Armbrust) وزياد فهمي النظرَ إلى الكيفية التي خلق بها الاختلاف بين العربية الفصحى المعاصرة التي كتب بها المفكرون المتعلمون وبين العربية العامية المصرية المُتكلَّم بها في الشارع، «دارجةً منقسمة» في أشكال التعبير عن الهوية المصرية(٧٩)، وغالبًا ما يُربط هذا الانقسام بالتمييز بين النخب وبين غيرهم، ومنهم فلاحو فرقة العمال المصرية. ولذلك تقدِّم آن كليمو (Anne Clément) مقتطفات بالعامية المصرية من سجلات المحفوظات القضائية بوصفها شظايا من «الأصوات المفقودة» للفلاحين المصريين(٨٠). ويمكننا قول الأمر نفسه على كتابات من درسوا فرقة العمال المصرية ونزوع رجالها نحو الغناء والمسرح، والتي احتوت في الغالب على مقاطع بالعامية المصرية منقولةً نقلًا سيئًا. ويحاول هذا الكتاب، بجمعه السجلات الاستعمارية مع أصوات رجال فرقة العمال المصرية حيثما وجدناها، إعادة بناء المدى الحسي الكامل لتجربتهم.

إنني أفحصُ صحة المصادر البريطانية عبر مقارنتها بثلاث مجموعاتٍ أخرى. الأولى هي المصادر المصرية، ومنها مصادر الثقافة الشعبية التي ذكرتُها، وتقارير الصحافة المعاصرة، ومذكرات شهود العيان المكتوبة بالعربية الفصحى المعاصرة. أما الثانية فهي مصادر المبشرين الأمريكيين المحفوظة في سجلات جمعية الشبان المسيحيين (YMCA) التي نشطت في مصر إبان الحرب العالمية الأولى، وقدَّمت الشاي والكاكاو الساخن للجنود والعمال في سيناء وفلسطين وزوَّدت بالطعام القوات

---

(78) Scott, *Weapons of the Weak.*

(79) Armbrust, *Mass Culture*; Z. Fahmy, *Ordinary Egyptians*.
[ترجم الدكتور محمد الشرقاوي كتاب والتر أرمبروست بعنوان **الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر**، وصدر عن المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر فى عام ٢٠٠٠م. –المترجمان]

(80) Clément, "À La Recherche"; Clément, "Rethinking 'Peasant Consciousness.'"

الخارجة في إجازات في القاهرة والإسكندرية. وبسبب نشاطها التنصيري، اهتمت الجمعية بموضوعات تجاهلتها المصادر البريطانية، من قبيل عادات الأكل، والميول الجنسية، وتعاطي المخدرات لدى الجنود البيض، ونادرًا ما اهتمت بها لدى المصريين. أما المجموعة الثالثة فكانت سجلات الدولة الفرنسية، التي تحفظ التماسات من الأعيان المصريين تشتكي من الانتهاكات البريطانية، ووثائق من رجال الإدارة الفرنسية المسئولين عن تشكيل فرق العمال الفرنسية في أثناء الحرب، وفي ذلك، نجدهم قد حذوا حذو البريطانيين في جوانب كثيرة. إنني أستعين بالمنهج الثلاثي متعدد المواقع هذا، في إعادة بناء قصة فرقة العمال المصرية.

[1]

وعدٌ منكوث

في السادس عشر من أغسطس من عام ١٩١٤م، نقضت الإمبراطورية العثمانية حيادها الرسمي في الحرب العالمية الأولى بقبولها سفينتين حربيَّتين ألمانيتين في أسطولها. وبرغم هذا الانتهاك، ظل المسئولون البريطانيون مترددين في رفع السيادة العثمانية القانونية عن مصر. إذ ترسم لنا الوثائق المحفوظة في السجلات البريطانية صورةً عن حكومة استعمارية قلقة من احتمال إثارة ما سمته مشاعر «إسلامية جامعة» بإعلانها الحرب على السلطان العثماني. ففكرة الجامعة الإسلامية تربط في الخيال البريطاني بين العثمانيين ومركزين كبيرين في إمبراطوريتهم، هما الهند ومصر. فنجد مسئولًا بريطانيًا في عام ١٩١٤م يعزو القومية المناهضة للاستعمار في الهند ومصر إلى مكائد العثمانيين، فيكتب: «ما دامت تركيا تزعم أنها النصير العلماني للإسلام ... فإن كل سلوكها في البلدان المسلمة، من قبيل الهند ومصر، يجب أن يكتسي كساء الدعاية الإسلامية السياسية الجامعة. وبالمثل ... تعد القومية المصرية أو مصر الفتاة، والقومية الهندية في حالة المسلمين، حركات متماثلة متعاطفة، تلونها الدعوة إلى الجامعة الإسلامية بل هي في صلب هذه الدعوة»(١). ربما يبدو وصف الإمبراطورية العثمانية بـ «النصير العلماني للإسلام» تناقضًا بلغة عصرنا، لكن المسئولين البريطانيين في عام ١٩١٤م، كانوا يخلطون بين مفاهيم الإمبراطورية والدين والعرق وغيرها(٢).

كان البريطانيون، قبل اشتعال الحرب، قد افترضوا وجود عددٍ مما سموه الأعراق التابعة، منها «العرق المحمدي» و«العرق الأسود» و«العرق الأصفر»(٣). ويبيِّن خطابٌ أرسله هربرت كتشنر (Herbert Kitchener)، القنصل العام في مصر أن تصنيف المصريين عرقيًا بوصفهم مسلمين كان محرِّكًا للسياسة الإمبراطورية في سنوات ما قبل الحرب. إذ سعى كتشنر مخاطبًا وزير الخارجية في عام ١٩١٢م إلى تسويغ محاولاته الحد من الحكم الذاتي في مصر، قائلًا:

---

(1) The National Archives, London, Foreign Office (hereafter cited as TNA, FO) 371/1964/0001: Mallet (February 2, 1914).

(٢) للمزيد عن السيادة الروحية العثمانية انظر:

Can, *Spiritual Subjects*.

(3) Kiernan, *The Lords of Human Kind*.

إن الشرقيين يختلفون تمامًا عن الأعراق الغربية في صفاتهم ومبادئهم وطريقة تفكيرهم، ولا تصلح الآليات الدستورية التي تطورت على مر سنوات من الخبرة في الحياة الغربية لتلبية هذه المتطلبات. لا بد لنا من أن ندرس بحرص ما إن كان ... منح دولةٍ مسلمةٍ نظامًا سياسيًا منسوخًا من أوروبا لن يسبب ضررًا يفوق الحصر... وعلى رغم أن شعب مصر لديه تطلع طبيعي جدًا لحكومةٍ دستورية تقدمية ... **فإن أثر الروح الحزبية سيكون شديدًا عليهم مثل أثر الخمر على أهل أفريقيا غير المتمدنين.**[٤] (التوكيد مضاف)

يختلف المصريون وغيرهم من أهل «البلاد الإسلامية» في نظر كتشنر اختلافًا جوهريًا عن «الأعراق الغربية» حضاريًا وبيولوجيًا. وفي الوقت عينه، يتخيل في نهاية الفقرة السابقة، علاقةً متناقضة بين المسلمين ومن سماهم «أهل أفريقيا». فيبدو أن لديه تصورًا عن «الحضارة» الإسلامية يميزها ويضع المسلمين فوق الأفارقة ودون «الأعراق الغربية». ويتردد صدى هذا التصور أيضًا في تصنيف المسلمين عرقيًا لدى رجالٍ من أمثال كتشنر الذي رأى أن المصريين بوصفهم مسلمين وأفارقة لا يصلحون لحكم أنفسهم.

قاوم المفكرون المصريون آثار هذه الأيديولوجيا فطالبوا بالاستقلال السياسي، لكن غالبهم لم يرفض الافتراض الكامن بأن الناس منقسمون إلى جماعاتٍ متمايزة بيولوجيًا ومرتبةً ترتيبًا هرميًا. ففي الوقت الذي تطلع فيه داعية الوحدة الأفريقية إدوارد بلَيدن (Edward Blyden) والأميركي من أصل أفريقي فردريك دوجلاس (Frederick Douglass) إلى أن يتعلم من المسلمين دروسًا تعين الشعوب السوداء في كفاحها[٥]، تطلع الزعيم الوطني المصري الشهير مصطفى كامل إلى اليابان. ففي رسالة الشمس المشرقة الصادرة في عام ١٩٠٤م، يقول مصطفى كامل: «لقد كان البعض منا معاشر الشرقيين

---

(4) TNA, FO 371/1635 No. 395: Kitchener (December 29, 1912).

(5) Blyden, "Mohammedanism and the Negro Race."

كتب دوجلاس في زيارته لمصر في عام ١٨٨٧م، في نفس العام الذي نشر فيه بلَيدن رسالته، وقال: «لا أعلم ما اللون أو السمات التي كان عليها المصريون القدماء، لكن الغالب الأعم ممن رأيتهم سيُصنَّفون في أميركا من المولاتو [هم مختلطو العرق أو المولَّدين من أبوين ذوي عرقين مختلفين أحدهما أبيض والآخر أسود –م] أو الزنوج. وما ذاك بوصف علمي، بل وصف أميركي. وأتفهم الآن بسهولة سبب قبول الدين المحمدي ارتباطه بهؤلاء الناس، لأنه لا يجعل اللون معيارًا للانتساب، كما تفعل بعض الأمم التي زعمت أنها مسيحية».

Douglass, *Frederick Douglass Diary Tour of Europe and Africa*, September 15, 1886.

يمكن الاطلاع على المخطوطة وموادها المتنوعة عبر موقع مكتبة الكونجرس: https://www.loc.gov/item/mfd.01001/

[يبدو أن موقع المخطوطة المقصودة قد تغير إلى: https://www.loc.gov/item/mss1187900001/ –المترجمان]

يقول ... إننا أمم انقضى دورها ... فقامت أمة اليابان مكذِّبة لهذه الدعوى، منادية الشرقيين أجمعين بأن طريق الارتقاء ميسرٌ لقصاده»(٦). استعمل كامل كلمةً من العربية التراثية تشير إلى النسب القبلي، ليؤكد على وجود «الأعراق الشرقية» (معاشر الشرقيين) المتميزة بعضها عن بعض، لكنها تقف وجهها في وجه الغرب(٧).

عندما هزم اليابانيون الروس في عام ١٩٠٥م، بدا أن مقاومةً عالمية لموجة الإمبريالية المسيحية البيضاء الصاعدة والخارجة من أوروبا، تكتسب قوةً. وبحلول عام ١٩١٤م، كان المسؤولون البريطانيون قلقين «من الأثر الذي قد تحدثه في الهند ومصر وغيرهم زيارة «البوارج» التركية التي ترفع علم الخليفة في الإسكندرية وبورسعيد وعدن وبومباي والخليج العربي»(٨)، إذ تصوروا العثمانيين رأسَ أمة إسلامية عالميةٍ متجانسة على المستوى السياسي. ولذلك حرصوا كل الحرص على الحفاظ على مصالحهم في الحرب الجديدة وعلى التودد إلى دول إمبراطوريتهم التي صنَّفوها عرقيًا على أنها مسلمة، وذلك بحفظ علاقات وديةٍ مع الخليفة العثماني.

بدأت هذه الدينامية في التغير في أواخر شهر أكتوبر، عندما استعمل الأسطول العثماني بوارجه المشتراة حديثًا في قصف روسيا. فشعر رجال الإدارة البريطانيون بضرورة الرد، وفي الثاني من نوفمبر من عام ١٩١٤م، أعلن قائد جيوش الاحتلال البريطاني، جون ماكسويل (John Maxwell) الأحكام العرفية في مصر(٩)، وأعلن بعدها بخمسة أيام أن بريطانيا العظمى والإمبراطورية العثمانية في حالة حرب، وأصدر إعلانًا بأنه لن يطلب من المصريين أي مساعدةٍ فيها:

إن بريطانيا العظمى تحارب الآن لغرضين. وهما الدفاع عن حقوق مصر وحريتها ... واستمرار هذا القطر في التمتع بالسلم والرخاء اللذين تمتع بهما مدة الاحتلال البريطاني في ثلاثين سنة ... [وقد] أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن تطلب من الشعب المصري أية مساعدة(١٠).

---

(٦) مصطفى كامل، **الشمس المشرقة**، ج١، ٣-٤.

(٧) أساء المؤلف هنا فهم التعبير العربي من وجهين: أولهما أن كلام مصطفى كامل محدد جغرافيًا وليس عرقيًا وثانيهما أنه يستخدم هذا التصنيف الجغرافي كما يستخدمه الغربيون ذلك أن اللغة التراثية العربية لا تستخدم «الشرقيين والغربيين» بل «المشارقة والمغاربة» وتشير بهذا إلى أهل المشرق والمغرب الإسلاميين. [المترجمان]

(8) TNA, FO 371/1964/0001: Mallet (February 2, 1914).

(9) Elgood, *Egypt and the Army*, 84.

(10) TNA, FO 471/1970: Cheetham (November 5, 1914).

[هناك اختلاف طفيف بين نص الإعلان الأصلي الوارد في الوقائع المصرية بتاريخ ٧ نوفمبر ١٩١٤م، وبين ترجمة المؤلف له، إذ ينص الإعلان على ما أوردناه بالأعلى، لكن ترجمة ما نقله المؤلف هي كالآتي: «دفاعًا

ربما كان هدف هذه الإلماحة توفير الغطاء السياسي الذي احتاجه البريطانيون لمحاربة العثمانيين. لكن عندما أعلن الخليفة الجهاد على البريطانيين في الأسبوع التالي، لم يهب المصريون لنصرته، وهو ما شجّع السلطات البريطانية، وبحلول نهاية العام أعلنت رفع السيادة العثمانية رسميًا عن مصر، ونصّبوا أكبر أبناء أسرة محمد علي الملكية رأسًا للدولة بلقب سلطان. وبذلك أصبحت مصر محميةً بريطانية، مع عددٍ من دولِ جنوب شرق آسيا والخليج العربي وأفريقيا. لكن سرعان ما نُقِض إعلان ماكسويل، وأرسلت سرايا فرقة العمال المصرية بحلول عام ١٩١٥م لتخدم في الخارج ضمن ما سُمي بفرقة العمال الملونين.

وفي إعادة صياغة لإرنست همنجواي[١١]، نقول إن خط اللون في مصر كان يُخطُّ خطًا بطيئًا، ثم رسم دفعةً واحدة رسمًا مفاجئًا عندما كشفت الحرب العالمية الأولى للجميع المنطق الثنائي الكامن في قلب العنصرية الاستعمارية. فعلى مر القرن التاسع عشر، ابتعد المصريون عن «الحضارة الإسلامية» عثمانية التوجه، وارتبطوا في أذهان رجال إدارة الإمبراطورية بـ «عرقٍ محمدي» يهيمن عليه البريطانيون. ورفعت الحرب الشاملة على العثمانيين الحجاب عن الاحتلال البريطاني لمصر، وكشفت أن ما بدا تصنيفًا معقّدًا للاختلاف العرقي ما هو إلا خطُّ لونٍ عالمي بسيط يقسِّم العالم عرقيًا إلى أبيض وغير أبيض[١٢]. وقد قطع البريطانيون وعد إعلان ماكسويل لأنهم طالما صنَّفوا المصريين عرقيًا بأنهم مسلمين، وانتابهم القلق من مشاعر الوحدة الإسلامية مع الخليفة. أما في الحرب، فقد حل التصنيف العرقي الأبسط للمصريين بوصفهم «شعبًا ملوَّنًا» محل تصنيفهم بوصفهم مسلمين.

استند المسئولون البريطانيون في اتخاذهم قرار تأسيس فرقة العمال المصرية إلى تاريخٍ من الحروب الاستعمارية في أماكن من أمثال الهند والأمريكتين وجنوب أفريقيا

عن حقوق مصر وحريتها التى... تمتعت بها هذه البلاد فى السلم والرخاء اللذين تمتع بهما مدة الاحتلال البريطانى، فإن بريطانيا العظمى... أخذت على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن تطلب من الشعب المصري أية مساعدة»، وقد أقرنا المؤلف على هذا التعديل -المترجمان]

[١١] يشير المؤلف هنا إلى تعبير "تدريجيا ثم فجأة" الذى جاء فى سياق رواية همنجواى "The Sun Also Rises" على لسان مايك كامبل عندما سئل "كيف أفلست؟" فقال: "تدريجيا، ثم فجأة" يقصد أن الإفلاس جاءه تدريجيا بقرارات خاطئة متتالية، ثم فجأة عندما نفدت بالفعل كل ثروته. وذلك هو ما جرى فى حالة رسم خط اللون فى مصر وتصنيف أهلها عرقيا. حيث أصبح المصريون ملونين تدريجيا، ثم تجلى هذا التصنيف العرقى فجأة فى الحرب العالمية الأولى مع تجنيد فرقة العمال. [المترجمان]

[١٢] للمزيد عن خطاب «الأعراق التابعة» في بريطانيا أواخر العهد الإمبراطوري وعلاقته بالعمالة العسكرية في الحرب العالمية الأولى، انظر:

Griffin, "Use of Chinese Labour."

والسودان. فإن ما بدأ في هذه الصراعات المختلفة بوصفه مسعًى نفعيًا لتجنيد العمال المحليين، تطور تدريجيًا ليصبح تصورًا عرقيًا عمن يصلح (ومن لا يصلح) لأعمالٍ عسكريةٍ معينة. وبتشكيل فرقة العمال المصرية في الحرب العالمية الأولى، أدى الربط المعرفي بين الفلاحين المصريين بوصفهم مصدرًا للقوة العاملة وبين الشعوب الأفريقية والآسيوية غيرها في جميع أنحاء العالم، إلى تمكين البريطانيين في النهاية من تجاوز أي ترددٍ كان لديهم في البداية فرضته مراعاة ما تصوروا وجوده من رابطة تجمع المسلمين جميعًا.

يجوب النصف الثاني من هذا الفصل ميادين القتال المختلفة في الحرب، إذ كان من بين أسباب تشكيل فرقة العمال المصرية ما نشأ من تحديات لوجستية استثنائية في هذه الميادين، وما استُعمل لحلها من تقنيات كثيفة العمالة. فنبدأ من الجبهة الغربية حيث خدمت سرايا فرقة العمال في الموانئ العسكرية في فرنسا وإيطاليا لتعاوِن في تموين القوات المقاتلة في الخنادق ثم تنتقل بنا القصة إلى الشرق الأوسط حيث قاتل البريطانيون الإمبراطورية العثمانية في المقام الأول. بدأ العثمانيون الحرب بمحاولاتٍ متعددة للتحرش بالبريطانيين في مصر على أجنحتهم الشرقية والغربية والجنوبية، ثم أطلق البريطانيون هجماتهم على العثمانيين في الدردنيل والعراق وسوريا الكبرى. وفي كل هذه الحملات، كان لعمال الفرقة المصرية أهميةٌ كبرى، لكن الاعتماد عليهم كان على أشده في غزو قلب سوريا عبر صحراء سيناء وفلسطين.

العرق والحرب والأعمال العسكرية في الإمبراطورية البريطانية

عند انفجار الحرب العالمية الأولى، كان النفوذ البريطاني الفعلي المغطى بالسيادة العثمانية القانونية هو المعيار السائد في مصر لأجيالٍ مضت. وفي النهاية، أدى السخط الشعبي على هذا الوضع إلى ثورة عرابي. رفض البريطانيون فكرة حكم المصريين لأنفسهم بمسوغات حضارية وعرقية، وردوا على الثورة بإرسال الجيش البريطاني في حربٍ استعمارية قصيرة ثانية على الجيش المصري[١٣]، فقصف الأسطول

---

[١٣] قال اللورد كرومر عن الثورة: «إن التنفيذ العاجل لسياسة "مصر للمصريين" ... كان ولا يزال أمرًا مستحيلًا ... ونحن نشك فيما إذا كان هناك مثالٌ يمكن الإشارة إليه باعتباره دليلًا على انتقالٍ مفاجئ في السلطة، في أي مجتمع من المجتمعات المتحضرة أو شبه المتحضرة، إلى طبقةٍ جاهلة كما هو الحال في المصريين [الخُلَّص] ... فهذه النوعية من المصريين كانت تشكل واحدًا من الشعوب المستَعبدة منذ قرون مضت ... [وإن] الجدارة الخاصة التي كشف عنها الإنجليز في حكمهم للأعراق البشرية، تشير بالبنان إلى إنجلترا باعتبارها أقدر وسيلة وأكثرها فاعلية في إدخال الحضارة بصورةٍ متدرجة إلى مصر».

Cromer, *Modern Egypt*, 353.

البريطاني الإسكندرية بين الحادي عشر والثالث عشر من يوليو من عام ١٨٨٢م، ونزلت قوة بريطانية إلى شاطئ الإسكندرية واتخذت من المدينة قاعدةً لعملياتها. وعند تقدمهم، أوقفتهم كفر الدوار في دلتا النيل، فبدأوا تقدمًا ثانيًا صوب القاهرة من منطقة قناة السويس، فنجحوا في معركة التل الكبير في الثالث عشر من سبتمبر من عام ١٨٨٢م، عندما ذبح الجيش البريطاني آلاف الجنود العرابيين ولم يزد القتلى البريطانيون عن سبعةٍ وخمسين رجلًا لا غير[١٤].

ثم نشأ بعدها جمعٌ فريد بين الاحتلال العسكري والحكم الإمبراطوري، إذ أشرف البريطانيون على الإدارة المصرية عبر وزارة الخارجية، التي مثلت القسم الحكومي المسؤول عن [شئون] الدبلوماسية مع القوى الكبرى في ذلك الوقت، ومن بينها العثمانيون. وكان ذلك نمطًا فريدًا عن كل ما عداه في الإمبراطورية البريطانية التي أدارتها وزارة المستعمرات أو وزارة الهند أو وزارة الحرب. وكان أسمى موظفٍ بريطاني على أرض مصر يحمل لقب القنصل العام، وشغله في الفترة بين عامي ١٨٨٣ و١٩٠٧م إيفلِن بارنغ (Evelyn Baring)، المعروف باللورد كرومر. وقد وصف كرومر الوضع الفريد في مصر بأنه «صورة حكم هجينة لا يمكن تسميتها ولا سابقة لها»[١٥]. وعلى رغم تنصيب أحد أفراد العائلة المالكة نائبًا للسلطان العثماني، كان لبارنغ المسئولية الفعلية عن إدارة البلاد، وقَبِل العثمانيون الوضع على مضض. عيَّن بارنغ مستشارين بريطانيين في الوزارات الحكومية المختلفة، وسرعان ما أصبحت «مشورتهم» سياسةً نافذة، وذلك دون إقالة المسئولين الموجودين[١٦]. وكان كل المستشارين الذين عينهم رجالًا إنجليز مسيحيين بيض من الطبقتين الوسطى والعليا وذوي خلفياتٍ مدنية أو عسكرية[١٧].

كان تصنيف المصريين عرقيًا بوصفهم مسلمين يعني أن الحكم البريطاني لمصر استلهم على الخصوص تجربة الهند البريطانية. بل إن بارنغ نفسه بدأ مسيرته المهنية سكرتيرًا خاصًا لابن عمه نائب الملك على الهند بين عامي ١٨٧٢ و١٨٧٦م. واستمر التلاقح بين مصر والهند في عهد خلفاء بارنغ، فمثلًا، عُيِّن كتشنر قنصلًا عامًا في

[نقلنا الترجمة بتصرفٍ يسير عن ترجمة الأستاذ صبري محمد حسن لكتاب اللورد كرومر بعنوان مصر الحديثة، الصادر عن المركز القومي للترجمة بمصر في عام ٢٠١٤م، الجزء الأول ص ص ٤١٣-٤١٤. -المترجمان]

(14) TNA, "Report on the Battle of Tel-el-Kebir", accessed September 17, 2015, http://www.nationalarchives.gov.uk/battles/egypt/popup/telel4.htm.

(١٥) منقولة من:

Arendt, *Origins of Totalitarianism*, 213.

(16) Tignor, *Modernization*; Cookson-hills, "Historical Perspectives", 66.

(17) Welch Jr., *No Country for a Gentleman*, 3.

مصر في عام ١٩١١م بعد أن شغل منصب القائد العام للجيش الهندي، ثم غادرها ليصبح وزيرًا للحرب عند اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤م.

يجب النظر إلى هذا التبادل في الأفكار والأشخاص بين الهند ومصر بوصفه أحد مصادر الإلهام المهمة لقرار تشكيل فرقة العمال المصرية. إذ كان الهنود أول قوة عمال جُنِّدت في الإمبراطورية باسم «الرواد» وكانوا جنود مشاة ذوي مهارات بناء خاصة، ساعدوا الجيش الهندي البريطاني في بناء تحصينات الميادين والمعسكرات والجسور والطرق. إذ تشكلت في عام ١٧٨٠م سريتان من الرواد في تشِنَّاي (Chennai) (مَدْراس) واستُعمِلتا استعمالًا مكثفًا في اشتباكات عسكرية مع الولايات الأميرية الهندية[١٨]، ثم تضخمت قوة الرواد فصارت في حجم الكتيبة لتوفير العمالة لكل وحدات الجيش الهندي البريطاني[١٩]. وفي أوقات فراغها من العمليات العسكرية، شُجِّع الرواد على تولي عقود مدنية بتشييد بنىً تحتية تجارية من قبيل الطرق والسكك الحديدية[٢٠]. وبحلول عام ١٩١٤م، كان هناك اثنا عشر فوجًا من الرواد، مكتملو التدريب والاستعداد لأعمال الطرق والسكك الحديدية والهندسة بالإضافة إلى الخدمة في سلاح المشاة[٢١].

وضع البريطانيون في الهند تصنيفًا معقدًا للأعراق عبر إصلاحهم للجيش الهندي البريطاني. كان الجيش في البداية يتبع الطريقة المغولية في تجنيد الرجال بغض النظر عن جماعتهم العرقية أو طائفتهم[٢٢]. لكن بعد تمرد عام ١٨٥٧م، طوَّر البريطانيون نظرية «الأعراق المحاربة» التي ارتكزت على فكرة أن هناك جماعات بعينها في شبه القارة الهندية هي القادرة على الخدمة العسكرية، وذلك نظرًا لصفاتها البيولوجية والثقافية الخاصة، وهي أفكار قامت إلى حدٍ ما على نظريات الحتمية البيئية أو الجغرافية. فمثلًا، يفسر لنا الربطُ بين المناطق الجبلية الباردة وبين المحاربين الكبار سبب اعتبار الجورخا (Gurkhas) من نيبال من الأعراق المحاربة المفضلة. وأشار مؤيدون آخرون لنظرية الأعراق المحاربة إلى عوامل ثقافية من قبيل الانضباط والدين، ومن ثم كثيرًا ما أُدخِل السيخ ومسلمو البنجاب[٢٣].

---

(18) Summer, *The Indian Army*.

(19) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 19.

(٢٠) فمثلًا، اشتغل مئةٌ وواحد وعشرون رائدًا هنديًا في عام ١٩٠٤م في مد خط السكك الحديدية الخفيفة في ماتيران (Matheran) بطول ثلاثة عشر ميلًا. انظر:

Starling and Lee, *No Labour, No Battle*.

(21) Gaylor, *Sons of John Company*.

(22) Barua, "Inventing Race."

(23) Roy, "Race and Recruitment."

وإلى جانب الهند البريطانية، نظر مسئولو الإمبراطورية إلى منطقة الكاريبي وغرب أفريقيا لاستلهام كيفية استغلال العمال في الأعمال اللوجستية العسكرية، إذ تشكل أول فوج في الهند الغربية في أثناء حرب الاستقلال الأميركية، من العتقاء السود والعبيد الأفارقة المحررين بالشراء. وفي الفترة بين عامي ١٧٩٥ و١٨٠٨م، اشترت الحكومة البريطانية ما يقدر بثلاثة عشر ألفًا وأربعمئة عبدٍ لهذا الفوج، وذلك لأجل حماية أراضيها المختلفة في الكاريبي[٢٤]. أما أول فرقة عمال في الهند الغربية فقد تشكلت في أثناء الحروب النابليونية لدعم فوج الهند الغربية في قتاله الفرنسيين[٢٥]. وقد كان لجنود الكاريبي السود قيمة كبيرة لدى البريطانيين في حماية المناطق التي تتعرض فيها القوات البيضاء للأوبئة وفي المناخ الاستوائي الذي لا يحسنون القتال فيه. ولذلك جُلب فوج الهند الغربية إلى سيراليون وساحل الذهب البريطاني في الفترة بين أربعينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته ، وخاصةً في أثناء حروب الأشانتي القاسية[٢٦].

وتضيف التجربة البريطانية في جنوب أفريقيا المستعمر منطقةً أخرى كان العمل العسكري فيها مقسمًا تقسيمًا عرقيًا في أواخر عهد الإمبراطورية. فقد أسس البريطانيون مستعمرةَ ناتال على ساحل جنوب أفريقيا بعد سلسلةٍ من المواجهات العسكرية الصغيرة مع المستوطنين البوير البيض ودولة الزولو من السكان الأصليين. وبحلول عام ١٨٤٦م، كان ثيوفيلوس شيبستون (Theophilus Shepstone) أمينًا لشئون السكان الأصليين في المستعمرة، وأنشأ نمطًا خاصًا به من الحكم غير المباشر حيث نقل السكان الأفارقة الأصليين إلى محميات، واستورد عمالًا هنودًا وصينيين عُرفوا باسم «كوليز (coolies)» للعمل على بناء الصناعات الناشئة في قصب السكر ثم في تعدين الماس والذهب[٢٧]. ومع اندلاع حرب البوير الثانية (١٨٩٩-١٩٠٢)، اعتمد الجيش البريطاني على ما وصل إلى مئة ألف أفريقي أسود سموا بـ «العمال الأصليين» العاملين خلف خطوط الجبهة[٢٨]، وتطوع ألف هندي من ناتال، ومعهم الشاب موهنداس غاندي، للخدمة في فيلق الإسعاف الهندي[٢٩]. وضعت حرب الإنجليز والبوير الثانية تقسيمًا عرقيًا للعمل، إذ قامت قوات البيض على القتال، وقوات رجال جنوب أفريقيا والهنود والصينيين على العمل اللوجستي في خطوط الإمداد.

---

(24) Buckley, "British Army's African Recruitment Policy."

(25) Ellis, *History of the First West India Regiment.*

(26) Ukpabi, "West Indian Troops and the Defence of British West Africa in the Nineteenth Century."

(27) McClendon, *White Chief,* Black Lords; Du Bois, "Towards a New Labour Dispensation", 13.

(28) Pakenham, *The Boer War*, xxi.

(29) Brown, "The Anglo-Boer War."

وقد اعتمدت حروب الإمبراطورية البريطانية في مصر والسودان في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر أفكارًا مشابهة عن العرق والعمل العسكري. فبعد فترةٍ وجيزة من قضاء البريطانيين على ثورة عرابي وبدء احتلالهم مصر، أثارت قوات رجل يدعو نفسه المهدي - مجدد آخر الزمان في التراث الإسلامي - تمردًا عارمًا في السودان. وكان تشارلز جوردون (Charles Gordon)، أحد الجنرالات البريطانيين المشهورين، واليًا على الخرطوم من قبل الحكومة، وأصبح قضيةَ رأي عام في بريطانيا العظمى عندما أحاقت به قوات المهدي، حتى بعثت الحكومة البريطانية حملة تحرير جوردون التي انطلق فيها قرابة ثمانية عشر ألف جندي لكسر حصار الخرطوم، لكنهم تأخروا، وأصبحت المحاولات البريطانية لاستعادة السودان من المهدي الشغل الشاغل للجهود العسكرية في مصر طوال خمسة عشر عامًا بعدها. بُني الجيش الإنجليزي المصري في هذه الحملات على أساس تراتبية عرقية، فكان الضباط البيض على رأسها، وتحتهم في الوسط ضباط ذوي أصولٍ عثمانية، ثم قوات المشاة المصريين، وقام على الأعمال اللوجستية الفلاحون مع سكان أميركيين أصليين مستَوردين، وكلهم يقاتلون معًا قوات المهدي السودانية السوداء[٣٠]. وأنشأ البريطانيون منصبًا جديدًا للقيادة العامة للجيش، لُقِّب بالسردار، وأصبح من يشغله حاكمًا عامًا للسودان بعد استعادتها، وكان رجلًا إنجليزيًا أبيض له مقر خاص في القاهرة.

التجأ الجيش الإنجليزي المصري إلى الاعتماد على العمالة المستوردة في الأعمال اللوجستية العسكرية في السودان. ففي أثناء حملة تحرير جوردون، استُجلب ثلاثمئة وستة وثلاثون كنديًا، منهم ستة وثمانون فردًا من قبائل الأمم الأولى (First Nations) ليعملوا «ملَّاحين على النيل» فيساعدوا قوارب الحملة على الإبحار صعودًا في جنادل النيل الستة[٣١]. وكانت هذه أول حملة يخرج فيها الكنديون في نزاع إمبراطوري بريطاني خارج بلادهم. وكذلك لعب الفلاحون المصريون دورًا مهمًا في الحملة، بخمسة آلاف رجل وفتىً تعاقدت معهم وكالة السفر الخاصة توماس كوك (Thomas Cook) ليعينوا على نقل ثمانين ألف طن من المؤن من الإسكندرية حتى قاعدة العمليات الأمامية في وادي حلفا، على بعد سبعمئة وثلاثة وتسعين ميلًا على النيل جنوبي القاهرة[٣٢]. وحين تعطل تقدمها، انقسمت الحملة إلى رتلين، وأرسلت قوةً بالجمال قوامها ثلاثة آلاف رجل تقريبًا في طريق مختصر ليتجنبوا انحناءً في النهر. [وفي النهاية،] تغشَّت قوات المهدي حامية الخرطوم، لكن الجيش الإنجليزي المصري تعلم دروسًا قيمة عن اجتياز

(30) Cookson-hills, "Historical Perspectives", 67; Troutt-Powell, *A Different Shade.*

(31) Jackson, *Our Caughnawagas in Egypt.*

(32) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 19.

التضاريس الصحراوية في تموين جيشهم، ثم استردوا السودان مرةً أخرى في عام ١٨٩٨م.

انطلق الجيش الإنجليزي المصري من هذه الدروس فأنشأ مدرسةً لتدريب فيلق هجانة صغير، كان غرضها المعلن «تمكين القائد العام من تجهيز فيلق بريطاني صغير للطوارئ»(٣٣). وبحلول عام ١٩١٣م، احتوت المدرسة ثمانية وتسعين [نفرًا] مُدرَّبًا على قيادة الجمال(٣٤). ويبدو أن فيلق الهجانة الإنجليزي المصري عُدَّ أرقى ما في عصره، إذ احتفظت السجلات البريطانية بطلباتٍ من المسئولين الألمان والطليان للحصول على دوراتٍ تدريبية لرجالهم فيه(٣٥).

كانت الإمبراطورية البريطانية عشية اندلاع الحرب قد خَبَرت لسنوات طويلة تجنيد العمال في الأنشطة اللوجستية العسكرية. وكان الأمر في البداية على أن تجنيد المحليين في نزاعات الأماكن النائية من مثيلي الهنود والأميركيين لأسباب عملية. وتدريجيًا، ساهمت الأفكار المتعلقة بوجود صفاتٍ عرقية خاصة لعمال الأنشطة اللوجستية في وضع خططٍ معقدة لنقل العمال إلى جميع أنحاء العالم. وربما كانت حرب البوير الثانية أصرح مثالٍ سابق على الحرب العالمية الأولى، بما جرى فيها من استيراد العمال الهنود والصينيين والاعتماد الشديد على «العمال الأصليين»، لكن الحملات العسكرية البريطانية في مصر والسودان في أثناء الحروب المهدية كان لها هي الأخرى دور مهم.

شرقيون على الجبهة الغربية

قد لا نجد في التاريخ الحديث حدثًا لاقى ما لاقاه اندلاع الحرب العالمية الأولى من اهتمام، فقد اشتعلت نيران أغسطس بعد اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانز فرديناند (Franz Ferdinand)، لتطلق نسقًا معقدًا من التحالفات دفعَ روسيا في النهاية نحو تعبئة قواتها، فأعلنت ألمانيا الحربَ ردًا عليها. وانطلق الألمان غربًا آملين أن يقطعوا الطريق على فرنسا حليفة روسيا قبل أن تجمع قواتها. لكن بدلًا من اقتحام مركز الخط الفرنسي شديد التحصين في الألزاس واللورين، حاول الألمان المناورة بالالتفاف من الشمال عبر بلجيكا. فدفع هذا القرار المشؤوم البريطانيين للتدخل، وبحلول خريف عام ١٩١٤م،

---

(33) TNA, FO 371/1637 No. 9546: Grey to Kitchener (February 28, 1913).

(34) TNA, FO 371/1637 No. 9546: Kitchener to Grey (March 22, 1913).

(35) TNA, FO 371/1640 No. 51569: «Course of Instruction with Camel Corps» (November 13, 1913); TNA, FO 371/1965 No. 3144: Kitchener (January 22, 1914); TNA, FO 371/1965 No. 3494: Kitchener (January 14, 1914).

تعاضدت الجبهة الغربية فأنشأت خطوطًا من الخنادق امتدت من بحر الشمال وحتى سويسرا، لم تكد تتزحزح على مدار ما تلا ذلك من سنوات القتال الأربع.

لكن الدور المهم الذي اضطلع به العمال وجنود المستعمرات على الجبهة الغربية لم يحظَ بشهرة كافية. فعندما اندلعت الحرب، قدَّم الجيش البريطاني الهندي فرقتين من الفرسان وأخريين من المشاة للخدمة في فرنسا[٣٦]، وشاركوا في معركة إيبر (Ypres) في نوفمبر من عام ١٩١٤م، وقادت فرقة مشاةٍ هندية الهجومَ في معركة نوف شابيل (Neuve Chapelle) في مارس من عام ١٩١٥م[٣٧]. ثم التمس البريطانيون خدمات العمال الهنود لمساعدة القوات الهندية في نوف شابيل، ونظّموهم في فيلق البغال الهندي[٣٨]. فمثلت هذه التجربة المبكرة دلالة على جدوى فكرةٍ نفذت على نطاقٍ واسع مع تطور الحرب. لكن قوات المشاة الهندية لم تبقَ في أوروبا طويلًا، إذ لم يكونوا يألفون البرد ولم يتلقوا التدريب الكافي على الأسلحة الآلية، فسُحبوا إلى مصر في أكتوبر من عام ١٩١٥م، حيث أُدمِجوا أخيرًا في التجريدة المصرية[٣٩].

اعتمد البريطانيون بداية الحرب على العمال المدنيين المحليين من فرنسا وبلجيكا في الجبهة الغربية، وذلك اتباعًا لما نصت عليه لائحة الخدمة الميدانية الصادرة في عام ١٩٠٩م[٤٠]. واشتغل العمال المدنيون بالأساس في الموانئ العسكرية لتفريغ السفن وتنظيم محتوياتها من كل شيء كالطعام والأغطية والذخيرة. ومن ثم، كان فيلق خدمات الجيش مسئولًا عن نقل هذه المؤن من أرصفة الموانئ إلى الجبهة. لكن بحلول عام ١٩١٥م، ساور القلقُ قيادة الأركان البريطانية في فرنسا بسبب نقص العمال الناشئ عن سحب الحكومة الفرنسية للعمال المدنيين الفرنسيين لإدراجهم في الجيش[٤١]. إذ عنى نقص العمال بطء حركة السفن وتأخر المؤن عن القوات على الجبهة. وفوق ذلك، كان طلب الجيش البريطاني على العمال يزداد يومًا بعد يوم مع زيادة قوته في أوروبا[٤٢].

---

(36) Riddick, *The History of British India*, 97.

(37) Summer, *The Indian Army*, 5.

(38) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 164.

(٣٩) لكن سلاح الفرسان الهندي ظل يخدم في الجبهة الغربية. انظر:

Rashid, "Colonial Labour Migration."

(٤٠) انظر:

Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 77.

(41) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 78.

(٤٢) ارتفع عدد الجيش البريطاني في فرنسا من مئتين وسبعين ألفًا من الرجال في نهاية عام ١٩١٤م إلى أربعمئة وأربعة وستين ألفًا بحلول الأول من أبريل من عام ١٩١٥م. انظر:

أصبح نقص العمال حادًا في الفترة السابقة على هجوم السوم Somme في عام ١٩١٦م. فبدأت سلطات الحلفاء العسكرية النظر إلى مستعمراتها بوصفها مصادرَ لما سمَّوه بـ «العمالة الملوَّنة» أو «الأصلية». ففي حالة الفرنسيين، كانت هناك قوات من الجزائر وغرب أفريقيا تخدم في قوات المشاة منذ خريف عام ١٩١٤م. وفي عام ١٩١٥م، أعلن المسؤول العسكري الفرنسي شارل مونجان (Charles Mangin) نيته تجنيد فرقةٍ سوداء من خمسمئة ألف رجل من المستعمرات للمعاونة في الجهود الحربية عمالًا وجنود مشاة[٤٣]. ولم يأت السابع عشر من مارس من عام ١٩١٥م حتى بدأ الفرنسيون مداولة مع الحكومة الصينية عن توفير عمالٍ للمعاونة في الحرب[٤٤]. وفي النهاية، أرسلت الصين -التي لم تكن مستعمرةً رسمية لأي دولة، ولكنها كانت خاضعة لنفوذ قواتٍ أوروبية متعددة بفعل سياسة الباب المفتوح مئةً وأربعين ألف عامل للاشتغال على الجبهة الغربية في هيئة عملٍ دبلوماسي خارجي من الحكومة الصينية[٤٥]. وقد حشد البريطانيون إلى جانب العمال الهنود والصينيين عمالًا من منطقة الكاريبي في فيلق عمال الهند الغربية البريطاني، وشكَّلوا من السود في جنوب أفريقيا فيلقَ العمال الأصليين من جنوب أفريقيا، ومن الرجال مختلطي العرق كتيبةَ الرأس (Cape) الملوَّنة[٤٦].

بدأت السلطات البريطانية في إطار ذلك بالنظر إلى مصر بوصفها مصدرًا محتملًا للعمال على الجبهة الغربية. فأرسلت وزارة الخارجية في الرابع عشر من مارس من عام ١٩١٦م برقيةً إلى أعلى مسئول بريطاني في مصر -وكان يُلقب بعد إعلان الحماية بالمندوب السامي تنقل فيها رغبتَها في «تشكيل فيلق عمال مصري يضطلع بأعمال الشحن والتفريغ في الموانئ العسكرية الفرنسية». وجاء في البرقية أيضًا طلبٌ آخر بتجنيد ما أقصاه ألف رجلٍ بعقود عملٍ تستمر لستة أشهر، مع إمكانية زياداتٍ أخرى[٤٧]. لكن في نهاية المطاف، تبيَّنت صعوبة تطبيق هذا المخطط لأن السلطات

Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 81–82.

(43) Koller, "Recruitment of Colonial Troops"; Fogarty, *Race and War*.

(44) Xu, *Strangers on the Western Front*, 17.

(45) Xu, *Strangers on the Western Front*, 17.

(46) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 95.

(47) TNA, FO 141/797/2 No. 2689: MacMahon (March 24, 1916).

المحلية الفرنسية اعترضت عليه بدعوى أن المصريين سيستولون على وظائف العمال المدنيين الفرنسيين(٤٨).

لكن في يناير من عام ١٩١٧م، وعلى رغم إلغاء الخطط الأولية، أُرسل طلبٌ آخر إلى القاهرة يطلب ألفًا من المصريين للعمل في مرسيليا (Marseilles)، وبعدها بشهر، طُلب عشرة آلاف آخرون للعمل في الموانئ العسكرية شمالي فرنسا(٤٩). وسرعان ما تأسست قاعدة أساسية لفرقة العمال المصرية في مرسيليا، وعُيِّنت إدارة الأشغال على الجبهة الغربية مستشارةً لشؤون العمالة المصرية(٥٠). وصلت أول سريتين من سرايا فرقة العمال المصرية إلى مرسيليا في الرابع والعشرين من مارس من عام ١٩١٧م، وطوال الربيع والصيف من ذاك العام، وفد المزيد منهم على موانئ دنكرك وكاليه وبولون (Boulogne) وآفر (Havre) وروو (Rouen)(٥١). وطوال الفترة بين ربيعي ١٩١٧ و١٩١٨م، لم يقل عدد أفراد فرقة العمال الذين يخدمون في فرنسا عن عشرة آلاف رجل(٥٢). لكن مع انتهاء عقود غالبهم في منتصف عام ١٩١٨م، تقرر نقلهم خارج فرنسا(٥٣).

عملت فرقة العمال المصرية في فرنسا ثم سافرت للعمل في مدينة تارانتو (Taranto) الساحلية الإيطالية. ففي الرابع والعشرين من أكتوبر من عام ١٩١٧م، أصبحت إيطاليا

---

(48) TNA, FO 141/797/2: FO to HC (April 11, 1916); the National Archives, London, Cabinet Files (hereafter cited as TNA, CAB) 37/145/28: «Proceedings of a Meeting of the War Committee» (April 11, 1916).

(49) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 275.

(50) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 275.

(51) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 275.

(٥٢) إن السؤال عن العدد الدقيق لرجال فرقة العمال المصرية الذين خدموا في فرنسا سؤالٌ عسر، إذ نجد تقريرًا رسميًا يحدد عددهم بعشرة آلاف وأربعة وعشرين رجلًا. انظر:

TNA, WO 107/37: «Controller of Labour Report» (November 14, 1919).

لكن المصادر الثانوية باللغتين العربية والإنجليزية ترجحان أن العدد أقرب لخمسة عشر ألفًا. انظر: أمين عز الدين، أول دراسة؛

Starling and Lee, *No Labour, No Battle*.

ويبدو أن ما يورده كريستيان كولر (Christian Koller) هو الشذوذ الإحصائى فى هذا الأمر، إذ يشير إلى اثنين وثمانين ألف مصري خدموا فى أوروبا، ويبدو أنه يخلط بين العدد الكلي للمصريين العاملين في الحرب في وقتٍ بعينه وعدد المصريين العاملين في فرنسا طوال فترة الحرب. انظر:

Koller, "Recruitment of Colonial Troops".

(٥٣) دُرست إمكانية إرسال سريتين أخريين من فرقة العمال المصرية للعمل في مرسيليا في شهر يونيو، لكنها لم تتحقق بسبب ارتفاع الطلب في جبهات أخرى. انظر:

Starling and Lee, No Labour, No Battle, 276.

ميدانًا فرعيًا من ميادين الحرب عندما هاجمت القوات النمساوية والألمانية الطليان في كابوريتّو (Caporetto). ومع وصول الجنود البريطانيين إلى خطوط الجبهة الإيطالية في الرابع من نوفمبر من عام ١٩١٧م، استُعمِل ألفان وتسعةٌ من رجال فرقة العمال لدعمهم(٥٤)، واختار البريطانيون تارانتو لتكون نقطة عبور القوات والمعدات الآتية من الدردنيل ومصر إلى إيطاليا. وصلت سرايا فرقة العمال في يوليو وعمِلوا في بناء الأرصفة ونصب المعسكرات للقوات(٥٥)، وأصبحت الفرقة بحلول سبتمبر من عام ١٩١٧م، المصدرَ الأساسي للعمالة في تارانتو، وقال أحد الجنرالات عن ذلك: «كان العمل كله [في تارانتو] بيد المصريين، الذين تولوا تموين السفن والقطارات وغيرهما بالفحم وشحنها وتفريغها، وبناء الأرصفة والسكك الحديدية والأكواخ»(٥٦). اكتسبت فرقة العمال سمعةً طيبة، لكنهم بدأوا في العودة إلى مصر مع انتهاء عقودهم في الفترة بين أكتوبر وديسمبر من عام ١٩١٧م(٥٧)، واستورد البريطانيون محلهم سرايا من فيلق عمال الهند الغربية من فرنسا(٥٨).

الحرب على الإمبراطورية العثمانية

كان عدد عمال الفرقة المصرية العاملين على الجبهة الغربية كبيرًا، لكن الجبهات المتعددة التي قاتل عليها البريطانيون الإمبراطوريةَ العثمانية كانت أكبر مصادر الطلب على عمال الفرقة. فطوال الحرب، شارك مئات الآلاف من رجال فرقة العمال المصرية في مواجهات دفاعية وهجومية ضد قوات العثمانيين، ولعبوا دورًا مهمًا في حملات على سوريا وفلسطين والعراق وشمال أفريقيا والدردنيل.

وقد شهدت جهود الدفاع عن قناة السويس ضد الهجوم الألماني العثماني في يناير من عام ١٩١٥م أول توظيف للمصريين في الحرب. فكان مركز قيادة خطوط دفاع ماكسويل في الإسماعيلية، وتفرعت عنه قطاعات في بورسعيد شمالًا والسويس جنوبًا. كانت وسيلة النقل الأكثر فعالية هي خط سكة حديدية أحادي المسار يسير محازيًا الضفة الغربية للقناة، ويتقاطع مع خط السكك الحديدية الرئيسي الرابط بين القاهرة والإسماعيلية. ولم تكن هناك غير ذلك طرقٌ في منطقة القناة، وأدى انتشارُ البحيرات والمستنقعات إلى جعل الحركة على الأقدام أو وسائل النقل ذات العجلات أمرًا يكاد

---

(54) TNA, CAB 27/14.

(55) TNA, WO 95/4255: «War Diaries: Taranto."

(56) TNA, WO 107/37: «Controller of Labor Report» (November 14, 1919).

(57) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 187–188.

(58) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 187–188.

يكون مستحيلًا[٥٩] وهنا في هذه الظروف، أصبحت الجمال وسيلة النقل الأساسية لجلب المؤن للدفاع. فطلب ماكسويل مع الجمال جمَّالين لقيادتها، وجرى التعاقد مع قرابة الألف جمَّال مصري ليكونوا جزءًا من الهجَّانة المعينين، ووُزِّعوا على طول خط الدفاع[٦٠]. لكن بعد الانسحاب العثماني وما تلا من سكون، رُد غالب الجمال إلى أصحابها وقُلِّصت قوة الهجَّانة المعينين[٦١].

وجد القادة الألمان والعثمانيون استراتيجيةً ظنوها واعدة، ألا وهي استغلال اتساع الإمبراطورية البريطانية بمهاجمة مستعمراتها، لكنهم فشلوا. فقد كان المسئولون الألمان -الذين أسهموا في الخطاب العالمي الذي يصنِّف المسلمين عرقيًا يرجون أن يثير هجوم القوات العثمانية وحلفائها «الإسلاميين» من جميع الجوانب، التمرد في مصر ويشتت البريطانيين عن أهم الجبهات، جبهة منطقة قناة السويس[٦٢]. ولذلك، بُعث وفد عثماني ألماني إلى ليبيا في فبراير من عام ١٩١٥م لضم الدولة السنوسية غرب البلاد إلى الهجوم على مصر[٦٣]، وقدَّم العثمانيون الرشاشات والمدفعية والأموال، وحملتها الغواصات الألمانية لدعم الهجوم[٦٤]. هاجمت القوات السنوسية، من قاعدتها في واحة سيوة، المدنَ الصغيرة المنتشرة على ساحل البحر المتوسط والواحات المتناثرة جنوب غرب الصحراء المصرية. إلا أن قوةً مشتركة من الأستراليين والنيوزيلنديين (الأنزاك ANZAC) والهنود والمصريين صدت هجوم السنوسية واستردت الساحل الغربي في فبراير من عام ١٩١٦م، بعد انسحاب تكتيكي[٦٥]. وقد استُدعيت فرقة العمال المصرية للخدمة في هذه الحملة وبنوا المعسكرات للقوات والمستودعات والطرق بطول الساحل

---

(59) Elgood, *Egypt and the Army*, 77–78.

وانظر أيضًا مقالة «المياه في سينا والحملة العثمانية» في جريدة الأهرام بتاريخ الخامس عشر من فبراير من عام ١٩١٥، التي تصف العمال وهم «يُكلَّفون جر المدافع والعربات لأن الخيول والثيران كانت تغرز حوافرها بالرمال فلا تستطيع الجر».

(60) Badcock, *History of the Transport Services*, 20–22.

(61) Badcock, *History of the Transport Services*, 25.

(٦٢) كان الألمان من أشد المؤيدين لأيديولوجيا الجامعة الإسلامية، وأملوا في الانتفاع من قدرتها المُفترضة لخلق تضامن بين المسلمين في جميع أنحاء العالم في أثناء الحرب. انظر:

Avci, "Pan-Islamism and the Jihad Discourse."

(63) Evans-Pritchard, *Sanusi*, 121.

(64) Falls and MacMunn, *Military Operations*, 104–105.

(٦٥) حصل بعض المصريين على ميداليات نظير مشاركتهم، منهم الكابتن محمد أفندي عزمي، واللفتننت حنا واصف، والملازمين الثانيين علي أفندي الصبيحي وزايد أفندي الأمين. انظر: «مكافأة الضباط»، الوطن، ٢ نوفمبر ١٩١٨م.

الغربي[٦٦]. وكذلك قاد العمال المصريون الجمال التي يسرت تزويد العديد من نقاط الاشتباك الصغيرة المتناثرة في جميع أنحاء واحات الصحراء الغربية في مصر[٦٧].

نبَّهت معارك السنوسية البريطانيين إلى جيران مصر الآخرين. فأرسل البريطانيون في السابع والعشرين من فبراير من عام ١٩١٦م قوةً من الجيش الإنجليزي المصري إلى دارفور، في حربٍ استباقية على سلطان الفور (من السلالة الكيراوية) علي بن دينار[٦٨]. فأرسل بعض سرايا فرقة العمال المصرية إلى السودان للمساعدة في نقل المؤن عبر نهر النيل، متبعةً خطى حملة تحرير جوردون قبل ثلاثين عامًا[٦٩]. وكان ذلك ميدان الحرب الوحيد الذي شهد فيه الجيش الإنجليزي المصري أي نشاطٍ ذا قيمة، وذلك بإرسال أكثر من خمسة عشر ألف جندي لغزو دارفور واحتلالها[٧٠]. وربما ليس من قبيل المصادفة أن كان ذلك أيضًا هو الميدان الوحيد الذي حارب فيه المصريون الأفارقةَ السود، معيدةً بذلك تمثيل التقسيم العرقي للعمل من الحروب المهدية في ثمانينيات القرن التاسع عشر وتسعينياته.

مهاجمة العثمانيين في غاليبولي والعراق

وكما كان يرجو القادة العثمانيون والألمان استغلال اتساع الإمبراطورية البريطانية ضدها، سعت السلطات العسكرية البريطانية وراء استغلال الإمبراطورية العثمانية المنهكة من اتساعها، التي لطالما عُدَّت «رجل أوروبا المريض»، وكانت الحرب ذريعة البريطانيين والفرنسيين ليطلقوا عليها الرصاصة الأخيرة. وكان المفترض أن الانتصارات السهلة على العثمانيين سترفع الروح المعنوية، وتمثل فرصة للبريطانيين والفرنسيين للخروج من الحرب أقوى مما كانوا عند دخولها بفعل ما ضموه إلى إمبراطوريتهما من مستعمراتٍ جديدة[٧١].

---

(٦٦) «فرقة العمال»، جريدة المقطم، ١٧ سبتمبر ١٩١٧م.

(٦٧) «سيفرِّغ مئةً وخمسون رجلا ما يصل لمئة طن من المؤن من السفن في يوم واحد من أيام الحملة». «فرقة العمال»، جريدة المقطم، ١٧ سبتمبر ١٩١٧م.

(٦٨) لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص٢٣٩.

(٦٩) «فرقة العمال»، جريدة المقطم، ١٧ سبتمبر ١٩١٧م.

(٧٠) انظر: **صفحات من مذكرات شيخ مجهول**، سمير عزت، روز اليوسف، ١٧ يونيو ١٩٦٨م؛ لتجد مثالاً عن عامل من الفرقة المصرية التى اشتغلت فى دارفور. وتقدِّم لطيفة سالم فى **مصر فى الحرب العالمية الأولى** (ص٢٣٨) تفاصيل عن هذه العملية. ونجد فى (TNA, FO 141/797/2 No 17/2689) «مقطعًا مستخرجًا من برقية أرسلها موراي» (الرابع والعشرون من مايو من عام ١٩١٧م) تذكر أن «خمسة عشر ألف رجل متطوع من الجيش المصري» يخدمون في دارفور.

(71) Elgood, *Egypt and the Army*, 222.

وبنهاية عام ١٩١٤م، تشكلت حملة البحر المتوسط (MEF) لتطلق هجوم الحلفاء على غاليبولي، ووقع هجوم بحري في الثامن عشر من مارس من عام ١٩١٥م، بأسطول قوامه ثمانية عشر بارجة كانت راسية في ميناء مودرُس (Mudros) على جزيرة لِمنُس (Lemnos) اليونانية. كانت الإسكندرية قاعدة الحملة الرئيسية وبدأ الجنود يتوافدون من يناير من عام ١٩١٥م على القاهرة والإسكندرية من إنجلترا وأستراليا ونيوزيلندا والهند، وذلك لتدريبهم وتجهيزهم للسفر بحرًا إلى غاليبولي. بدأ الغزو في مارس من عام ١٩١٥م، لكن الدفاعات العثمانية فاجأت الحلفاء وتمكنت القوات العثمانية من إطلاق هجماتٍ مضادة أجبرتهم على التراجع طوال شهري أبريل ومايو. وبحلول الصيف كان الجانبان قد وصلا إلى طريقٍ مسدود، وتخندقا في شبه الجزيرة.

كان المصريون المشاركون في حملة غاليبولي أول من خدم خارج البلاد، وكان ذلك لاعتباراتٍ عملية بسبب موقع قاعدة حملة البحر المتوسط في الإسكندرية. ومع استمرار القتال في الصيف، زاد الطلب على العمالة المساعِدة لتيسير خطوط الاتصال ونقل المؤن. وبنهاية حملة غاليبولي، وصل عدد من جندهم البريطانيون في فرقة العمال المصرية للخدمة في الدردنيل إلى ثلاثة آلاف عامل[٧٢]. وإلى جانب عملهم على أرصفة لِمنُس وإمفرُس (Imbros)، أرسلت فرقة العمال المصرية إلى شبه الجزيرة نفسها للخدمة في هِلِس (Helles) وخليج سوفلا (Suvla)[٧٣]. وقد فرَّغ استعمالُ رجال فرقة العمال المصرية خلف خطوط الجبهة جنودَ فيلق الأستراليين والنيوزيلنديين للقتال في الخنادق. لكنهم لاقوا سلسلة هزائم متتابعة من العثمانيين، فقررت حملة البحر المتوسط الجلاء عن غاليبولي نهاية عام ١٩١٥م. وانفتحت في أكتوبر جبهةٌ جديدة في سالونيك فتحولت إليها حملة البحر المتوسط وإلى منطقة قناة السويس في مصر. فانتقلت إحدى سرايا فرقة العمال المصرية إلى سالونيك في مارس من عام ١٩١٦م[٧٤]، وعمِلت أساسًا في مد خطوط السكك الحديدية وحراسة البنية اللوجستية التحتية[٧٥].

وكذلك رأى البريطانيون فرصةً سانحة في الولاية العثمانية بالعراق. ففي عام ١٩٠٨م، اكتشف رجل أعمال بريطاني النفط جنوب غربي إيران وأسس الشركة الإنجليزية الفارسية للنفط (APOC، والمعروفة اليوم ببريتش بتروليَم BP: البترول البريطاني)، وبُنيت مصفاة نفط في عام ١٩١٣م في عبادان. وبعدها بعام، وقبل اندلاع

---

[72] Starling and Lee, No Labour, No Battle, 107;

أمين عز الدين، أول دراسة عن سبب هام من أسباب ثورة ١٩١٩.

[73] Starling and Lee, *No Labour, No Battle.*

[74] Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 210.

[٧٥] فرقة العمال، جريدة المقطم، ١٧ سبتمبر ١٩١٧م.

الحرب، حصلت الشركة الإنجليزية الفارسية للنفط على امتياز تزويد الأسطول البريطاني بالوقود المشحون عبر قناة السويس في مصر. وسرعان ما سخَّر البريطانيون فرقةً من الجيش الهندي عند اندلاع الحرب لحماية مصفاة عبادان. وعندما دخل العثمانيون الحرب، بدأوا بتركيز جيشهم الرابع شمالي العراق في الموصل وبغداد. فاحتلت القوات الإنجليزية الهندية مدينة البصرة في نوفمبر من عام ١٩١٤م، في ضربةٍ استباقية لتأمين المصفاة، ثم تقدَّموا عبر نهر دجلة، وهزموا العثمانيين في معركة الشعيبة في أبريل من عام ١٩١٥م، واستمروا في التقدم رغم امتداد خط تموينهم لأكثر من مئةٍ وخمسين ميلًا في بلد ليس بها سكك حديدية ولا طرق[٧٦]. وبعد المسير لأربعين ميلًا طوال أسبوعين في ظروفٍ جوية قاسية، انهزم الجيش البريطاني في معركة المدائن وانسحب إلى قلعة الكوت حيث حاصره العثمانيون حتى أبريل من عام ١٩١٦م[٧٧].

بيَّنت جهود فك الحصار قصور طرق الإمداد وسوء تنظيم العمالة في سنوات الحملة الأولى. إذ حاول البريطانيون مرتين إمداد القلعة وفشلوا، وأصيب منهم ثلاثة وعشرون ألفًا[٧٨]، وأعاقهم بشدة نقصُ البنية اللوجستية التحتية في البلاد. إذ كان الحال أنه عندما تصل السفن إلى البصرة، يجب عليها الرسو بعيدًا عن الشاطئ حتى تُفرِّغ حمولتها في قوارب صغيرة تنقلها إلى الشاطئ، ثم تُفرَّغ وتُخزَّن في مخازن الإمدادات. وكذلك كان هناك نقص في المخازن، وانعدام تقريبًا للسكك الحديدية والطرق إلى الشمال. وفي أثناء حصار الكوت المُحرِج، طوَّر البريطانيون ميناء البصرة كي يعجِّلوا عملية تفريغ السفن، وأمروا ببناء معسكرات للاستراحة ومخازن للإمدادات تستقبل الرجال والعتاد من الميناء[٧٩]. وهنا واجهوا أزمةً في الحصول على العدد الكافي من العمالة المدنية اللازمة لكل هذا البناء الجديد، إذ لم يكن من يوصفون بالعرب المحليين موضع ثقة، وكان عدد الإيرانيين الممكن استيرادهم محدودًا، وعورِض استيراد المزيد من العمالة الهندية لأسبابٍ سياسية[٨٠]. فوصل عمالٌ من مصر ليدعموا قوة العمالة في العراق في مارس من عام ١٩١٦م[٨١]، وفي أكتوبر، جاء مع فرقة العمال المصرية ستة ضباط آخرون ومعهم ألفان وخمسمئة واثنا عشر رجلًا[٨٢].

أرسل البريطانيون قائدًا جديدًا في محاولةٍ منهم تكثيف جهودهم في العراق بعد الاستسلام في الكوت، ووافقوا على هجومٍ جديد على بغداد. وبحلول مارس من عام

---

(76) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 170.
(77) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 172.
(78) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 173.
(79) Barker, *The Bastard War*, 271–272.
(80) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 175.
(81) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 174, 209.
(82) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 174.

١٩١٧م، نجحوا في الاستيلاء على المدينة وانسحب العثمانيون إلى الموصل. ثم كان التقدم الثاني أبطأ وأكثر منهجية، إذ اشتغل فيه العمال بإقامة البنية التحتية لتمهيد كل خطوة من خطى الطريق. وعُدَّت فرقة العمال المصرية مصدرًا مجرَّبًا وناجعًا للعمالة بناءً على تجربتها في غاليبولي ومصر، فأُرسِل إلى العراق بحلول يونيو من عام ١٩١٧م خمسةُ آلاف ومئتان وأربع وعشرون (٥٢٢٤) رجلًا آخرين. بلغ عدد العمال المصريين من فرقة العمال الذين خدموا في الحملة ثمانية آلاف رجلٍ، من إجمالي قوة عاملة جاوزت الخمسين ألفًا بقليل، واشتملت على رجالٍ من الهند وإيران والعراق[٨٣]، واشتغلوا غالب وقتهم في استصلاح الأراضي وبناء الأرصفة والممرات ومد خط سكك حديدية خفيف شمال البصرة[٨٤].

التقدم عبر سيناء-فلسطين

جرَّب البريطانيون العثمانيين بهجمات على أقصى شمالهم الغربي في الدردنيل وأقصى جنوبهم الشرقي في العراق، وفي الوقت نفسه بدأوا التحضير للتقدم مباشرةً إلى قلب الإمبراطورية عبر هجومٍ ذي جناحين على سوريا. وأشهر وقائع هذا الجناح من الهجوم هو ما بدأ من ولاية الحجاز في شبه الجزيرة العربية تحت راية شريف مكة الهاشمي، واشترك في القيادة توماس إدوَرد لورنس (T. E. Lawrence) المعروف بـ «لورنس العرب» الذي عمِل في المكتب العربي البريطاني بالقاهرة. شاركت قواتٌ مصرية قليلة العدد مع لورنس في حملته، ومعهم ضباطٌ بريطانيون وجمَّالة من البدو[٨٥]. لكن في جانب أعداد الرجال والعتاد، كان الجناح الثاني للهجوم أهم بكثير، وهو الذي دخل سوريا من مصر عابرًا شبه جزيرة سيناء وفلسطين. وقد أصبحت حملة سيناء-فلسطين مصدر الطلب الأهم مطلقًا على فرقة العمال المصرية في الحرب بفعل الأهمية الاستراتيجية والرمزية التي حملتها والتحديات اللوجستية التي فرضتها.

في عام ١٩١٦م، ورد إلى الحلفاء حين جلائهم عن غاليبولي وتوجههم نحو قواعدهم في الإسكندرية، تقارير بأن قوات عثمانية تتجمع في فلسطين وسوريا. فقرر الحلفاء دمج غالب حملة البحر المتوسط في التجريدة المصرية المشكَّلة حديثًا تحت قيادة أرشيبالد موراي

---

(٨٣) تتفق المصادر الغربية (من مثيل السير تشارلز برستون لوكَس المذكور في: Starling and Lee, *No Labour, No Battle*، ٢٧٨) مع الأرقام العربية (من مثيل أمين عز الدين في أول دراسة، ولطيفة سالم في مصر في الحرب، ص٢٤٥) التي تضع عدد العمال في بلاد الرافدين عند ثمانية آلاف وخمسمئة. ونجد أن خطابًا من موراي إلى ونجت في الرابع والعشرين من مارس من عام ١٩١٧م (TNA, FO 141/797/2 No 10/2689) يحدد الرقم العامل في «فرنسا والعراق وغيرهما» في ربيع عام ١٩١٧م بثلاثة وعشرين ألفًا.

(84) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 210.

(85) Lawrence, *Seven Pillars*, 521–524.

(Archibald Murray) بالقاهرة[٨٦]. بدأ موراي اختراق الصحراء شرق قناة السويس، وتأسست رسميًا فرقة النقل بالجمال لتساعد في إمداد هذه القوات المتقدمة. وفي ديسمبر من عام ١٩١٥م، صدر أمر بتجنيد لواءين من الفرقة يتكون كل واحد منهما من عشرة آلاف جمل وجمَّاليها، وانتقلت قاعدة الفرقة من الإسماعيلية إلى عين شمس على أطراف القاهرة، وجُمع ألفان وعشرون جملًا على الفور لتشكيل أول سرية[٨٧]. وفي المجمل، أُمر بتشكيل عشرة سرايا تضم كل واحدة ألفين وعشرين جملًا، وعشرين حصانًا، وألفًا ومئةً وثمانية وستين جمَّالًا، مع عشرة ضباطٍ بريطانيين[٨٨]. وبحلول منتصف سبتمبر من عام ١٩١٦م، اشتملت فرقة النقل بالجمال على ثلاث عشرة سرية يمكنها نقل الشحنات من مخازن الإمداد عند نهاية خطوط السكك الحديدية القائمة وحتى الخطوط الأمامية الجديدة شرق القناة[٨٩]. وحتى بناء خطوط السكك الحديدية ومد أنابيب المياه، كان على فرقة النقل بالجمال نقل المياه والطعام والأغطية والعتاد والذخيرة كلها عبر صحراء سيناء. وفرضت زيادة عدد الحيوانات إنشاء فرقة بيطرية ترعاهم، فتأسست «فرقة الرعاية البيطرية للجمال» وأُلحِقت بالتجريدة المصرية.

بدأ موراي التحضير لتقدم شامل عبر سيناء، فاحتل واحة قطية خارج قسم رمانة، ووضع أساس أعمال الإمداد الخاصة بالتقدم. فأنشأت التجريدة المصرية ثلاثة خطوط سكك حديدية، امتد أكثرهم تقدمًا اثنا عشر ميلًا في الصحراء، وطوَّرت خط الزقازيق–الإسماعيلية ليصبح خطًا مزدوجًا بعد أن كان أحاديًا. وكانت الطرق الجيدة ضرورية للحملة، فشقت فرقة العمال المصرية في عام ١٩١٦م مئتي ميلًا من الطرق الجديدة في سيناء[٩٠]. وكذلك احتاجت التجريدة المصرية مصدرًا لمياه الشرب في الصحراء، فبدأ العمل في فبراير من عام ١٩١٦م في مد خط أنابيب مياه من القنطرة على الضفة الشرقية للقناة إلى واحة قطية. وبُني خط سكك حديدية شرقي رمانة محتضنًا ساحل البحر المتوسط، إذ افتُتِح المسار الأول في التاسع عشر من مايو من عام ١٩١٦م من

---

(86) Elgood, *Egypt and the Army*, 222–226.

(87) Badcock, *History of the Transport Corps*, 21.

(٨٨) لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص٢٤٥.

(٨٩) انظر لأرقام السرية:

Badcock, *History of the Transport Corps*, 22;

وعن العدد الإجمالي للجمال، انظر: لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص٢٦٦.

(90) Elgood, *Egypt and the Army*, 233, 237.

القنطرة إلى رمانة بطول ستة عشر ميلًا، وانتهى الآخر الواصل بين رمانة والمحمدية على ساحل البحر المتوسط، في التاسع من يونيو[٩١].

وبعد وضع هذه البنية التحتية، اشتعل القتال في أغسطس في معركة رمانة التي انتهت بإنزال التجريدة هزيمةً بقوة مجمعة تقرب من سبعة عشر ألف ألماني ومجري وعثماني. وكان ذلك أول انتصار للحلفاء على الإمبراطورية العثمانية بعد الهزائم المهينة في غاليبولي والكوت، وقد حظي بتغطيةٍ واسعة في الصحافة البريطانية[٩٢]. ثم استمر تقدم التجريدة لسبعة شهورٍ أخرى، لتهزم العثمانيين في معركة «مَغضَبة» في ديسمبر من عام ١٩١٦م، وفي رفح في يناير من العام التالي. وبعد التلكؤ لشهور في غزة، صادف الدخول البريطاني إجازة الكريسماس في عام ١٩١٧م، فاحتُفي بذلك بجلبة كبيرة.

جدول (١-١): جدول بأعداد الرجال العاملين في التجريدة المصرية على سيناء-فلسطين، من مارس ١٩١٦ إلى يونيو ١٩١٨

التاريخ	فرقة العمال المصرية	فرقة النقل بالجمال	فيلق الهجَّانة الإمبراطوري	فرقة النقل بالأحصنة	خدمة إعادة التحميل	الخدمة البيطرية	المجموع
مارس ١٩١٦	8935	10423	16	0	0	163	19537
يونيو ١٩١٦	15296	11016	40	0	0	543	26895
سبتمبر ١٩١٦	26231	15077	56	625	0	428	42417
ديسمبر ١٩١٦	37454	19029	112	555	246	1085	58481
مارس ١٩١٧	49036	20739	170	1275	218	1110	72548
يونيو ١٩١٧	49656	19886	170	2244	1326	1305	74587

(91) Falls and MacMunn, *Military Operations*, 160.
(92) Bou, *Light Horse*, 157.

سبتمبر ١٩١٧	55263	21109	168	4217	1165	1459	83381
ديسمبر ١٩١٧	60041	24944	275	5772	1740	2128	94900
مارس ١٩١٨	62675	23872	219	5949	2025	2838	97578
يونيو ١٩١٨	72162	23667	56	5643	2164	3158	106850

المصدر: سجلات المحفوظات البريطانية الوطنية، وزارة الخارجية، ١٤١/٧٩٧/٢، عدد ١٤٢/٢٦٨٩: من ونجِت (Wingate) إلى بلفور (Balfour) (الخامس عشر من سبتمبر من عام ١٩١٨م)

جدول (١-٢): إجمالي عدد المسجلين في الخدمة لدى الجيش البريطاني من مارس ١٩١٦ إلى يونيو ١٩١٨

التشكيل	الإجمالي
فرقة العمال المصرية	237407
فرقة النقل بالجمال	62686
فيلق الهجَّانة الإمبراطوري	530
فرقة النقل بالأحصنة (فيلق خدمات الجيش)	14057
الخدمة البيطرية	7207
خدمة إعادة التحميل	5312
المجموع	327199

المصدر: سجلات المحفوظات البريطانية الوطنية، وزارة الخارجية، ١٤١/٧٩٧/٢، عدد ١٤٢/٢٦٨٩: من ونجِت (Wingate) إلى بلفور (Balfour) (الخامس عشر من سبتمبر من عام ١٩١٨م)

كانت الحملة العابرة سيناء إلى فلسطين وسوريا هي أهم مصدر للطلب على العمال المصريين مطلقًا. فلقرابة الثلاثين شهرًا، تراوح عدد المصريين العاملين في فرقة العمال والنقل بالجمال والفرق المرتبطة بهما في فلسطين بين ثمانيةٍ وخمسين ألفًا ومئة وسبعة آلاف، وهو ما يفسر وصول إجمالي عدد المسجلين من العمال المصريين المنتسبين إلى التجريدة المصرية بين السابع عشر من مارس من عام ١٩١٧م والثلاثين من يونيو من عام ١٩١٨م إلى أكثر من ثلاثمئة وسبعةٍ وعشرين ألف (٣٢٧,٠٠٠) تسجيل، وزاد على ذلك مئةٌ وتسعة وسبعون ألف (١٧٩,٠٠٠) تسجيل آخر في النصف الثاني من عام ١٩١٨م[٩٣]. لكن عدد التسجيلات لا يعني إحصاءً لعدد الشباب الذين خدموا [في الفرقة]، إذ خدم الكثير منهم لأكثر من مناوبة. إلا أن هذه الأرقام تُغفل العمالة المؤقتة التي استعملتها التجريدة المصرية استعمالاً غير رسمي، وأيضًا المصريين الذين استعملهم الجيش البريطاني قبل مارس من عام ١٩١٧م. فقد ورد في تقرير للمندوب السامي أنه «إن أُضيفت [العمالة المؤقتة إلى إجمالي عدد التسجيلات في التجريدة المصرية بين السابع عشر من مارس من عام ١٩١٧م والثلاثين من يونيو من عام ١٩١٨م] ... لارتفع الإجمالي ارتفاعًا كبيرًا»[٩٤]. فيحق لنا القول إن قرابة النصف مليون رجل من مصر عملوا في الحملة العابرة صحراء سيناء إلى فلسطين. وقد مكَّن ذلك التقدم البريطاني نحو سوريا، وبحلول الوقت الذي سيطرت فيه التجريدة المصرية على دمشق في أكتوبر من عام ١٩١٨م، كانت قد احتلت [بالفعل] غالب المراكز الكبرى في الولايات العثمانية الناطقة بالعربية.

جدول (١-٣): توزيع زمني ومكاني تقريبي لفرقة العمال المصرية (١٩١٥-١٩١٨)

	مايو ١٩١٥	ديسمبر ١٩١٥	مايو ١٩١٦	ديسمبر ١٩١٦	مايو ١٩١٧	ديسمبر ١٩١٧	مايو ١٩١٨	ديسمبر ١٩١٨
فرنسا	-	-	-	-	11000	13000	-	-
إيطاليا	-	-	-	-	-	2000	-	-
ليبيا/السودان	-	-	بضع مئات	بضع مئات	بضع مئات	بضع مئات	-	-
الدردنيل	بضع	3000	500	-	-	-	-	-

---

(٩٣) أمكن للمصريين التسجيلُ أكثر من مرة، ومن ثم لا يعني ذلك مباشرةً أن هناك ثلاثمئة وسبعةٍ وعشرين ألف رجل خدموا في التجريدة المصرية حينها.

(94) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/142: Wingate to Balfour (September 15, 1918).

	مئات							
العراق	-	-	1000	8500	8500	-	-	-
فلسطين	1000	1000	27000	58000	75000	94000	107000	179000

المصدر: تقديرات من المؤلف بناءً على إحصاءات رسمية

الخلاصة

تطور قرار النكثُ بإعلان ماكسويل عبر تجنيد المصريين في فرقة العمال المصرية تطورًا عشوائيًا. فمع تنفيذ حلولٍ لوجستية جديدة، لوحظت إمكانية زيادة كفاءة الجيش وسرعته، لكن غالب هذه الحلول لا يمكن تنفيذه بدون القوة العاملة التي تشتغل بالأعمال الدنيئة نحو تفريغ المؤن وبناء المخازن والسكك الحديدية ومد أنابيب المياه وما إلى ذلك. وكذلك فتح دخولُ العثمانيين الحرب ميادينَ قتالٍ جديدة رفعت الطلب على العمالة، وخلق تنوع التضاريس في ميادين الحرب المختلفة طلبًا تصاعديًا، فقد كان كل تحدٍ جديد يتطلب للتغلب عليه حلولًا كثيفة الاستهلاك للعمالة.

لكن هواجس التضاريس والأعمال اللوجستية العسكرية لا تفسر وحدها سبب تحول البريطانيين نحو المصريين مصدرًا للعمالة. واستجلاء خبر ذلك يتطلب منا غوصًا أعمق في التاريخ الطويل للإمبراطورية البريطانية واستعمالها العمالة المصنفة عرقيًا في حملاتها العسكرية طوال القرن التاسع عشر الحافل بالأحداث. فعند اندلاع الحرب في عام ١٩١٤م، كان البريطانيون يستعملون رجالًا من المستعمرات في الأعمال اللوجستية العسكرية لأكثر من مئةٍ وثلاثين عامًا في أماكن متنوعة منها الهند وجنوب أفريقيا والكاريبي والسودان. وفي الوقت نفسه، حل محل الخوف من إثارة المشاعر الإسلامية الجامعة بالتعدي على رعايا للإمبراطورية العثمانية مفهومٌ عرقي عن «المحمديين» يضم المسلمين إلى غيرهم ممن سُموا، في مخيلة الإمبراطورية في أواخر عهدها، بالأعراق التابعة. عززت الحربُ هذا التصنيف العرقي، واختُزلت كل التقسيمات المعقدة التي كانت تضع الأعراق على مقياسٍ متخيَّل من «التحضر» إلى خط لونٍ واحدٍ يفصل البيض عن غيرهم. وفي خضم ذلك، سرعان ما تغيرت الجهود المبكرة لدغدغة المشاعر الإسلامية –التي عاملت المصريين معاملةً مختلفة بسبب علاقتهم الخاصة بالخليفة العثماني إلى تعبئةٍ عامة للمصريين بوصفهم «ملوَّنين». وكان لعمليات التعبئة الشاملة للعمال في الحرب العالمية الأولى آثار فارقة، منها وضعُ المصريين في الأرياف وأهلهم في موقعٍ يسمح لهم بالتأثير على عمليات صنع القرار في الإمبراطورية البريطانية لتجعل اتجاهه من قاعدة التراتبية إلى قمتها، وذلك على ما سيبينه الفصل التالي.

[٢]

السخرة الجديدة

كانت فرقة العمال المصرية حلقةً من حلقات تاريخ طويل من العمالة المهاجرة في الريف المصري. فقد كانت «العُونة» في العربية قديمًا أو «السخرة» في العربية المعاصرة معروفة منذ مئات السنين، وهي ضريبة عينية دورية، تلتزم كل قرية من الثلاثة آلاف قرية في مصر بدفعها للدولة على هيئة عمالة[٩٥]. وقد حفظت عمالة السخرة في الفترة العثمانية نظام الري بالحياض في مصر، حيث كانت القنوات تحمل المياه في أواخر الصيف من فيضان النيل إلى مستودعات المياه الضخمة.

ثم جاء محمد علي بتحولٍ كبير على مؤسسة السخرة في مصر. إذ وظَّف لديه لوي ألكسي جُمِل (Louis Alexis Jumel)، وهو فرنسي مقيم في نيويورك أدخل زراعة القطن طويل التيلة في أراضي الوالي[٩٦]، ثم سرعان ما نُفِّذت بالسخرة مشاريع أشغال عمومية هائلة لتيسير تصدير القطن[٩٧]. وعندما أعاقت الحرب الأهلية الأميركية تدفق القطن من جنوب شرقي الولايات المتحدة في ستينيات القرن التاسع عشر، شهدت مصر «طفرةً في القطن».

كان القطن محصولًا صيفيًا لا يتناسب مع وتيرة فيضان النيل، فاستُعملت السخرة في إقامة إنشاءات الري الدائم من أجل بناء مزارع القطن الكبيرة، التي تركز أغلبها في دلتا النيل. والحق أن القطن منتج يحتاج إلى عمالة ضخمة، فالعمال يحملون ألياف القطن من كل مزرعةٍ على حدة، ثم يجمعونها في بالات وينقلونها إلى الأسواق. وقد تضخم عدد العبيد الأفارقة المستجلبين إلى مصر في فترة طفرة القطن ليصل إلى خمسةٍ وعشرين أو ثلاثين ألفًا في العام الواحد، حتى أن بعض قرى الدلتا وصل عدد العبيد فيها إلى خمسة في المئة من عدد سكانها وفقَ تعداد عام ١٨٦٨م[٩٨]. وعمل العبيد جنبًا إلى جنب الفلاحين المستأجِرين في مزارع الدلتا لحصاد القطن.

كان العمدة هو المسؤول عن تعبئة مجموعات الشباب العاملين بالسخرة في القرى[٩٩]. ولم يكن العُمَد كلهم من كبار ملاك الأراضي الزراعية، لكن العمدة، وفقًا

---

[٩٥] محمد أنيس، **تطور المجتمع المصري من الإقطاع إلى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢**.

[96] Beckert, *Empire of Cotton*, 131.

[٩٧] ووفقًا لآلان ميخائيل، لم يكن ممكنًا شق قناة بين النيل والإسكندرية في عام ١٨٢٠ إلا عبر سخرة أكثر من ثلاثمئة ألف فلاح ... وموت ثلث هؤلاء العمال». انظر:

Mikhail, *Nature and Empire*, 3.

[98] Cuno, "African Slaves", 81.

[٩٩] محمد أنيس، تطور المجتمع المصري؛

لجبرييل بائير (Gabriel Baer)، كان يُعد ذا منزلةٍ في قريته بسبب فخامة منزله وما أقامه من بنىً تحتية وما بناه من أوقاف دينية وصانه، وكذلك بملبسه وأثاث منزله(١٠٠). كان العمد وكبار الملاك -وإن تطابق الوصفان أحيانًا جزءًا من طبقةٍ أوسع عُرفت في الريف باسم الأعيان، وكانوا هم الصلة بين مجتمعاتهم والمدن الكبرى في الدولة العثمانية(١٠١).

وكثيرًا ما أشار القنصل البريطاني العام في مصر بين عامي ١٨٨٣ و١٩٠٧م، إيفلِن بارنغ (Evelyn Baring)، إلى ما سماه إلغاء السخرة بوصفه أحد أعظم إنجازاته في مصر. وخصص ثلاثة فصول في كتابه «مصر الحديثة» لما سماه «الإصلاحات الثلاثة»: "الكرباج" و"السخرة" و"الفساد". وعدَّ بارنغ هذه الإصلاحات الثلاثة من إرث نظام مصر «المحمدي»، وأن جهده في إزالتها بمنزلة حملةٍ عرقية مقدسة، فقال: «أصر العرق الأنجلو-سكسوني، رغم المعارضة الشديدة، على أن يحصل العامل المصري على أجرٍ نظير العمل الذي يقوم به، وعلى ألا يجلد إن لم يرغب في العمل»(١٠٢). ومن ثم، نجد في مصر الحديثة نموذجًا آخر من نماذج تصنيف المصريين عرقيًا بوصفهم مسلمين لدى الجيل السابق على الحرب العالمية الأولى. فقد ميز بارنغ فيه تمييزًا واضحًا بين الإدارة الأنجلو-ساكسونية وبقايا الحكومة العثمانية-المصرية التي مثلت «معارضةً شديدة» لإلغاء السخرة.

والحق كما يرى ناثان براون، أن الحظر القانوني للسخرة جاء في عام ١٨٩٢م نتاجًا للتعاون بين رجال الإدارة الإمبراطورية البريطانيين والأعيان المصريين. إذ لم يبدأ ملاك مزارع القطن في ذم السخرة إلا بعد طفرة القطن التي ازدهرت فيها الحيازات الكبيرة بفضل إنشاءات الري الدائم التي قامت على أعمال السخرة. وذلك لأن السخرة ألزمتهم بإرسال العمال من العِزَب في موسم القطن المزدحم، ما سبب ارتفاع أجور العمال

Brown, "Who Abolished Corvee Labor?"

[ترجم محمد صلاح علي هذه الورقة إلى اللغة العربية بعنوان «من قضى على السخرة في مصر، ولماذا؟»، ونُشرت على موقع مركز نماء للبحوث والدراسات: https://nama-center.com/articles/details/40872 -المترجمان].

(100) Baer, "The Village Shaykh", 50–51.

(101) Hourani, "Ottoman Reform"; P. Khoury, "Urban Notables"; Gelvin, "The Politics of Notables."

(102) Baring, *Modern Egypt*, 416.

[نقلنا نصوص كتاب **مصر الحديثة** للورد كرومر من ترجمة الدكتور صبري محمد حسن رحمه الله، الصادرة عن المركز القومي للترجمة. انظر للنص السابق: اللورد كرومر، مصر الحديثة، ترجمة صبري محمد حسن، ط١، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤، ج٢، ص٥٠١. -المترجمان]

المحليين[١٠٣]. ولما كان المبدأ الأساسي للاحتلال البريطاني هو تعزيز الصادرات الزراعية، أُلغيت السخرة رسميًا في عام ١٨٩٢م للإبقاء على انخفاض تكاليف الإنتاج.

حل محل السخرة بعد إلغائها نظام العمل التعاقدي، إذ يجول مقاولو الأنفار في الصيف في جميع أنحاء الريف ليجمعوا الشباب، وخاصةً أهل الصعيد حيث يجعلهم الري بالحياض عاطلين بعد حصاد الربيع، فيجلبونهم إلى مواقع العمل التي تحتاج إلى عمالة، مقابل نسبةٍ من أجورهم. كان المقاولون يجلبون الرجال للعمل في مشروعات الأشغال العامة ومشاريع البناء والصناعة الخاصة في المدن والمراكز[١٠٤]. لكن السخرة ظلت مطبقةً على نطاقٍ ضيق فيما عرف باسم «خفارة النيل»، حيث يُلزَم عمال من الأهالي بمراقبة النهر في موسم الفيضان لضمان عدم تجاوزه المنسوب الذي يُغرِق المحاصيل[١٠٥].

يشرح هذا الفصل شرحًا مفصلًا الكيفيةَ التي استغلت بها الدولة الاستعمارية البريطانية تاريخ العمالة المهاجرة في الريف المصري لتجنِّد نصف مليون شاب في فرقة العمال المصرية. إذ بدأ رجال الحكومة جلب عمال الفرقة عبر مقاولي الأنفار، وبذلك عيَّنوا آلاف الشباب بعقودٍ مدفوعة. وما لبث أن صار غالب اعتماد الدولة الاستعمارية في جلب العمال على العمد وغيرهم من موظفي وزارة الداخلية. ولقد صوروا هؤلاء الرجال بصورة من يمتلكون «السلطة الأخلاقية» اللازمة لتشجيع التسجيل «الطوعي»، فإنهم اعتمدوا على العنف الصريح لإكراه الشباب على الانضمام إلى فرقة العمال. ومع دوران رحى الحرب، أدى الطلب الزائد على العمالة المصرية إلى دائرةٍ مفرغة وصلت إلى أوجها مع المقاومة العنيفة التي ثارت ضد موظفي التجنيد في صيف عام ١٩١٨م. إذ تحوي سجلات المحفوظات البريطانية الوطنية تقاريرَ عن ما لا يقل عن خمسةٍ وثلاثين حادثة تتعلق بتجنيد العمال للفرقة المصرية على مر ثلاثة أشهر بين مايو وأغسطس من عام ١٩١٨م، أسفرت عن مقتل ثلاثةٍ وعشرين شخصًا، وأربعة وخمسين إصابة، واعتقال خمسة وثمانين. نادرًا ما يذكر مؤرخو مصر الحديثة موجة المقاومة العنيفة هذه، وهو ما يجعل فهمنا لهذه الفترة أمرًا معقدًا من وجهين. أولهما أن العنف

---

(103) Brown, “Who Abolished Corvee Labor?”

(١٠٤) انظر عن مقاولي العمال ومشروعات الأشغال العامة:

Derr, *The Lived Nile*.

وعن مقاولي العمال ومشروعات الصناعة الخاصة، انظر:

Chalcraft, *Striking Cabbies*.

(١٠٥) وبتعبير بارنغ: «ليس من الممكن إلى يومنا هذا إلغاء السخرة إلغاءً كاملًا، لكن عدد الذين يجري استخدامهم في هذا العمل يتناقص عامًا بعد عام، فضلًا عن أنه آخذ في التناقص بصورةٍ مستمرة». اللورد كرومر، مصر الحديثة، ص٥٠٤ (Baring, Modern Egypt, 419).

تجاه موظفي تجنيد فرقة العمال المصرية أجبر رجال الإدارة البريطانيين على إعادة استعمال السخرة مرةً أخرى في محاولة لجعل الخدمة في الحرب متسقةً مع العرف المصري. وبذلك تراجع البريطانيون عما كان يعد إنجازهم «الأخلاقي» الأبرز في مصر، ألا وهو القضاء على العمل الإجباري. أما الوجه الثاني فأن موجة العنف هذه مهّدت الطريق للثورة المصرية في عام ١٩١٩م، وسنناقش ذلك تفصيلًا في الفصل التاسع. وبهذا المعنى، تشكل هذه الموجة جزءًا مهمًا من تاريخ ما قبل الثورة، التي اشتملت على واحدةٍ من أكبر حالات تمرد الفلاحين في تاريخ الشرق الأوسط الحديث[١٠٦].

العمالة المستأجرة

بدأت سلطات الدولة الاستعمارية والجيش في تجنيد المدنيين عبر مقاولي العمالة عندما أصبح الطلب البريطاني على العمالة أكبر من قدرة الجيش الإنجليزي المصري الصغير. وبحلول الثالث والعشرين من يوليو من عام ١٩١٥م، كان ألفٌ ومئةٌ واثنان وخمسون عاملًا قد جُنِّدوا من سوهاج وطنطا وبني سويف، بعقودٍ مدتها ثلاثة أشهر، ليُرسَلوا إلى مودرُس[١٠٧]. وكانت مدة عقد الثلاثة أشهر هذه تناظر في مرحلة الحرب الأولى المدةَ التي اعتاد العمال المهاجرون على ترك عائلاتهم فيها للعمل في حصاد القطن الصيفي[١٠٨]. ولعلنا نجد تشابهًا أكبر بين أوائل عمال الحرب وبين العمالة المدنية المهاجرة، من مذكرةٍ صدرت عن أركان الجيش تنقل مخاوف «أن يرشي العمالُ وكلاء العمالة» في قطار الإسكندرية[١٠٩]. إذ يبدو أن المجندين لفرقة العمال كانوا يشبهون مَنْ يجندهم المقاولون للعمل في الزراعة أو الصناعة.

ومع استمرار الحرب، حظي مقاولو العمالة بطلبٍ متزايد على خدماتهم في فرنسا والعراق. ونجد مسوّدات خطط لتجنيد عمالٍ مصريين في ربيع عام ١٩١٦م تكشف لنا عن قدر كبير من استعانة الحكومة بمقاولي العمالة في مراحل الحرب الأولى. فقد عمِل قائد قاعدة بلاد الشام –وهي وحدة من الجيش البريطاني مسئولة عن إدارة نقل المؤن المرسلة إلى قوات الحلفاء في منطقة البحر المتوسط وقناة السويس وتنسيقها ردًا على طلبٍ أُرسِل إليه، مع مردوخ مكدونالد (Murdoch McDonald)، المستشار البريطاني

---

(١٠٦) انظر:

Burke III, "Changing Patterns."

(107) TNA, FO 141.797/2 No. 2689: General Staff Army HQ (July 23, 1915).

(108) Elgood, Egypt and the Army, 239–240.

(109) TNA, FO 141.797/2 No. 2689: General Staff Army HQ (July 23, 1915).

في وزارة الأشغال العامة، على إرسال عمال «مقسَّمين إلى مجموعاتٍ، كل مجموعة مكونة من خمسمئة عامل في المرة الواحدة، في غضون أربعة عشر يومًا لكل طلب»، وذلك ليعملوا في فرنسا(١١٠). وبحلول أبريل من عام ١٩١٦م، صيغ عقدان مبدئيان مع اثنين من مقاولي العمالة لتحقيق ذلك الغرض(١١١).

كان مكدونالد شخصيةً مهمة يصل الحكومة بمقاولي العمالة في سنوات الاحتلال البريطاني. وكان مسئولًا، بحكم عمله الفني في وزارة الأشغال العامة، عن تنظيم العمل في مشروع بناء سد أسوان في عام ١٩٠٢م، الذي تطلب جمع ستة آلاف عامل(١١٢). وعُيِّن في عام ١٩١٥ مديرًا للأشغال على خطوط الدفاع في قناة السويس(١١٣). آنذاك، كان مكدونالد قد عمل لأكثر من خمسة عشر عامًا في وزارة الأشغال العامة، وقد أتاح له ذلك إنشاء علاقاتٍ مع المقاولين المسؤولين عن جمع العمال لحفظ البنية التحتية لنظام الري في مصر.

لكن مع الأسف، لا نجد في الوثائق البريطانية معلومات كثيرة عن مقاولي العمال، إلا بعض إشارات طفيفة لأسماء من قبيل ألكساندريني أو أليساندريني وبلليني(١١٤). ولعلهم كانوا من بين الجماعات متعددة الأصول من المغتربين المسيحيين الأوروبيين والسوريين في مصر، ممن «حملوا جنسيات عثمانية أو أوروبية، لكنهم كانوا جزءًا أساسيًا من المجتمع الريفي في مصر»(١١٥). كانت هذه الشخصيات متعددة الأصول الخيار الأقرب إلى البريطانيين ليتولوا جلب العمالة المطلوبة لأن أولئك كانوا منذ زمن طويل كثيري التنقل بين المدينة والريف، ويعرفون اللغة العربية واللغات الأوروبية. ولكي يستكمل البريطانيون الحرب فقد استغلوا العلاقات التي أقامتها الدولة الاستعمارية

---

(110) TNA, FO 141/797/2 No. 2689: McMahon (April 1, 1916).

(111) TNA, FO 141/797/2 No. 2689: McMahon (April 1, 1916).

(112) Derr, *The Lived Nile*.

(113) TNA, FO 371/3713 No. 20835: «War Service» (September 6, 1919).

(١١٤) اقترحت إحدى المذكرات «طلب جماعات من العمال لستة أشهر من ألكساندريني». انظر:
TNA, FO 141/797/2 No. 2689: MacMahon (March 24, 1916);
وتشير مذكرة أخرى إلى «ترتيبات الجنرال ألثام معك ومع ألكساندريني لتجنيد العمال». انظر:
TNA, FO 141/797/2 No 2689: Graham (March 26, 1916).
وتشير أخرى إلى «تعاقدات مبدئية ... مع أليساندريني وبلليني ومع مقاولين وعمال». انظر:
TNA, FO 141/797/2 No. 2689: MacMahon (March 31, 1916).

(115) Brown, *Peasant Politics*, 190.

بالفعل، عبر مردوخ مكدونالد ونفس مقاولي العمالة الذين استعملوهم في توسعة بنية الري التحتية في مصر.

الضغط الإداري

مع تأزم حملة سيناء–فلسطين في أوائل عام ١٩١٧م، ثارت مناقشات في لندن حول ما إن كانت مصر تشارك بـ «نصيبها العادل» في المجهود الحربي. وفي الحادي والعشرين من مايو من العام نفسه، أرسل قائد الجيش البريطاني برقيةً لقائد التجريدة المصرية، يقول فيها «من الضروري أن تشارك جميع أجزاء الإمبراطورية في حمل عبء [الحرب] بقدر ما تسمح به الأوضاع المحلية ... ولستُ قانعًا بأن الأمر في مصر على ذلك»[١١٦]، ورد القائد قائلًا: «كان رأيي دومًا ... أن مصر لم تشعر قط بعناء الحرب، وأنا قائم على دراسة كيفية استغلال موارد مصر استغلالًا أكمل»[١١٧]. وفي الثاني من يونيو، أرسلت وزارة الحرب برقيةً إلى وزارة الخارجية تطلب رأي وزير الخارجية آرثر بلفور حول إمكانية فرض التجنيد الإجباري في مصر لأغراض الأعمال العسكرية في الخارج. إذ أرادوا تجنيد سبعة عشر ألف رجل آخرين تجنيدًا دائمًا لا يخضع لتجديدات، وبالمقابل المادي الأدنى السائد في ذلك الوقت (قرشين لليوم الواحد)[١١٨].

حُوِّل الطلب إلى المسئولين الدبلوماسيين على الأرض، وانعقد اجتماعٌ في القاهرة حول الأمر اعترض فيه ممثلو الجيش الإنجليزي المصري على تجنيد العمال المصريين من منطلق أن الجيش لا يمكنه توفير عددٍ كافٍ من الضباط للتحكم في هذه القوة الكبيرة. وكذلك اعترض المسؤولون الدبلوماسيون من وزارة الخارجية لأنه «لا يوجد ولاءٌ للإمبراطورية البريطانية يكفي لتوفير الدعم لها من نسبة مؤثرة من السكان»[١١٩]. ومن ثم، كتب وكيل وزارة الخارجية في برقيته لوزارة الحرب أن «بلفور يتفق مع ... النتائج التي خرجت بها لجنة القاهرة» ليرفض عمليًا طلب وزارة الحرب فرضَ التجنيد الإجباري عبر شبكات الجيش الإنجليزي المصري[١٢٠]. ساد بين القادة العسكريين في وزارة الحرب

---

(116) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/13: Chief London (May 21, 1917).

(117) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/17: Extract of Telegram from Murray (May 24, 1917).

(١١٨) كانت القوة المرغوبة لفرقة العمال هى مئة ألف عامل، وقد حدد موراي عدد العمال الفاعلين في الفرقة في ذلك الوقت بثمانية وتسعين ألفًا، منهم خمسة عشر ألفًا من العمالة المؤقتة. انظر:

TNA, FO 141/797/2 No. 2689/16: telegram no. 685 (July 6, 1917).

(119) TNA, FO 141/797/2 No. 2869/12: Minutes of Meeting (May 28, 1917).

(120) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/17: FO (June 18, 1917).

انطباع بأن «مصر تنتفع بالحرب دون محاولة تقديم أي شيء مناسب في المقابل» ورددوه على مسامع المندوب السامي الجديد ريجنالد ونجت[١٢١]، الذي نقل هذه الانتقادات بدوره إلى رئيس الوزراء المصري حسين رشدي، قائلًا: «إن الوضع كشف عن حاجةٍ ملحة لبرقيةٍ -في أقرب وقتٍ ممكن تعرض فيه تفصيلًا الإجراء الذي تنوي اتخاذه للعمل على زيادة التجنيد»[١٢٢]. وسرعان ما ردَّ رشدي بمقترح بخطةٍ شاملة تتضمن زيادةَ أجر العمال -على أن تتحمل الحكومة المصرية الزيادة وإعفاءاتٍ من الخدمة العسكرية لمن انضم إلى قوات العمال المساعِدة لمدةٍ لا تقل عن سنةٍ واحدة، وإعفاءاتٍ ضريبية محددة، و«جولات من كبار العاملين في وزارة الداخلية في الأقاليم للإشراف على تنفيذ هذه الأوامر»[١٢٣].

نقل رشدي الخطة إلى وزارة الداخلية في أول اجتماعٍ لمجلس الوزراء[١٢٤]، وتقرر أنه، نظرًا لاعتراضات الجيش الإنجليزي المصري، لا يمكن تطبيق زيادةِ الأجر، لأن ذلك سيجعل أجور عمال الفرقة المصرية أعلى من معدل أجور ضباط الجيش. لكن يمكن تنفيذ إعفاءات من الخدمة العسكرية، وكذلك زيادة الجهد الذي يبذله موظفو الإدارة في الأقاليم لجمع المزيد من «المتطوعين»، وهو ما سُمي توريةً بـ «الضغط الإداري». ولذلك أصدر وزير الحربية بتاريخ العشرين من أكتوبر من عام ١٩١٧م، مرسومًا بتعديل قانون القرعة المصري بحيث أن « كل قادر على الخدمة العسكرية ... يُعفى من هذا الإلزام إن هو تطوع وخدم لمدةِ عامٍ كامل على الأقل لدى ... أي خدمة أشغال تابعة للقوات البريطانية»[١٢٥]. ولترويج الخطة، نُشر في الصحافة مرسوم من السلطان المصري الجديد يقدّم الإعفاء من الخدمة العسكرية لكل من تطوع لعامٍ كامل في الخدمة «بفرقة العمال المصرية أو بفرقة النقل بالجمال أو بأية خدمة أخرى من خدمات التشهيلات الملحقة بالجيوش الملكية البريطانية»[١٢٦].

وكذلك بُذلت الجهود لأجل توزيع عبء التجنيد توزيعًا أكثر تكافئًا على جميع أنحاء البلاد. فقد توصل ونجت بعد التحريات إلى أن التجنيد كان حتى هذه اللحظة «لا يكاد يؤثر إلا على أهل الصعيد »[١٢٧]. ورُدَّ هذا الاختلال إلى انخفاض الأجور في الصعيد،

---

(121) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/19: Graham (August 23, 1917).

(122) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/21: Wingate (August 23, 1917).

(123) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/21: Wingate (August 23, 1917).

(124) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/31: «Traduction de deus circulaires» (August 28, 1917).

(125) TNA, FO 141/797/2 No. 2869/42: Ministry of War (October 19, 1917).

(١٢٦) «فرقة العمال»، جريدة الأفكار، ٢٢ أكتوبر ١٩١٧.

(127) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/7: Herbert to Haines (May 3, 1917).

بما جعل من شروط عقود العمل التي قدّمتها السلطات العسكرية أكثر جذبًا هناك. وكذلك رُدَّ إلى أن الجنوب كان لا يزال غالبه يُروى بالحياض، حيث يقل الطلب المحلي على العمالة بعد موسم الحصاد في الربيع(١٢٨) أو ينعدم. لكن الإحصاء الإقليمي الرسمي للتجنيد بدا مناقضًا لتقييم ونجِت، إذ جُنِّد منذ بداية الحرب وحتى الثاني من مايو من عام ١٩١٧م ثمانيةٌ وعشرون ألفًا وتسعمئة وستة وثمانون رجلًا (٢٨,٩٨٦) من صعيد مصر، في حين كان عدد المسجَّلين في الوجه البحري بين السادس من ديسمبر من عام ١٩١٦ ونهاية أبريل من عام ١٩١٧ ثلاثةً وخمسين ألفًا وخمسمئة وتسعة وأربعين رجلًا (٥٣,٥٤٩). لكن هذه الإحصاءات لم تحظَ بالثقة نظرًا لتغير تعريف صعيد مصر. فمثلًا، ورد في التقرير أن مديريات مصر الوسطى، بني سويف والفيوم، كانت جزءًا من صعيد مصر في البداية، ثم تغيرت وأُدخِلت في الوجه البحري(١٢٩). وفوق ذلك، كان غالب سكان الريف يعيشون على الأراضي الخصبة في دلتا النيل، ومن ثم كان هناك في الشمال وعاءٌ أكبر من الناس يمكن السحب منه. لكن البريطانيين ظنوا أن فلاحي الدلتا أقل رغبةً في هجر منازلهم لفترات طويلة بسبب أنهم أقل اعتيادًا على الهجرة للعمل. ومن ثم، حُدِّدت مدة عقود المجندين من الوجه البحري في صيف عام ١٩١٧ بثلاثة شهور، في حين امتدت لستة شهور في حالة المجندين من الصعيد. وفي الأول من نوفمبر من عام ١٩١٧، جرى إصلاح هذا الاختلاف ووُحِّدت العقود عند ستة شهور لكل العمال، سواءً كانوا من الشمال أو الجنوب(١٣٠).

العرق والطبقة والأعيان

كانت وزارة الداخلية هي الرابطة الإدارية بين الحكومة الاستعمارية المتمركزة في القاهرة والإسكندرية وبين ريف مصر. وكانت مصر مقسَّمة في ذلك الوقت إلى أربع عشرة مديرية على رأس كل منها مدير، وتنقسم المديريات إلى مراكز يقوم على كل واحدٍ منها مأمور(١٣١)، ثم دمجت إصلاحاتُ البريطانيين في مصر العمدَ في وزارة الداخلية(١٣٢). كان غالب هؤلاء العمد من المسلمين والمصريين الأصلاء ممن لا يمكن رد أصولهم إلى آباءٍ أتراك عثمانيين وجواريهم القوقازيات. وعلى مر القرن التاسع عشر، تمكن الكثير من العمد من حصر منصبهم الرسمي في عائلاتهم، وأصبحت المسئولية

---

(128) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/8: Haines to Herbert (May 13, 1917).

(129) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/8: Hazel to Haines (May 12, 1917).

(130) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/64: Allenby to Wingate (February 13, 1918).

(١٣١) وكان هناك خمس محافظات يقوم على إدارتها محافظ، هي القاهرة والإسكندرية والسويس والقنال ودمياط.

(132) Jakes, *Egypt's Occupation*.

تمرَّر من أخٍ لأخيه ومن أبٍ لابنه(١٣٣). وفي الحرب استعمل المسئولون البريطانيون وزارة الداخليةَ للوصول إلى هذه الشبكة الممتدة في المديريات، إذ كان أولئك المسئولون قليلي العدد لا تكاد تخرج شبكة تنقلاتهم عن القاهرة والإسكندرية.

حين أصدر رشدي أوامر التجنيد إلى هؤلاء الموظفين المحليين حرص على تنبيههم أن يتولوا الأمر بكياسة وأن يستخدموا في هذا «سلطتهم المعنوية». وتلت مرسومَ أكتوبر نشرةٌ دورية حثَّ فيها رشدي موظفي وزارة الداخلية على «تشجيع أهل الأرياف على الانضمام إلى فرقة العمال، والاجتهاد في نشر الفكرة لدى العامة»(١٣٤). وفي اتصالاتٍ بين رشدي وونجِت، أكّد الأول على الحاجة لنشر «المآمير والعمد دعايةً في القرى تشجِّع على الانضمام إلى الفرقة»، وكذلك على الحاجة إلى «دعم المدراء ... الانضمام إلى الفرقة بكامل سلطتهم»(١٣٥). وبدا أن رشدي يتصور السلطة المعنوية لدى هؤلاء الموظفين المحليين بوصفها قوةً معتدلة وآسرة يمكنها تشجيع أهل الأرياف على تسجيل أنفسهم في الفرقة عبر الدعاية بدل تجنيدهم إجباريًا رغم إرادتهم. ويصف أحد التقارير التي نشرتها صحيفة الأهرام الكيفية التي تصور بها موظفو وزارة الداخلية سلطتهم المعنوية. إذ عقد مأمور مركز بني مزار في مديرية المنيا في صعيد مصر اجتماعًا في الحادي والعشرين من شهر مارس من عام ١٩١٥م جمع فيه كل عمد المركز ونقل التقرير أنه خاطب الجمهور أمامه قائلًا:

تعلمون حضراتكم أن كل واحدٍ منكم في بلدته حاكم مسؤول عن نتيجة عمله، فإذا سار في الطريق المستقيم انتظمت أحوال بلده واستتب الأمن فيه ... مثلكم كمثل الأب مع أولاده فإذا كان متحليًا بحلى الكمال والآداب ... شب أولاده على خصاله، بخلاف ما إذا كان مقترفًا للدنايا، فإن أولاده تنهج منهاجه وتسير على منواله، فتسوء عقباهم.(١٣٦)

---

(١٣٣) فمثلًا، ووفقًا لتشارلز سميث، بدا أن عائلة محمد حسين هيكل «قد حصَّلت منصب عمدة القرية مبكرًا في القرن التاسع عشر ... واحتفظوا بالمنصب بأن مرروه إلى أكبر ذكر باقٍ، من أخ لأخيه، وليس من أب لابنه. وتمكنت العائلة من حيازة أراضي وأصبحت ثرية مقارنةً بالفلاحين العاديين في القرية». انظر:
Smith, *Islam and the Search*, 33.

(134) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/44: Rushdi (October 21, 1917).

(135) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/22: Rushdi (August 24, 1917).

(١٣٦) «واجبات العمد»، جريدة الأهرام، ٢٣ مارس ١٩١٥. [النص المنقول في المتن هو نص الجريدة المنشور، لكن النص الذي أورده المؤلف به بعض الاختلافات التي أعلمناه بها وأقرنا على إثبات النص الأصلي وعلى تعديل طفيف في الفقرة التالية له. (المترجمان)]

تستدعي خطبة المأمور مزيجًا من المصادر التقليدية للسلطة ليسوّغ به وضعه الإداري ووضع الرجال الحاضرين أمامه. فيستند إلى كلماتٍ دينية في مناشدته مرؤوسيه بالسير في «الطريق المستقيم»، مستدعيًا صدى سورة الفاتحة كثيرة التكرار. ثم يصف سلطة العمد بتشبيههم بـ «الآباء» الذين يمثلون قدواتٍ لـ «أبنائهم»، أي أهل القرى الذين يعيشون بينهم. ومن ثم، فإن الخطاب يبني تراتبية واضحة من السلطة المقدسة والأبوية، تسري فيها سلطة الله منه إلى الدولة في الأسفل، فتتجلى في القرى عبر رؤسائها، وتتجلى أخيرًا في كل جماعةٍ أبوية من الأقرباء التي يُفترض أنها تخضع لحكم أحد أبنائها ذوي السلطة، الذين يمثلون أبناءً للعمدة وحكامًا لعائلاتهم في وقتٍ واحد.

وقد تعززت هذه الخطب بحملةٍ من التغطيات الدعائية في الصحافة المصرية، إذ نجد على الأقل سبع مقالات عن فرقة العمال المصرية نُشرت في جريدة المقطم في عام ١٩١٧، واستعملت عدة مصطلحاتٍ منها «قسم الأشغال المصري»، و«العمال المتطوعون»، و«فرقة العمال المصريين» و«سلك العمال»، وغالبًا ما كان تصويرهم للفرقة تصويرًا حسنًا لأجل دعم جهود التجنيد. وكأن أحد التقارير، المنشور في الحادي والعشرين من شهر أبريل من عام ١٩١٧، يصرح بدوره الدعائي، إذ يقول:

في شهر مارس الماضي أُرسِلت بعثات من العمال المصريين من مديرية جرجا للخدمة في فرنسا، فبات أهلهم على أحر من الجمر منتظرين ورود الأخبار عنهم. وبينما هم كذلك، حمل **المقطم** إليهم في ١٣ أبريل الحالي بشائر الاطمئنان بوصولهم سالمين وهم ممتلئون صحة وعافية وقوة ونشاطًا، فحاكى سرور أهلهم سرورهم في فرنسا ... فقد ذكروا ... حسن المعاملة التي لقوها من السلطة العسكرية هناك وحسن نظام معيشتهم وملابسهم إلى غير ذلك. لذلك أخذ العمال يفدون من كل حدبٍ وصوب على المعسكر في سوهاج طالبين الانتظام في سلك العمال، إذ كانت السلطة العسكرية هنا لا تزال محتاجة إلى عمال. ولما تحققوا أن الباب لا يزال مفتوحًا لهم أخذوا يجتمعون ويقصدون المعسكر ... فيحسن جناب القائد مقابلتهم ويعطف عليهم عطف الوالد على أولاده.[١٣٧]

يركز التقرير على مجموعةٍ من عمال الفرقة المصرية من مديرية جرجا في صعيد مصر، وعلى قلق أهلهم المنتظرين لأخبارهم. ويؤكد أن هدف المقالة هو «حمل ... بشائر الاطمئنان» من أجل إدخال «سرور [على] أهلهم». لكن المقالة مثلت فرصة لعرض مزايا الانضمام إلى فرقة العمال، إذ ذكرت «حسن نظام المعيشة» مرتين، مع إشارةٍ خاصة إلى حسن «ملابسهم»، ثم يختم المقال بتشبيه العلاقة بين الموظفين

---

[١٣٧] «العمال المتطوعون»، جريدة الأهرام، ٢٣ مارس ١٩١٥.

الإداريين في فرقة العمال وبين مرؤوسيهم بعلاقة «الوالد وأولاده». والوالد في هذه الحالة هو قائد معسكر التجنيد، ولكن على خلاف موظفي وزارة الداخلية الذين شبههم مأمور بني مزار بـ «الآباء»، كان قادة معسكرات التجنيد من الإنجليز البيض.

ربما لم يكن من قبيل المصادفة أن يكون مالك جريدة المقطم، فارس نمر، أحد أكثر المروّجين للعرقية العلموية تأثيرًا في العالم العربي[١٣٨]، إلى جانب كونه دعائيًا بريطانيًا من الدرجة الأولى. وكما بيّنت مروة الشاكري، كان لنشر كتابي داروين «عن أصل الأنواع أو حفظ الأنواع المفضّلة في صراع الحياة (١٨٥٩)»، «وأصل الإنسان والانتخاب وعلاقته بالجنس» (١٨٧١)، أثر هائل على المشهد الثقافي والفكري في مصر. إذ انتشرت قراءة الترجمة العربية لكتاب أصل الإنسان التي اضطلع بها شبلي شميل انتشارًا واسعًا، وطرح نمر أفكار داروين ومحاوريه من أمثال هربرت سبنسر (Herbert Spencer) وجوستاف لوبون (Gustave Le Bon) وإدمون ديمولان (Edmund Demolins) على صفحات دوريته الأخرى، المجلة العلمية الشهيرة، المقتطف[١٣٩]، التي كانت تجسيدًا لشغفه الحقيقي. أما سبنسر فقد طبق نظريات داروين على العالم الاجتماعي، فافترض أن السمات الموروثة والانتخاب الطبيعي هما محركا تطور المجتمعات الإنسانية، وهو الذي سك تعبير «البقاء للأصلح» في كتابه مبادئ البيولوجيا (1864)، وراج كتابه ذو العشرة أجزاء «الفلسفة التركيبية» (١٨٩٦) في الولايات المتحدة في عهد إعادة الإعمار[١٤٠].

يبيّن بحث الشاكري المهم أن ترجمة مفكري الداروينية الاجتماعية إلى اللغة العربية «نزع شوكة» نزعة العلمنة التي اتسم بها الجدل الدائر حول «تطور الأجناس»، وحوّلته إلى حواراتٍ حول «تقدم الأمم»[١٤١]. كان للفظ الأمة -الذي حمل تراثًا طويلًا من

---

(138) Elshakry, *Reading Darwin*, 80.

[ص١٧٧-١٧٨ في الترجمة العربية -المترجمان]

(139) Elshakry, Reading Darwin, 9.

[ص٣٩-٤٠ من الترجمة العربية -المترجمان]

(140) Hofstadter, Social Darwinism, chap. 2.

ويذكر وليَم دو بوا في سيرته الذاتية الثالثة ما حازه سبنسر من رواج وما كان لأيديولوجية «البقاء للأصلح» من أثر. انظر:

Du Bois, "Dusk of Dawn", 590, 625.

(141) Elshakry, Reading Darwin, 12.

[ص٤٧-٤٨ من الترجمة العربية -المترجمان] لا تستعمل مروة الشاكري مصطلح «الداروينية الاجتماعية»، لكنني أوظفه هنا لأبرز الدور المهم الذي لعبته قراءةٌ معينة لأفكار داروين -على يد مفكرين من أمثال هربرت

الإشارة إلى الجماعة الدينية وحمل أيضًا إحالات خفية إلى «الأمة القومية»، و«العرق» أيضًا كما قالت الشاكري من الطواعية ما سمح بألا تتجلى دومًا لدى المصريين الأفكار العرقية بنفس الصراحة التي اتضحت بها لمحاوريهم الأوروبيين(١٤٢). وإن قراءةً من منظور دارويني اجتماعي للمقطع المنقول سابقًا يسلّط ضوءًا مختلفًا على تشبيه المقطم عمالَ الفرقة المصرية «بالأولاد». وقد اعتمدت هذه التمثيلات، ومعها تشبيه الوحدة العائلية الأبوية في قلب القرية المصرية، على مجازٍ عرقي يشبِّه الأوروبيين البيض بالآباء الشفقاء والآخرين المصنَّفين عرقيًا بـ «القُصَّر فاقدي الأهلية القانونية»(١٤٣).

كان الفكر الدارويني الاجتماعي قد أثَّر بحلول الحرب العالمية الأولى تأثيرًا كبيرًا على مجموعةٍ من المفكرين المصريين من عائلات العمد. وقد درست لوسي ريزوفا (Lucie Ryzova) كيف أن عائلات الطبقة الوسطى المتطلعة استعملت العديد من الاستراتيجيات التعليمية لأبنائهم، من بينها إرسالهم إلى المدن المصرية(١٤٤). فقد كانت الكلمة التي تقابل عادةً المفهوم الأوروبي عن «الحضارة Civilization» في القرن التاسع عشر هي التمدن، والمشتقة من ذات جذر الكلمة العربية مدينة. فالتحضر في مصر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يعني أن تكون على الأقل قد ذهبت إلى المدينة، ومن ثم فالفلاحون هم العكس.

كان إبراهيم زغلول، عمدة إبيانة في مديرية الغربية في الدلتا، رأس إحدى هذه العائلات المتطلعة الوسطى. وقد أرسل ابنه الأكبر سعد –الذي سيقود بعد ذلك ثورة ١٩١٩، وسنفصل في مناقشة أمره في الفصل الثامن إلى الأزهر، ودرس ابنه الأصغر فتح الله صبري –الذي غيَّر اسمه إلى أحمد فتحي دراسةً قصيرة في مدرسة الألسن قبل أن يحصل على شهادة الحقوق من باريس(١٤٥)، وعاد ليعمل قاضيًا في القاهرة والإسكندرية ويترجم إلى العربية بعض أكثر كتب الفكر الدارويني الاجتماعي تأثيرًا في أواخر القرن التاسع عشر.

سبنسر وجوستاف لوبون وإدمون ديمولان على التداول العالمي لمفهوم العرق في أواخر القرن التاسع عشر. انظر:

Hannaford, *Race*.

(142) Wendell, *Evolution*.

(١٤٣) أصبح هذا المجاز جزءًا مهمًا من العنصرية العرقية الاستعمارية. انظر:

Anghie, "Francisco de Vitoria."

(144) Ryzova, *Age*.

(145) Goldschmidt, *Biographical Dictionary*, 233; Ryzova, *Age*, 106n58.

ترجم أحمد فتحي زغلول كتاب إدمون ديمولان « À Quoi Tient la Supériorité des Anglo-Saxons?» الصادر في عام ١٨٩٧ بعنوان «سر تقدم الإنكليز السكسونيين»، وفيه استعمل ديمولان نظريات من العلوم الاجتماعية الأوروبية ليفسر التفوق العالمي للإمبراطورية البريطانية من باب تفوق العرق الأنجلوسكسوني. طبّق زغلول في مقدمته للكتاب هذه الدروس على بلده وخرج بتسويغ تطوري لهيمنة الأعيان في مصر، فقال: «ولا حسبت الطبقات النازلة أن زوال الطبقات العالية من الأمة بمثابة زوال الروح من الجسم لأنها سياج الأخلاق ومرجع صيانة العادات ومشخص الأمة في حياتها وشعورها»[١٤٦]. وكان وصفه للفلاحين –الذين قال عن واحدهم «أبو الجهالة المحقَّر المرذول»هو المقابل الجلي، فيقول: «لا نزال نقول عن أنفسنا إذا أردنا أن نبالغ في ذم أحدنا بالجهل أنه فلاح»[١٤٧]. ويتبين من مقدمة زغلول كيف أن الأفكار المتعلقة بالعرق في أواخر القرن التاسع عشر يمكنها، بسبب قراءةٍ معينة لنظرية التطور الداروينية، أن تدعم أفكار الطبقية في مصر.

أثَّرت الداروينية الاجتماعية وترجمات أحمد فتحي زغلول على ابن مؤثرٍ آخر من أبناء العمد، هو أحمد لطفي السيد[١٤٨]، الذي قرَّظ ترجمة زغلول لكتاب لوبون «Les Lois Psychologiques de l'Evolution» في مقال سمّاه «سر تطور الأمم»[١٤٩]، وكتب في مايو من عام ١٩١٤ مدحًا لفتحي في جريدته المؤثرة أطرى فيه جهوده في الترجمة[١٥٠]. لقد أثبتت العلوم الاجتماعية الأوروبية لأبناء العمد من أمثال أحمد فتحي زغلول وأحمد لطفي السيد، أن هناك «أعراقًا» مختلفة تمثل أطرافًا أساسية في التاريخ البشري، فرأوا أن العلاقات السياسية المعاصرة بين هذه الأعراق إنما نتيجة صراع تطوري حول البقاء للأصلح. وبتعبير وليد قزيحة، أدى ذلك إلى موقفٍ معتدل تجاه البريطانيين ومتصالحٍ معهم من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى إلى الشعور باستحقاق بعض العائلات الهيمنة على غيرهم من المصريين من أبناء «الطبقات الدنيا»[١٥١].

---

[١٤٦] انظر: أحمد فتحى زغلول، سر تقدم الإنكليز السكسونيين، ص٢٦.

[١٤٧] أحمد فتحى زغلول، سر تقدم الإنكليز السكسونيين، ص٢٤.

[١٤٨] يذكر وندل (Wendell) كتابًا واحدًا فقط أثَّر على لطفي السيد فى أثناء دراسته في المدرسة الثانوية الخديوية، ألا وهو ترجمة شبلي شميل لكتاب داروين «أصل الإنسان». انظر:
Wendell, *Evolution*, 208.

[١٤٩] كتب لطفي السيد يقول: «يظهر أنَّ فتحى باشا شغوف فى المسائل الاجتماعية بأفكار الدكتور (جوستاف لوبون) على الأخص، وله الحق لأنَّ أفكار هذا الكاتب الاجتماعي الكبير هي زُبدَةُ المعلومات الاجتماعية القديمة، ونتيجة المشاهدات الحديثة»

[١٥٠] أحمد لطفي السيد، تأملات، ص١٢٨.

[151] Kazziha, "Jaridah-Ummah Group."

العنف وتجنيد فرقة العمال المصرية

لكن إن كان الموظفون يأملون أن شباب الريف سينضمون أفواجًا لفرقة العمال بسبب «السلطة المعنوية» لعمد القرى، فما كان ذلك منهم إلا محض أماني. فقد اعتمد هؤلاء الموظفون، عند تطبيقهم لنظام «الضغط الإداري» في تأدية واجباتهم والتعامل مع المشكلات، على العنف الصريح وليس التأثير المعنوي. ففي تقريره عن يوم الأول من مايو من عام ١٩١٦، أشار وتِنجهام إلى أن «السيَّاس الذين أمدَّنا بهم مدراء المديريات ليسوا متطوعين كلهم ... وما جرى الإمداد به حتى الآن ما هم إلا ... عمالة سخرة»(١٥٢). ويضفي وصف أحدهم لفرقة النقل بالجمال مزيدًا من المصداقية على هذه الخلاصة، إذ قال: «كان أوائل المجنَّدين متطوعين، ويمكننا القول إنه بين كل ثلاثة نجد هاربًا من الشرطة، وآخرَ جاءت به الشرطة، والثالثَ أجيرًا محترَمًا»(١٥٣). وكذلك استُعمل العنف في تجنيد عمال الفرقة المصرية، إذ تشكَّى مستشار وزير الداخلية في فبراير من عام ١٩١٨ أن «المآمير والعمد يستخدمون الإكراه المحض لأجل تحقيق أرقامِ تجنيد جيدة»(١٥٤). وصدرت في صيف عام ١٩١٨ تعليمات للمفتشين البريطانيين تحظر ممارسة «خطف الرجال من الطرقات»(١٥٥). وأحيانًا وصل نمطُ التجنيد هذا، تدعمه قوة الخفر المسلحة، إلى حدِّ خطف الشباب وهم يمشون مطمئنين، وإرسالهم إلى الحرب.

وجمع بعض العُمد ثروات طائلة من الارتشاء نظير إعفاء الناس من التجنيد. إذ يذكر سلامة موسى قصةَ أحد العمد الذي «يملك ستة أفدنة فقط، جمع خمسة آلاف جنيه [لنفسه] بهذه الطرق، وكان الفلاحون يجوعون كي يجمعوا هذه الغرامات ويؤدوها»(١٥٦). وكذلك أشار الجندي البريطاني والمؤرخ برسيفال جورج إلجود (P. G. Elgood) إلى أن العديد من العمد جمعوا ثروات شخصية من هذه الرشَى(١٥٧). وبالارتشاء وبتسخير غير القادرين على الرشوة، أصبح التجنيدُ في نظام الضغط الإداري هذا ضريبةً عينية شديدة الرجعية مفروضةً على سكان الأرياف في المديريات، وقد أكره العديد من القرويين شديدي الفقر على الخدمة لدى السلطات العسكرية.

---

(152) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/1: Whittingham (May 1, 1916).

(153) Badcock, *History of the Transport Services*, 31.

(154) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/60a: Haines (February 5, 1918).

(155) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/134: Haines (August 6, 1918).

(١٥٦) سلامة موسى، تربية سلامة موسى، ص١١٣.

(157) Elgood, *Egypt and the Army*, 318.

وكذلك استغل العمد دورهم الجديد في التجنيد لحماية أنفسهم وممتلكاتهم من مصادرة البريطانيين لها لصالح المجهود الحربي. وكثيرًا ما تمكنوا من تأمين إعفاء أولادهم من التجنيد(١٥٨)، وتمكن البعض من حماية ممتلكاتهم من مصادرة السلطات العسكرية لها، إذ بحلول خريف عام ١٩١٧، التفت البريطانيون ناحية المصادرة القسرية للجمال من المديريات لأجل تلبية احتياجات فرقة النقل بالجمال(١٥٩). وفي أكتوبر من ذاك العام، مثُل عمدة أسيوط أمام محاكمةٍ غطتها الصحافة، بعد أن أُجبر على الاستقالة بسبب إخفائه جماله الخاصة عن السلطات العسكرية(١٦٠). وفي صيف عام ١٩١٧، سجل البريطانيون أيضًا أنشطة بعض الأعيان ممن «أعاقوا التطوع في فرقة العمال المصرية» في عزبهم الخاصة(١٦١). ومن ثم، فإن الموظفين المحليين تمكنوا من الاستفادة من شبكة تجنيد العمال لا عبر السلطات المتراكمة في أيديهم فحسب، بل عبر قدرتهم على إبعاد الدولة عن تجنيد أفراد عائلاتهم ومن يعملون لديهم ونزع ممتلكاتهم.

ويبين تمثيل العمد في الثقافة الشعبية أيام الحرب كيف ارتبطت هذه الشخصيات بالعنف والغدر طوال الحرب. فوفقًا لزياد فهمي، كان نجيب الريحاني «عند نهاية الحرب ملك المسرح بلا منازع»، والفضل في ذلك يرجع في الغالب إلى شخصيته كش كش بك؛ عمدة ريفي ساذج في مدينة كبيرة كان موضع سخرية الريحاني(١٦٢)، ونجد كذلك فصلًا مضحكًا ألقاه محمد ناجي بعنوان «العمدة العبيط»(١٦٣). وقد صوَّرت إحدى المسرحيات الشهيرة في أثناء الحرب –واسمها «العمدة في باريس»(١٦٤)تصويرًا غير واعٍ ربما، رحلة عمال الفرقة المصرية إلى فرنسا من وجهة نظرٍ طبقيةٍ مختلفة. وقد صوَّر المسرح الغنائي الساخر (مسرح الڤودڤيل) المصري، الذي ذاع صيته في فترة الحرب، شخصية العمدة تصويرًا متناقضًا بالكلية مع أفكار «السلطة الأخلاقية» التي تداولها المسئولون من أمثال رشدي وونجِت في ذلك الوقت.

ويسجل المؤرخ أمين عز الدين حدوتة شعبيةِ بالعامية المصرية تصوِّر هي الأخرى كيف أن دور العمدة في تجنيد عمال الفرقة المصرية جعل منه شخصية لا تؤتمن في فترة الحرب. تدور القصة حول شخصية إبراهيم أبو كيلة من مركز ميت غمر في

---

(158) TNA, FO 141/667/1 No. 2689/171: Claghin, “Synopsis of voluntary recruiting circulars» (July 5, 1920).

(١٥٩) لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص٢٦٦.

(١٦٠) «عمدة أسيوط»، جريدة الأفكار، ١٠ أكتوبر ١٩١٧.

(161) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/31: Rushdi (August 28, 1917).

(162) Z. Fahmy, *Ordinary Egyptians*, 124.

(163) Z. Fahmy, *Ordinary Egyptians*, 123.

(١٦٤) لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص٢٢٩؛ نجوى إبراهيم عانوس، شخصية العمدة، ص٢٩.

مديرية الدقهلية بالدلتا، الذي كان شقيًا ذائع الصيت، وكان العمدة يسعى لتجنيده في فرقة العمال، فأراد أن يخدعه بأن يعلن أنه سيعيِّنه شيخًا للخفراء. فارتدى أفخر ثيابه وسار في موكبه إلى المركز ليتلقى هذا الشرف، وتبعه العمدة بخفره. وعندما استعد أبو كيلة ليتقلد منصبه في مقر الشرطة، انقض عليه العمدة ورجاله وقيَّدوه بالحبال ورحَّلوه للتجنيد في فرقة العمال. وسُجِّلت القصة في زجل بالعامية المصرية يقول:

ما قولتلك يا أبو كيلة / امشي ما تتعوجشي

لحسن العمدة ما بيحبكش

رماك شيخ خفر في يافا / وماهية ولا تقبضشي[١٦٥]

اختار العمدة أبو كيلة في هذه الحدوتة لكرهٍ شخصي بينهما، وهو ما يبين أن تجنيد فرقة العمال المصرية ارتبط بالأهواء الاعتباطية للموظفين المحليين في الحرب. وفوق ذلك، نجد أن الخداع والعنف كانا وسيلة إجبار أبي كيلة على الخروج من مخبأه. لقد ارتبط تجنيد فرقة العمال المصرية والعمد المسئولين عنها، بسبب تلك التمثيلات الشعبية، بالنفي والرماية إلى فلسطين في الحرب. وكذلك، لا يمكننا تجاهل أهمية كتابة هذا الزجل بالعامية المصرية، فسهل حفظه وترديده ونشره في جميع أنحاء الريف. وذلك في مقابل التقارير الصحفية التي نُشرت في مصادر من قبيل **المقطم**، والتي صيغت بعربية فصيحة تخاطب الصفوة من ذوي التعليم العالي في مصر[١٦٦].

كانت محاولات تصوير امتلاك الأعيان شيئًا من «السلطة المعنوية» في الريف يمكنهم استغلالها لإقناع أهل القرى بالانضمام إلى فرقة العمال المصرية محاولات جوفاء. لم يكن هؤلاء العمد يخضعون لأية مراقبة من السلطات المركزية في القاهرة، لذلك تمكنوا من حيازة قوةٍ كبيرة في الريف بالتلاعب بعملية تجنيد عمال الفرقة المصرية، وسرعان ما أدت جرأتهم المتزايدة إلى نزاعات مع العمال المسئولين هم عن تجنيدهم ومع أهاليهم.

الانضمام إلى فرقة العمال المصرية

تفاعل المصريون من الريف مع شبكة تجنيد العمال الجديدة هذه بطرقٍ عدة، كان منها الانضمام إلى فرقة العمال المصرية. فقد وجدت المؤرخة المصرية لطيفة سالم أدلةً في دار الوثائق المصرية عن رجالٍ تواصلوا مع السلطات العسكرية من تلقاء

---

[١٦٥] انظر: أمين عز الدين، «أول دراسة عن سبب هام من أسباب ثورة ١٩١٩».

(166) Yousef, *Composing Egypt*.

أنفسهم ليطلبوا التسجيل في الخدمة في حملة غاليبولي[١٦٧]. وفي تقرير نشرته الأهرام في مارس من عام ١٩١٦، ورد أنه «يمكن للمتعطلين عن العمل ... أن يجدوا فرصة سانحة في الانضمام إلى خدمة السلطات العسكرية، التي تصرف أجرًا جيدًا لا يقل عن سبعة قروش في اليوم ... ورواتب [للعمال] مقدمةً قبل سفرهم»[١٦٨]. تلون الدعاية البريطانية هذا التقرير، وسلسلةَ التقارير التي نشرتها المقطم بعدها بعام، وتُلبس التجنيد لفرقة العمال إهابًا حسنًا فتصفه بأنه «فرصة سانحة». ولذلك بالغت في الأجور المتوقعة لعامل من درجةٍ متدنية، الذي كان في الواقع خمسة قروش في اليوم في فرقة العمال، وستة قروش في اليوم في فرقة النقل بالجمال[١٦٩]. لكن حتى مع هذه الأجور، كان يمكن للفلاحين الحصول بها على أجر أعلى من ذاك الذي كانت تحصل عليه العمالة المهاجرة قبل الحرب، أي ثلاثة قروش في اليوم[١٧٠]. وكان من المفترض أن يُصرف للمجندين الجدد مقدمةً من حساب رواتبهم ما إجماله ثلاثة جنيهات، أي ما يقارب مئة ضعف أجر العامل المهاجر[١٧١].

وتقدِّم لنا شهادة عبد الحميد محمد حسين تصورًا عن الاعتبارات التي اعتملت في نفوس العمال المنضمين إلى الفرقة. إذ شدد في بداية قصته على دور العقبات المالية الكبير في قريته، إذ كتب أن «الفقر هو الذي يحكم كل شيء في الحي المتواضع ... ومع الفقر تولد المثل والقوانين»[١٧٢]. فقد طلَّق والده والدته، فذهب ليعيش مع أخواله وامتهن النحت مهنة أبيه وهو في الحادية عشرة من عمره. تناول حسين لحظة تجنيده في الفرقة بتعليقٍ مختصر قال فيه: «وجدت نفسي ألتحق بالعسكرية»[١٧٣]، فقد التحق

---

[١٦٧] لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص٤٠٨.

[١٦٨] منقول عن عز الدين، «أول دراسة».

[169] TNA, FO 141/797/2 No. 2689/64: Allenby (February 13, 1918).

[١٧٠] حددت لطيفة سالم أجر العامل المهاجر في أثناء الحرب بثلاثة قروش في اليوم الواحد. انظر: لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص١٨٨. وتعطينا دراسة آن كليمو العميقة لأحد عمال اليومية في موقع استكشافات أثرية بمنطقة الكرنك تفصيلًا أدق، إذ تقول: «كان يحصل في المهمة الشاقة بالمشاركة في تطهير إحدى القنوات على أربعة قروش ونصف في اليوم طوال مدةٍ لا تتجاوز الأسبوع في الغالب، أو ربما أكثر من ذلك بقليل إن تم العمل على وجهٍ حسن وفي وقتٍ مناسب. أما في موقع الاستكشاف، كان أحمد يحصل على قرشين في اليوم». انظر: (Clément, “Rethinking ‘Peasant Consciousness,’», 83-84). وكتبت كليمو أيضًا عن «أطفال يخرجون من الفجر إلى الغسق ليحملوا جرادل الطين الثقيلة مقابل قرشٍ ونصف في اليوم الواحد» (p.٩٣).

[171] TNA, FO 141/797/2 No. 2689/64: Allenby (February 13, 1918).

[١٧٢] سمير عزت، صفحات من مذكرات شيخ مجهول: خمسة وسبعين عامًا بين قباب المساجد وجيش الإنجليز وسجون إسرائيل، روز اليوسف، ١٧ يوليو ١٩٦٨.

[١٧٣] سمير عزت، صفحات من مذكرات شيخ مجهول.

بفرقة العمال أكثر من مرة، إذ بعد أن عاد إلى مصر من حملته الأولى في غاليبولي في عام ١٩١٥، ذهب في أكثر من حملة إلى السودان، والتحق مرةً أخرى بالفرقة في حملة دعمٍ للتجريدة المصرية في حملة سيناء-فلسطين[١٧٤]. ولحصوله على قدرٍ جيد من التعليم، ترقَّى حسين سريعًا في مراتب الفرقة حتى حاز رتبة أمباشي، وأصبح مسئولًا عن مستودع الإمداد والتموين في معسكر الفرقة في فلسطين.

كان للفقر والعقبات المالية دور كبير في قرارات كثير من العائلات في الطبقات العاملة من الريف والمدينة في ذاك الوقت. فمع اندلاع الحرب العالمية الأولى في صيف عام ١٩١٤، دفعت حالة عدم اليقين العام الصناعةَ البريطانية إلى كبح النفقات، ومع انخفاض الطلب في محالج لانكشاير، اتضح أن محصول القطن المصري في صيف عام ١٩١٤ «لن يجنيه أحد حتى يبور مكانه»[١٧٥]. وكسدت حركة تجارة القطن عندما تعطلت سوق الاسكندرية في أغسطس وسبتمبر، وسرعان ما تخوَّفت البنوك والمقرضون من إعسار المدينين، وبدأت في السعي الحثيث لاسترداد القروض المعلَّقة لدى الفلاحين[١٧٦]. وكذلك عانى عمالُ المدن الكبرى من ضيقٍ اقتصادي مع بداية الحرب، إذ تصاعدت البطالة عندما حاول أصحاب الأعمال الكبار كبح نفقاتهم، وأُغلقت أعمال ذوي الجنسيات المعادية. وكذلك كان العديد من عمال المدن عمالةً مهاجرةً من الريف أصلًا، ولاعتبارات الأمن العام، اتُّخذت إجراءات إعادتهم إلى قراهم. ففي سبتمبر من عام ١٩١٤، رُحِّل ثلاثة آلاف صعيدي من مينائي الإسكندرية وبورسعيد، وجرى إجلاء ألفٍ وتسعمئة آخرين من مدينة دمنهور في الدلتا[١٧٧].

كانت فرقة العمال مكانًا يمكنه توفير فرص انتعاش مالي لهذا الجمع الغفير من الفلاحين والعمال المعدمين. لأن العمال الذي يثبتون أنهم «مهرة»، يمكنهم الحصول على «علاوات» من خمسين إلى مئة قرشٍ (أي من عشرة إلى عشرين ضعف الأجر اليومي الذي يحصل عليه العامل «غير الماهر» في فرقة العمال) لكل فترةِ عملٍ إضافية يجددوا فيها طلب الالتحاق بالفرقة[١٧٨]. وقد أسست السلطات العسكرية البريطانية مدارسَ تقدِّم دوراتٍ للعمال يحصِّلوا بها مهارات سائقي الشاحنات الميكانيكية

---

[١٧٤] سمير عزت، صفحات من مذكرات شيخ مجهول، ص ص٢٤-٢٥.

(175) Elgood, *Egypt and the Army*, 51.

[١٧٦] لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص ص ١٠٤-١٠٥.

[١٧٧] لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص ص ١٧٥.

[١٧٨] لكن «الغالبية العظمى» من العمال لم يحصلوا على أي علاوات لتكرارهم الالتحاق. انظر:

TNA, FO 141/797/2 No. 2689/38: Wingate (September 20, 1917).

أو الموظفين أو السفرجية[١٧٩]. وكان البعض الآخر يحصل على مكافأة مقابل انتظار أن يُحكم على عاملٍ آخر بالخدمة [العسكرية] فيُعرض عليه الحلول مكانه في الفرقة، وقد كتب أحد المستشارين البريطانيين عن «آلاف» المجندين «المتأهبين للتطوع ... متوقعين أجرًا إضافيًا ما قبل الانضمام». فوفقًا لتقرير المستشار، يمكن للرجال الحصول على جنيه إلى سبع جنيهات (أي من عشرين إلى مئةٍ وأربعين ضعف الأجر اليومي لعامل غير ماهر من عمال الفرقة) بفعلهم ذلك. وكذلك أشار المستشار إلى تقريرٍ غير مباشر عن ثمانين رجلًا من دمنهور «انتظروا خارج [مبنى المركز] ... على استعداد ليُنظر في أمرهم ليحلوا محل [المجندين]»[١٨٠]. وعلى رغم أن وصف البريطانيين لسياساتهم في مصر يجب أن يؤخذ بتحفظٍ وحذر، يبدو أن هناك بعض الشهادات على أن العمال عدُّوا أعمال التجنيد فرصةً مالية وسعوا إلى الانضمام إلى السلطات العسكرية.

ومن الأسباب الأخرى التي دفعت البعض إلى الانضمام لفرقة العمال المصرية أن آباءهم طلبوا منهم ذلك. فالكثير ممن خدموا في الفرقة لم يكونوا العائلين الأساسيين لأسرهم، لكنهم كانوا يريدون الإسهام في إعانتها. فنجد ضابطًا يكتب من فلسطين أن في سريته ولدٌ في السادسة عشرة من عمره[١٨١]. وفي تعميم صدر لموظفي الأقاليم في السادس والعشرين من مايو من عام ١٩١٨، حدد رشدي الفئة المستهدفة لتجنيد عمال الفرقة بأنهم الشباب بين الثامنة عشرة والخامسة والأربعين، لكن «عائلي أسرهم» يُعفون إن «لم يكن هناك من يسد حاجات أهله مكانه»[١٨٢]. ويبدو من ذلك أنه وفقًا لنص القانون، يصبح الذكور العيال على عائلٍ آخر هم المرشحون المثاليون للفرقة. وقد حُظر تجنيد أكثر من ثلاثة رجال من الأسرة نفسها، بما يشير إلى أن المسئولين حاولوا الاهتمام بمصالح الأسر[١٨٣]. وقد نشرت جريدة المقطم في أوائل عام ١٩١٥ خطابًا وصل إلى محررها يزعم أنه من رجلٍ أرسل أولاده مع القوات الإنجليزية التي تقاتل لصد العثمانيين عن قناة السويس. وعرَّف المرسل نفسه بأنه حسن مصطفى سالم، أحد خريجي الأزهر من عزبة أولاد موسى بمديرية الشرقية، ووصف شعوره بوجوب تلبية دعوة الحكومة للعمالة، قائلًا:

---

(179) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/63: Ministry of Finance (February 9, 1918).

(180) TNA, FO 141/797/2 No. 2689: Haines (June 30, 1918).

(181) Imperial War Museum, London, Earnest Kendrick Venables Papers (hereafter cited as IWM, EKV) 3/11: Ephraim (September 19, 1918), 128.

(182) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/31: Rushdi (August 28, 1917).

(١٨٣) ما زالت هذه السياسة مطبقةً في التجنيد الإجباري للشباب في القوات المسلحة المصرية حتى اليوم.

يجب شرعًا على جميع طبقات الأمة، صغيرها وكبيرها، غنيها وفقيرها، عالمها وجاهلها، أن يجعلوا أموالهم وأولادهم وأنفسهم تحت تصرف الحكومة المصرية أعانها الله ونصرها![184].

يؤكد خطاب سالم أن أفكار المقدس والطبقة والأمة قد تضافرت جميعها معًا لتنتج خطابًا بالواجب والإلزام لدى رجال الريف. وقد لوّح صاحب الرسالة بانتسابه إلى الأزهر، أرفع مؤسسةٍ للتعليم الإسلامي في مصر، ليعلن أن الانضمام إلى فرقة العمال المصرية «واجب شرعًا»، لكنه يصف نفسه أيضًا بالفلاح، ويدعو «طبقات الأمة» كلها لترسل ما في مقدورها لتدعم المجهود الحربي. وورد في خطابه أنه اشترك مع عائلةٍ أخرى ليرسل جملين إلى السلطات العسكرية. وكتب أيضًا: «لي أبناء في الجيش، وغيرهم على أتم استعداد لتلبية طلب الحكومة ... إنه واجب على كل حي في وادي النيل»[185]. وعلى الرغم من أن الطابع الدعائي لجريدة المقطم يوجب علينا أن ننظر لهذا الخطاب نظرةً نقدية، فإنه إن صحت قصة حسن مصطفى سالم، فإن عائلتين على الأقل في قريةٍ صغيرة من قرى الدلتا قد أرسلتا أبناءهما وحيواناتهما طواعيةً ليشاركوا في أولى حملات الحرب.

إذن، هناك أدلة بالعربية والإنجليزية تبين أن بعض الناس لم ينضموا إلى مجهود العمالة مكرهين بالعنف، بل لجوانب أخرى من ظروفهم الشخصية جعلت اختيارهم ذلك اختيارًا رشيدًا. فقد وضعت الضغوط المالية التي سادت أوائل الحرب العديد من الفلاحين الصغار في أوضاع غير مستقرة، في حين قدَّمت فرقة العمال أجورًا تنافسية وفرصًا للتوظيف طويل الأمد واحتماليات للتحسين. ومنهم من أجبر على التجنيد لأنهم خاضعون لغيرهم في العائلة، فكما تبين من خطاب **المقطم**، أرسل الأب أبناءه للحرب لتحقيق مكاسب سياسية لدى الإنجليز أو الموظفين المحليين، أو ليلقي على الأمة بيانًا عن الواجبات. لقد كان عمال الفرقة المصرية أفرادًا مختلفين ظروفهم شتى وكذلك تنوعت أسباب انضمامهم إلى الحرب.

الالتماس والمقاومة العنيفة

انضم البعض إلى فرقة العمال طواعيةً، وجُنِّد كثيرون قسرًا، والدليل على ذلك ما بذلوه من جهد للفرار من الخدمة. وقد لجأ الشباب في جميع أنحاء البلاد إلى طرقٍ عدة للتفاوض مع موظفي التجنيد أو إفساد عملهم أو مقاومتهم. وكان تقديم الالتماسات

---

[184] «الدفاع عن مصر»، جريدة المقطم، ٣٠ يناير ١٩١٥.
[185] «الدفاع عن مصر»، جريدة المقطم، ٣٠ يناير ١٩١٥.

إحدى هذه الطرق. فقد ورد في أحد التقارير أن وزارة الداخلية تسلمت في الفترة بين مايو ١٩١٨ ومارس ١٩١٩ ما مجموعه أربعة آلاف وتسعمائة وتسعة عشر (٤٩١٩) التماسًا، قبلت منها خمسمائة وستة وتسعون (٥٩٦)، أي قرابة اثني عشر في المئة (١٢%)[١٨٦]. إذ تسلمت الوزارة التماسات من «المجندين أو آبائهم» تتحدث عن أمرٍ يتعلق بعمر المطلوب تجنيدهم إجباريًا وتبيّن أن أهلهم كانوا في حالة استنفار في أثناء كتابة الالتماسات[١٨٧]، وكذلك حوَّل ضباط فرقة العمال باستمرار إلى قسم التجنيد التماساتٍ من العمال في أثناء خدمتهم[١٨٨]. لقد كان الالتماس وسيلةً شائعة يستعملها أهل القرى لطلب إنصاف الدولة في مظالمهم[١٨٩]. وفي دراسة للالتماسات المرسلة إلى خديوي مصر في أواخر القرن التاسع عشر، دفع جون تشالكرافت (John Chalcraft) بأن هذه الالتماسات يجب أن تُعدَّ نوعًا متميزًا من السياسة الريفية التي "لا" تثير « السلبية ولا التقويض الهادئ ولا الثورة، بل تثير تفاعلًا معقدًا ومفاوضات مع ممارسات الدولة وخطابها»[١٩٠].

وإلى جانب الالتماسات، استخدم الرجال والنساء العنف لمقاومة الضم إلى فرقة العمال. إذ نجد أن ملفات وزارة الخارجية في دار المحفوظات القومية البريطانية تحتوي خمسة وثلاثين تقريرًا عن مقاومةٍ عنيفة للتجنيد في الفترة بين التاسع عشر من مايو من عام ١٩١٨ وحتى السابع والعشرين من أغسطس من عام ١٩١٨، نادرًا ما أقر بها مؤرخو مصر الحديثة[١٩١]. وإجمالًا، تبدي السجلات أن المعارك بين أهل القرى والموظفين المحليين حول مسألة التجنيد في فرقة العمال في صيف عام ١٩١٨ انتهت إلى مقتل ثلاثة خفراء واثنين من العمد وثماني عشرة من أهل القرى، وأصيب خمسة وثلاثون خفيرًا واثنان وعشرون فلاحًا، واعتُقِل ما لا يقل عن تسعةٍ وسبعين آخرون.

كانت أشيع طرق المقاومة العنيفة لدى الأفراد هي مقاتلة موظفي التجنيد عند خطفهم من الطرقات أو المنازل، ويمكن إدراج ثمانية عشر حالة من إجمالي الخمسة والثلاثين (أي ٥١%) في فئة المقاومة الفردية التي تتضمن شخصًا واحدًا. لكن هذه المحاولات لم تنجح في الغالب، إذ كان موظفو الإدارة والقضاء يلقون في النهاية القبض على

---

(186) TNA, FO 141/667/1 No. 2689/171: Claghin (July 5, 1920).

(187) TNA, FO 141/667/1 No. 2689/171: Claghin (July 5, 1920).

(188) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/52a: «Note on El Afkar's Article» (December 20, 1917).

(189) Brown, *Peasant Politics*, 174.

(190) Chalcraft, "Engaging the State", 304.

(191) TNA, FO 142/797/2: «Raising the Egyptian Labour Corps."

مرتكبيها. وتُبرز السجلات عددًا كبيرًا من حالات الطعن مع عددٍ معتبر من الحالات ضُرب فيها الموظفون بأي أداة كانت في المتناول من أمثال النبابيت والحجارة وسكاكين المطبخ والفؤوس، وذلك على الرغم من أن الأسلحة النارية كانت أكثر الأسلحة استخدامًا في الحوادث(١٩٢).

وهناك إحدى عشر حالةً (٣١%) تضمنت مقاومةً من عائلاتٍ وليس أفرادًا. إذ يبدو من التقارير أن العمد استغلوا أحيانًا عملية التجنيد لفرقة العمال وسيلةً لتصفية الحسابات الشخصية، وغالبًا ما ردت العائلات التي تشعر بغبن في استهدافها ردودًا عنيفة. وقد ورد في برقيةٍ من مركز ديروط في صعيد مصر أن أهل قريةٍ اتهموا عمدتهم باختيار أحد المجندين «لينتقم لابن عمه الذي اتُهم بعلاقةٍ حميمية مع أخت شخصٍ اسمه عبد المطلب»(١٩٣).

وورد في تقريرٍ آخر كتبه مدير بني سويف وصفًا لنزاعٍ ثار بين سكان عزبة رجلٍ اسمه محمود سالم بيه وأحد العمد. إذ بدا أن أحد رجال العزبة قد أبلغ سلطات المركز عن العمدة «بشأن عدم انتظامه في جمع الشعير وأمور أخرى»، فاحتجزه العمدة وقرر إرساله للخدمة في فرقة العمال المصرية في فلسطين، لكنه تمكن من الهروب عند نقله إلى الجبهة. وقبل أن تصل أخبار هروبه إلى العزبة، جاء العمدة وقوةٌ من خفرائه لضبط أخي الرجل وتجنيده بدلًا عنه، فظن رجال العزبة أن العمدة ينوي «جمع المجندين المطلوبين كلهم من العزبة»(١٩٤)، فانهالوا عليه وخفراءه بالنبابيت، وفي خضم ذلك أطلق أحد الرجال النار على العمدة فمات من فوره.

ويسهل علينا تخيل مشاهد الزوجات والأمهات والأخوات وهم يُدفعن إلى المقاومة العنيفة دفعًا عند إرسال رجال عائلاتهن إلى فرقة العمال. ونجد أن عويل النساء المنكوبات مثّل خلفيةً صوتية شائعة في مشهد رحيل فوج من العمال في المصادر الصحفية المصرية(١٩٥). وسجل المؤرخ الاجتماعي المصري أمين عز الدين أنه «بين

(١٩٢) انظر مثلًا أحد التقارير الصادرة عن مديرية الغربية في الدلتا حول أحد حالات المقاومة الفردية التي استعمل فيها أهل القرى سكين المطبخ أو النبوت للمقاومة، في: TNA, FO 141/797/2 No. 2689/110: Ministry of Interior (June 19, 1918).

(193) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/123: Residency Telegram (July 13, 1918).

(194) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/103: Haines (June 13, 1918).

(١٩٥) انتقدت جريدة الأهالي المصرية «نساء صائحات معولات خلف المطلوب للقرعة» من الرديف. انظر: «دعوة الرديف»، جريدة الأهالي، ٢٢ يناير ١٩١٦.

صراخ الأطفال وولولة النساء يؤخذ الرجال»[196]. وذكر أحد التقارير الواردة من نجع حمادي بمديرية قنا في صعيد مصر ذكرًا عابرًا أن بعض الأقارب «تدخلوا» في عملية التجنيد، وعندما رأى الخفر هذا التدخل، أطلقوا النار على المهاجمين، «فجرحوا رجلًا وامرأة»[197]. ولم يكن ضلوع هؤلاء النسوة في الأعمال العنيفة أمرًا مستغربًا، إذ كشفت دراسة زينب أبو المجد أن الكثير من نساء مديرية قنا قد شاركن في عالم عصابات الأشقياء منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر[198].

وكانت الزوجات يُستدعين أيضًا للشهادة على أزواجهن بعد القبض عليهم بتهمة مقاومة التجنيد. فنجد تقريرًا من قرية كفر الصارم بمحافظة الغربية يحكي قصة رجلٍ اسمه عبد السلام فرج، التمسه العمدة وأُجبر على الانضمام إلى فرقة العمال، لكن أقرباءه جاءوا فجأة من بيتٍ قريب لينقذوه، وضربوا من جاء من الخفر للقبض عليه بالنبابيت والفأس، فتدخل مأمور المركز واعتقل خمسةً من رجال العائلة، لكن سبعة تمكنوا من الهرب، وعقدت السلطات بعد ذلك هيئة تحقيق محلية واستجوب بعض الناس منهم زوجات المتهمين. والظاهر أن العمدة حاول التلاعب بالشهود[199]، إذ نجد في سجلات المحفوظات البريطانية اتهاماتٍ أخرى بالتلاعب بالشهود لبعض عمد القرى المتهمين بإساءة استغلال عملية التجنيد، منها حالة شاهد «أُجبِر على التوقيع على بيانٍ بالقوة»[200]. إن حضور النساء للشهادة في تحقيقات عامة حول أعمال المقاومة العنيفة يدلنا على أن الأمر لم يقتصر على مشاركتهن في هذه الحوادث فحسب، بل عرَّضهن لخطر [مواجهة] عمد قراهن.

وإلى جانب أعمال المقاومة العنيفة لدى الأفراد والعائلات، ثارت انتفاضات عامة لدى جماعات أكبر، وصلت حتى قرى كاملة، ونجد على ذلك ما لا يقل عن سبعة أمثلة في سجلات وزارة الخارجية. أكبر هذه الحالات نجده في مديرية الدقهلية، حيث كان أحد ملازمي الشرطة في «قسم بيلا» يستعد للخروج بالمجندين المقيَّدين إلى مركز

---

[196] أمين عز الدين، أول دراسة.

[197] TNA, FO 141/797/2 No. 2689/119: Ministry of Interior (July 3, 1918).

[198] Abul-Magd, Imagined Empires, 143.

[ترجم الأستاذ أحمد زكي عثمان كتاب زينب أبو المجد بعنوان «إمبراطوريات متخيلة: تاريخ الثورة في صعيد مصر» في نسخةٍ عربية موسعة عن النسخة الأجنبية، وقد استندنا إليه في النقولات الخاصة بهذا الكتاب. – المترجمان]

[199] TNA, FO 141/797/2 No. 2689/86: Haines (May 23, 1918).

[200] TNA, FO 141/667/1 No. 2689/167: «Compulsory Recruitment» (May 14, 1919)

طلخا وعندها «اجتمع ما يقرب من مئتي شخص من أهل القرية، وتدخلوا لمنعه وهم يلحون على إطلاق سراح محمد السيد»[٢٠١].

ونجد في مثالٍ آخر كيف يمكن للنزاع حول تجنيد العمال للفرقة المصرية أن يكون جزءًا من السياسة القروية. ففي الخامس والعشرين من مايو من عام ١٩١٨، خرجت مجموعة من خفر قرية برمشا في مركز مغاغة بمديرية المنيا بمجندين إلى معسكر الجيش في الشيخ مسعود، وعند عودتهم أطلق أهل قرية منشية حلفا المجاورة النار عليهم. واكتشف المحققون أن منشية حلفا تتبع برمشا إداريًا، لكن أهلها طالبوا باستقلالها مؤخرًا، فرُفض طلبهم وعُيِّن لهم عمدةٌ خاص، ثم زعموا أن ذلك أوغر صدر عمدة برمشا تجاههم. وعندما قبض خفر برمشا على ثلاثة رجال من أهل منشية حلفا، عدَّ الفلاحون ذلك هجومًا عليهم جميعًا وردُّوا ردًا جماعيًا[٢٠٢]. وتبين لنا هذه القصة اللافتة كيف أن التجنيد لفرقة العمال قد يتفاعل مع النزاعات المحلية وينزع ثقة الأهالي في الموظفين، وأصبح التجنيد عاملًا جديدًا من عوامل السياسة المحلية التي أصبحت في ذاتها تصادميةً وعنيفة بعد حظر البريطانيين للانتخابات المحلية بعد الاحتلال[٢٠٣].

لقد غيَّر تجنيد العمال للفرقة المصرية نمط الحياة في القرى، لا للمجندين فحسب، بل أيضًا لمن تركوهم وراءهم من عائلاتهم وأهلهم. فقد تفاعل المصريون في الريف مع التجنيد بطرقٍ مختلفة، بعضها من نوع التفاعل مع الدولة مثل إرسال الالتماسات، وبعضها من نوع رفضها مثل العنف الموجَّه إلى موظفي الحكومة. وصل الوضع إلى أوجه في صيف عام ١٩١٨ عندما وقعت ما لا يقل عن خمسةٍ وثلاثين حادثةٍ منفصلة من المقاومة العنيفة في فترة ثلاثة أشهر. لكن نادرًا ما اعترفت الدراسات التاريخية لمصر الحديثة بهذه الحوادث، ويجب أن تُربط بعضها ببعض بوصفها جميعًا جزءًا من موجةٍ أوسع من غضب الريف المصري الناشئ عن التجنيد لفرقة العمال في الحرب العالمية الأولى.

إعادة السخرة

كان البريطانيون على علمٍ منذ وقتٍ مبكر في فبراير من عام ١٩١٨ بمثالب نظام الضغط الإداري، ففي تقرير يرجع لذاك الشهر، اشتكى جون هاينز (John Haines)

---

(201) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/88: Haines (May 25, 1918).

(202) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/88: Haines' Report (May 26, 1918).

(203) Jakes, *Egypt's Occupation*.

مستشار وزارة الداخلية من أن «المآمير والعمد يستعملون الإكراه الصريح لأجل تحقيق أرقام تجنيد جيدة، وهو ما يشنِّع سمعةَ التجنيد على عكس ما يتمناه الجيش»[٢٠٤]. وانعقد اجتماعٌ في السادس من مايو بين المستشارين البريطانيين والسلطات العسكرية لوضع حلٍ لمشكلات التجنيد، واقترح هاينز أن «يُستدعى العمال من القرى وفق صيغةٍ من صيغ العمل بالسخرة»[٢٠٥]. ويمكن أن يستند ذلك إلى بقايا السخرة القديمة المعروفة باسم أعمال خفارة النيل[٢٠٦]، التي تضمَّن الاستعداد لها بجمع ستة عشر ألف رجلٍ لائقين للعمل لمدة مئةٍ وخمسين يومًا قبل فيضان النيل[٢٠٧]. كانت هذه الأعمال هي آخر ما تبقى من نظام السخرة القديم، لكنها بعثت في الحرب العالمية الأولى متخفية في عملية تجنيد عمال الفرقة المصرية في الريف.

حاول البريطانيون تصوير إعادة استعمال السخرة بأنها محاولةً لتقليل انتهاكات العمد. وبالفعل، عندما اعترض سلطان مصر على انتهاكات التجنيد، أشار ونجِت إلى خطة إعادة استعمال السخرة بوصفها حلًا للمشكلة[٢٠٨]. ونصَّت ديباجة إعلان وزارة الداخلية عن الخطة أن أسباب إعلانها تتمثل في «عديد الشكاوى التي استلمتها الوزارة، ويفترض بعضها إساءة استغلال العمد والموظفين العموميين لسلطاتهم لأسباب شخصية محضة»[٢٠٩]. واتهم البريطانيون العمد بـ «الإهمال» عندما رأوا أن نسبة المجندين إلى إجمالي السكان أقلَّ بكثيرٍ في بعض المراكز مقارنةً بغيرها[٢١٠]. ومن ثم، كان المأمول أن استخدام قوائم السخرة سيسم عملية التجنيد بالمركزية والنظام. ففي وجود قائمة يمكنهم الاستناد إليها، حاول البريطانيون سحب بعض السلطة التقديرية الممنوحة لموظفي الإدارة في الأقاليم، ومن ثم تقليل شكاوى السكان من سوء استخدام السلطة والفساد[٢١١].

---

(204) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/60a: Haines (February 5, 1918).

(205) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/75: Meeting at the Residency (May 6, 1918).

(206) TNA, FO 141/797/2 No. 2689: Haines (May 26, 1918). See also TNA, FO 141/798: «Circulaire Concernent l'Enrôlement Volontarie."

(207) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/66: MacDonald (March 2, 1918).

(208) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/129: Wingate (July 25, 1918).

(209) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/96: Rushdi circular No. 10 (May 26, 1918).

(210) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/78: Copy of Letter from Rushdi (May 8, 1918).

(211) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/89: Haines (May 26, 1918) and No. 2689/87b: Keon-Boyd (May 26, 1918).

لكن إن كانت الغايةُ النظرية من العودة إلى قوائم السخرة هي الحدَّ من تعرض المجندين لنزوات العمد التعسفية، فإن التطبيق العملي للنظام أبقى فعليًا الكثير من الأمور في سلطة هؤلاء العمد التقديرية. إذ كانت قوائم خفارة النيل التي أعدتها وزارة الأشغال العامة غير ممكنة الاستعمال في مهمة التجنيد العسكري دون إدخال بعض التعديلات. فكلّفت وزارة الداخلية في تعميم على المديريات هؤلاء العمد أنفسهم بإعداد القوائم الجديدة «استنادًا إلى قوائم العام الماضي الخاصة بالرجال المسئولين عن خفارة النيل». وكان المقرر أن تستثني القوائم النهائية كلَّ من كان سنُّه أقل من ثمانية عشر عامًا أو أكبر من خمسةٍ وأربعين عامًا، والمجندين العسكريين الذين اجتازوا الاختبارات الطبية بالفعل، وموظفي «الجمعيات والإدارات القائمة على الأعمال الفنية»[٢١٢]. ووفقًا للبريطانيين، كان العمد وحدهم هم من يحملون «معلوماتٍ محلية» كافية حول القرى التي يقيمون فيها، التي تتيح الحكم في حالات الاستثناء التفصيلية هذه[٢١٣].

لكن الشكاوى ضد العمد ظلت على حالها في صيف عام ١٩١٨. إذ وفقًا لتقرير وزارة الداخلية، نجحت إصلاحات التجنيد في جعل العمدة «لا خيار له فيمن يرسِل»، لكن «الخداع يقع في القوائم نفسها»[٢١٤]. فقد أسبغ البريطانيون الطابعَ المؤسسي على سلطةِ هؤلاءِ التعسفية في القرى بمنحهم العمدة صلاحية كتابة القائمة. لكن سرعان ما خرجت وزارة الداخلية بمقترح إصلاحٍ آخر يقضي بأن يقدِّم العمد ضعفَ عدد المجندين المطلوبين من ناحيته، ثم «يتحرى المأمور ويُفرِج عن نصفهم». كان المأمول أن «يهدئ هذا خاطر» العمال والفلاحين الخاضعين للتجنيد عبر منحهم فرصة الاستئناف أمام سلطةٍ أعلى من عمد القرى، حتى وإن ظل عدد المجندين الإجمالي كما هو[٢١٥]. وبحلول أغسطس من عام ١٩١٨، كتب مستشار وزارة الداخلية في تقريره عن حالة الإصلاح: «كنتُ في المنصورة منذ يومٍ أو يومين وكان المأمور يمر بالمجندين، وكان كل شيء يجري بسلاسة»[٢١٦].

الخلاصة

واجهت فكرة جمع مئات الآلاف من شباب الريف المصري ليعملوا في الحرب العالمية الأولى مشكلاتٍ عند تنفيذها. فقد لاقى العسكريون معارضةً من الدبلوماسيين

(212) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/96: Rushdi circular No. 10 (May 26, 1918).
(213) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/96: Rushdi (May 30, 1918).
(214) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/134: Haines (August 6, 1918).
(215) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/85: Keon Boyd (May 30, 1918).
(216) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/134: Haines (August 6, 1918).

في لندن والقاهرة، ومسئولي الحكومة المصرية، وضباط الجيش الإنجليزي المصري. انتهى الأمر برجال الإدارة هؤلاء -ممن شق عليهم فرض حلولهم التفاوضية من أعلى إلى أن يعتمدوا على وسطاء محليين يملكون المعرفة والخبرة والقدرة على جمع المجندين. لكن الموظفين المحليين تصرفوا كأنهم سادة إقطاعياتهم الخاصة أكثر من كونهم خاضعين للحكومة المركزية. إذ أصبح العمدة في القرية قادرًا على تعظيم ثروته ونفي أي منافسٍ شخصي له إلى الخدمة في فرقة العمال المصرية.

إن الصورة المعقدة للدولة الاستعمارية البريطانية التي ترسمها لنا هذه القصة هي صورة مجموعةٍ من المؤسسات المنغمسة في خطط الاستغلال العالمية في الحرب العالمية الأولى، لكنها تعتمد اعتمادًا جوهريًا على وسطاء محليين تمكنوا أحيانًا من إعادة صياغة جهود الدولة الإمبراطورية وفق غاياتهم. وربما نجد في قرار إعادة تطبيق السخرة في عام ١٩١٨ أفضل مثلٍ على حدود قوة الدولة الاستعمارية، إذ أُجبرت السلطات البريطانية على التراجع عن سياسة كانت ركنًا من أركان الدفاع الخطابي عن إمبراطوريتهم في مصر في عهد إيفلِن بارنغ. وفي حين أن بعض الباحثين يرسمون صورةً شمولية عن قوة الدولة الاستعمارية التي تفرض إرادتها على المصريين فرضًا منظّمًا(٢١٧)، فإن صورتها التي تبرز من هذه الدراسة العميقة لتجنيد عمال الفرقة المصرية هي صورة الدولة الأكثر عرضةً للضغوط القادمة من أعلى بفعل التطورات العالمية، والضغوط القادمة من أسفل من الجماعات المحلية.

وكذلك لا يمكن اعتبار العمال والفلاحين في الريف فاعلين منفصلين منكفئين على ذواتهم لا يفكرون إلا في مصالحهم الضيقة وفي نزاع دائم مع الدولة. و صحيح أن من رفضوا أعمال التجنيد واجتهدوا في تحرير أنفسهم من خدمة فرقة العمال كثيرون. فقد أعلنوا السخط على التجنيد -سلميًا عبر عرائض الالتماس وباستخدام العنف وبذلك تمكن المضارون من سياسة الدولة رجالًا ونساءً من التأثير فيها. لكن محاولة اختزال تجنيد العمال بوصفه أنه كان «تجنيدًا إجباريًا» يُغفِل أجزاءً جوهرية من القصة. إذ اختار المعدمون من العمال والفلاحين الانضمام إلى الفرقة ووجد بعضهم طريقًا للحصول على مزيد من المال عبر السعي إلى الحلول محل من جُنِّدوا إجباريًا، أو عبر تصنيفهم في فئة العمال المهرة. وحتى في صيف عام ١٩١٨ الصعب والدامي، تطوع العمال من أمثال عبد الحميد حسين في الفرقة مددًا عدة.

---

(217) Mitchell, *Colonising Egypt.*

[ترجم الأستاذان بشير السباعي -رحمه الله وأحمد حسان كتاب ميتشل بعنوان «استعمار مصر»، وصدر عن دار سينا للنشر في مصر في عام ١٩٩٠، وصدر منذ عشر سنوات في دار مدارات للأبحاث والنشر في عام ٢٠١٢، ونقلنا عن هذه الأخيرة نقولات الكتاب وأثبتناها في موضعها. -المترجمان].

أوحت أفكار العرق والطبقة والدين بوعيٍ جماعيٍ لدى النخب الريفية المعروفة بالأعيان وجعلتهم يظهرون بمظهر الخيار المنطقي لتمثيل الفلاحين في الريف، وهو ما دفع جهود الإصلاح البريطانية نحو دمجهم في وزارة الداخلية قبل الحرب بجيلٍ واحد. وعندما اندلعت الحرب، أُعيد النظر في استغلال موارد الدولة الاستعمارية لتيسير إخراج الشباب من الريف المصري. اعتمدت السلطات العسكرية على شبكات الجيش الإنجليزي المصري ووزارتي الأشغال العامة والداخلية لاختيار مئات الآلاف من المجندين المحتملين لفرقة العمال المصرية واحتجازهم. لكن موظفي وزارة الداخلية كانوا مسؤولين أمام جماعاتهم المحلية وأمام الدولة، كان للعملية كلها آثار قلبت أحوال قرى البلاد جميعها. وسيتناول الفصل التالي ما جرى بعد التجنيد، أي عملية فرز العمال المحتملين ونقل اللائقين منهم إلى مواقع القتال في أوروبا والشرق الأوسط. والتزمت هذه العملية النمط الأساسي نفسه الذي يستهدف إعادة صياغة الموارد الخاصة بالدولة الاستعمارية لتناسب متطلبات الحرب، لكنها شملت تغيرًا فضائيًا كبيرًا في مدن مصر والبنى اللوجستية التحتية في جميع أنحاء البلاد.

[٣]

«من الدار إلى النار»

تتابع وصول المصريين إلى فرنسا طوال ربيع عام ١٩١٧ ليعملوا في شحن وتفريغ السفن على الأرصفة الفرنسية. كانت أولى محطاتهم في مرسيليا، ذلك الميناء الجنوبي على البحر المتوسط الذي استقبل القادمين من مصر لمئات السنين. لكن المسافرين لم يكونوا التجار المعهودين، فقد جاء فلاحو فرقة العمال المصرية عمالًا عسكريين. ويصف أحد مراسلي **المقطم** مشهد وصول سريةٍ من المصريين في ربيع عام ١٩١٧ قائلًا:

رجال ممتلئين صحة وقوة ونشاطًا، وقد قوبلت مقابلةً حافلة عند نزولها إلى البر، وأُعجبنا جميعًا من حسن هندامها ونظامها ودلتنا هيئتها بلباس الخاكي على أنها فرقة جد وعمل.[١]

اشتهرت **المقطم** أيام الحرب بدعايتها المؤيدة للبريطانيين كما أشرنا في الفصل السابق، ولذلك يجب التشكك في وصفها «سرور» الرجال بما ينتظرهم من العمل في فرنسا. لكن إن «خالفنا الشائع»، سنجد أن التقرير يحتوي عددًا من الإشارات المهمة إلى رحلة العمال المصريين الذي خرجوا من قراهم إلى مواقع القتال[٢]. غالبًا ما يشير «حسن نظامها» إلى التقسيمات والتوزيعات المتنوعة التي تضمنتها سرايا الوحدة، والتي قسمتهم إلى وحداتٍ متمايزة يسهل التحكم فيها. وكان «لباس الخاكي» تحولًا كبيرًا عن الجلاليب القطنية الطويلة الزرقاء أو البيضاء التي كانت نمط زيهم السائد في القرى. وكذلك أشار المراسل إلى «صحة وقوة» هؤلاء العمال المجهَّزين حديثًا، والتي ضمنتها الفحوص الطبية ونظام النظافة الشخصية الصارم.

لم يكن وصول عمال الفرقة المصرية إلى مرسيليا على هذه الحال وصولًا طبيعيًا. فرحلتهم شملت السفر من قراهم إلى أقرب مركز، ومنه إلى مدينتي القاهرة والإسكندرية، ثم عبور البحر المتوسط في النهاية بالباخرة، وكان الكثير منهم يعبرون البحر للمرة الأولى في حياتهم. يعيد هذا الفصل بناء رحلة هؤلاء العمال، ومعها رحلة مئات الآلاف من الشباب الآخرين ممن شقوا طريقهم إلى الدردنيل والعراق وفلسطين في الحرب العالمية الأولى.

---

[١] «قسم الأشغال المصري»، جريدة المقطم، ١٣ أبريل ١٩١٧.

[2] Stoler, *Along the Archival Grain*.

لقد غيَّر عمال الفرقة المصرية خريطة مصر بتحركهم عبر الفضاء/المكان. وقد تبدو فكرة «إنتاج الفضاء/المكان» مخالفةً للمنطق بدايةً. إننا اليوم ننظر إلى الفضاء/المكان بوصفه شيئًا سابقًا على النشاط الإنساني، يمكننا ملؤه وتعديله والتجول فيه، لكن يظل إلى حدٍ ما حاويًا فارغًا لأفعالنا. وقد قدَّم الفيلسوف الفرنسي هنري لوفيڤر فكرة «إنتاج الفضاء» ليدحض هذا التصور المسبق، ليأكد أن الفضاء منتجٌ اجتماعي من العلاقات الناشئة بين الناس والأفكار والبيئة الطبيعية، إذ تنتج التفاعلات بين هذه العناصر الثلاثة تصوراتٍ فريدة عن الفضاء. ويرى لوفيڤر أن الفكرة المهمينة عن الفضاء بوصفه حاويًا فارغًا هي في ذاتها نتاج نمط الإنتاج الرأسمالي، الذي يترافق تاريخيًا مع الاستهلاك الواسع للخرائط ونشأة علم الجغرافيا بوصفه علمًا اجتماعيًا.

إن الخرائط ورسوم الفضاءات هي ما يسميه لوفيڤر «تمثيلات الفضاء» التي ينتجها «العلماء والمخططون والعمرانيون ومقسِّمو الأراضي التكنوقراط والمهندسون الاجتماعيون»[٣]. والبشر يفهمون بيئتهم ويتحركون فيها بطرق مختلفة لا حصر لها، لكن تمثيلات الفضاء تصف بعض ممارسات الفضاء بأنها «علم» (knowledge/ *Savoir*) وتغفل أخرى فتمحو وجودها. ذلك أن الخطوط المرسومة على الخريطة تجعل وجود الحدود السياسية أو مسارات الانتقال الطبيعية بين مكانين أمرًا طبيعيًا، وتُظهرها كأنها جزء من المشهد الطبيعي. ويجبرنا تحليل إنتاج الفضاء حسب تصور لوفيڤر على استكشاف التوترات التي تثور بين تمثيلات الفضاء من ناحية وبين الطرق المتعددة التي تحتل بها الذوات البيئةَ المبنية وتسكنها، أي هذه الذوات، وتعمل على فك غموض ما يحيط بها.

إن تركيز الماركسي الملتزم لوفيڤر على نمط الإنتاج الرأسمالي بوصفه محرِّك إنتاج الفضاء أدى به إلى إيلاء جزءٍ كبير من بحثه إلى نشأة المدن لتكون مستودعات لفائض رأس المال[٤]. ولا ينصب اهتمام فصلنا هذا على التنمية الاقتصادية الرأسمالية وميلها نحو التوسع المدني بوصفه المحرِّك لإنتاج الفضاء المدني، بل على تبيان أن الجهود المبذولة لمتابعة الحرب انتهت إلى إنتاج أنواعها الخاصة من «الفضاءات اللوجستية»[٥].

---

[3] Lefebvre, *Production of Space*, 38.

[4] Lefebvre, *La Droit*; Lefebvre, *Writings on Cities*.

يركز الباحثون في مصر على القاهرة والإسكندرية. انظر عن القاهرة:

J. Abu-Lughod, "Tale of Two Cities"; Raymond, *Artisans et Commerçants*; Reynolds, *City Consumed*.

وعن الإسكندرية، انظر:

Reimer, "Colonial Bridgehead"; Carminati, "Alexandria, 1898."

[5] Cowen, *Deadly Life*.

يتحسر بول فيريليو (Paul Virilio)، مستدركًا على لوفيڤر، على أن الكثيرين قد فاتهم أن المدينة «ما هي إلا محطة ونقطة على طريق واحد في مسار متواصل» [٦]، ويرى أن «اختراع المدينة بهذا الشكل نشأ نتيجة الاستعدادات اللوجستية للحروب» [٧]. وفي حين سهُل على الفلاسفة الفرنسيين في السبعينيات والثمانينيات تجاهل العلاقة بين إنتاج الفضاء والحرب، لم يكن ذلك ممكنًا بالنسبة للمصريين. فإن «مصر» بالعامية المصرية تعني القاهرة ومصر كلها وهي مشتقة من المعسكر الحربي الذي بُني بعد الفتح العربي الإسلامي لمصر. يقول إدوارد لين إن الجذر العربي (م ص ر) يشير إلى «الحاجز بين الشيئين ... ومن ذلك، بلد عظيم»، وسُمي الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، الذي أرسل قائدًا لفتح مصر، بممصِّر الأمصار أو «ذاك الذي بنى المدن [الحصينة]» [٨]. إن الدلالات اللغوية المرتبطة بكلمة مصر في العامية المصرية تعكس تصور فيريليو عن المدينة بوصفها «المنحدرات العسكرية القديمة أو طرق التلال أو الحصون أو ضفاف الأنهار، اللاتي ارتبطت فيها نظرة المشاهِد أو سرعة انتقال المركبات ببعضهما ارتباطًا عضويًا» [٩].

يتتبع هذا الفصل عمال الفرقة المصرية في طريقهم عبر المراكز والمدن في جميع أنحاء مصر، موثِّقًا تغيرات البنى التحتية التي كانت ضرورية لنقلهم طوال رحلتهم إلى الحرب. ويتضمن كل قسم تمثيلًا معينًا للفضاء استعملته السلطات المسؤولة عن سَوْق عمال الفرقة طول الطريق، لكن الخطوط الملساء المرسومة على هذه الخرائط والرسومات لم تسجل أبدًا سلوك مجندي الفرقة الذين حاولوا طوال رحلتهم الاعتراض على السلطات الاستعمارية والهرب منها وتفاديها. وكانت كل عقدةٍ جديدة في الشبكة تضيف للمجندين فرصًا جديدة، وكلما تعقَّد مسار المجندين، اشتد عناء السلطات الاستعمارية في فرض بعض النظام على الفضاء المترامي الذي جمعوا أشتاته.

الاحتجاز والتفتيش في مراكز المديريات

كانت المهمة الرئيسية لتوماس راسل (Thomas Russel)، المفتش البريطاني على المديريات في وزارة الداخلية، أن يجول في جميع أنحاء الريف ويصدر تقارير عن قرى مصر. وكانت الخرائط أدواتٍ مهمة لراسل والمفتشين الآخرين في تخطيط جولاتهم ليضمنوا أنهم مروا على كل المراكز والقرى الكبرى في حدود اختصاصهم الإقليمي.

---

(6) Virilio, *Speed and Politics*, 31.

(٧) منقول عن: Cowen, *Deadly Life*, 163.

(8) Lane, Lexicon, vol. 2, 2777, http://ejtaal.net/aa/#HW=489,LL=4_283,LS=2,HA=380.

(9) Virilio, *Speed and Politics*, 31.

وقد ارتبطت غالب قرى الريف لأسبابٍ إدارية بمركز، وارتبط كل مركز بمديرية منذ أيام محمد علي. وكانت عواصم هذه المراكز والمديريات هي نقاط الاتصال المباشرة بين إدارة الدولة والقرى المحيطة بها، فكانت في المعتاد أول محطات رجال فرقة العمال.

كانت بيئة العمران في المراكز «منفِّرةً» للمفتشين البريطانيين من أمثال راسل. إذ نجده يصف فترة الرحلة التي تمتد لثلاثة أسابيع في الأقسام بأنها «العيش في المراكز الصغيرة من دون حياةٍ اجتماعية، فلا توجد سينما ولا نوادٍ، ولا علاقات اجتماعية، ولا شيء يمكن فعله سوى العمل والدسائس»[١٠]. وفي كل محطةٍ من جولته، كان المفتش يقيم في «استراحات» مبنية «من الطوب [اللبِن]» و«لم يكن لها من اسمها نصيب»[١١]. وكذلك ردد غيره من الإنجليز الذين اعتادوا التجول في الأقاليم في أثناء الحرب مسألة البناء بالطوب اللبن في غالب المباني ووصف تصميمها الداخلي بأنه «شديد البدائية»[١٢]. لكن عندما نزل راسل في عواصم المديريات من أمثال أسيوط وطنطا والزقازيق، كان يقيم في المنازل الأفخم المملوكة للقضاة المصريين وغيرهم من المسؤولين[١٣].

يبدأ عمال الفرقة المصرية رحلتهم من وطنهم إلى الجبهة سيرًا على الأقدام إلى أقرب مركز أو عاصمة مديرية، مربوطين أحيانًا معًا بحبلٍ سميك حول جذوعهم لمنعهم من الهرب. وهناك يُودَعون الحجز حتى يفحصهم مفتش صحي في جولةٍ من جولات مروره المعتادة[١٤]. اشتملت المراكز على «مقرات احتجاز» تديرها وزارة الداخلية وتوفرها مصلحة السجون[١٥]. والراجح أن عمال الفرقة ناموا في أثناء فترة احتجازهم في هذه الزنازين كما نام السجناء قبلهم لسنين، مفترشين «حشايا» على أرضٍ إسفلتية[١٦]. اشتهر عن مقرات الاحتجاز قبل أعمال التجنيد الازدحام الشديد، وجاء تأسيس فرقة

---

(10) Russell, *Egyptian Service*, 27–28.

[ترجم الأستاذ مصطفى عبيد كتاب توماس راسل إلى العربية بعنوان «النسخة النادرة من مذكرات توماس راسل حكمدار القاهرة ١٩٠٢-١٩٤٦» وصدر عن دار الرواق للنشر والتوزيع في عام ٢٠٢٠، ونقلنا عنه بشيء من التصرف ما نقله المؤلف في هذا الكتاب. والاقتباس السابق هو من ص٤٥ من الترجمة العربية –المترجمان]

(11) Russell, *Egyptian Service*, 48.

[ص٧٣ من الترجمة العربية –المترجمان]

(12) IWM, EKV/2: *They Also Served*.

(13) IWM, EKV/2: *They Also Served*, 49.

(14) TNA, FO 141/667/1 No. 2689/171: Ministry of Interior (July 5, 1920).

(15) TNA, FO 141/667/1 No. 2689/171: Ministry of Interior (July 5, 1920).

(16) Charles Coles, "Prison Problems in Egypt", The Near East 14, no. 348 (January 4, 1918): 12.

العمال ليزيد الطين بلة. فمثلًا، كتب أحد المسؤولين السياسيين عن مديرية المنوفية في الدلتا في شهادته المقدمة للجنة ملنر في عام ١٩٢٠ أن مأمور مركز منوف «غالبًا ما احتجز عنده سبعين أو ثمانين رجلًا في غرفة واحدة لعدة أسابيع، منتظرًا ترحيلهم إلى فرقة العمال»[١٧]، وكانت سلطات القاهرة على علمٍ بذلك، إذ يذكر تعميمٌ صدر في أغسطس من عام ١٩١٨ أن «بعض مآمير المراكز يحتجزون الرجال لوقتٍ طويل قبل فحصهم»[١٨].

اجتهد المسؤولون البريطانيون لحل مشكلة أوقات الانتظار الطويلة هذه. فنجد تعميمًا اقترح تقليص مدة الاحتجاز بالسماح للمراكز التي يتأخر المفتشون في رؤيتها بإرسال مجنديها إلى مراكز يسهل الوصول إليها[١٩]. وجرت محاولةٌ لتثبيت موعد أساسي لفحص المجندين طبيًا في المديريات كلها، لكنها فشلت نظرًا «لاختلاف آراء المديرين الناشئة عن أسبابٍ محلية»[٢٠]. وكان المعتاد في بعض المراكز أن يزورها فريق التفتيش الصحي مرةً واحدةً في الشهر، وفي ديسمبر من عام ١٩١٨ فشلت محاولة زيادة هذه الوتيرة إلى مرة كل أسبوعين[٢١]، وأخذ عدد المجندين يزداد حتى فاضت بهم غرف الحجز في انتظار مفتشي الصحة ليفحصوهم.

وقد أمرت السلطات العسكرية أن يخضع كل مجند للفحص الطبي في مركزه قبل الانضمام إلى فرقة العمال المصرية. رُفض الكثير من المجندين في هذه المرحلة وأعيدوا إلى بيوتهم. فمثلًا، زعم الفيلق الطبي الملكي البريطاني (RAMC) أنه في الفترة بين نوفمبر من عام ١٩١٦ وحتى أبريل من عام ١٩١٧ تقدَّم مئةٌ وثلاثون ألف (١٣٠,٠٠٠) مصري للفحص الطبي في محطات التجنيد، رُفض منهم ثلاثون ألفًا (٣٠,٠٠٠) أو ٢٣%[٢٢] لأسباب متنوعة، كان أبرزها وفقًا لأحد مصادر الفيلق الطبي هو أمراض العيون[٢٣].

كان السير إلى عاصمة المركز وفترة الاحتجاز هناك لا شك تجربة منهكة للمجندين، لكن بعضهم استغل تكدس الرجال في غرف الحجز لمصلحتهم. ففي فترة الشغب في

---

[17] TNA, FO 848/6: Rev. W. W. Cash (1920).
[18] TNA, FO 141/667/1: Synopsis (August 1918).
[19] TNA, FO 141/667/1: Synopsis (August 1918).
[20] TNA, FO 141/667/1: Synopsis (September 14, 1918).
[21] TNA, FO 141/667/1: Synopsis (December 1918).
[22] RAMC, *With the RAMC in Egypt*, 296–297.
[23] RAMC, *With the RAMC in Egypt*, 296–297.

صيف عام ١٩١٨، أشعل المحتجون في مركز فارسكور مظاهرةً فريدة، إذ اعتصم ستة وعشرون رجلًا بإغلاق باب الزنزانة من الداخل[٢٤]، وعندما حاولت قوةٌ من الشرطة اقتحام الغرفة، تجمع حشدٌ من أهل المدينة حول المبنى وبدأوا في إلقاء الحجارة على الخفراء ثم حاولوا اقتحام الحجز وتحرير المحتجزين، لكن الخفر المسلحين صدُّوهم وأطلقوا أعيرةً نارية عليهم. لجأت سلطة المركز إلى الاتصال بمدير الدقهلية الذي جاء بقوةٍ من الشرطة مستقلًا القطار[٢٥]، وكذلك جاءت قوةٌ أخرى من مدينة دمياط، فاجتمعت القوتان وتمكنتا من قمع الحشد المتجمهر، ونُقل العمال المحتجون من حجز المركز بالقطار إلى مدينة المنصورة القريبة ليستكملوا رحلتهم إلى الجبهة[٢٦]. فشل احتجاج المجندين في تحقيق هدفه لكن التقرير يبين أن حشدهم في فضاءٍ واحد في مقار حجز المراكز كان ضد مصلحة السلطات العسكرية.

أما من لم يفلت من التجنيد فكانت خطوته التالية توقيع عقد. وعلى الرغم من أن هذا الإجراء الشكلي لم يكن ليدل على الرغبة الفعلية للمجندين في الانضمام إلى فرقة العمال المصرية، فقد كان ولا شك جزءًا أصيلًا من المسرح الذي أقامه البريطانيون للإبقاء على وهم أن فرقة العمال «جُنِّدت كلها على أساس تطوعي»[٢٧]. قدَّم العقدُ كلَّ الشروط التي من المفترض أن تحكم عامل الفرقة المصرية، منها مدة الخدمة لستة شهور تبدأ من تاريخ وصول المجند إلى الميدان، وشرط الراتب اليومي الذي تراوح عادةً بين خمسة وستة قروش في اليوم الواحد[٢٨].

هناك بالطبع عدة إشكالات في اعتبار هذه العقود دالةً على أية موافقةٍ من العمال قائمةٍ على علم، منها أن القليل من المجندين من كان يعرف القراءة، حتى عندما ترجم البريطانيون العقود إلى العربية، كانت عربيةً فصيحةً معاصرة، وهي مستوىً أدبي عالٍ من اللغة بدا صعبًا على العمال فهمه حتى عندما يُتلى عليهم جهرًا. وكذلك لم يكن بمقدور العمال الأميين التوقيع على العقد، فتحايل البريطانيون على ذلك بأن أضافوا ختمًا أو بصمة إصبع خلف العقد واعتبروهما دلالةً على موافقة المجند[٢٩]. وتقول المؤرخة لطيفة سالم إنه في بعض المراكز أقام صانعو الأختام قرب حجز المركز

---

(24) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/86: Ministry of Interior (May 20, 1918).
(25) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/86: Ministry of Interior (May 20, 1918).
(26) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/86: Ministry of Interior (May 20, 1918).
(27) TNA, FO 141/797/2689/64: Allenby (February 13, 1918).
(28) TNA, FO 141/797, 167.
(29) TNA, FO 141/797, 167.

ليصنعوا أختامًا لمن ليس له ختم من المجندين، ومن يأبى منهم أن يختم يُضرب حتى يختم[30].

CONTRACT.

1. I agree to serve in the Egyptian Labour Corps for any period up to six months.

2. I engage to comply with all laws and Military regulations now in force, or which may come into force during my period of service; I also agree to be tried by Court Martial or Military Court for any [illegible] of the said laws or regulations.

3. I am to receive a salary of — piastres per day, with clothes and food provided for the Corps.

4. I am to be paid from the date of my enlistment up to the date of my discharge and returned to — at the expense of the British Government.

5. The period of six months' service shall date from the day I reach Kantara, or other place where my gang commences to work.

6. My seal or thumb print on the back of this form is in token of my agreement to the above conditions.

CERTIFICATE. (اقـرار)

Certified that I and all the men of my gang who have signed this form understand and accept the conditions of service, and have undertaken to serve for a period up to 183 days.

Signature of Reis

امضاء الريس

Certified that the terms of this contract have been explained to the men by me before enlistment and that they understand that the period of service is 183 days.

Date

Signature of Officer

A.P. & S.D.

صورة (٣,١): عقد لفرقة العمال المصرية باللغتين العربية والإنجليزية. من دار المحفوظات الوطنية البريطانية، وزارة الخارجية ١٤١/٧٩٧/٢.

كانت المراكز وعواصم المديريات هي نقاط الاتصال الأساسية بين رجال فرقة العمال المصرية والدولة، كما كانت على مر أجيال. وقد غُيِّر دور سجن المديريات وغرف الاحتجاز ليصبح موقعًا للاحتجاز والتفتيش على رجال فرقة العمال، ونُظِّم الوقت وفقًا لنظام جولات التفتيش الصحي، وانتظر المجندون لأسابيع أحيانًا وهم على هذا

---

[30] لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص٢٥٢.

الحال من التكدس. لكن طول مدة الاحتجاز وما ترتب عليه من تكدس مجندي القرى القريبة خلق فرصًا للمقاومة لدى الأهالي، ولقد صارت تلك المراكز بواباتٍ لخروج جموع العمالة المهاجرة في فرقة العمال المصرية، فمنها انطلق مئات الآلاف من شباب قرى مصر في رحلتهم الطويلة "من الدار إلى النار".

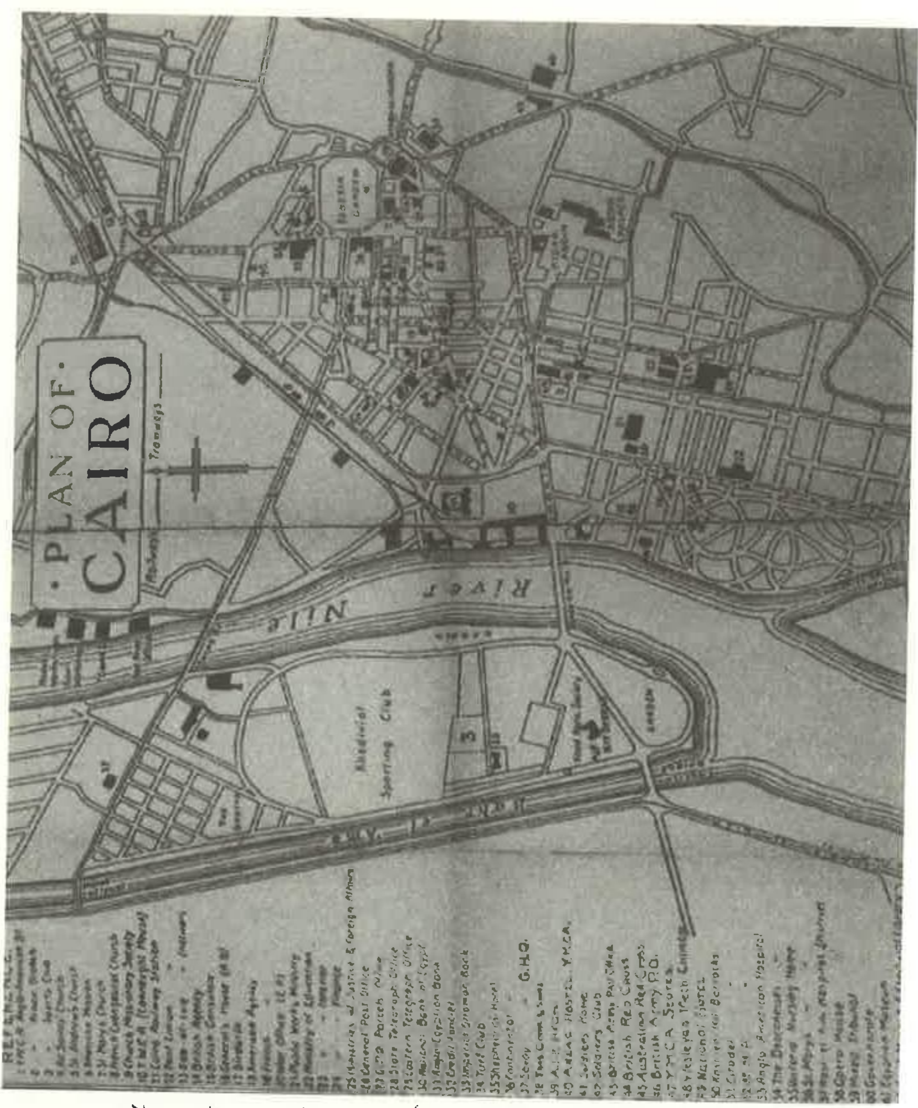
مدن لوجستية

عادةً ما كانت إحدى المدن هي المحطة الثانية في الرحلة. إذ مثَّلت القاهرة والإسكندرية وعواصم المديريات، من قبيل أسيوط وسوهاج والمنصورة، العقدَ الرئيسة في شبكة إمداد جهود الحرب. وتسمي ديبورا كوِن (Deborah Cowen) هذه المدن «مدنًا لوجستية»، إذ تتسم بتركز وتداخل الثكنات العسكرية ومستودعات الإمداد والتموين ومعسكرات التوزيع والسكك الحديدية والطرق[٣١]. وفي الحرب، يسَّرت البنى التحتية المتركزة في هذه المدن حركة المواد والبشر إلى جبهات القتال المتنوعة. وقد أصبحت هذه المدن مراكزَ لتنظيم عمال الفرقة المصرية وتموينهم وتوزيعهم.

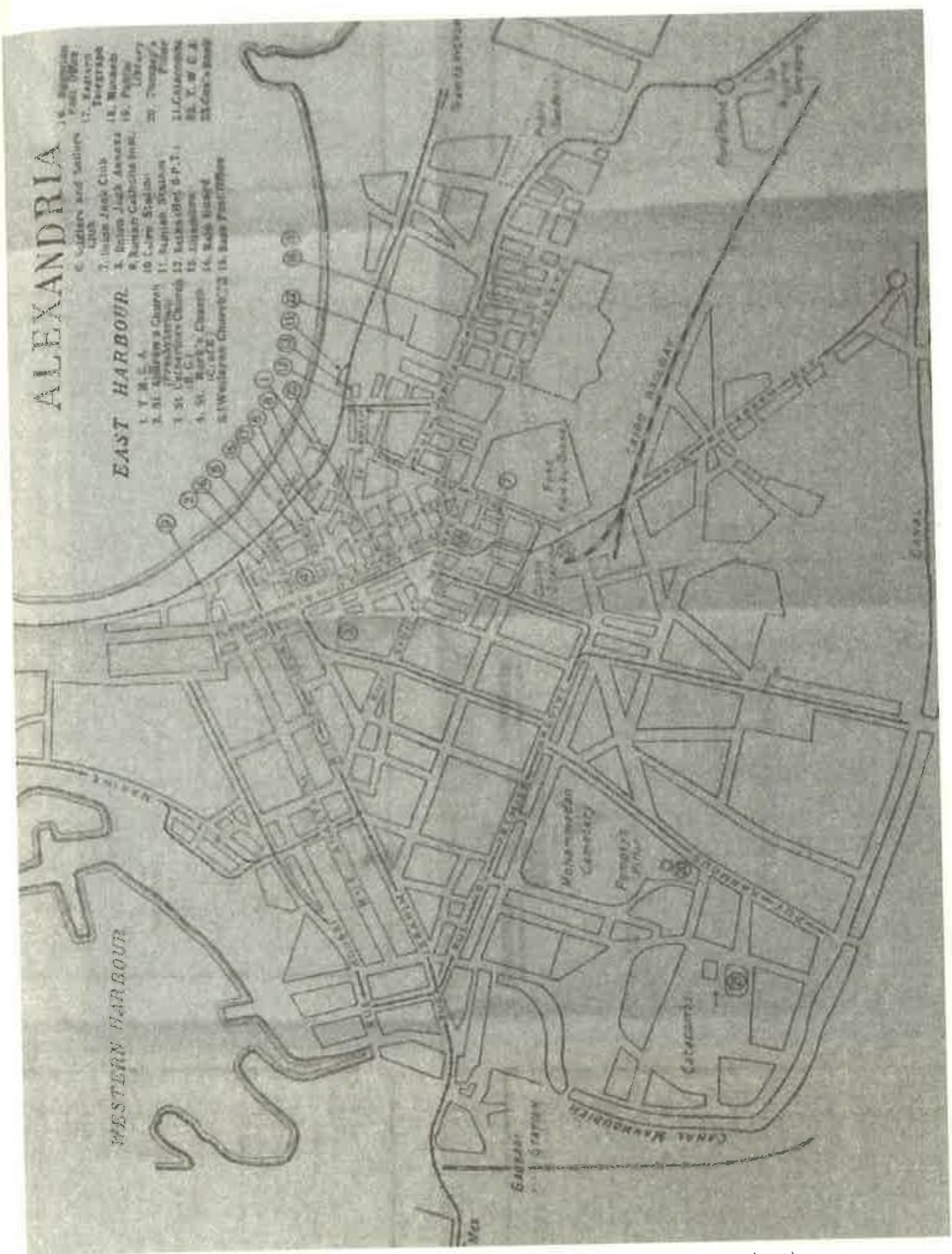
يمكننا الاطلاع على التخطيط الحضري للمدن اللوجستية في مصر أيام الحرب في الخرائط التاريخية للقاهرة والإسكندرية في ذلك الوقت. فنجد أن المباني العسكرية قد وُضعت بالقرب من البنى التحتية اللوجستية. كانت الثكنات الأساسية للقوات البريطانية على كوبري قصر النيل، وثكنات شرطة الخيالة العسكرية ملاصقةً لمحطة سكك حديد القاهرة، وورش سكك حديد مصر على النيل شمال بولاق. وفي الإسكندرية، حاضرة مصر الثانية، تمركزت الحامية الرئيسة بجانب محطة السكك الحديدية، ووُزعت مكاتب البريد العسكري والبريد المصري ومحطة التلغراف الشرقية جميعها بطول الشارع الواصل إلى الميناء الشرقي الذي يفتح على البحر المتوسط، والذي ينتهي إليه كذلك خط الترام الذي يخدم المدينة كلها. إذن، جُمعت البنى التحتية اللوجستية معًا في هذه المدن لتيسير انتقال الناس والأشياء عبرها ومنها إلى مناطق أخرى.

---

(31) Cowen, *Deadly Life*.



صورة (٣,٢): القاهرة في الحرب العالمية الأولى. جامعة مينيسوتا، سجلات محفوظات المجلس الوطني لجمعيات الشبان المسيحيين عائلة كاوتز:
Y.USA.9-2-22 Box 7.



صورة (٣,٣): الإسكندرية في الحرب العالمية الأولى. جامعة مينيسوتا، سجلات محفوظات المجلس الوطني لجمعيات الشبان المسيحيين عائلة كاونتز: Y.USA.9-2-22 Box 8.

كانت مصر بحلول عام ١٩١٤م تملك شبكة سكك حديدية واسعة الانتشار وتحوي أطول خطوطٍ في منطقةٍ مأهولةٍ بالسكان في العالم كله(٣٢)، وكانت سكك حديد مصر هي القائمة على إدارة مركز هذه الشبكة. وقد انخرط رئيسها جورج ماكولاي (George Macaulay) في أثناء الحرب في نقاش متواصل مع السلطات العسكرية حول كيفية تقديم المزيد من العون للمجهود الحربي(٣٣). إذ قال قائد التجريدة المصرية أرشيبالد موراي في مايو من عام ١٩١٧ إن ماكولاي قد «ساعد بكل السبل الممكنة، والتزم بتنفيذ كل ما طلبت»(٣٤)، واشتملت تلك الطلبات على استعمال السكك والعربات لخطوط القطارات العسكرية بدلًا من استعمالها في الأغراض المدنية، وكذلك نقل الموارد الزراعية ورجال فرقة العمال المصرية عبر السكك المملوكة للدولة.

حملت قطارات سكك حديد مصر مجندي فرقة العمال المصرية من مقرات الاحتجاز في المراكز وعواصم المديريات إلى مستودعات الإمداد والتموين ومعسكرات التوزيع في المدن. تأسس أول مستودع تموين للعمال المصريين ممن يخدمون في الحرب في منطقة عين شمس على أطراف القاهرة في ديسمبر من عام ١٩١٥، وكان يزوِّد رجال فرقة النقل بالجمال الخاصة بجبهة سيناء–فلسطين. وكان تشارلز وتِنجهام (Charles Whittingham) قد اختير قائدًا للفرقة بعد أن كان مفتشًا عامًا على مصلحة السجون في الحكومة الاستعمارية، وأرسل مفتشين بريطانيين لجمع الجمال من الريف المصري، وشكَّل لجان شراء تقتني ما تبقى من المطلوب من السودان والهند والصومال والجزائر(٣٥).

كانت مستودعات الإمداد والتموين ومراكز التوزيع المحاور الرئيسية لتجهيز فرقة العمال، فكانت قاعدة الشام في الإسكندرية مستودع الإمداد والتموين الأوَّل لأولى سرايا الفرقة التي ذهبت إلى غاليبولي في عام ١٩١٥(٣٦). وفي يوليو من عام ١٩١٦، بعد حل قاعدة الشام وتشكيل التجريدة المصرية، تأسس مستودع تموين خاص بمجندي فرقة العمال المصرية في منطقة الحضرة شرقي الإسكندرية(٣٧)، وتلاه مستودعٌ آخر كبير على جزيرة الروضة جنوبي القاهرة(٣٨). كان غالب عمال الفرقة يمرون بأحد هذين

---

(32) Ulrichsen, *Logistics and Politics*, 21.
(33) TNA, FO 141/469/1 No. 1615/6: «Egypt and the War» (July 7, 1917).
(34) TNA, FO 141/469/1 No. A.M. 1953: Extract (May 24, 1917).
(35) Murray, *Murray's Despatches*, 219.
(36) Murray, *Murray's Despatches*, 206.
(37) Murray, *Murray's Despatches*, 207.
(38) Murray, *Murray's Despatches*, 207.

المعسكرين قبل انطلاقهما إلى الجبهة. ومع زيادة الطلب على فرقة العمال المصرية، تأسست معسكرات توزيع في جميع أنحاء البلاد. فتأسس في شهري مايو ويونيو من عام ١٩١٦ أربعةُ معسكرات في الخارجة وسمالوط وشوشة والفيوم[٣٩]، وافتُتِح في أكتوبر معسكرٌ كبيرٌ في أسيوط، وبعدها بقليل تأسس سادسٌ في سوهاج على بعد تسعين ميلًا جنوبًا على النيل[٤٠]. وقال موراي إن المعسكرين الأخيرين أثبتا أنهما ذوا نفعٍ كبير، إذ يمكن فيهما جمع المجندين و«إرسالهم إلى الساحل في كتائب قوام الواحدة منها ألفا رجل»[٤١]. وأدى وجود السكك الحديدية والتلغراف والبنى التحتية البحرية في هذه المراكز والمدن إلى جعلها مواقع مثالية لمستودعات الإمداد والتموين ومراكز التوزيع.

تحول المجندون في الوقت القصير الذي قضوه في المدن اللوجستية من عمالٍ وفلاحين عاديين إلى عمالٍ عسكريين. فكانوا يحصلون أولًا في معسكرات التوزيع في مراكز المديريات على بطانيتين ومعطف، ثم يسافرون بالقطار إلى مستودعات الإمداد والتموين في القاهرة والإسكندرية حيث يُعقَّمون ويحصلون على كساءهم وجهازهم[٤٢]. فمثلًا في مستودع الحضرة، كان الوافدون الجدد يدخلون أولًا عنبر المجندين المكوَّن من «منطقة مُسوَّرة مجهَّزة بالمراحيض ومقاعد للاغتسال وأحواض الاستحمام وأماكن للطهي وخيم للمعيشة، مخصصة حصرًا للمجندين الجدد»[٤٣]، وكان أفراد الخدمات الطبية يقصون هناك شعر المجندين بمجزات الشعر ويحلقون شعر أجسادهم وعاناتهم، ثم يتوجه المجندون إلى مركز التعقيم القريب وهم يحملون بطانياتهم وأمتعتهم. وعند وصولهم إلى المعقِّم بالبخار يخلعون ملابسهم ويلفونها في إحدى البطانيتين ومعها متعلقاتهم ويتركونها ليعقمها أفراد الفيلق الطبي الملكي، ثم يلفون البطانية الثانية حولهم في أثناء مرورهم في «الحمام» حيث يدخل المجندون مثاني في حمامٍ كبير تفيض عليهم فيه سوائل منها الكريسول والصابون السائل والبارافين والكبريت[٤٤].

ثم ينتقل المجندون إلى مستودع العتاد القريب حيث يحصلون على زيهم الموحد الجديد المكوَّن من سروال بني من الكتان، وسترة كاكية مطرَّز عليها من الأمام الحروف

(39) Murray, *Murray's Despatches*, 206.
(40) Murray, *Murray's Despatches*, 207-208.
(41) Murray, *Murray's Despatches*, 207-208.
(42) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/64: Allenby (February 13, 1918).
(43) RAMC, *With the RAMC*, 297.
(44) RAMC, *With the RAMC*, 297.

الأولى من اسم الفرقة «E.L.C»، ومعطف، ثم يسترجعون في النهاية متعلقاتهم من المعقَّم الأساسي ويسيرون بها نحو المخزن حيث يحصلون على ما تبقى من عتادهم: البيادات (الأحذية العسكرية) وأغطية الرأس. وقد قال أحد أفراد الخدمات الطبية إن «العملية كلها ... تستغرق ثلاثة أرباع ساعة يتحول فيها المجند الجديد إلى عضوٍ كامل التجهيز في فرقة العمال المصرية، ويكون جاهزًا للخدمة في أي ميدان من ميادين الحرب، سواء كان فلسطين أو سالونيك أو فرنسا»(٤٥).

الخطوة التالية للتعقيم والتجهيز هي غرس قدرٍ من الانضباط العسكري في المجندين عبر تنظيمهم في تراتبٍ هرمي، حيث يحصل كل مجند على رقمٍ تعريفي يُطبع على «قلادات يرتدونها ... بخيط حول العنق»(٤٦)، ثم يوزَّعون على فصائل (خلَّات) تتكون من خمسين رجلًا، ويُجمع فيها غالبًا المجندون من قريةٍ أو مركزٍ واحد(٤٧)، ثم تُدوَّن أرقامهم العسكرية في قائمة تصحبهم في أي مكان ينتقلون إليه. ويختار مفتشو التجنيد رئيسًا لكل فصيلة أو خلة، قالت السلطات البريطانية إن هؤلاء «يُناط بهم ضبط [المجندين] حين يعملون لدى مقاولين مدنيين»(٤٨). ونُظِّمت الفصائل أو الخلَّات في سرايا من المفترض أن حجمها يتراوح بين خمسمئة وستمئة رجل، يقودها ضابط آمر ويعاونه ضابطا صف(٤٩).

كان العثور على الضباط وتدريبهم من أشق ما واجهته فرقة العمال المصرية. إذ عُيِّن للسرايا الأولى ضباطٌ كانوا في إجازة من الحكومة الاستعمارية أو آخرون من البيض ذوي الخبرة بالعمل في مصر، وعلى رغم افتقارهم إلى التدريب العسكري، فقد تميزوا بألفتهم العامية المصرية وثقافة البلاد(٥٠). وكان غالب ضباط فرقة النقل بالجمال من هذه الفئة، وبنهاية الحرب، كان اثنان وتسعون من بين مئة وسبعين ضابطًا من ضباطها هم من الإنجليز المجندين من الحكومة الإنجليزية المصرية(٥١). لكن مع زيادة الطلب على العمال المصريين، استحال تجنيد ضابط خبير بالعمل في مصر على كل سرية، فبدأت السلطات البريطانية قبول الضباط الصغار من ذوي الخبرات العسكرية أيًا كانت، فتمنحهم رتبة ملازم ثانٍ وقيادة إحدى السرايا وتحته اثنان من ضباط

---

(45) RAMC, *With the RAMC*, 298.
(46) IWM, EKV/2: *They Also Served*, 5.
(47) TNA, WO 107/37: «Report on British Labor in France» (November 14, 1919).
(48) TNA, WO 107/37: «Report on British Labor in France» (November 14, 1919).
(49) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/64: Allenby (February 13, 1918).
(50) Badcock, *A History*, 26; IWM, EKV 3/1: Sinai (September 3, 1917), 6.
(51) Badcock, *A History*, 26.

الصف[٥٢]. وقد نظر أحد الضباط القدامى في فرقة النقل لهذه الموجة الجديدة من الضباط بازدراء وقال «إن كل من جاء من الضباط الكبار، باستثناء ضابطٍ واحد، فشلوا بسبب جهلهم بالظروف المحلية»[٥٣].

كانت مشكلات الضباط الجدد مشكلات تنظيمية. فقد كانت فرقة العمال نتاجًا عارضًا فرضته الأحوال الفريدة التي نشأت مع الحرب العالمية الأولى، فلم يكن للضباط الجدد تاريخ رسمي ولا تقاليد تنظيمية تسمح لهم بتولي عملهم هذا. من ذلك أن إرنست ڤينابلز (Ernest Venables) حين انضم ضابطًا إلى الفرقة لأول مرة في عام ١٩١٧، سأل عما فيها من «"الأوامر السارية" أو "اللوائح"، فأخبروه أنه لا يوجد أي من ذلك»، وفسر ذلك بقوله «إنه تنظيم وتاريخ في طور التشكل من يوم إلى آخر»[٥٤]. وقد أدى نقص الضباط المؤهلين أحيانًا إلى تعيين ضباطٍ على سرايا أكبر من التصور الأمثل الذي وضعته السلطات. فنجد ڤينابلز يشرف عند نهاية خدمته على سرايا أو كتائب تصل حد الألف عامل، أي ضعف معيار الخمسمئة عامل الرسمي.

كان الضباط وعمال الفرقة المصرية يجتمعون لأول مرةٍ في المدن اللوجستية، ويكافح الطرفان ليتفاهما. كانت دورات تعليم العامية المصرية تُعقد في معسكرات التوزيع لمساعدة الضباط الجدد، ووجب على ضباط الصف الراغبين في الانتقال إلى فرقة العمال المصرية أو فرقة النقل بالجمال الخدمة لفترة اختبار مدتها شهر في مستودعات الإمداد والتموين يحصلون فيها على دورات للغة ويدرِّبون المجندين الجدد، وذلك قبل تعيينهم في الفرقة[٥٥]. لكن إتقان العربية العامية المصرية في بضعة أسابيع كان مستحيلًا، ويلخص ڤينابلز المنتج النهائي صار «نمطًا مذهلًا من الخلطات العامية»، وقال إن «كلامنا صار بغير قصد مزيجًا من لهجة الجيش وهندوستانية الجنود واللغة العربية»[٥٦].

وفوق ذلك، عانى رجال فرقة النقل بالجمال صعوبة التقرب إلى جمالهم. إذ قال أحد الضباط الإنجليز «إن الحياة في عين شمس بدت مثيرةً بل ومحفوفة بالمخاطر بسبب السلوك الوحشي لكثيرٍ من الجمال. فكل يومٍ تقريبًا تجد في المستشفى رجلًا أو أكثر

---

(52) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919).

(53) Badcock, *A History*, 26.

(54) IWM, EKV 3/1: Sinai (September 3, 1917), 3–4.

(55) Badcock, *A History*, 28.

(56) IWM, EKV/2: *They Also Served*, 12.

عضّه جمل، وتكرر كثيرًا أن انحل رباط أحد الجمال فيثير الآخرين ويظل المعسكر مستيقظًا طوال الليل»[٥٧].

تمكن بعض المجندين من استغلال هذا التخبط كله لصالحهم وهربوا من فرقة العمال بمجرد وصولهم إلى المدن اللوجستية. فمثلًا، هرب في عام ١٩١٥ مئتا مجند من مديرية بني سويف عند وقوف قطارهم في محطة الإسكندرية[٥٨]، وفي عام ١٩١٧ فر مجندو قطار آخر قبل وصوله إلى القاهرة[٥٩]. وكذلك كان الأمر في معسكرات التوزيع، إذ يذكر أحد التقارير الصادرة في مايو من عام ١٩١٧ أن سلطات التجنيد في معسكرات توزيع أسيوط «رأت أنه من الضروري إحاطة المعسكر بأسلاك شائكة»[٦٠]. ولعل معسكر التوزيع الكبير في سوهاج لم يشهد محاولات هروبٍ من العمال[٦١].

مع تكاثر النقاط على شبكة حشد العمال وانتشار مستودعات الإمداد والتموين ومعسكرات التوزيع في المدن اللوجستية، أتاح التدفق المستمر للعمال المهاجرين والضباط والجنود والحيوانات فرصًا لهروب المجندين. أي أن العمال تمكنوا من استعمال اتساع فضاء شبكة الهجرة ضد مقاصد مخططيها أنفسهم. ونجد أن حالات الفرار قد فرضت نفسها هي الأخرى على فضاء الشبكة، كما حدث عندما اضُطرت السلطات العسكرية إلى مد أسلاك شائكة حول معسكرات التوزيع في أسيوط وسوهاج.

البحر والرمال

يخرج عمال الفرقة المصرية من قراهم إلى المركز أو عاصمة المديرية ويتجهون نحو المدن اللوجستية الكبرى، ثم يواجهون مساحات شاسعة من البحر والرمال عليهم أن يجتازوها قبل بلوغ مواقع عملهم النهائية. وعندما بدأ موراي في التخطيط للتقدم شرقًا عبر صحراء سيناء إلى فلسطين، نظر إلى أنماط هجرة البدو الذين كانوا يسيرون في هذه الرحلة على مر الأجيال السابقة. واختار من بين طرق القوافل البدوية الثلاثة المارة بسيناء أقربها إلى الشمال، الذي يسير بموازاة ساحل المتوسط عبر رفح والعريش ويلتقي

---

(57) Carman and McPherson, *Bimbashi McPherson*, 155.

(58) TNA, FO 141/797/2 No. 2689: General Staff (July 23, 1915).

(59) TNA, FO 141/797/2 No. 2869/12: Minutes (May 28, 1917).

(60) TNA, FO 141/797/2 No. 2869/12: Minutes (May 28, 1917).

(٦١) ففي الوقت الذي واجه التجنيد احتجاجات في كل مكان في الصيف العنيف في عام ١٩١٨، قال اللنبي عن سوهاج: «لم تقع أي اضطرابات، ولم نجد ضرورة لزيادة حجم العاملين المعتاد القليل في المعسكرات». انظر:
TNA, FO 141/797/2 No. 2689/98: Allenby (June 1, 1918).

مع قناة السويس في القنطرة[٦٢]، وهناك بدأ في مد أنابيب المياه وبناء السكك الحديدية التي ستحمل القوات والعمال من مصر إلى فلسطين.

كان من أولى مبادرات موراي عمل مسحٍ واسع النطاق لمنطقة قناة السويس شرق الخطوط البريطانية، نفَّذه القسم الطبوغرافي في وحدة المخابرات الخاصة بالحكومة الإنجليزية المصرية بالتعاون مع الفيلق الجوي الملكي البريطاني[٦٣]. وأدى ذلك إلى توحيد خرائط تكتيكية لشبه جزيرة سيناء وطباعتها وإصدارها للجيش البريطاني المنتشر كله على جبهة سيناء-فلسطين[٦٤]، ووصف موراي هدف العملية بأنه «تحقيق أعلى دقة طبوغرافية في مسح صحراء عديمة الملامح تقريبًا»[٦٥].

بدأت سكك حديد مصر في ربيع عام ١٩١٦ في مد أكثر خطوط السكك الحديدية تطورًا، فأضافت اثني عشر ميلًا من القنطرة شرق حتى واحة قطية[٦٦]. ووُصِلت محطات السكك الموجودة على الضفة الشرقية للقناة بخط سكك حديد مصر الموجود على الضفة الغربية بجسور دوارة[٦٧]، وحُوِّل لتنفيذ ذلك مئة وخمسون كيلومترًا من السكك الحديدية ذات العرض القياسي الموحد المملوكة لسكك حديد مصر، وكانت في الأصل مخصصة لتجديد مسارات السكك في مصر[٦٨]. وصل خط السكك العابر لسيناء حتى قرية رمانة في الخامس عشر من مايو من عام ١٩١٦، لكن مد السكك تباطأ بسبب حرارة الصيف التي جعلت العمل غير محتمل.

كما تحقق تقدمٌ كبير في مد خطوط إمداد مياه تصل إلى القوات في مناطق متقدمة من سيناء. إذ حتى أواخر عام ١٩١٥، كانت الحاميات الصغيرة والنقاط المتمركزة على الضفة الشرقية من القناة تحصل على إمدادات المياه من بورسعيد والإسماعيلية بالصنادل[٦٩]، إذ كانت المدينتان تصلان إلى ما سمي «ترعة الحلوة» التي أنشئت بين عامي ١٨٥٩ و١٨٦٩ لنقل الماء العذب من بحيرةٍ قريبة إلى المنطقة القاحلة على الضفة الغربية للقناة. وبدايةً من عام ١٩١٦، شيدت فرقة العمال المصرية ست محطات

---

(62) RAMC, *With the RAMC*, 89.
(63) Murray, *Murray's Despatches*, 9.
(64) Murray, *Murray's Despatches*, 9.
(65) Murray, *Murray's Despatches*, 9.
(66) Elgood, *Egypt and the Army*, 234.
(67) Murray, *Murray's Despatches*, 193.
(68) Murray, *Murray's Despatches*, 193.
(69) Murray, *Murray's Despatches*, 188.

تنقية بالقرب من ترعة الحلوة، تُنقى المياه فيها ثم تُنقل في أنابيب وسحارات في قاع القناة إلى خزانات خرسانية على الضفة الشرقية(٧٠). وكانت هناك خطط في القنطرة لبناء محطة تنقية أخرى قادرة على ضخ نصف مليون جالون في اليوم الواحد، وخزانين من سعة مئةٍ وخمسين ألف جالون، ومجموعتين من محركات الضخ قدرة ستةٍ وستين حصانًا، حتى تصل المياه العذبة إلى رمانة(٧١)، وبحلول نوفمبر، كانت المياه العذبة تتدفق من الأنابيب في خزانات رمانة.

مد عمال الفرقة المصرية خطوط سكك حديدية من مقياس العرض الموحد على مسافة طولها مائتان وخمسة عشر كيلومترًا (تساوي مئة وثلاثة وثلاثين ميلًا) من القنطرة على قناة السويس إلى خان يونس في غزة. وبحلول خريف عام ١٩١٧، كان الخط يحمل اثنين وعشرين ألفًا وثمانمائة وتسعين طنًا من المؤن أسبوعيًا(٧٢). ولما لم يكن هناك مصادر معروفة للمياه العذبة في المنطقة، مدت فرقة العمال المصرية فوق ما سبق مئةً وسبعةً وخمسين كيلومترًا (سبعة وتسعون ميلًا ونصف ميل) من أنابيب المياه وشيدت بنيةً تحتية لضخ المياه بقدرة نقل نصف مليون جالون في اليوم الواحد(٧٣). كان قطع الطريق الأرضي من الإسماعيلية إلى القدس عبر غزة بالجمال يستغرق ما لا يقل عن ثلاثة أسابيع، ولم تكن الرحلة مكلفة فحسب بل محفوفةً بالمخاطر(٧٤)، أما خط السكك الحديدية الذي مدته فرقة العمال وربطته بالخط العثماني القديم في فلسطين فيمكنه أن ينقل المسافرين من القنطرة إلى القدس في أقل من ستةٍ وثلاثين ساعة(٧٥). وقد غيَّر ذلك إمكانيات تنقل البشر والمؤن بين مصر وفلسطين.

ومع اكتمال خط التموين العابر لشبه جزيرة سيناء، وضع الضباط البريطانيون في فرقة العمال المصرية قائمة مفردات رمزية جديدة تعينهم على تصور هذا الفضاء الجديد. فكثيرًا ما استعمل الضباط البريطانيون تعبير «أعلى الخط» إشارةً إلى الرحلة من مصر إلى فلسطين عبر سيناء(٧٦)، بل واستعملوا استعارة «الجسر» المتكررة للإشارة

---

(70) Murray, *Murray's Despatches*, 188; Elgood, *Egypt and the Army*, 236.

(71) Murray, *Murray's Despatches*, 189.

(72) Murray, *Murray's Despatches*, 199.

(73) Murray, *Murray's Despatches*, 189.

(74) Barak, *On Time*.

(75) «Iron Track", *ELC News*, January 15, 1919.

(76) IWM, EKV/2: *They Also Served*, 8.

وانظر أيضًا:

ELC News, January 15, 1919.

إلى خط التموين الذي بناه موراي، مبرزين بذلك تشابه الصورة الذهنية بين البحر والرمال. فنجد مسؤول خدمات طبية بريطاني ملحقًا بالتجريدة المصرية يقول إن الجيش البريطاني «عبر صحراء سيناء على جسرٍ من المياه والفولاذ بلا مبالغة»[٧٧]، وأثني على موراي في مقدمة رسائله المنشورة لأنه بهذا "الجسر" «وصل ... الصحراء بين مصر وفلسطين»[٧٨]. وأشارت إحدى المقالات المنشورة في **نشرة أخبار فرقة العمال المصرية** إلى «الخط الحديدي العابر للصحراء» وتنبأت بأن «ضخامة مهمة مد خط اتصال دائم عبر قفار سيناء ... ستتبين ويزداد جلاؤها ... حين يسافر المدنيون والسياح في المستقبل مرتاحين من القاهرة إلى القدس»[٧٩]، وقالت المقالة عن فرقة العمال المصرية إنهم «الرواد الذين جعلوا هذه الرحلة ممكنة»[٨٠]. لقد حوَّل خط السكك الحديدية وأنابيب المياه الكيفية التي تصوَّر بها الناس الفضاء والزمان في المنطقة، فتقاربت القاهرة والقدس عن ذي قبل.

تبع هذا التغير تلقائيًا إنتاج تمثيلاتٍ جديدة للفضاء، فوضعت السلطات العسكرية البريطانية تحت قيادة موراي خرائطَ ورسومات لوجستية تبيِّن خطوط التموين والاتصال العابرة لسيناء نحو فلسطين. وتبين الصورة (٣,٤) رسمةً لخط إمداد المياه في نوفمبر من عام ١٩١٦، رسمته إدارة المساحة العسكرية البريطانية (Ordnance Survey) واستخرجناه من التاريخ الرسمي لحملة سيناء-فلسطين. نجد فيه العمال المصريين موزَّعين على مسافات منتظمة لصيانة خطوط الإمداد التي سمحت للقوات باستكمال مسيرها. كانت هذه هي الأماكن التي افتُرض أن يكون فيها المصريون، والطرق التي افتُرض أن يسافروا عليها. وبذلك كان هدف هذا التمثيل أن يكون بمنزلة الدليل للضباط في قيادة رجالهم. لكن هذه الخطوط البسيطة على الرسم طمست الأعمال اليومية للعمال والجنود، بما يوهم أن سير أعمال الإمداد والتموين العسكرية قد مرت ببساطة وسلاسة، على عكس ما كان في الواقع.

ومع زيادة حجم الشبكة اللوجستية وتعقدها، أصبح نقل المؤن والمواد فيها أصعب على التحكم فيه. ويروي ڤينابلز قصة إرساله أعلى الخط على رأس ثمانمئة مصري

---

(77) RAMC, *With the RAMC in Egypt*, 126.

(78) Murray, *Murray's Despatches*, viii.

(79) *ELC News*, January 15, 1919.

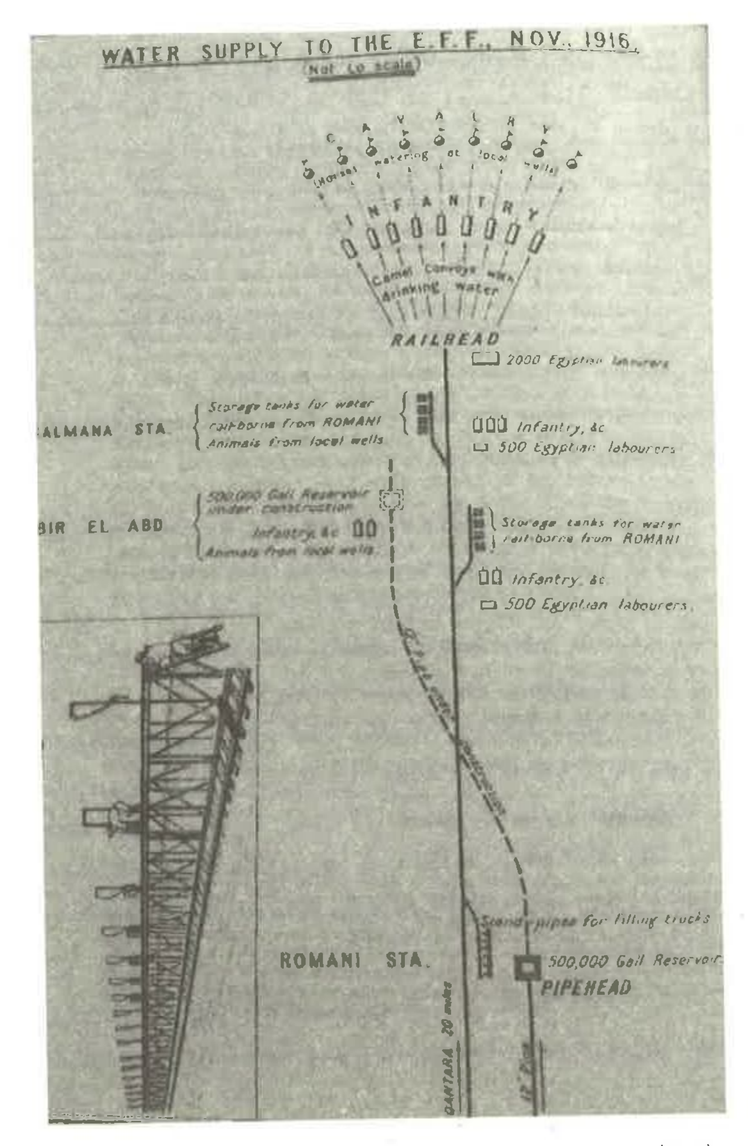
(80) *ELC News*, January 15, 1919.

انظر للمزيد عن هذا «الطريق السطحي»:

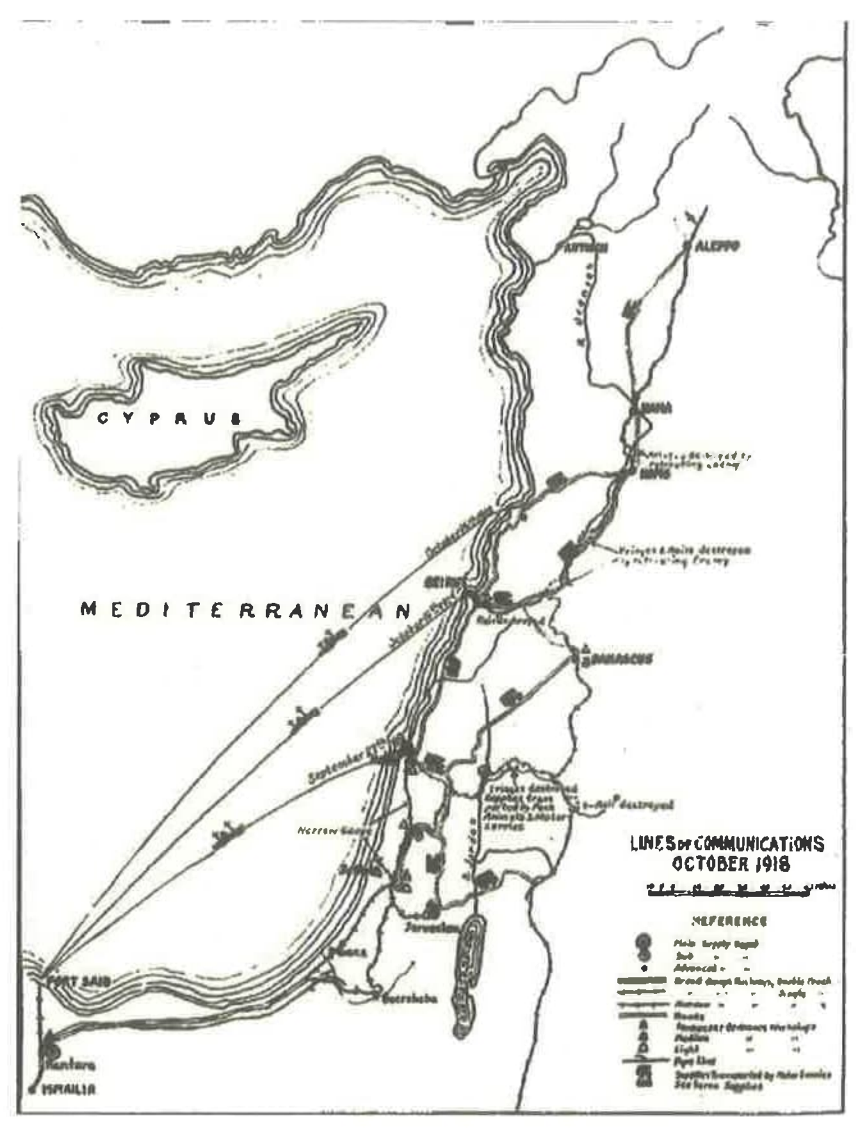
Barak, *On Time*.

دون أي معدات «من قبيل أواني الطبخ وخزانات المياه وغير ذلك»، وقيل له أنه سيجدها هناك عندما يصل، لكنه لم يجد شيئًا عند وصوله. فسرق المعدات المخصصة لسريةٍ أخرى من مستودع التموين وأكمل طريقه متجاوزًا منتهى خط السكك الحديدية(٨١). يدلنا هذا النوع من القصص على الفوضى الكامنة في إنتاج الفضاء اللوجستي في الحرب. فكانت المعدات تتلف، وما يزال صالحًا يُعاد استخدامه، ومن ثم اضطُر الضباط إلى فحص كل مادة قبل تسليمها للرجال الجدد. وروى ڤينابلز أن المصريين كانوا مثله يمكنهم سرقة المعدات في أثناء ذلك (انظر الفصل السابع).

(81) IWM, EKV 3/2: Deir el-Belah (September 12, 1917), 10–11.



صورة (٣,٤): رسم لوجستي لخط إمداد المياه في سيناء في عام ١٩١٦. (Falls and Becke, *Military Operations, Part 1*, 271).



صورة (٣,٥): خطوط الاتصال في فلسطين وسوريا في أكتوبر من عام ١٩١٨.

(Nicholas, "British Supply Operations).

أما عمال الفرقة المتجهون إلى الدردنيل أو فرنسا أو إيطاليا أو العراق، فبدلًا من عبور صحراء سيناء «على جسر من الفولاذ والمياه»، كانوا يتكدسون في بوارج ويسافرون بالبحر. وصلت أولى السرايا التي سافرت بالبحر إلى غاليبولي في عام ١٩١٥. فشيَّدوا في جزيرة مودرُس أرصفةً وأحواضًا وأرصفة إنزال لشحن السفن وتفريغها، وأقاموا مباني وشقوا طرقًا مناسبةً لعبور القوات والأسلحة الثقيلة بين المعسكرات(٨٢). فعمال الفرقة المصرية لم يستعملوا أرصفة مودرُس فحسب، بل هم من بنوها، إذ تحمل العمال الأوائل مهمة بناء مرافق الميناء الذي سيستقبل زملائهم من وراءهم.

كان هناك أسطولٌ من البوارج يربط هذه الموانئ النامية بعضها ببعض. إذ بعد اندلاع الحرب مباشرةً في عام ١٩١٤، أعلن البريطانيون حاجتهم لتوفير السفن المطلوبة لنقل الرجال والعتاد بين مسارح الحرب المختلفة. فعملت الحكومة الاستعمارية وقيادة البحرية الملكية ومجلس تجارة مصر على تكليف السفن التجارية بالأغراض العسكرية(٨٣). فمثلًا، استعمل الفيلق الطبي البريطاني بوارج نيلية استعارها من شركة توماس كوك للسياحة لتكون سفنًا طبية في مصر(٨٤). وسافر غالب عمال الفرقة المصرية المتجهين إلى أوروبا على متن سفن نقل جلالة الملك الأسترالية التي حصلت عليها حكومة أستراليا من تجار القطاع الخاص وعدلتها لتناسب النقل العسكري(٨٥). واقترحت السلطات البريطانية في عام ١٩١٧ أن يُنقل ألفٌ وسبعمائة عامل مصري إلى البصرة على متن سفينتي آينيس (Aeneas) أو شروبشاير (Shropshire) من سفن جلالة الملك الأسترالية(٨٦).

كان السفر بالباخرة بالنسبة لكثير من عمال وفلاحي فرقة العمال المصرية أول رحلةٍ لهم في البحر، والراجح أنها كانت مصدر توتر كبير لهم. فقد قال أحد المصادر البريطانية إن «عبور البحر كان أمرًا عظيمًا عند الصعيدي»، وروي أن المفتش البريطاني على مديرية جرجا قد صحب الفصيلة الأولى عبر البحر المتوسط إلى جزيرة مودرُس في عام ١٩١٥(٨٧). ونقلت إحدى مقالات جريدة المقطم قصةً عن خمسة

(82) RAMC, *With the RAMC*, 277–278.

(83) TNA, FO 141/797/2 No. 2689: Foreign Office (March 24, 1916).

(84) RAMC, *With the RAMC*, 90.

(85) TNA, MT 23/761: Memorandum for the Imperial Conference (n.d.).
(سجلات المحفوظات الوطنية بلندن، وزارة النقل).

(86) TNA, MT 23/761: Telegram (February 2, 1917).

(87) TNA, FO 141/797/2 No. 2689: GHQ (July 23, 1915).

وثلاثين عاملًا سافروا إلى الدردنيل بالزورق «كانوا كلهم من داخلية مصر، ولم يسبق لهم ركوب البحر»[٨٨]، ويذكر عبد الحميد محمد حسين أن أحد رفاقه مات في رحلة العودة من الدردنيل على إحدى البوارج[٨٩].

جعلت غارات غواصات اليوبوت الألمانية على سفن الحلفاء في البحر المتوسط الرحلة محفوفةً بالمخاطر. ففي أوج الحملة الألمانية في عام ١٩١٧، كان هناك اثنا عشر غواصةً ألمانية تهاجم يوميًا في سياق الحرب التجارية[٩٠]. وزعمت جريدة المقطم أن غواصةً ألمانية أغرقت باخرةً تحمل خمسةً وثلاثين عاملًا التقطتهم بعد ذلك باخرة تجارية يونانية وردَّتهم إلى بورسعيد[٩١]. وفوق خطر الغواصات الألمانية، كانت البواخر البريطانية تتعرض لخطر الحوادث الأخرى في أعالي البحار من قبيل الاصطدام بسفنٍ أخرى[٩٢]. وفي هذه المصائب، كان المتوقع من العمال المصريين المهاجرين أن ينتقلوا بهدوء إلى قوارب النجاة ويجدِّفوا نحو أقرب سفينة. ومن لا ينجح منهم في الوصول إلى قاربٍ من قوارب النجاة، يُضطر إلى السباحة لينقذ نفسه أو يغرق في المحيط. وإن كانت **نشرة أخبار فرقة العمال** قد نقلت قصة رجلٍ واحد من عمالها نجا من تحطم سفينته بالسباحة «لثلاثة أرباع ميل في بحرٍ هائج»، فلا شك أن كثيرين غيره لم يكن لهم حظه.

الخلاصة

بدأ مجندو فرقة العمال المصرية رحلتهم من الوطن إلى الجبهة (من الدار إلى النار) سيرًا إلى المركز أو عواصم المديريات، وناموا على الأرض في غرف حجز مكدسة حتى يأتيهم مفتشو الصحة البريطانيون. وبعد أسابيع من الانتظار، يُنقل بالقطار من اجتاز الكشف الطبي إلى أقرب مستودعٍ للإمداد والتموين أو معسكر توزيع، وعادةً ما كان في إحدى المدن الكبرى من قبيل القاهرة أو الإسكندرية. ثم يتحولون إلى عمالٍ عسكريين ويُجهَّزون ويوزَّعون في سرايا مع ضباط وضباط صف ورؤساء فوقهم، ويكملون الرحلة بالقطار نحو موانئ الانطلاق الرئيسية: الإسكندرية للعمال المسافرين إلى أوروبا أو الدردنيل، وبورسعيد للمتوجهين نحو العراق وسوريا، والقنطرة لمن سينطلقون أعلى الخط نحو فلسطين.

---

[٨٨] «فعال فرقة جمال النقل»، جريدة المقطم، ١ أغسطس ١٩١٧.

[٨٩] سمير عزت، صفحات من مذكرات شيخ مجهول، روز اليوسف، مارس ١٩٦٨.

[90] Koerver, *German Submarine Warfare*, xxxi.

[٩١] «فعال فرقة جمال النقل»، جريدة المقطم، ١ أغسطس ١٩١٧.

[92] "ELC at Collision Quarters", *ELC News*, March 1, 1919.

رسم بعض المسؤولين هذه الرحلات وحُفِظت أعمالهم في تواريخ رسمية ومذكرات منشورة وسجلات محفوظات رسمية. رسمت الخرائط والرسومات اللوجستية نسق السياسات البريطانية ووجّهتها، لكن الطرائق التي شغل بها عمال الفرقة المصرية الفضاءات في رحلتهم لم تتوافق توافقًا مباشرًا مع تمثيلهم. فتشييد البنية التحتية لم يسِر قط وفق الخطط الموضوعة بسبب الحدود المادية للبشر والبيئة، فقد غرقت سفن وتأخر مفتشو الصحة ونفدت المؤن لأن المسافات التي وجب على الشبكات تغطيتها كانت في زيادة مطّردة. ولقد شكّلت محاولات سد الفجوة بين ما يحدث في هذا الفضاء وتمثيلاته عملية إنتاج الفضاء اللوجستي الذي يمكنه نقل رجال فرقة العمال من أوطانهم في القرى إلى الجبهة. تدرس نظرية هنري لوفيفر هذه الفجوات، لكن همّ فرقة العمال المصرية لم يكن إنتاج الفضاء المدني المدفوع بنمط الإنتاج الرأسمالي، بل إن هؤلاء العمال المسافرين من ريف مصر إلى ساحات الحرب في أوروبا والشرق الأوسط ساروا على خطوط الفضاء اللوجستي الذي وُضِع لمتابعة الحرب العالمية الأولى.

إن دراسة الفضاءات اللوجستية يمثل مسارًا واعدًا لما يستقبل من بحوث في تاريخ مصر الحديث. إذ يفكك أولًا التمييز المعتاد بين مجالي النشاط المدني والعسكري الذي لم يزل قائمًا في الأدبيات. فالسكك الحديدية وأرصفة الموانئ والبواخر التي بناها البريطانيون لنقل القطن إلى محالج لانكشاير تحوّلت بسهولة إلى وسائل تنقلُ الأجساد في أثناء الحرب، لكن هذه نفسها ما كانت لتوجد لولا سلسلة من الحروب الاستعمارية في القرن التاسع عشر. ويثبت تغيير وظيفة البنى التحتية –التي شُيِّدت منذ ما يقرب من جيلٍ من الاحتلال البريطاني لنقل عمال الفرقة المصرية إلى الحرب قول ديبورا كوِن أن «تداخل شبكات البنية التحتية وتصميم خطوط الإمداد والتموين ليَبثُّ الروح في الحرب والتجارة»[٩٣].

وثانيًا، يقضي تحليل الفضاءات اللوجستية على التقسيم المفهومي بين المدينة والريف، بما يُظهر التداخل والتعاضد بين هذين المجالين الذيْن يُفترض أنهما منفصلان. فمدن من أمثال القاهرة والإسكندرية تغير تصورها في سياق الفضاءات اللوجستية فأصبحت نقاطَ توقف للمسافرين والمواد المتجهة إلى مناطق بعيدة. وعلى رغم أن الباحثين يمكنهم بل يجب عليهم إنتاج دراسات جغرافية نقدية للمدن المصرية، فإن المبالغة في الاهتمام بإنتاج الفضاء المدني يُغفِل أن غالب السكان المصريين يعيشون في الريف. وإن تتبعَ مسار عمال الفرقة المصرية من أوطانهم إلى الجبهة يضع في الصدارة هذا الجانب الانتقالي المتعلق بالهجرة من حياة المدينة.

---

(93) Cowen, *Deadly Life*, 5.

وأخيرًا، كان للعمال إسهامهم في إنتاج الفضاء اللوجستي. فقد استولوا على الفضاءات المتشابكة معًا طوال الرحلة لصالح تحقيق أهدافهم من التخريب والمقاومة والهروب من الفرقة. فكان التكدس في هذا الفضاء في صالح العمال أحيانًا، كما جرى عندما اعتصم المجندون في حجز مركز فارسكور في صيف عام ١٩١٨، أو عندما تمكن آخرون من افتعال عدم اللياقة الطبية عبر حقن خلطةٍ في مثانتهم لخداع المفتش. وفي أحيانٍ أخرى، سمحت الشبكة اللوجستية بفرصٍ للهرب وسرقة المؤن، وقد شارك رجال الفرقة في إنتاج هذا الفضاء، مثلهم في ذلك مثل النخب التي وضعت الخرائط والرسومات. وعلى الرغم من أن سلطات الحكومة العسكرية ساقت مئات الآلاف من الشباب في رحلاتهم، فإن هؤلاء الشباب اجتهدوا في تحويل ظروف الحرب الخاصة لصالحهم، ولم تتمكن السلطات العسكرية قط من فرض إرادتها على شبكة العمال المهاجرين صعبة القياد. يتتبع الفصل التالي إنتاج الفضاء خارج مصر في مسارح القتال، حيث مارس عمال الفرقة المصرية أعمالهم. وكما كان الحال في رحلتهم نحو الجبهة، أدى المصريون دورًا مهمًا في تشييد البنى التحتية في الحرب، وساهم عملهم مساهمةً كبيرة في تيسير الاحتلال البريطاني لفلسطين.

[٤]

«إن كانت هذه هي الأرض المقدسة، فكيف بالجحيم؟!»

عندما غزا إللنبي القدس في الحادي عشر من ديسمبر من عام ١٩١٧، واجهته مشكلة حكم عددٍ كبير من السكان المدنيين، فأعلن الأحكام العرفية على كامل المنطقة التي احتلتها التجريدة المصرية، وأنشأ جهازًا إداريًا أكثر من عملوا فيه موظفون سابقون في الإدارة الإنجليزية المصرية[١]. وأصبح رونالد ستورز (Ronald Storrs) -الذي عمل في وزارة المالية من عام ١٩٠٤ إلى عام ١٩٠٩«أول حاكمٍ عسكري للقدس منذ بيلاطس البنطي»[٢] وفق تعبيره. وقد جمعت الإدارة الجديدة بين الوظائف السياسية والعسكرية في جهازٍ واحد فصارت بذلك خاضعة في وقتٍ واحد للمساءلة من وزارتي الخارجية والحرب في لندن. لكن هذه الإدارة أُعيد تنظيمها في أبريل من عام ١٩١٨ في إطار إدارة أراضي العدو المحتلة (OETA).

لم يصدر مع إعلان إللنبي لإدارة أراضي العدو المحتلة أي خريطةٍ رسمية، لكن الصورة (٤,١) تمثل إعادة تصورٍ لحدودها كما فهمته الحكومة البريطانية في تأريخها الرسمي للحرب. ووفقًا لسوزان لالوند (Suzanne Lalonde) اعتمدت حدودُ القسم الجنوبي من الإدارة -الذي اشتمل على القدس وسنجقي نابلس وعكا المجاورَيْن على خريطةٍ ترجع لعام ١٩١٨ نشرها قسم المساحة في وزارة الأشغال العامة في الحكومة الإنجليزية المصرية[٣]، وقد وضعت الحد الجنوبي على خطٍ يصل بين رفح والعقبة، والحد الشرقي عند نهر الأردن. لكن إدارة أراضي العدو المحتلة كانت تجربةً قصيرة العمر بسبب نقل السيادة في مؤتمر سان ريمو إلى السلطات المدنية المعروفة بسلطات الانتداب في أبريل من عام ١٩٢٠. إلا أن القسم الجنوبي منها كان ذا أهميةٍ خاصة، لأنه رسَّخ الحدود الشرقية لمصر التي مازالت عليها إلى اليوم[٤].

إن تصور فضاءٍ يمكن أن يقال له إدارة أراضي العدو المحتلة ما كان ليتم بدون إعادة تشكيل جذري لحركة البشر والأشياء بين مصر وفلسطين في أثناء الحرب. وكما سيبين هذا الفصل، أنشأت فرقة العمال المصرية في طريقها عبر سيناء ونحو فلسطين شبكاتٍ من الطرق والسكك الحديدية وشبكات التلغراف ومسار قوافل الجمال.

---

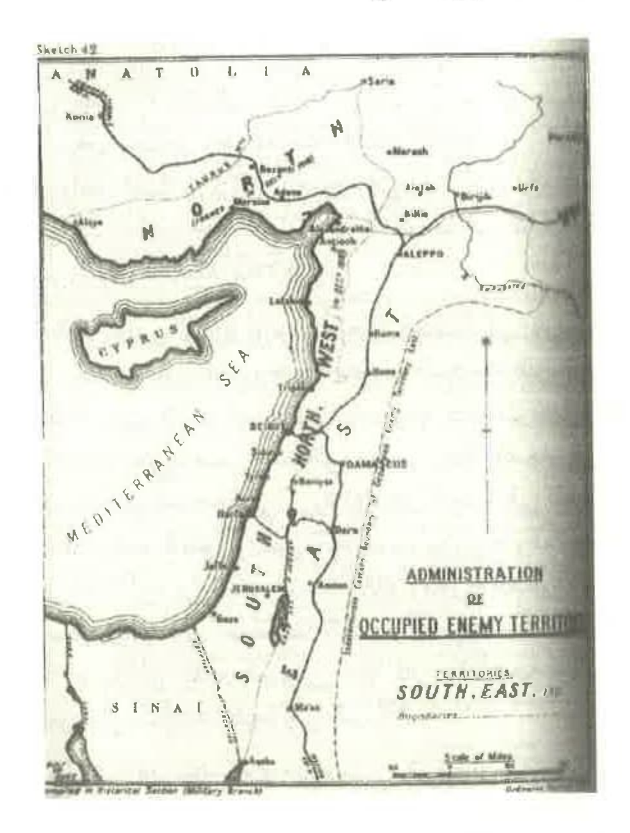
(1) Bennett, "Anglo-Egyptian Sudanese Influence."

(2) Korda, *Hero: The Life and Legend of Lawrence of Arabia*, 353.

(3) Lalonde, *Determining Boundaries*, 94.

(4) Bennett, "Anglo-Egyptian Sudanese Influence", 15.

وكان هناك أيضًا خطوط إمداد واتصالات بحرية من بورسعيد وعبر قناة السويس حتى الموانئ الشامية في دير البلح وحيفا وبيروت وطرابلس. وبذلك اندمج الساحل السوري وفلسطين لوقتٍ قصير في إمبراطورية شرق أوسطية غير رسمية، تحكمها القاهرة نيابةً عن بريطانيا العظمى، وأعادت رسم ملامح إمبراطورية محمد علي المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر[٥].



صورة (٤,١) إدارة أراضي العدو المحتلة (OETA)، من ١٩١٧ إلى ١٩٢٠.

Falls and Becke, *Military Operations*, *Part1*.

---

[٥] ربما كان المكتب العربى، الذي تأسس فى قسم الاستخبارات العسكرية فى مصر والسودان التابع للحكومة الاستعمارية البريطانية فى مصر، مسئولًا عن التحريض على الثورة الشريفية فى أثناء الحرب. ومع تعيين أعضاء منه من أمثال جلبرت كلايتون في إدارة أراضى العدو المحتلة، وجد المكتب العربى نفسه يمتلك كوادر راسخة في مصر والسودان والحجاز (مثل توماس إدوارد لورنس والهاشميين) وسوريا/فلسطين. انظر:
Bennett, "Anglo-Egyptian Sudanese Influence."

لكن كما بيَّن الفصل الثالث، لا ترسم الخرائط إلا جانبًا من جوانب قصة إنتاج الفضاء. ففي الوقت الذي رسم فيه التكنوقراط في الحكومة الاستعمارية الخطوط الملساء والرموز المصوَّرة على هذه الخرائط، اضطلع مئات الآلاف من الشباب بالعمل الفعلي في مد خطوط السكك الحديدية وإرساء البنى التحتية التي سمحت لإدارة أراضي العدو المحتلة بالوجود. لقد تطلَّب الأمر سنوات من العمل اليومي لتحويل أرض فلسطين إلى بقعةٍ ملائمة للأعمال اللوجستية الخاصة بالجيش البريطاني. وكان ذلك عملًا شاقًا، وكان ما برز من المواقف الطارئة الكثيرة يعني أن رجال فرقة العمال سيُطلب منهم أدوارٌ مختلفة.

العمل في الحرب

اضطلعت فرقة العمال المصرية بكل عملٍ يمكن تخيله في الأعمال اللوجستية العسكرية؛ شحنوا السفن وفرَّغوها، ونقلوا المؤن بالجمال عبر الصحراء، وشقوا الطرق ومدوا السكك الحديدية وأنابيب المياه، وأدوا عددًا لا يحصى من الأعمال الغريبة. لكن أهم أعمالهم كان مد السكك الحديدية عبر سيناء إلى داخل فلسطين. وقد بنوه وفقًا لنظام مهام كان المقصود منه في التصور المثالي أن كل فصيلة ستقوم على مهمة واحدة كل يوم. ويتجلى في خطابات ضابط الفرقة إرنست ڤينابلز أنه تصور هذا النظام تصورًا عرقيًا. إذ يقول إن أغلبية رجاله «جاءوا من "طبقة الفلاحين" في مصر ... لكنهم ما إن يعتادوا على تلقي غذائهم كل ليلة دون مقابل، وتحصيل لباسهم ومبيتهم دون أن يُعنَوا بثمنه، فإنهم يميلون بحكم الطبع إلى الكسل إن لم يُضبط أمرهم حق الضبط»[٦]، وأكمل حديثه مستندًا إلى هذه المقدمات وقال:

> إن نظام المهام مثاليٌ للمصريين ... فبعض العمال الجدد يظن أن الضابط لا يعني ما يقوله عندما يقسِّم عليهم العمل ... لكن مع غروب الشمس وبدء مغادرة الفصائل الواحدة تلو الأخرى، يدركون أنهم لن يغادروا إلا بعد الانتهاء من مهامهم. فتدق السابعة والثامنة، وتغرب الشمس ويعلو القمر، ويظل الضابط البريطاني الصلب واقفًا مكانه صامًّا أذنيه عن توسلات الريس أن "سماح المرة دي"، والمواطنون يعملون "كما [الزن...]" الآن بعد أن اشتدت صعوبة العمل بسبب الضوء الخافت[٧] (علقنا التشبيه) [لما فيه من عنصرية].

---

[6] IWM, EKV 3/1: Sinai (September 3, 1917), 7.

[7] IWM, EKV 3/2: Deir-el-Belah, Palestine (September 12, 1917), 14–15.

[اختار المؤلف هنا، وفي حالات تالية، حذف وصف ڤينابلز للمصريين هنا بالزنوج –المترجمان]

وعلى رغم اعتراف ڤينابلز بالعمل الشاق الذي اعتاد عليه عمال الفرقة المصرية في حقول بلادهم، فإنه يعتمد على نغمة «أهل البلاد الكسالى» ليؤكد أن هؤلاء الرجال لا يمكن الوثوق بهم في إطار نظام فرقة العمال. ولا شك في أن في ذلك الحكم تجاهل للظروف الصعبة التي نُزع فيها هؤلاء من بلادهم وألقوا في أرضٍ غريبة، وجُنِّدوا قسرًا في حالاتٍ كثيرة، وهو ما ثبطهم عن الإقبال على العمل. فصُمِّم نظام المهام لفرض العمل، ويصفه ڤينابلز هنا بأنه مواجهةٌ بين الضابط البريطاني الأبيض وأهالي البلاد المصنَّفين عرقيًا. لقد أقام الضابط هويته بوصفه رجلًا بريطانيًا على أساسٍ من قدرته على فرض النظام على رجاله «بلا كلل»، وأشير للعمال بأنهم «مصريون» أجبروا على العمل «كما الزنـ...» (علقنا التشبيه). يضع ڤينابلز هذا التشبيه العنصري بين علامتي تنصيص، غالبًا ليشير إلى أنه سمع المصطلح مستعملًا في وصف عمال الفرقة أو أنه استعمله بنفسه. وسيناقش الفصل الخامس هذه التشبيهات والتصورات العنصرية الأخرى عن رجال الفرقة مناقشةً تفصيلية.

كانت مهام رجال الفرقة العاملين على طول خط السكك الحديدية بين قناة السويس وغزة على نوعين أساسيين، ألا وهما تجهيز مسارٍ مستوٍ على طول الطريق الذي حددته السلطات العسكرية، ومد خطوط السكك الحديدية نفسها. وكانت الفصائل المتقدمة التي تُعِد مستوى الأرض الداعمة تسبق واضعي السكك بمسافةٍ كبيرة، لأن هؤلاء كانوا يستمرون في العمل بمجرد وصول قضبان السكك الحديدية. وأحيانًا تطلبت تسوية المسار بناء جوانب عالية، بما يعني جلب كميات ضخمة من التراب من المناطق المجاورة. وأحيانًا أخرى، وجب على العمال إزالة أي عوائق تقف في طريقهم. ففي الصباح كان ريس كل فصيلة يحصل على مهمة، بها حجم مكعب ثابت من القطع أو الملء الضروريين لتسوية المسار. وكان هذا الحجم يُحسب بناءً على عدد الأمتار المكعبة التي يمكن للعامل الاشتغال بها، مع مراعاة صعوبة التربة والمسافة المطلوب تنفيذها وعدد الرجال الموجودين في كل فصيلة[8].

أما التقنيات المستعملة في السكك الحديدية فكانت بسيطة في غالبها. إذ نقل ڤينابلز أن الأداة الأساسية للعمل كانت «الفأس»، الذي اعتاد المصريون استعماله في أعمال الزراعة. كان التراب يجرَّف بالفأس ثم يعبأ في مقاطف حمولة أحدها عشرون كيلوجرامًا (أربعة وأربعون باوند)[9]، ثم يحملها العتالون على أكتافهم ويتوجهون بها إلى منطقةٍ محددة ليفرغونها ثم يعودون مرةً أخرى. وفي الوقت الذي تجهِّز فيه الفصائل المتقدمة

---

(8) IWM, EKV 3/2: Deir-el-Belah (September 12, 1917), 14.
(9) IWM, EKV 3/2: Deir-el-Belah (September 12, 1917), 18.

مستوى الأرض الداعمة، هناك عددٌ أقل من الرجال يعملون في الخلف يحملون قضبان السكك الحديدية والعِدد ويمدون الخطوط بمجرد استلامها من مستودع الإمداد والتموين. وبذلك تتمكن هذه الفصائل المتأخرة من ركوب القطار في الصباح والرجوع به في المساء، لكن الفصائل المتقدمة لم يكن لها إلا أن تسير من المعسكرات إلى مواقع العمل ذهابًا وإيابًا(١٠).

كانت المسافة من مستودع الإمداد والتموين الأساسي إلى مواقع العمل تتزايد بتقدم خط السكك الحديدية، فاضُطرت السرايا لنقل معسكراتها المؤقتة بضع كيلومترات إلى الأمام بطول الخط بشكلٍ دوري. ووفق رواية ڤينابلز، كان المعسكر هو مجرد «بقعة الرمال التي يلف فيها المصريون (Gyppies) المتعبون أنفسهم في بطانياتهم وينامون ... ويفعل ضابطهم مثلهم أعلى التلال الرملية»(١١). كان النمط المعتاد لمأوى النوم هو نمط التخييم المؤقت المكوَّن من «حفرةٍ في الرمال يسمح طولها وعرضها بنوم رجلين متجاورين، وتُحشر فيها عصا من كل طرف وبينهما خيط مشدود وفوقه بطانية تعمل عمل السقف المسنَّم ... وعلى الأرض ملاءة فوقها بطانية للنوم»(١٢). كانت معسكرات فرقة العمال المصرية في فرنسا ثابتةً في مدن الموانئ على خطوط الإمداد التي تصل حتى الخنادق التي ثبتت نسبيًا على الجبهة الغربية، أما معسكراتها في سيناء وفلسطين فكانت «متفرقة إلى مجموعات بين الصغيرة والكبيرة على امتداد مئات الأميال في الصحراء ... وكانت مواضعها تتغير بتقدم الأعمال أو القوات»(١٣).

لكن مع الاقتراب من القوات العثمانية أكثر مما مضى، زاد إلحاجة إلى الإسراع بالعمل وبدأت واجهة الانتظام التي اتسم بها نظام المهام في التفكك. وقد وصف ڤينابلز ذلك في إحدى رسائله إلى الوطن قائلًا: «في أول الأمر... تمكنّا من العمل بوتيرة واحدة، لكن الظروف فرضت أحيانًا عدم الالتزام بالنظام، وكم اجتهدنا في التعامل مع حالات طوارئ لا تنتهي. وكثيرًا ما كانت المهمة أكبر من أن تقوم بها أية فصيلة في يومٍ واحد، فلم يسعنا إلا التأكد من إنجاز أكبر قدرٍ ممكن من العمل في ساعات اليوم»(١٤). وهكذا مع نشأة «الحالات الطارئة» اختل نظام المهمة اليومية. ويروي

---

(10) IWM, EKV 3/2: Deir-el-Belah (September 12, 1917), 20-21.

(11) IWM, EKV 3/2: Deir-el-Belah (September 30, 1917), 22.

(12) RAMC, *With the RAMC in Egypt*, 93–94.

(13) RAMC, *With the RAMC in Egypt*, 281.

(14) IWM, EKV 3/4: Wadi Gaza (October 20, 1917), 38.

ڤينابلز أن الحالات الطارئة شاعت حتى صارت معتادة، واستجاب هو لذلك بأن تجاهل تمامًا نظام المهام وأجبر عماله على العمل لساعاتٍ طوال.

وقد ورد في المصادر أمثلة كثيرة على هذا. ففي معركة غزة الثانية في أبريل من عام ١٩١٧، «أسنِد إلى [رجال ڤينابلز] مهمة حمل النقالات» لتوصيل الجرحى إلى أقرب مشفى[١٥]. وفي حادثةٍ أخرى، خرجت عن الخط في رائعة النهار عربتان من أحد القطارات، فاضطُرت إلى دفعهما «فصيلةٌ كبيرة من المصريين، ووقف جوني تُرك (Johnny Turk) من منصته الكبيرة يراقبهم».[١٦] وكذلك روى التاريخ الرسمي لحملة سيناء–فلسطين أن السلطات العسكرية استخدمت فرقة العمال في الإلهاء في معركة غزة الثالثة. ففي الأول من نوفمبر من عام ١٩١٧ في اليوم السابق لانطلاق الهجوم الفعلي على السلطات العثمانية، نزلت سرايا فرقة العمال المصرية إلى الشاطئ في دير البلح على مرأى ومسمع من القوات العثمانية ليظن ضباط العدو حدوث إنزال خلف جناحهم الأيمن[١٧]. فعرّض ذلك رجال الفرقة المصرية لخطر الهجوم بغرض كشف موقف العثمانيين وفي تعزيز لموقف القوات البريطانية. لقد استُدعي المصريون لأداء كافة أنواع المهام الطارئة من هذا النوع، بما عرَّضهم كثيرًا لخطر الإصابة أو الموت.

وكذلك عمِل الكثير من رجال الفرقة على أرصفة الموانئ، بما يحمله ذلك من مخاطر خاصة. وقد وصف ڤينابلز ميناء القنطرة بأنه «حبائك متشابكة من الحبال والرجال والمكانس والأسلاك والروافع والكتل المتأرجحة»، وكتب يقول إن «العادة المقلقة لهذه الاختراعات الشيطانية بأن تهوي في صمت على جماجم الوافدين الجدد ... جعلتني أتمنى أن أكون بعيدًا، حتى لو في الوادي، حيث لا تتسم القذائف بهذا التسلل الغريب الصامت»[١٨]. وعلى الرغم من هذه الظروف، تمكن عمال الشحن والتفريغ في الفرقة المصرية في القنطرة من تفريغ ما يزن في المتوسط أكثر من واحد وثلاثين طنًا في الساعة، وأحسن أيام عملهم يفرّغون فيه ستمئةٍ وثمانية وعشرين طنًا على ثمانية عشر زورقًا[١٩]. وفي ذلك الوقت، اشتغل عمال الفرقة المصرية في فرنسا على خطوط الإمداد بعيدًا وراء الجبهة الغربية، لكنهم لم يكونوا بمأمنٍ من هجوم العدو. ففي دَنكِرك، قصفت

---

(15) IWM, EKV/2: They Also Served, 24.

وانظر أيضًا:

Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 274.

(16) IWM, EKV 3/6: Judaea (December 5, 1917), 50.

(17) Falls and Becke, *Military Operations*, 66.

(18) IWM, EKV 3/6: Judaea (December 5, 1917), 50–51.

(19) Murray, *Murray's Despatches*, 215.

غارةٌ ألمانية السرايا الثانية والسبعين والخامسة والسبعين والسادسة والسبعين قصفًا شديدًا قُتل وجرح فيه «عدة» مصريين[٢٠]. ووفقًا للتقرير الرسمي، كان هؤلاء العمال «في حالة فزع»، فنُقِلوا في أوائل يونيو من عام ١٩١٧ بأن أرسِلت سريتان إلى روو وثالثة إلى آفر[٢١].

أما مئات الآلاف الذين عملوا في المواقع المتقدمة حيث يمدون السكك الحديدية وأنابيب المياه في صحراء سيناء وفلسطين، فقد وضعهم العمل بالقرب من خطوط القتال الأمامية في مرمى نيران العدو. ويصف لنا ڤينابلز كيف ظهر رجاله للمرة الأولى أمام ناظري قوات العدو في غزة في الثاني من أكتوبر من عام ١٩١٧. إذ في الصباح، حلّقت طائرة ألمانية ذات سطحين فوق الجنود «وجلس [المصريون] فاغري الأفواه محدِّقين في السماء»[٢٢]، لكن شيئًا لم يحدث على الفور، فاستمر العمل، لكن سرعان ما سمع الرجال صوت قذائف مدفعية على بعد، ورأوا سحابةً من الدخان والغبار وبغلين خائفين يهربان شرقًا. ومع اقتراب القصف وتتابعه، سار ڤينابلز على الخط وشد من أزر رجاله وأشار إليهم أن يرقدوا فيما يحفرون من حفر. ظل الرجال منبطحين في البداية، فما إن سقطت قذيفة على إحدى الفصائل، حتى قفز رجالها هاربين، وسرعان ما تبعهم رجال السرية كلها، هاربين «إلى الخلف في فوضى، وإلى أي مكان بعيدًا عن الأزيز والقصف»[٢٣].

لم يُصب في هذه الحادثة إلا عدد قليل من الرجال بشظايا، «وعولجوا على الفور من قبل رجال فيلق المهندسين الملكيين بضمادات ميدانية للطوارئ، وأخذوا إلى أقرب نقطة إسعافات أولية»[٢٤]، وذلك في الوقت الذي انشغل فيه ڤينابلز بمهمة استرجاع «الفارين»[٢٥]. إذ شغل غالب يومه يجري بجواده في نصف دائرة واسعة يقطع الطريق على العمال في اتجاههم نحو الجنوب. وقد تمكن مئة وثلاثة وخمسون رجلًا من إتمام رحلة السبعة أميال كاملة حتى المستودع الأساسي في دير البلح، حيث قبض عليهم وأعيدوا إلى سريتهم على الجبهة[٢٦]. وعلى الرغم من أن سرية ڤينابلز لم تتكبد أي خسائر في هذه الحادثة، فإنه يستحضر بضيق عمله في «عدِّ الجثث المنطرحة لرجال

(20) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919).
(21) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919).
(22) IWM, EKV 3/3: St. James Park (September 30, 1917), 26.
(23) IWM, EKV/2: *They Also Served*, 21.
(24) IWM, EKV/2: *They Also Served*, 21.
(25) IWM, EKV 3/3: St. James Park (September 30, 1917), 29.
(26) IWM, EKV 3/3: St. James Park (September 30, 1917), 29.

السرايا الأخرى الذين قُتِلوا وهم قاعدين القرفصاء قرب خط السكك الحديدية في المعسكر الرئيسي، خائفين لا يعرفون حقًا ما أصابهم، ولم يزالوا ملفوفين في بطانية أضحت لهم كفنًا»[٢٧].

كانت الطرق التي مدتها فرقة العمال المصرية في فلسطين تشق طريقها في تضاريس جبلية، على عكس الصحراء المنبسطة نسبيًا في شمال سيناء حيث بُني خط السكك الحديدية. وقد أُسند إلى ڤينابلز قسمٌ من الطريق الواصل بين يافا والقدس، وكان مسئولًا عن المحاجر القريبة حيث أشرف على تحديد موضع آلاف الأطنان من الحجارة واختيارها وثقبها وتفجيرها ونقلها. وجعلت التضاريس غير المنتظمة عملية نقل الحجارة من المحاجر إلى مواقع العمل أمرًا شاقًا، ووصف ڤينابلز مخاطر نقلها في قوله:

> كان المشهد بأكمله مثيرًا، فسفح التل يتناثر عليه رجالٌ بالكاكي يفككون الصخور الكبيرة والصغيرة بالمعاول والعصي، ويحملونها أو يدحرجونها إلى موقع إنشاءات الطريق. يخاف الوافدون الجدد في البداية على حياتهم وأطرافهم، فيدفعون الصخور التي تزن عدة أطنان من جانب التل مع صرخةِ «هوو!»، فينظر إليها رجلٌ يقف في طريقها، وتظن أنها ستسوِّيه بالأرض، لكنه يفسح لها الطريق بكل هدوء ودون عجلة[٢٨].

عرَّضت أعمال الطرق عمال الفرقة المصرية لأخطارٍ عظيمة، إذ يمكن للأحجار المتدحرجة على التل أن تسبب إصاباتٍ خطيرة. وعلى الرغم من أن ڤينابلز يؤكد للقارئ أن الرجال كانوا بارعين في الحفاظ على أنفسهم، يقر بإمكانية أن «يُسوَّى أحدهم بالأرض» في أثناء عمله بهذه الطريقة.

بمجرد وصول الحجارة إلى موقع العمل، تكون أولى المهام هي تسوية الطرق العثمانية القديمة ووضع الأحجار الداعمة الثقيلة لتكون أساسًا متينًا للطرق الجديدة. وتعمل فصائل أخرى على تفتيت الأحجار لعمل حصى الطبقة السطحية الذي يُوضع على الأساس ويسوِّيه هرَّاس بخاري يزن خمسة عشر طنًا ويقوده أحد رجال الفرقة المصرية. كان لا بد من أن يجري هذا العمل دون مقاطعة من أي مار، وهو ما جعل الأمر خطرًا، كما يقول ڤينابلز:

> استُعمل الطريق المحسَّن طريقًا سريعًا للسيارات الخفيفة، والتي كانت تقطع الطريق دون النظر لأي علامةٍ تحذيرية حول وجود فصائل تعمل

(27) IWM, EKV/2: *They Also Served*, 9.
(28) IWM, EKV/2: *They Also Served*, 101.

على إصلاح الطريق. وفي يومٍ من الأيام، صدمت إحدى هذه السيارات مصريين من عمالي فسقط أحدهما تحت الهراس. وسرعان ما على صراخ رفاقه كأنهم ينعونه، لكني تمكنت من إحباط هذه النوبة بأن سحبته سالمًا قبل أن تصل إليه العجلة الصلبة البطيئة ... ولم يُصب أي منهما بجروحٍ خطيرة»(٢٩).

وعلى الرغم من أن شق الطرق عرَّض العمال لخطر سقوط الأحجار أو السيارات أو المعدات الثقيلة التي استعملوها، فإن ڤينابلز بدا ساخرًا من هذه الأخطار وسخر بقوله إنه «تمكن من إحباط» نوبة صراخ الرجال بإنقاذ أحد رفاقهم. لكن تعليقه هذا يجب أن يُتخذ دليلًا على القلق المستحق الذي ساور الكثير من رجاله. فللحظة، تملكهم الخوف من موت أحدهم دهسًا تحت عجلات الهراس.

محاربة الطقس والمرض

واجه العمال قذائف المدفعية العثمانية والطقس الشديد وما جلبه من مرضٍ. ففي سيناء، كان عليهم التعامل مع طقس الصحراء غير المحتمل الذي لخصه أحد مسؤولي الخدمات الطبية قائلًا: «الحر والغبار والهوام والعواصف الرملية الخانقة التي تسبب العمى، و«الخماسين» الرهيبة -وهي إعصار أحمر يبدو وكأنه خرج من قعر الجحيم ونقص الماء وكل لوازم الحياة، مع السير يوميًا لأميال على رمال تتحرك معنا ولا تتغير أبدًا»(٣٠). إن عواصف الخماسين الرملية -وهي ظاهرة مناخية مألوفة لأي أحدٍ قضى وقتًا معتبرًا في مصر «تضرب وجوهنا كانفجارٍ من قعر فرن ... تطلق على التلال شظايا قاسية ومدببة الأحرف تخفي طرف المعسكر البعيد بضبابها الثابت وتملأ بصغير الحصى أعيننا وحناجرنا وطعامنا وشرابنا»(٣١).

وعلى الرغم من أن منافذ الدعاية من أمثال **المقطم** كتبت أن رجال الفرقة في فرنسا يلبسون «الثياب التي تناسب البلاد التي يعملون بها»(٣٢)، روى ڤينابلز أن الأمر في فلسطين لم يكن على ذلك. ففي صحراء سيناء، اعتاد عمال الفرقة على ارتداء «الخوذات الواقية من الشمس والقمصان وسراويل من قماش الدريل القطني الرقيق»(٣٣)،

---

(29) IWM, EKV 3/9: K22 (April 24, 1918), 93.

(30) RAMC, *With the RAMC in Egypt*, 82.

(31) RAMC, *With the RAMC in Egypt*, 127.

(٣٢) «فرقة العمال المصريين»، جريدة المقطم، ٣ يوليو ١٩١٧.

(33) IWM, EKV 3/7: Near Ramleh (February 13, 1918).

وبعد يوم العمل الطويل، كان الكثير منهم يلف نفسه ببطانيته وينام تحت النجوم. ولكن عندما ضربهم الشتاء في فلسطين، تفاجئت سرية ڤينابلز بـ «مطرٍ غزير لا يُتخيل في وطنهم»[٣٤]، ليستيقظوا ويجدوا بطانياتهم والأرضَ من تحتهم قد غمرها الماء. لقد كانوا «مخضَّلين للغاية، وعملوا على هذا الحال طوال اليوم التالي، آملين ساعةً بعد أخرى أن تقلع السماء وتسطع الشمس الحبيبة». لكن الشتاء في فلسطين لا يكون إلا سلسلةً من عواصف المطر الغزير التي تستمر دون توقف ليومين أو ثلاثة وربما أربعة أيام[٣٥].

يروي ڤينابلز أنه مع بداية المطر تضخمت قائمة مدَّعي المرض حتى طلب العرض على الطبيب واحدٌ من كل خمسة رجال، فأرسلهم جميعًا إلى مكانٍ قريب سماه «معسكر التفاصيل» كان يزوره ضابط طبيب مصري من المستشفى المصري صباح كل يوم على متن سيارةِ إسعاف. لكن وفقًا لڤينابلز، «لم يأتِ هذا السيد في صباح الأيام الممطرة، فاضطُر المرضى للسير في المطر والوحل ذهابًا إلى المستشفى المصري نفسها على بعد كيلومترين، ثم إيابًا إن لم يُحجزوا فيها». ثم بعد أن تحركت سرية ڤينابلز أربع كيلومترات إلى الأمام، قال إنه «طالب بلا طائل بزيارةٍ طبية، وأن مرضانا يُضطَرون إلى السير ضعف الرحلة لثمانية أو اثني عشر كيلومترًا»[٣٦].

كذلك جعلت أمطار الشتاء العمل أمرًا مستحيلًا، إذ يمكن للسيول أن تجرف في طريقها الجوانب الطينية التي بناها الرجال ومعها السكك والقناطر. وكذلك أصبحت المدقات التي تستعملها وسائل النقل الميكانيكية في الطقس الجاف غير صالحة للاجتياز. إذ كانت سيارات الشحن الكبيرة في العادة تحمل المؤن والذخائر عبر هذه الطرق، لكنها في المطر تعلق أحيانًا، ويروي ڤينابلز أن «الجميع، ومنهم المصريون، يُضطَرون إلى العمل على إعادتها إلى الطريق»[٣٧]. ثم تعاظمت بسبب المطر صعوبة السير إلى مواقع العمل والعودة منها مع حمل مؤن اليوم. إذ نجد ڤينابلز يصف في رسالةٍ إلى أهله كيف «عانت السرية في تقدمها عبر الوديان التي تحاول النجاة من السيول، في طريقٍ لا يعدو أن يكون كتلة من الطين والزبد»[٣٨].

لكن السير الطويل في المطر كان أشد ما أضر الرجال في فلسطين. ففي رسالةٍ إلى أهله، يحكي ڤينابلز قصة سريةٍ من ستمائة رجل وصلت من مصر حديثًا إلى قرية

---

(34) IWM, EKV 3/7: Near Ramleh (February 13, 1918).
(35) IWM, EKV 3/7: Near Ramleh (February 13, 1918).
(36) IWM, EKV 3/7: Near Ramleh (February 13, 1918).
(37) IWM, EKV 3/7: Near Ramleh (February 13, 1918).
(38) IWM, EKV 3/7: Near Ramleh (February 13, 1918).

دير سنيد الفلسطينية القديمة، ولديها أوامر بالسير على الطريق حتى اللطرون. بدأ الرجال رحلتهم يحملون حقائبهم، لكن سرعان ما حاصرهم المطر، وبدأوا التخلص من عدتهم وفيها الخيام والبطانيات التي من المفترض أن تكون مأواهم عند وصولهم. لكن الطريق حولهم استحال مستنقعًا، وأصبحت حقائبهم الثقيلة عبئًا يثقلهم. يقول ڤينابلز: «عندما ابتلوا تمامًا، استسلموا دفعةً واحدة، يريدون أن يلقوا بأنفسهم على الطريق انتظارًا للموت». تعرض المتخلفون عن الركب لضرب الضباط، الذين يقول عنهم ڤينابلز إن «استخدامهم القوة لا يمكن ... أن يوصف بالقسوة، لأنه غايته كانت إنقاذ الرجال من أنفسهم»، وقال إن «بعض الرجال سقطوا ورقدوا على جانب الطريق يقولون «عموت يا فندم، عموت» [٣٩].

تكررت هذه المشاهد مرات عديدة، إذ يصف ڤينابلز رجاله بعد محاصرتهم في أول عاصفة بأن [الواحد فيهم] «راقد في الوحل يندب بلا حولٍ ولا قوة «أموت أحسن»[٤٠]. وفي الثالث عشر من يناير من عام ١٩١٨، قتل طقس الشتاء أحد رجال ڤينابلز، إذ وُجد في تلك الليلة عاملان مستلقيان على جانب الطريق بعد سيرٍ طويل في عاصفة مطيرة. حمل ڤينابلز وأحد ضباط الصف الرجلين على أكتافهما وعادا بهما إلى المعسكر، وهناك عند وصولهم «أعطوا منشطات ... ولُفُّوا في بطانيات قرب النار»، فتعافى أحدهما ومات الآخر من البرد. لقد تخلف عن السير إلى موقع العمل وتُرِك ليموت على جانب الطريق[٤١].

يصف ڤينابلز هذه الحوادث بأنها «قدرية شرقية»، ليلقي باللوم على الرجال أنفسهم وما يُفترض من صفات عرقية وثقافية فيهم، لا على القادة البريطانيين الذين جاءوا بهم أصلًا. لكنه يعترف بأنهم لم يكونوا مجهَّزين جيدًا في قوله «وبحلول عيد الميلاد، تكللت جهود الكابتن هـ. بالنجاح وحصلنا على الخيام»، فيبدو أن المآوي لم تكن آتيةً منذ البداية. وربما وجد بعض الرجال في الاستسلام للطقس عزاءً لهم عن حصارهم في وسط السيول والانهيارات الطينية التي لم يكونوا ليتصوروها في جو مصر الجاف، وعن عملهم المنهك وجلدهم من مراقبين يأمرونهم صارخين بلغةٍ لا يفهمونها. ألا نقبل من هؤلاء البائسين الذين تقطَّعت بهم السبل في طرق فلسطين الموحلة أن يستحضروا إيمانهم بخلود أرواحهم بعدهم، فيستسلموا للموت راضين[٤٢].

---

[39] IWM, EKV 3/7: Near Ramleh (February 13, 1918).
[40] IWM, EKV 3/7: Near Ramleh (February 13, 1918).
[41] IWM, EKV 3/7: Near Ramleh (February 13, 1918).

[٤٢] انظر:

White and White, Sounds of Slavery, xi.

ومع مرور أيام الشتاء في فلسطين، تأقلم الرجال تدريجيًا مع المطر، فحفروا قنوات تصريف عميقة حول خيامهم لمنع تدفق المياه تحتها. وكان البعض يأخذون بطانياتهم وملابسهم الإضافية معهم خلال النهار، لكنهم تعلموا سريعًا أن يتركوها في الخيام حيث الجفاف، وتعلموا كذلك ألا يعدلوا حبال الخيام أثناء العاصفة، وألا يجعلوا مداخل الخيام في اتجاه الريح. وقد استعملوا السياج الحجرية والمنازل المهجورة التي انتشرت حولهم ملاجئَ للمطابخ والاسطبلات وسقائف للتجفيف. لكن مع اشتداد المطر، سرعان ما قرر ڤينابلز «مخالفًا التعليمات مخالفة صريحة» أن يأمر رؤساء عماله بجمع الحطب وإشعال النيران في خيامهم ليستدفئوا ويجفوا، وكتب يقول إنه «إن احترقت أي خيام، سأضطرّ إلى اختلاق أي قصة خرافية مخيفة. فإن صحة الجنود أهم من اللوائح، وكنت محظوظًا»[٤٣]. وفي إحدى الليالي «وبعد ساعةٍ تقريبًا من عودة الرجال وهم يقطرون»، رأى ڤينابلز فصيلةً تستريح ولا زالوا في ثياب العمل التي جاءوا بها. فبدأ على الفور بتوبيخ ريس الفصيلة على إهماله صحة الرجال، والذي قال: «كل واحد ناشف يا فندم». كان ذلك صحيحًا لكن ڤينابلز لم يعرف قط كيف كان الرجال يجففون أنفسهم دون تغيير ملابسهم[٤٤].

كان الطقس تحديًا في ساحات حرب أخرى. ففي السادس والعشرين من نوفمبر من عام ١٩١٥، ثارت عاصفة شديدة على غاليبولي، وتلتها عاصفة ثلجية تركت طبقةً من الجليد على الأرض عمقها ثلاثة إنشات[٤٥]. ووفقًا للرواية الأسترالية الرسمية للحملة، «لم يتمكن المصريون من العمل في البرد»[٤٦]. وعبَّر أحد الضباط العاملين في الدردنيل عن ذلك تعبيرًا أكثر شاعرية في قوله إن «المناخ قارس البرودة في جزر بحر إيجه بأشد مما يحتمله المصريون الذين نشأوا في حضن الشمس، فانتشر المرض في صفوفهم»[٤٧]. ومثل ذلك أيضًا في العراق، إذ «رفض [المصريون] العمل مطلقًا في الطقس المطير»[٤٨]. وخرجت وزارة الحرب البريطانية برأي مشابه عن العمال المصريين في فرنسا: «لا شك أن المصريين لا يتحملون الطقس البارد في شمال فرنسا، ولا يجب أن يبقوا بعد نهاية أكتوبر. إذ لا نفع يرتجى منهم في الطقس شديد البرد»[٤٩].

---

(43) IWM, EKV 3/7: Near Ramleh (February 13, 1918), 81.

(44) IWM, EKV 3/7: Near Ramleh (February 13, 1918), 81.

(45) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 165.

(46) Bean, *Story of Anzac*, 835.

(47) RAMC, *With the RAMC in Egypt*, 278.

(48) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 189.

(49) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919), Appendix 1.

تعرض عمال الفرقة المصرية للحرب والطقس وما نشأ عنهما من مرض رفاقهم وموتهم، وظلوا مستمرين في عملهم يوميًا. لكن ربما أشق ما مر به الكثيرون منهم هو موت رفاقهم بلا طائل ولا ذكر. يصعب علينا تحديد عدد من مات من الرجال في هذه الظروف الخطرة، بسبب ضعف أعمال التسجيل الخاصة بالإمبراطورية البريطانية في شأن رجال فرقة العمال المصرية. إذ لم تحفظ الإحصائيات الرسمية إلا حالات الوفاة التي تقع في المستشفيات، ويقدّر مسئولو الصحة أن «الوفيات التي وقعت بعد الخروج من المستشفى لا شك كثيرة، لأن الرجال كانوا يخرجون منها غير لائقين للعمل ليُرسلوا لفترة نقاهةٍ في قراهم»[٥٠]، ولا نعلم إن كانت هذه النقاهة قد تمت أم لا، لأن ترتيب السفر إلى الوطن كان مهمةً شاقة على أي مصابٍ أو مريض. وما لا يختلف عليه اثنان أن آلاف المصريين ماتوا بسبب خدمتهم، وآلافًا آخرين أُصيبوا في الحرب. وقد لخَّص ضابط بريطاني الظروف القاسية في فلسطين حين مروره على ڤينابلز وهو «يقطر ماءً» في شهور الشتاء الممطرة، إذ تساءل متهكمًا: «إن كانت هذه هي الأرض المقدسة، فكيف بالجحيم؟!»[٥١].

الثناء والأجر

كانت حركة التجريدة المصرية معتمدةً إلى حدٍ كبير على تقدم خط السكك الحديدية وأنابيب المياه لاختراق صحراء سيناء، لدرجة أن الرواية الرسمية للحملة قالت إن «سرعة التقدم ظلت معتمدةً على خط السكك الحديدية قبل خط الأنابيب»[٥٢]. تقر هذه الفقرة بأهمية البنية التحتية وتهمل ذكر الرجال الذين تحملوا عبء بنائها.

أُغفِل ذكر رجال الفرقة المصرية في الرواية الرسمية، لكنهم تلقوا ألوان الثناء من معاصريهم. فنجد موراي يقول في رسائله التي أرسلها إلى لندن إن «عمال الفرقة المصرية ... يعملون ليل نهار عملًا حسن التنظيم، ومن الباهر أن ترى قطارًا يطلق بخاره داخلًا إلى مستودع، وترى الرجال يثبون على العربات، ثم سريعًا ما يطلق القطار الفارغ بخاره خارجًا في أقصر وقتٍ ممكن»[٥٣]. وأشار موراي إشارةً خاصة إلى استعداد المصريين للعمل في الظروف الخطرة في قوله إن «الشهور الستة الماضية كانت مرهقة، لكن سلوكهم فيها كان في كل الأحوال مثاليًا، ووقع عددٌ من الحوادث التي تبيِّن

(50) TNA, FO 848/6: R. Wellesley (1920).
(51) IWM, EKV 3/9: K22 (April 24, 1918), 97.
(52) Falls and Becke, *Military Operations*, 272.
(53) Murray, *Murray's Despatches*, 215.

تفانيًا خاصًا في أداء الواجب»[٥٤]. بل قارن موراي بين أداء المصريين ونظرائهم البريطانيين مفضلًا الأوائل قائلًا: «على الرغم من أنهم كانوا يُقصَفون قصفًا شديدًا، فإن العمل استمر دون إبطاء. وإن أخذنا في اعتبارنا جو يوليو في رمانة، أشك في أن القوات البريطانية كانت لتنجز هذا العمل في الوقت المطلوب»[٥٥]. وعندما حل إللنبي محل موراي في أواخر عام ١٩١٧، وغزت التجريدة المصرية القدس، ذكر القائد الجديد فرقة العمال في «أمره الخاص الاستثنائي». فقال إن عمل فرقة العمال المصرية كان «ذا قيمة عظمى في مساهمته في التقدم السريع للقوات وفي التغلب على صعوبات الاتصالات»[٥٦]. وكذلك، كتب أحد الضباط على صفحات نشرة أخبار فرقة العمال المصرية أنه «لا غرو أن حملة فلسطين ما كان لها أن تنجز هذا الإنجاز المجيد بغير فرقة العمال المصرية»[٥٧].

وكذلك أُثني على رجال فرقة العمال المصرية على أرصفة موانئ أوروبا. فوفقًا لتقرير وزارة الحرب الرسمي، كانت فرقة العمال المصرية «مرضيةً كل الرضا، وتطاير الثناء عليهم وعلى عملهم في أماكن من قبيل مرسيليا وبولون»[٥٨]. فنجد المستشار الرسمي للعمال المصريين في فرنسا، مالكولم كوتس (Malcolm Coutts) يكتب عن فرقة العمال المصرية: «إن هؤلاء العمال لا يُغلَبون في أعمال الأرصفة الشاقة، وفي التعامل مع أنواع معينة من البضائع، مثل البضائع المعلبة والثقيل من البالات والتبن والقش وغير ذلك. وأرى أنهم فاقوا أي طبقةٍ أخرى من العمال الأصليين أو الأجانب. وإنني لأفضّل فرقة العمال المصرية على أي عمال في العالم أجمع، بشرط أن يحصلوا على الإشراف الملائم والمهام الملائمة»[٥٩]. لقد قامت فرقة العمال المصرية في مرسيليا على الأخص بكل الأعمال المتعلقة بالفحم، وكانت سرعتهم في أداء أعمالهم «مضرب الأمثال»، و«قد رضيت جميع السلطات البحرية المهتمة عن أدائها كل الرضا»[٦٠]. قال كوتس إنه «لم يكن لهم منافسون في تفريغ السفن وشحن القطارات. ولا شك أن جلب هؤلاء الرجال إلى هذه البلد كان نعم القرار»[٦١]. وكذلك اضطلعت الفرقة بغالب

---

(54) Murray, *Murray's Despatches*, 218.

(55) Murray, *Murray's Despatches*, 214.

(56) Massey, *How Jerusalem Was Won*, Appendix XI.

(57) *ELC News*, July 15, 1919.

(58) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919).

(59) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919), Appendix 1.

(60) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919), Appendix 1.

(61) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919), Appendix 1.

الأعمال تقريبًا في تارانتو بإيطاليا، من قبيل «أعمال الفحم وشحن السفن والقطارات وغيرها وتفريغها، وبناء الأرصفة وإنشاء السكك الحديدية وإقامة الأكواخ. لقد اضطلعوا بالأعمال الحرفية وغير الحرفية، وتحدثت كل التقارير عن أعمالهم»[٦٢].

أما الصحافة في مصر، والخاضعة لرقابة بريطانية مشددة، فقد حداها الأمل في أن قصص شجاعة الرجال ومغامراتهم في الخارج قد تكون ترياقًا للقلق المنتشر عن مصيرهم. وكانت **المقطم** مرةً أخرى أنشط الصحف في ترويج هذه الرسائل. فنجد مقالةً عن فرقة النقل بالجمال تروي عددًا من القصص من بطولة العمال المصريين، منها قصة الريس نور الدين سعيد الذي حمل الذخيرة إلى الجنود في الخنادق على بعد مئةٍ وخمسين ياردة تحت نار المدافع في فلسطين، وقصة الجمَّال أحمد يونس الذي استمر في عمله تحت النار على الرغم من جرحٍ عميق في رأسه استوجب في النهاية أن ينزع الأطباء إحدى عينيه[٦٣]. وكذلك ذكرت مقالةٌ أخرى روايةً عن مصري مجهول الهوية أنقذ حياة أحد الجنود البريطانيين جرفه تيارٌ من المياه بعيدًا عن الشاطئ وهو يسبح[٦٤]. وقد نُشر أيضًا في **الأهرام**، أن التقرير الصادر عن عمال الفرقة في فرنسا يشير إلى إقامة «حفلة» لتكريمهم، وكان كل الحضور منبهرين «بعظمتهم»[٦٥].

ركَّزت الصحافة المصرية تركيزًا خاصًا على الأنواط التي حازها بعض المصريين إقرارًا بخدماتهم. فنجد مقالتين متتاليتين في أكتوبر من عام ١٩١٧ تذكر أسماء خمسة رجال أنعم عليهم سلطان مصر «بنوط الجدارة من الفضة»، وستةٍ وعشرين رجلًا بـ «نوط الجدارة من الشبهان (البرونز)».[٦٦] كان المذكورون كلهم في هذه المقالات من

---

(62) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919), Appendix 1.

(٦٣) «فعال فرقة عمال انقل»، جريدة المقطم، ١ أغسطس ١٩١٧.

(٦٤) «فعال فرقة عمال النقل»، جريدة المقطم، ١ أغسطس ١٩١٧.

(٦٥) «فرقة العمال»، جريدة الأهرام، ١٣ أبريل ١٩١٧..

(٦٦) «مكافأة البواسل»، جريدة المقطم، ٥-٦ أكتوبر ١٩١٧. كان هؤلاء العمال هم: **آدم محمد** نمرة ٣٠٦ من بلوك حرف (ل) من فرقة النقل بالجمال، و**حسن عبد الله** نمرة ١٧٣٠ من بلوك حرف (أ) من فرقة النقل، و**سلمان حسن** نمرة ٢٨٥ من بلوك حرف (د) من فرقة النقل، و**موسى عبد الرحيم محمد** نمرة ٢٣١٣ من بلوك حرف (م) من فرقة النقل، و**شحاتة عبد المولى** نمرة ١٢٨١ من بلوك حرف (ب) من فرقة النقل، و**حسن أحمد طيب** نمرة ٧٠٥ من بلوك حرف (ب) من فرقة النقل، و**عمر محمد عمر** نمرة ٣٥٨١ من بلوك حرف (د) من فرقة النقل، و**حسين محمد أبو زيد** نمرة ٣٤٢٠ من بلوك حرف (د) من فرقة النقل، و**محمد علي محمد** نمرة ٣٤٢٧ من بلوك حرف (د) من فرقة النقل، و**عابدين حسين أحمد** نمرة ١١٩٣٣ من بلوك حرف (ك) من فرقة النقل، و**عبد الملك محمد** نمرة ١١٩٢٣ من بلوك حرف (ك) من فرقة النقل، و**أحمد حسين محمد** نمرة ١٠٨٦٩ من بلوك حرف (ك) من فرقة النقل، و**محمد علي سلام** نمرة ١٢٢٠ من بلوك حرف (ج) من فرقة النقل، و**إبراهيم فرغلي محمد** نمرة ٩٩٣ من بلوك حرف (ج) من فرقة النقل، و**حامد أمان** نمرة ١٨٣٤ من بلوك حرف (ج) من

فرقة النقل بالجمال إلا ثلاثةً منهم كانوا من فرقة العمال المصرية الذين عمِلوا حاملي نقالات في دير البلح بفلسطين. وكذلك نشرت جريدة الوطن مقالةً مماثلة تذكر رجالًا من الجيش المصري حصلوا على مكافآت من «الحكومة البريطانية» نظير خدمتهم في منطقة قناة السويس والسودان(٦٧). ويبدو أن رسائل موراي تثبت أن عددًا من المصريين قد حصلوا على مكافآت، إذ يقول إن «بعض الحالات قد أبدى فيها بعض أهالي [المستعمرات] تفانيًا متفردًا في تأديتهم واجبهم، وأنهم كوفئوا تحت رقم تسجيل ٢٤٩١ بتاريخ الثالث والعشرين من مايو من عام ١٩١٧»(٦٨).

ويصف ڤينابلز موقفًا طُلب منه فيه إرسال تقرير لمقر قيادة التجريدة المصرية يرشّح فيه ثمانية رجال يستحقون التكريم الرسمي. وقال في أثناء فعله ذلك إن «أصعب ما في الأمر بالنسبة لي كان اختيار أنفع ثمانيةٍ من الرجال، ومن كانوا الأهدأ وقت إطلاق النار ... لقد كان هناك العشرات ممن يجب أن يحصلوا على ميداليات لقاء ما فعلوه»(٦٩)؛ حتى ڤينابلز كثير الانتقاد وجد في عمل المصريين على طرق فلسطين كثيرًا مما يعجبه، فقال إنه «وجب تعليم المصريين فن رص الأحجار الدقيق كي تكون أساسًا ثابتًا ومستويًا. ومع مرور الوقت صاروا خبراء متمكنين من ذلك واشتد اهتمامهم به ... ومن ثم خُصوا بذلك العمل الذي يحتاج لشيء من المهارة»(٧٠). يصف ڤينابلز عملهم هنا بـ «الفن»، والعمال بأنهم «خبراء متمكنون». ثم بعد ذلك وصف الرجل المكلف بقيادة الهراس على هذه الطرق بأنه «بديع»، وأنه «كان قديرًا بحق ومتمكنًا من قيادة الهراس وصيانته»(٧١). وكذلك أثنى ڤينابلز على فرقة العمال عندما كانوا حاملي نقالات، فكتب أنه كان «واجبًا أدوه بمهارةٍ وتعاطفٍ كبيرين: فقد تعلموا سريعًا الخطوة الصحيحة، فكانوا يحملون الجرحى بحرص، ويحرصون على سلامتهم وراحتهم»(٧٢).

فرقة النقل، و**عباس سيد محمود** نمرة ٧١٥٧ من بلوك حرف (ب) من فرقة النقل، و**يحيى زيدان** نمرة ٤٩٢٦ من بلوك حرف (ب) من فرقة النقل، و**عبده محمد علي** نمرة ٥٦٢٦ من بلوك حرف (ب) من فرقة النقل، و**هارون محمد سيد** نمرة ٣١٤ من بلوك حرف (م) من فرقة النقل، و**بولس كبسيس** نمرة ٤٣٨١ من فرقة العمال المصرية، و**حفني عبد الرحمن** نمرة ١١٤٧٣١ من فرقة العمال المصرية، و**محمد إبراهيم سليمان** نمرة ١٢٣٦٩٠ من فرقة العمال المصرية.

(٦٧) «مكافآت الضباط»، جريدة الوطن، ٢ نوفمبر ١٩١٨.

(68) Murray, *Murray's Despatches*, 218.

(69) Murray, *Murray's Despatches*, 218.

(70) IWM, EKV 3/9 K22 (April 24, 1918), 93.

(71) IWM, EKV 3/9 K22 (April 24, 1918), 93.

(72) IWM, EKV/2: They Also Served, 24.

وكذلك وجد توماس بروكس منشال (Thomas Brookes Minshall) ما يثني عليه لدى عمال الفرقة المصرية، إذ قال «لقد شاهدت طوابير من هؤلاء الإلسي (كما كان الأستراليون يسمونهم) ذهابًا وإيابًا يحملون مقاطف التراب على أكتافهم لبناء أساس الخط، وإن سرعتهم في بنائه لتثير العجب»(٧٣)، وقال عن شجاعتهم وقت إطلاق النار: «وترى [المصريين] أثناء الغارات ينطلقون بكل أنواع الأحمال لخط النار، وإني لعلى يقين بأنهم يعلمون أنه كلما اجتهدوا في عملهم، تحسنت فرص النصر لدى رجال الخنادق»(٧٤)، وقال عن رجال فرقة النقل بالجمال الذين حملوا الجرحى في المعركة أنهم أدوا «عملًا قيِّمًا ... فلم يحفلوا بالخطر وحملوا الجرحى مرارًا وسط القصف الشديد إلى مراكز الإسعاف في المؤخرة، وأدوا عملهم الرحيم طوال اليوم والليلة»(٧٥). وكما سنرى في الفصل الخامس، تحيَّز الضباط البيض في فلسطين من أمثال ڤينابلز ومنشال ضد المصريين في مجموعهم، لكنهم لم يملكوا إلا أن يُثنوا على عمل أفرادهم في الميدان.

لكن رجال فرقة العمال المصرية لم يكن مرادهم من السلطات البريطانية مجرد الكلمات الرقيقة والأنواط الفاخرة، بل انتظروا أن يُدفع لهم. فمن مستهل الحرب، جُنِّد المصريون بعقودٍ مؤقتة وتحدد بداية أجرهم راتبًا بخمسة قروش في اليوم لعمال الفرقة المصرية وستة لجمَّالة فرقة النقل. وكانت مدة الشهور الستة المحددة في العقد تبدأ في فرنسا من تاريخ وصول السرية إلى البلاد(٧٦)، وتبدأ في ميدان سيناء–فلسطين «من تاريخ الدخول في الخدمة مع وحدة [الفرد]»(٧٧). وربما زادت المكافأة في مرحلةٍ معينة في فرنسا، إذ نجد كوتس يضع معدل الأجر اليومي «للعامل غير المحترف» عند ثمانية قروش في اليوم(٧٨). أما في حملة سيناء–فلسطين التي استغلت عددًا أكبر من المصريين وكانت أقرب لأوطانهم، فلم ترتفع معدلات الأجر الأساسية إلى هذه النقطة قط، لأنه وفقًا للمسؤولين البريطانيين «لا يصح أن تدفع [لعمال الفرقة المصرية] بمعدلاتٍ تقترب من رجال الجيش البريطاني، وهو ما يقع عندما يرتفع الأجر إلى ثمانية

(73) IWM, 86/51/1: Thomas Brookes Minshall, 3.
(74) IWM, 86/51/1: Thomas Brookes Minshall, 7-8.
(75) IWM, 86/51/1: Thomas Brookes Minshall, 8.
(76) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919), Appendix I.
(77) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/64: Allenby (February 13, 1918).
(78) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919), Appendix I.

أو تسعة قروش»[٧٩]. لم ترد أية إشارة تكذب ذلك، لكن المصريين العاملين إلى جانب القوات البيضاء في التجريدة المصرية كان أجرهم على عملهم أقل في ميدان القتال نفسه.

كان توقيع العقود مع العمال أسهل من تسليمهم النقود. إذ كان من المفترض أن يحصل المصريون العاملون في التجريدة المصرية في حملة سيناء-فلسطين على دفعات مقدمة من رواتبهم[٨٠]، وعندما يتقدمون بطول الخط يمكنهم الحصول على دفعات أخرى في أوقاتٍ محددة. ويروي ڤينابلز أن الإجراءات تضمنت التقدم بطلب دفعةٍ إلى الضابط الذي يعد قائمة بأسماء طالبي الدفعات وأرقامهم التعريفية، ثم يسافر إلى القاعدة في رام الله لتحصيل النقود وإحضارها. لكن بعض الرجال رفضوا الحصول على هذه الدفعات وعاشوا على حصص الطعام القليلة التي قُدِّمت لهم، ثم سحبوا الستمئة قرش وهي كامل رصيدهم عند عودتهم إلى القنطرة. لكن ڤينابلز ينقل أن غالب رجال سريته حصلوا على دفعاتهم المقدمة، «وسرعان ما وقع ... غالب المال ... في يد عددٍ من الأفراد ذوي الحرف، هم غالبًا الرؤساء الذين تمكنوا بالقروض وتعاملاتٍ أخرى من السيطرة على الجهلة وابتزاز كل قرشٍ منهم»[٨١].

ووفقًا لكوتس، «لم ترتب أية نظم في مصر لتمكين الرجال [في فرنسا] من إرسال أجورهم إلى عائلاتهم»[٨٢]. لم تسمح السلطات الفرنسية لعمال الفرقة المصرية باستعمال الحوالات الدولية، إلا رجال بورسعيد والإسكندرية، فهم فقط من تمكنوا من استعمال الحوالات البريدية لموظفي البريد الفرنسيين في مسقط رأسهم. لكن كوتس ذكر أنه مع مرور الوقت «سمح للرجال بتحويلاتٍ معينة، بدا أنها شديدة النفع لهم»[٨٣]. وكما سيتبين من وثائق الفصل الثامن بشكلٍ أكثر تفصيلًا، يبدو أن بعضًا على الأقل من عائلات الرجال الذين ماتوا في أثناء خدمتهم لم يحصلوا قط على التعويض الذي استحقوه قانونًا. ويقول كوتس إنه كان هناك مقياس متدرج للتعويضات التي تُدفع لعائلات من مات من الرجال في فرنسا، وكانت مسئولية إدارة الحالات كلها تقع على

---

(79) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/38: Wingate (September 20, 1917).
(80) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/64: Allenby (February 13, 1918).
(81) IWM, EKV 3/10: Ephraim (June 2, 1918), 107–108.
(82) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919), Appendix I.
(83) TNA, WO 107/37: «Report on British Labour» (November 14, 1919), Appendix I.

كاهل المقر الرئيسي للفرع في روو[٨٤]. لكن نظرًا لضعف التسجيل، كان من الصعب على بعض العائلات تحصيل مستحقاتهم العادلة.

الخلاصة

لقد غيَّر عمال الفرقة المصرية البيئة المستحدثة في فلسطين في أثناء الحرب، بما مكَّن من تصور فضاءٍ جديد اسمه إدارة أراضي العدو المحتلة (OETA). وُزِّع على سرايا العمال العاملين وفق نظامٍ للمهام قدرٌ محدد من العمل اليومي، وبمجرد إنهائهم إياه يُفترض أن ينتهي عملهم، وهكذا خُطِّط للعمل حتى أدق التفاصيل نظريًا. لكن كلما امتدت السكك الحديدية وأنابيب المياه التي وضعتها الفرقة في صحراء سيناء وفلسطين، انهارت بعض جوانب نظام المهام. إذ اقتربت السرايا من نيران العدو ووجدت نفسها محمَّلة بطوارئ فرضت نبذ نظام المهام وألزمتهم بمجموعةٍ كاملةٍ جديدة من المهام الواجب عليهم أداؤها. وقد تكاثرت هذه الطوارئ حتى صارت الوضع المعتاد مع عبور سيناء إلى فلسطين في أواخر عام ١٩١٧؛ بل إن الفرقة استُعملت في الإلهاء في معركة غزة الثالثة، فأعطوا التجريدة المصرية ميزة تكتيكية وإن تعرَّضوا لنيران العدو. كانوا يُخرِجون السيارات من الطين، ويدفعون المدافع إلى مساراتها، ويحملون الجرحى في خضم المعركة إلى أقرب مستشفى.

أدى العمل في هذه الظروف إلى وضع الرجال في خطر، وضحى الكثيرون منهم بأجسادهم وأرواحهم. لقد تعرَّضوا لخطر مدفعية العدو وحوادث الذخائر والطقس الشديد الذي اضطُروا إلى تحمله، وعانى الكثيرون إصابات شديدة وأمراضًا. لم تكتفِ السلطات البريطانية بتعريض هؤلاء الرجال للخطر، بل لم تعبأ بتسجيل شؤونهم ما جعل تتبع من مات أو أصيب من الرجال أمرًا صعبًا. فظلت العائلات في الوطن غافلةً عن مصير أحبائهم، وبعضهم لم يحصل قط على التعويض المستحق لهم بالقانون.

على أدنى المستويات، يمثل هذا الفصل اعترافًا بمساهمات رجال فرقة العمال المصرية وتضحياتهم في المجهود الحربي. فقد اشتغلوا عمال شحن وتفريغ على أرصفة موانئ أوروبا، وجمَّالة في الصحراء، ورجال شرطة في بغداد. لكن ربما أهم مساهماتهم كان بناؤهم «الخط الحديدي العابر للصحراء» الذي امتد لأكثر من مئةٍ وثلاثين ميلًا (مائتين وخمسة عشر كيلومترًا) من خطوط السكك الحديدية وأنابيب المياه، وسمح بنقل البشر والمؤن بين مصر وفلسطين عبر صحراء سيناء. وقد فعلوا ذلك كله في سنةٍ

---

[٨٤] لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص٢٦٢-٢٦٤.

ونيف، فأرسوا أسس الغزو البريطاني لفلسطين في أثناء الحرب، وأسس احتلالها في أثناء فترة الانتداب.

[٥]

العرق والفضاء في معسكرات فرقة العمال المصرية

عَمِل عبد الحميد محمد حسين في المجهود الحربي منذ اندلاع الاشتباكات في مصر حتى نهاية الحرب. ولد عبد الحميد في الجيزة سنة ١٨٩٣ وتعلم القراءة والكتابة في الكُتّاب. طلق أبوه أمه وهو لم يزل صبيًا، واضطره الفقر إلى عمل يدوي وهو في الحادية عشر. وبعد عشر سنوات تقريبًا «وجد نفسه يلتحق بالعسكرية»[١] في فرقة العمال حين بدأ الجيش البريطاني يجنّد المصريين لغزو غاليبولي. وقد خدم في الدردنيل والسودان وذهب إلى فلسطين في ١٩١٧ وتطوع فيها عدة مرات.

ومثله فعل إرنست كندريك ڤينابلز إذ خدم في الجيش من أول ما اندلعت الحرب في بلاده. ولد ڤينابلز لموظفٍ حكومي في ١٨٩٠ في بلدة بيركنهد (Birkenhead) بمقاطعة شيشاير (Cheshire). وعمل مدرسًا ثم تطوع في الجيش البريطاني في ١٩١٤. وكان يهوى تدوين الملاحظات في يوميات ورسائل متفرقة إلى ذويه. وأول عمله كان بوحدة إسعافٍ ميدانية في الفيلق الطبي الملكي البريطاني وخدم سنةً في الإسكندرية قبل أن يستصدر قرارًا بالانتقال إلى العمل في فرقة العمال المصرية. وفي أبريل من سنة ١٩١٧ انتقل إلى مستودع الإمداد والتموين بجزيرة الروضة للتدريب ثم إلى الجبهة الفلسطينية[٢].

ومع نهاية سنة ١٩١٧ كان ڤينابلز وحسين على مسرح الأحداث في فلسطين. لا ندري إن كانا تقابلا، لكن فلسطين وقت الحرب كانت تعج بآلاف الضباط البريطانيين أمثال ڤينابلز ومئات الآلاف من العمال المصريين أمثال حسين، كلهم يعملون معًا في علاقات تحكمها محركات قوى غير متساوية ويعيشون متجاورين فى المعسكرات الحربية.

وإن نظرة عابرة على كتابات ڤينابلز وحسين، وهي من أفضل ما كُتب من روايات العيان لحياة معسكرات فرقة العمال المصرية بالإنجليزية والعربية، تكشف التباين الذي كان بين حال الفريقين. تبلغ كتابات ڤينابلز مئات الصفحات وهي محفوظة في سجل محفوظات المتحف الحربي الإمبراطوري بلندن. أما رواية حسين فلا تزيد عن ثلاث صفحات ونصف نُشرت بعد الحرب بخمسين عامًا في مجلة روز اليوسف. لكن شعاع

---

(١) سمير عزت، صفحات من مذكرات شيخ مجهول

(2) IWM, EKV/1: EK Venables.

هذا المصدر الضنين انكسر وتفرقت ألوان طيفه حين مر بمنشور حرب سنة ١٩٦٧ بين مصر وإسرائيل؛ فصارت رواية العيان الوحيدة التي وجدتُها وكتبها أحد أفراد فرقة العمال المصرية. لم يكتب غالبية أفراد فرقة العمال المصرية مذكراتهم. والمؤكد أن نقص التعليم العام وعدم انتشار معرفة القراءة والكتابة كان من أهم أسباب هذا. فقد قال مؤرخو الإمبريالية البريطانية إن أحد أسباب غياب كتابات عمال الفرقة سياساتُ الاحتلال التي قلَّصت تمويل التعليم العام عند ترتيب أولويات ميزانيتها (٣).



صورة (٥,١): صورة رسمها فنان لعبد الحميد محمد حسين في عام ١٩٦٨.
«صفحات من مذكرات شيخ مجهول»، روز اليوسف، مارس ١٩٦٨.

---

(3) Tignor, Modernization; Jakes, Egypt's Occupation.
ولعملٍ أحدث يفكك التمييز بين الأمية ومعرفة القراءة والكتابة في مصر، انظر:
Yousef, Composing Egypt.



صورة (٥,٢): ضابط فرقة العمال المصرية إرنست كندريك ڤينابلز في عام ١٩١٧. سجلات المحفوظات البريطانية، وزارة الحرب، ١٠٨٤٢٣/٣٣٩

ومن المفارقات أن الإمبريالية البريطانية أتت بأناس مثل ڤينابلز وحسين في مكان واحد؛ لكنها اخترعت حيلًا كثيرة للتفريق بينهما. ويدرس هذا الفصل هذه المفارقة إذ يركز النظر على معسكرات فرقة العمال المصرية وقت الحرب ويتابع العلاقة بين الضباط البريطانيين ورجال فرقة العمال عند تقاطع العرق والفضاء(٤). طبعت الأيديولوجيا العنصرية أثرها على تمثيلات أفراد فرقة العمال المصرية في كتابات الصحفيين والضباط البريطانيين الذين عاشوا في تلك المعسكرات. ومن أهم مقولات كتابنا هذا أن الاقتصار على دراسة هذه التمثيلات لا يكفي لفهم تأثير الأفكار العنصرية في تشكيل الحياة اليومية. وليست أيديولوجيا العنصرية الاستعمارية هي التي تجعل العرق حقيقة يحس بها من توجه إليهم مشاعر التغريب العرقي، بل إنه تَجسُّد هذه الأفكار في أعمال تجري في الحيز المكاني. فإن الأفكار العنصرية أسهمت في فرض نوع من التجانس على خبرات جماعات شتى من الناس، وما كان لهذه العملية أن تحدث إلا بتأثير هذه الجماعات في خلق الحيز المكاني. وبمرور الوقت بدأت هوياتٌ عارضة تبدو طبيعية أو أصلية. وسنرى في الفصل السابع أن الهويات الجمعية المتركزة حول فرقة العمال صارت أساس عمل سياسي وقت الحرب.

يوثِّق هذا الفصل الجزء الأول من هذه العملية كما تجلت في معسكرات فرقة العمال المصرية في أوروبا والشرق الأوسط. فيبدأ بالنظر في كيفية تأثير العنصرية الاستعمارية في تمثيلات أفراد فرقة العمال في كتابات الجنود والضباط والصحفيين المتحدثين

(4) Aoki, "Space Invaders.

بالإنجليزية. فقد عملت هذه التمثيلات عمل مخطوط متعاقب النصوص تعلو فيه غلالة من العلم الشعبي وأوصاف مهينة تنزع الإنسانية عن الموصوفين على تقاليد أقدم تشمل التغريب العنصري للمسلمين وتشمل نزعة الاستشراق ومعاملة أهل البلاد المستعمرة معاملة الأطفال غير الراشدين. وإن دراسة هذه التمثيلات مهمة في ذاتها، لكننا في هذا الفصل نتجاوز هذا إلى النظر في كيفية انطباع الأفكار المتعلقة بهوية المصريين العرقية في فضاء المعسكرات. فقد كان الضباط البريطانيون يفصلون رجال فرقة العمال المصرية، ويعطونهم معدات أدنى من المعدات القياسية، وكانوا يسارعون إلى عقابهم عقابًا بدنيًا عنيفًا. تأثرت هذه السياسات كلها بأفكار البريطانيين عن «السمات العرقية التي يختص بها » المصريون، وقد تضافرت لخلق خبرة مشتركة بين الرجال الذين خدموا في الحرب.

العرق وتصورات فرقة العمال المصرية

صاحبت الأفكار العنصرية المساعي البريطانية لتجنيد أفراد فرقة العمال المصرية منذ البداية. ففي منتصف سنة ١٩١٦ عندما كان الجيش البريطاني في فرنسا محتشدًا لشن «معركة السوم»، طرح رجالٌ مثل رئيس الوزراء هربرت هنري أسكويث (H. H. Asquith) ووزير الخارجية آرثر بلفور فكرة الاستعانة «بعمالة ملونة» لسد النقص في القوة البشرية [٥]. ولم يكن كل الساسة البريطانيين على وفاق حول كيفية معاملة هؤلاء العمال. إذ أعاد الساسة الليبراليون إلى الأذهان «فضيحة بلفور»، وهي استيراد حوالي خمسين ألف عامل صيني للعمل في مناجم جنوب إفريقيا بين ١٩٠٣ و ١٩٠٤، وطالبوا بالاحترام والعدل والإنصاف في معاملة «الأعراق التابعة السوداء والصفراء»[٦]. لكن هذا الخطاب الليبرالي نفسه لم يكشف عن رغبةٍ في نقد منطق العنصرية الاستعمارية. وكان هذا الاتجاه السائد بين طبقات الموظفين المدنيين، كما يقول نيكولاس جريفين، «موروثًا اجتماعيًا صاغه تراثٌ من القيادة والاستعلاء الثقافي، تشربوه في المدارس العامة الابتدائية وتعزز في دهاليز أوكسفورد وكامبريدج»[٧].

وكان هذا الاتجاه الذي ترسخ في أعلى طبقات الإمبراطورية البريطانية شائعًا بين صغار الضباط والجنود والصحفيين الذين عاشوا بالقرب من رجال فرقة العمال المصرية. وتبيِّن صور التعبير عن الإعجاب بالمسؤولين الكبار أن بعض الضباط من

---

(5) TNA, WO 107/37: "Report on British Labour" (November 14, 1919), 24–25.

(6) Griffin, "Use of Chinese Labour," 13.

(7) Griffin, "Use of Chinese Labour," 13.

الرتب الوسطى كانوا يعتقدون أن السلطة ترتبط ببياض البشرة. فنجد ڤينابلز يعبر عن إعجابه بنقيب يبدأ اسمه بحرف إتش فيقول:

> لم يكن التباطؤ وغيره من المخالفات يقابَل عنده بأي قدر من الرحمة. وفي الوقت نفسه كان يهتم برعاية المصريين وكان يبذل قصارى جهده ليوفر أفضل ما يستطيع لرجاله ... جعله هذا الأمر كالإله بين المصريين وكان معروفًا بينهم باسم «المدير الكبير» ... **فهو أبيض خالص**[٨]. (التوكيد مضاف)

يبين إعجاب ڤينابلز بكابتن إتش أن مفاهيم الهوية البيضاء والعنف والتخويف لدى الضباط البريطانيين، التي تناولها هنا ڤينابلز بعبارة «[بلا] أي قدر من الرحمة»، يرتبط باتجاهاتٍ أبوية صورت الضباط البريطانيين بأنهم «يعرفون صالح» المصريين الذين تحت إمرتهم.

تشكلت مفاهيم الأبوية المتعلقة بالهوية البيضاء في سياق التصنيف العرقي للمصريين وبالتزامن معه. فلقد كانت تمثيلات الهوية العرقية لأفراد فرقة العمال المصرية قائمة على تراثٍ طويل من التصوير الغربي «لأهل الشرق» والتصنيف العرقي للمسلمين سبقت مناقشته في الفصل الأول. وقد ذكر ڤينابلز في أولى رسائله إلى أهله في إنجلترا أن الرجال الذين تحت إمرته كانوا «محمديين»؛ ومن ثم جهالًا متعصبين قدريين إلى أقصى حد[٩]. وفي مواضع أخرى يشتكي من «النوازع الشرقية» التي لدى العمال الذين تحت إمرته[١٠]. وحين كان الرجال يستسلمون للموت كان يصوغ تفسيره ليلائم موقفه من «القدرية الشرقية» التي قرأ عنها، فيقول «كان الأشقياء الحمقى يتسللون إلى أحد الأودية أو أي مكان منعزل ويرقدون فيه»[١١]. أتاحت تهمة القدرية الشرقية له أن يزيح مسؤولية موت الرجال عن كاهل السلطات البريطانية التي أتت بهم في هذه الظروف. وقد جعل الاختلافات بين «الشرقيين» والإنجليز البيض اختلافات جوهرية تتجاوز الزمن وتفسر كل الصعوبات.

وقد استند ضباط بريطانيون آخرون إلى مفاهيم الاستشراق في تمثيلاتهم رجال فرقة العمال المصرية. من ذلك ما ورد في مقالة في **نشرة أخبار فرقة العمال المصرية**؛

---

(8) Griffin, "Use of Chinese Labour," 13.

(9) IWM, EVK 3/1: Sinai (September 3, 1917), 7.

(10) IWM, EKV 3/2: Deir el-Belah (September 12, 1917), 16.

(11) IWM, EKV 3/7: Near Ramleh (February 13, 1918), 76.

حيث يقول كاتبها إن «العصابات التي مدت بالأمس كيلومترًا من السكك الحديدية ينحدرون مباشرة عن العصابات التي رفعت أحجار الأهرام، وإن رئيس العمال الذي خفَّضنا رتبته صباح اليوم في مكتب الضابط المنوب لهو أخو الدم لواحدٍ سبقه بقرون هو رئيس عمال فرعون الذي أرداه موسى»[١٢]. وعلى النهج نفسه تسير مقالة نُشرت في **التايمز** اللندنية إذ تبدأ كالتالي: «منذ خمسة آلاف وستمائة وخمسين عامًا انطلقت في مصر دعوة عاجلة لطلب عمال ... واليوم يترك النسل المباشر لأنصاف العبيد أولئك بيوتهم بإرادتهم الحرة ويذهبون للعمل من أجل قضية أسمى»[١٣]. كتب هذين التقريرين مؤلفان مختلفان لكنهما يتفقان على تشبيه رجال فرقة العمال المصرية بعمال العصر الفرعوني. يقول رون فوكس إن وقوع الأحداث في حيز فريد هو «الأرض المقدسة» ربما أسهم في استحضار استعارات توراتية مثل الإشارة إلى الفراعنة في عقول رجال التجريدة المصرية في فلسطين[١٤].

تبين تمثيلات رجال فرقة العمال المصرية بأنهم «النسل المباشر» لقدماء المصريين أن الفرعونية كانت من عناصر التصنيف العرقي للمصريين في المخيلة الامبراطورية المتأخرة. وتثبت أمنية الشاكري بالوثائق أن هذا موجود في تجارب أونوفريو أباتي (Onofrio Abbate) الطبيب الإيطالي الذي عمل في خدمة البلاط الملكي المصري بين عامي ١٨٤٥ و١٩١٥. فقد انطلق أباتي من صلات متصورة بين قدماء المصريين والفلاحين خاصة، حين قارن بين بقايا الهياكل العظمية التي كانت موجودة في جبانة الكوامل القديمة ورفاتٍ حديثة لموتى في مستشفى القصر العيني بالقاهرة[١٥]. وتصف الشاكري هذه التجارب بأنها «نظرة فريدة على التحول عن الاستشراق ذي الأساس النصي المهتم بالجمع والتعليق؛ إلى علم تجريبي وإكلينيكي خاص باختلاف الأصول»[١٦]. وهكذا عملت الثقافة الإمبراطورية المتأخرة على إلقاء غلالة من الشرعية العلمية على ادعاءات عمرها قرون عن طبيعة «الشرقيين» الثابتة التي لا تتغير؛ وذلك عن طريقٍ تجريبي يردد القول نفسه.

يقدم ڤينابلز في مخطوطته غير المنشورة قائمةً من الاختلافات العرقية بين الرجال الذين تحت إمرته فيقول:

---

(12) "Editor's Section," *ELC News*, March 1, 1919.

(13) "Egyptian Labour Corps," *Times of London*, August 17, 1918, 5.

(14) Fuchs, "Sites of Memory."

(15) Fuchs, "Sites of Memory", 38.

(16) El Shakry, *Great Social Laboratory*, 31.

[ص٦٣ من الترجمة العربية -المترجمان].

> كان أفضلهم من الصعيد في أقصى الجنوب... وكان هناك في أول الأمر نوبيون وبربر من أقصى الجنوب لكنهم اختفوا، على رغم أنهم كانوا أفضل في مهنة الخدم الشخصيين؛ كما في الحياة المدنية في القاهرة وغيرها من المدن ... كان السودانيون القلائل الموجودون هنا وهناك أقوياء يُعتمد عليهم، ويستحقون القول إنه «كلما دكنت البشرة كان أفضل»، لكنهم لم يكونوا دائمًا على وفاق مع زملائهم المصريين، الذين كانوا يضمرون لهم نظرة استعلاء ... أما عوام الفلاحين في الفرقة فكانوا عمالًا ممتازين إذا أُحسِن الإشراف عليهم، لولا أن نصيبهم كبير من ذلك النزوع البشري الذي يعبر عنه المثل الإيطالي «جميل ألا تفعل شيئًا» بعد أن نضيف إليه «ثم تأخذ فترة راحة»[١٧].

تجمع هذه الفقرة كالفسيفساء عناصر عرقية شتى، يميز فيها ڤينابلز بين المصريين فيقول إن أغلبهم من الفلاحين القادمين من الدلتا وأهل الصعيد. ويجاور الفئتين أفارقة آخرون سود ويضم فيهم النوبيين و«البربر» والسودانيين. وبرغم إلغاء الرق رسميًا قبل وقت كتابته هذه الرسائل بأربعين سنة، يقول ڤينابلز إن المصريين «في الحياة المدنية في القاهرة وغيرها» اعتادوا على استعباد الأفارقة. لكنه يبدِّل عناصر «مهمة نشر المدنية الإسلامية» التي من المفترض أن مصر تحملها، فيقول إن السودانيين كانوا فيما بينهم يستعلون على المصريين ويعدونهم «أدنى» منهم[١٨]. ويلخص هذا التبديل بترديد عبارة «كلما دكنت البشرة كان أفضل» حين يتعلق الأمر بالعمال ويصرِّح بقبولها. ثم يميز بين المصريين والأفارقة ليجعل المصريين في درجة أدنى فيما يسميه في موضع آخر «سلم الحضارة».

ويميز الصحفيون المصريون الذين يغطون شؤون فرقة العمال المصرية بين أفرادها السودانيين والمصريين. فتذكر صحيفة الأهالي التي تغطي عملية تجنيد رديف الجيش في شتاء ١٩١٦ أن القوة ضمت «ستة عشر فصيلة مصرية سودانية»[١٩]. ونشرت **المقطم** مقالة أخرى بها إشارة إلى الأفراد السودانيين في فرقة النقل بالجمال تنضح بالاستعلاء:

---

(١٧) IWM, EKV/2: *They Also Served*, 8–9.

(١٨) للمزيد عن «مهمة التمدين» المصرية في السودان، انظر:

Troutt-Powell, *A Different Shade*.

(١٩) «دعوة الرديف المصري»، جريدة الأهالي، ١٨ فبراير ١٩١٦.

وقد سمعتُ عددًا كبيرًا من الجمَّالة السودانيين يهزأون بالقتال على أبعادٍ شاسعة، قائلين لماذا لا تفضون النزاع الذي بينكم بالخناجر والمُدي كما نفعل في السودان[٢٠].

يقول الصحفي في هذه الجريدة المشهورة بموالاتها البريطانيين إن السودانيين كانوا مذعورين من العنف، وفي الوقت نفسه يُقبلون عليه إقبالًا فريدًا ويفضلونه على التحكيم القانوني. ويصور هذا التعليق السودانيين بأنهم «غير متحضرين» مقارنةً بزملائهم المصريين، ويستغل التمييز العرقي القديم بين السودانيين والفلاحين الذي شاع في الصحافة المصرية وناقشناه في المقدمة وفي الفصل الأول.

يميز ڤينابلز بين المصريين وزملائهم السودانيين أحيانًا؛ لكنه يضم المصريين إلى الأفارقة السود على أساس مظهرهم البدني. فلقد كان مدرسًا يتابع الأفكار العلمية الشائعة في زمانه ومنها النظريات الخاصة بالعرق البيولوجي[٢١]. ففي مخطوطاته غير المنشورة، ينظر ڤينابلز بعين العالم الهاوي نحو فسيولوجية المصريين الذين تحت إمرته؛ فيصفهم بأنهم «ذوو بنية تشبه العصا، وداكنو البشرة، ولهم لغدّ ثقيل وجمجمة دائرية، يقتربون من ذوي الرؤوس الطويلة، لكنهم أقرب إلى الزنوج»[٢٢]. وهنا يكشف ڤينابلز عن معرفة بعلم مقاييس الجسم البشري ونِسَبه (الأنثروبومترية) الذي يحاول تصنيف التنوع البشري عن طريق مقارنة المقاييس البدنية. ففي بداية القرن العشرين، كان المقياس السائد لتصنيف «السلالات العرقية»[٢٣] هو مؤشر الجمجمة أو الرأس الذي ينتج عن قسمة أقصى عرض الجمجمة على أقصى طول لها، وكما تقول إليس كيه بيرتون (Elise K. Burton) «إن بعض نطاقات مقاييس مؤشر الجمجمة الذي يسمى أحد طرفيه «طويل الرأس» والآخر «عريض الرأس» كانت تستخدم لوصف أنواعٍ عرقية فرعية صارت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمناطق وجنسيات بعينها»[٢٤]. وقد نشر مسؤول طبي بريطاني وصفًا لحملة سيناء–فلسطين، التي ضمت فرقة العمال المصرية والأفارقة السود، تحت اسم مستعار هو «رقيب أول بالفيلق الطبي الملكي البريطاني»، وكان يخدم في أكبر مستشفيات أهل البلاد (المستعمرة) كما كانت تسمى، وقد أتاح له ذلك

---

(٢٠) «فعال فرقة جمال النقل»، جريدة المقطم، ١ أغسطس ١٩١٧.

(٢١) نجد في يومياته المدونة في مارس ١٩١٦ قسمًا مطولًا بعنوان «ملاحظات عن التاريخ الطبيعي»، يصف فيها طيورًا وجمالًا وصفًا بيولوجيًا دقيقًا. انظر:

IWM, EKV 1/2: Venables Diaries (March 28, 1916).

(22) IWM EKV/2: *They Also Served*, 2.

(23) Burton, *Genetic Crossroads*, 32-34

(24) Burton, *Genetic Crossroads*, 36-37.

التعامل المنتظم مع أفراد فرقة العمال المصرية. وتبين طريقته في سرد هذه الخبرات تداخلَ الأفكار المعاصرة الخاصة بالهوية العرقية مع مفاهيم الإمبراطورية والأمة:

> «كان المسؤول الطبي قائد وحدة القنطرة به كل السمات العرقية السائدة التي ضمنت نجاح حكم بريطانيا الشعوب الشرقية أينما رفرف علم الإمبراطورية ... لكن طريقة حكمه المستشفى تكشف صفة أخرى نادرة لكنها بريطانية الجوهر، وهي أنه **يستطيع أن يميز بين رجل أسود وآخر**، وأن يدرك الاختلافات الجوهرية في الشخصية وفي الطابع بين **مختلف الأعراق الملونة**، وينتقي طرائق معاملتهم وفقًا لذلك. وليس للكاتب خبرة بالشعوب الشرقية التي تحت سطوتنا شرق السويس «حيث أحسن الأحوال كأسوئها»؛ لكن خبرتة طويلة نسبيًا بالطبقات الدنيا من المصريين -وهم الأكثر في فرقة العمال المصرية أو فرقة النقل بالجمال وبناءً عليها فإنه يعتقد أن التقدير السليم لصفاتهم العرقية الخاصة يتوقف عليه نجاحنا في حكمهم في وقت الحرب الراهن وفيما بعد[٢٥]. (التوكيد مضاف)

يعتمد هذا المسؤول الطبي في تصويره للعمال المصريين بأنهم «شرقيون» على تراثٍ ثقافي أوروبي غربي يميز بين الذوات الغربية والآخرين الشرقيين[٢٦]، لكن مقابلته بين الصفات **العرقية** للضابط القائد (الأبيض البريطاني) و«الخصائص العرقية المميزة» لأفراد فرقة العمال المصرية؛ تبين إمكانية إعادة صياغة المنطق الثنائي الاستشراقي الذي يميز بين الشرق والغرب وفق الاصطلاحات العرقية السائدة في بداية القرن العشرين. أما المدخل العلمي إلى التصنيف العرقي، الذي يشير إليه المسؤول الطبي هنا بعبارة: قدرة «بريطانية الجوهر على إدراك الفروق الأساسية في الشخصية والطباع بين مختلف الأعراق الملونة» اختُزل تلقائيًا في صيغة أبسط وهي «القدرة على التمييز بين رجل أسود وآخر». وهكذا تختلف الإشارة إلى رجال فرقة العمال المصرية بأنهم من الرجال السود وكونهم فرعًا من «مختلف الأعراق الملونة». لقد استخدم المسؤول الطبي البريطاني خط اللون العالمي الذي يستخدمه نظراؤه بعد إلقاء غلالة من العلم التجريبي عليه، لكن ذلك الخط يتعلق أساسًا بتعريف الذات عن طريق تغريب الآخر، وهي إحدى السمات الشهيرة التي وصف بها إدوارد سعيد الاستشراق.

---

(25) RAMC, *With the RAMC in Egypt*, 293–295.

(26) Said, *Orientalism*, 2.

صُنف أفراد فرقة العمال المصرية عرقيًا مع الأفارقة السود في الصفات التي كان الضباط البيض يستخدمونها للإشارة إليهم. إذ قال فرِد جاريت (Fred Garrett)، أحد جنود الأنزاك (كتائب الجيش الأسترالية والنيوزيلندية)، في يومياته عن المصريين في مدينة غاليبولي أنهم «سامبو داكني البشرة». و«زنوج»، فنقرأ ما كتب في يومياته في الثامن من سبتمبر ١٩١٥ بأسلوبه المختصر: «وصل خمسمئة عامل مصري مدني؛ حثالة قذرة»[٢٧]. وقد اعتاد ڤينابلز كذلك على استخدام هذه النعوت العرقية ومنها اصطلاح «جيبيز Gyppies»[٢٨]. ويوثق الفصل الرابع كتاباته عن فصيلة أخفقت في إتمام مهمتها قبل نهاية اليوم فيقول إن «الأهالي يعملون الآن "كالزنوج"»[٢٩].

ظهرت هذه الكلمة مرة أخرى في رسائل ڤينابلز في موضوع يتعلق بنظام توزيع المهام؛ فحين يصف طريقة السلطات العليا في مراجعة عادته في السماح للرجال بالعودة إلى المعسكر مبكرين إذا أنهوا المهمة الموكولة إليهم في ذلك اليوم، يقول:

> لعل اللواء أو العقيد أو غيرهما لا يفهمون هذا الأمر "استعملهم فهم ليسوا سوى حفنة زنوج؛ كلفهم بالمزيد"، ويحتاج الأمر فطنة لأشرح له أنهم، حتى لو كانوا مجرد "زنوج"، من المستحيل أن أخون ثقتهم. وحتى من وجهة النظر المادية، فالأنفع دائمًا أن نعاملهم معاملة حسنة[٣٠].

فمسألة استعمال العمال سواء أنهوا عملهم مبكرًا أو لم يفعلوا غالبًا ما تستثير استخدام هذه الكلمة تحديدًا، وإن استخدامها لوصف المصريين الذين يخدمون في فرقة العمال المصرية لمثال واضح على قدر تعقد التراتبيات العرقية كما يظهر في التمييز بين المصريين والأفارقة، ومع ذلك تُختزل في خط لون بسيط في عقل ضابط الفرقة البريطاني.

يبين تحليل تمثيلات أفراد فرقة العمال المصرية في كتابات الصحفيين والضباط البريطانيين أن هذه السلطات الوسطى كانت تصنف المصريين عرقيًا زمن الحرب. ويشبه هذا في بعض جوانبه رؤية السلطات البريطانية والفرنسية للعمال من كل أرجاء العالم زمن الحرب العالمية الأولى[٣١]. فقد كان المصريون ضمن «فرقة العمال

---

(27) "Fred Garrett's War Diary," Grant's Militaria, accessed September 2017, http://www.grantsmilitaria.com/garrett/html/aug1915.htm.

(28) IWM, EKV 3/2: Deir-el-Belah (September 12, 1917), 15.

[يقصد المصريين، وفي الكلمة إشارة إلى الغجر. -المترجمان]

(29) IWM, EKV 3/2: Deir-el-Belah (September 12, 1917), 15.

(30) IWM, EKV 3/2: Deir-el-Belah (September 12, 1917), 16-17.

(31) "Army of Labour," *Times of London*, December 27, 1917.

الملونين» ويصنَّفون مع «جنس الزنوج» وينعتون بنعوت عرقية مسيئة. لكن التصنيف العرقي للمصريين كان كذلك قائمًا على تقاليد الاستشراق والتصنيف العرقي للمسلمين. فقد كان لجنس المصريين مجموعة معقدة من الإيحاءات في عقول الضباط البريطانيين أمثال ڤينابلز. ولهذه المجموعة من الأفكار أثرها على سياسة معاملة الرجال في المعسكر.

الفصل في فرنسا

تأثرت الحياة في المعسكرات بتصورات الضباط العرقية حين طبعوا أنفسهم على الحيز المكاني الملموس. فقد اقتضت ظروف الحرب الإمبريالية توزيع الرجال والمواد فيما يشبه الدورة على الجبهة الغربية وأرجاء المعمورة بسرعة لم تنفك تزداد. لكن منطق العنصرية الاستعمارية عمِل دائمًا على فصل الآخرين المصنفين عرقيًا وتطويقهم وإخضاعهم. فمعسكرات فرق العمال في فرنسا نموذج مصغر يتجلى فيه أثر الأفكار العنصرية في التغير المكاني زمن الحرب.

ففي فرنسا فُصِلت ما كانت تسمى بفرق العمال الملونين على أساس العرق. واتخذت السلطات الفرنسية والإنجليزية الإجراءات التي تضمن فصل أفرادها بعضها عن بعض وعن الفرنسيين وعن أسرى الحرب(٣٢). وتبين خريطةٌ في سجلات المحفوظات الفرنسية أن ذلك الفصل تقرر حين كان يجري إنشاء معسكر لفرقة العمال الصينيين في مدينة شيربورغ (Cherbourg) الساحلية الفرنسية، حيث وضعت السلطات الفرنسية تصورًا للبنية التحتية اللوجستية لفرض الفصل، فشقت طريقًا بين المعسكر الصيني والسكان المحليين الفرنسيين وقناة ماء بين الصينيين والجنود والأسرى البيض(٣٣). وربما تصلح البنية التحتية اللوجستية أحيانًا لتجسيد مفارقة تدوير السلع والمواد، وفي الوقت نفسه تطويق الآخرين المصنفين عرقيًا والحفاظ على الفصل. وهنا فإن إنتاج الفضاء أو الحيز المكاني في شيربورغ زمن الحرب يشبه نسقًا نشأ في مدن كثيرة في الولايات المتحدة في القرن العشرين؛ حيث «كانت الطرق الداخلية والسريعة تستخدم كحواجز وحدود لوقف انتشار جماعات السود في مناطق معينة» كما يقول رونالدو بايور(٣٤).

---

(32) Stovall, "Color Line."

(33) Archives Nationales, Pierrefitte-sur-Seine Guerre de 1914-1918 14/11331: Installation du camp.

(34) Bayor, *Race*, 58.

إن أوضح طريقة لتمثيل فصل فرقة العمال المصرية عرقيًا في فرنسا هو مقارنتها بموقف العمال المهاجرين البيض. فقد زاد الطلب على العمال في فرنسا باطّراد من ١٩١٦ إلى ١٩١٨ فعملت السلطات العسكرية على ترشيد وتقنين إمدادات العمال بفرض ضوابط أشد على العمالة الأجنبية المهاجرة. لم تكن هذه السياسات تفرّق نظريًا بين البيض وغيرهم، أما في أرض الواقع فكان من السهل على الإسبان والبرتغاليين واليونانيين تفادي هذه الضوابط في أغلب الأحوال[٣٥]. فالإسبان مثلًا -الذين شكّلوا سبعين في المائة من العمالة الأوروبية المهاجرة في فرنسا زمن الحرب دخل غالبهم إلى البلاد دخولًا غير شرعي، فإذا دخلوا سهل عليهم تفادي الضوابط الموضوعة لمنع العمالة المهاجرة من تغيير أعمالهم بحثًا عن أعمال أعلى أجرًا[٣٦].

أما فرقة العمال الملونين فكانت تخضع لتنظيم صارم وتقسَّم حسب الجنسية، وتقوم السلطات العسكرية على ترتيبات نقلهم وتسكينهم وإطعامهم[٣٧]. ولم تكن فرقة العمال المصرية باستثناء من هذا. فقد وُضِعت في فرنسا في قطاع منفصل، ووُزِّع كل فرد حسب بلده وعرقه وانتمائه المحلي[٣٨]. وكان المجندون أبناء القرى الواحدة أو المتجاورة يُجمعون معًا، ويسافرون ويخدمون معًا. وقد سوَّغ تقرير وزارة الحرب البريطانية بشأن العمال المصريين في فرنسا هذه السياسة التي تتبع خطوطًا شبه عنصرية، فيقول إن «كل من يعرف أهالي البلاد سيفهم على الفور أهمية هذا لهؤلاء الرجال، ولا سيما من ينزعون إلى الشعور "بالغربة"»[٣٩]. كانت هذه المعرفة المفترضة «بالأهالي»، المستمدة من المباحث «العلمية» الناشئة مثل تجارب أونوفريو أباتي، هي ما يرشد قرار العسكريين في جمع المصريين من نفس القرى والمراكز معًا.

كان الحرص شديدًا في فرنسا على فصل الضباط البريطانيين البيض عن العمال المصريين، الذين كانوا ينامون معًا في خيمةٍ كبيرة، ويعطى كلُ واحد لوحًا خشبيًا وثلاث بطانيات لزوم النوم. ولم تختلف ظروف البريطانيين عن ذلك لكنهم كانوا في معسكرات منفصلة. فمثلًا، تشمل يوميات وليام سانت ليجر (William St. Leger) قصةً منقولة عن رجل قضى ليلةً في معسكر فرقة العمال المصرية في بولون مع عشرين جنديًا بريطانيًا

---

(35) Stovall, "Color Line," 744.

(36) Horne, "Immigrant Workers," 7.

(37) Stovall, "Color Line," 744.

(٣٨) كان فيلق العمال الأصليين من جنوب أفريقيا مقسَّمًا إلى «قبائل». انظر:

TNA, WO 107/37: "Report on British Labour" (November 14, 1919).

(39) TNA, WO 107/37: "Report on British Labour" (November 14, 1919), 31.

بصوت مخيف: «اكتب!»، ويُرغَم على التوقيع، ثم يُدفَع إلى الناحية الأخرى وسط صيحات الابتهاج من بقية الأنفار.(٧٩)

تبين هذه النتفة المسرحية، بما فيها الكلمات العامية المصرية التي أسيء نقحرتها، أن رجال الفرقة المصرية صوَّروا ضباط التجنيد البريطانيين تصويرًا ساخرًا أمامهم. كما تُبين أن مجنَّدي فرقة العمال المصرية كانوا يتجمعون لمشاهدة العرض. ولم يعتبروا أن عقودهم عقود اتفاق، أو على الأقل كانوا يدركون أن هذا شعور كثير من زملائهم. وتبين «صيحات الابتهاج» من الجمهور أن قصة التجنيد الإجباري كانت منتشرة. وكان رجال فرقة العمال المصرية واعين بالعنف المتضمَّن في إدماج كثير منهم في هذا التنظيم، وإن حاولت الدعاية البريطانية أن تصورهم «متطوعين». وقد استخدموا مسرحهم وسيلةً للتعبير عن هذا الوعي بعضهم لبعض وللضباط الذين سجلوا الحدث.

الخلاصة

استحضر هذا الفصل أصوات رجال فرقة العمال المصرية التي أُطلِقت في المعسكر، بهدف استراق السمع على حياتهم في الحرب. لم يترك عمال الفرقة المصرية للمؤرخين سوى القليل من المصادر المكتوبة، خلافًا للضباط والصحفيين البيض الذين كانوا يراقبونهم. وليس لدينا اليوم سوى نتف من كلامهم وموسيقاهم ومسرحهم. ولم يحسن تسجيلَ هذه الآثار مراقبوهم الذين كانوا يشعرون بالاغتراب، لأن رجال الفرقة كانوا مهيمنين على المشهد الصوتي في المعسكرات. لكننا إن قرأنا المشهد قراءة مخالفة للقراءة السائدة؛ لاستخلصنا منها عدة أفكار كاشفة لحياة هؤلاء الرجال ووقائع خدمتهم.

لقد أعان المشهد الصوتي الرجال على التأقلم مع ظروف الحرب. فقد كانت الأغاني والأناشيد تعينهم على العمل وتسمح لهم بإظهار شيء من الإبداع رغم رتابة مهامهم. فالأصوات التي كانوا يسمعونها ويصدرونها كانت تنقلهم إلى مكان آخر ولو في عقولهم. كان للأصوات قدرات خارقة تربطهم بحالة روحية، سواء كانوا يعملون وهم يرددون اسم الله، أو كانوا في حلقة ذكر صوفية. لقد استفز شيوع الذكر الضباطَ البريطانيين والإصلاحيين الدينيين في مصر، لكن ذلك لم يمنع رجال فرقة العمال المصرية من إقامتها. ذلك أن حلقات الذكر كانت تُكسِب المكان الغريب ألفة، وكانت تساعد الرجال على تجاوز المساحات التي أُجبروا على الوجود فيها وتنقلهم إلى مكان آخر، ولو في عقولهم.

---

(79) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/100: Curtis (June 1, 1918).

لقد أتاحت الأصوات أيضا أساسًا لتكوين علاقات جديدة بين الرجال. فقد كانوا يتسامرون في نطاق موضوعات يبدأ من العادية وحتى السياسية. وتعاونوا على تقديم عروض مسرحية وأغنيات تعتمد على الحوار والارتجال. وبرز قادة الرجال اعتمادًا على مواهبهم الصوتية. فأغنية مثل «كم ليلة كم يوم» تعتمد على المغني في إبداع الكلمات واللعب بها ليُكسبها جاذبية. وكانت الطقوس الدينية، ومنها الصلاة والجنائز والذكر الصوفي، تحتاج كلها إلى قادةٍ لهم مواهب صوتية. وربما تعرفنا الأبحاث المستقبلية إن كان هؤلاء هم قادة هذه الأنشطة كلها، ونوع السلطة التي كانوا يملكونها داخل المعسكر. وهكذا يمكن أن تساعدنا دراسة الصوت على تفكيك ثنائية العلماني والديني[٨٠].

وقد استخدم رجال فرقة العمال المصرية الصوت للتعارف فيما بينهم وإنشاء علاقات بضباطهم. فقد كان الضباط البيض يشعرون بالاغتراب في المعسكرات التي صار رجال فرقة العمال يهيمنون عليها. لكن اتجاههم كان يتغير أحيانًا. إذ كان الرجال يمزحون لإنشاء صلةٍ طيبة بضباطهم من خلال الأغاني والعروض المسرحية التي كانت تستهدفهم ضمن من تستهدف. وكان إنشاء أفراد الفرقة باختلاف درجاتهم صلة مباشرة بالضباط خطوةً ذكية في سياق تراتبية العسكرية جعلت «الرؤساء» وسيطًا بينهم. فهذه العلاقة مفيدة للرجال حين يريدون الاعتراض على قرارات رؤسائهم أو طلب تحسينات في ظروف العمل؛ كما فعلوا في أغنية «كم ليلة كم يوم»، وهو ما يُسبغ على التعبيرات الصوتية عن احترام الضباط مسحةً من السخرية، لأن الغرض من إظهار هذه الدرجة من التوقير هو الحصول على مكاسب معينة. فقد أدرك رجال فرقة العمال، أكثر مما أدرك الضباط البريطانيون أنفسهم، أن أحوالهم في المعسكر مرهونة بمزاج بعض الأفراد. لقد كانت الإمبراطورية البريطانية تدَّعي أنها تعمل وفق حكم القانون وشروط التعاقد، لكن العمال أدركوا أن العنف و«واجبات النبالة»، هما القوتان الحقيقيتان اللتان تشكلان حياتهم اليومية.

---

(80) Hirschkind, *Ethical Soundscape*.

[٧]

رجال الفرقة يتحركون

بدأ رجال الفرقة يشعرون بالألفة فيما بينهم أثناء الحرب. فاتخذ حديثهم منحىً سياسيًا وصارت أغانيهم صريحة المغزى. كانوا أغلب الوقت يُشفون غليلهم بأفعال بسيطة كهذه، ولكنهم أحيانًا كانوا ينظِّمون احتجاجات ضخمة وإضرابات وتمردات. ففي فرنسا، على سبيل المثال، كان العمال المصريون من أكثر العمال الأجانب عِندًا وأقلهم طاعة للأوامر من بين كل من أوتي بهم إلى الحرب. وقد تمردوا على الضباط مرات عديدة؛ حتى اضطر القادة العسكريون هناك أن ينقلوهم في أواخر عام ١٩١٧. قد نرى هذا النوع من النشاط السياسي حاضرًا بدرجات متفاوتة في شتى مشاهد الحروب، سواء في موانئ لِمنُس وإمفرُس وتارانتو، أو صحاري سيناء وسيوة الحارة، أو تلال فلسطين الصخرية الوعرة، أو مستنقعات شمال البصرة وأحراشها.

يحلل هذا الفصلُ ظهورَ هوية جمعية بين رجال فرقة العمال المصرية. تلك العملية التي تهدم الحواجز بين الأفراد وتبنى تصورًا جديدًا عن الذات السياسية هي الشرط اللازم لبدء التحرك المنظم. وعلى أي ذات جمعية تعريفُ نفسها قبل وضع مسار عمل واتباعه. إن هذا النوع من الشعور بالهوية يختلف عما يكون بين العمال من روح الألفة إثر عملهم سويًا. وإن وظيفة ما تسميه هنًّا آرنت «تجربة العمل سويًا كالجسد الواحد» -التي تظهر، مثلًا، في ذلك الشعور الروحاني بالطرب أثناء غناء أغاني العمل تعمل على «تهوين مشقة الأشغال وتعبها كما يهوِّن السير سويًا إرهاقَ المشي على الجنود»[١]. ولكن ذلك يختلف عن نوع الهوية التي يتطلبها التحرك السياسي، فهذه الهوية ليست نتيجة تلاقي «مجموعة من الكائنات التي تتماثل في شيء أساسي بها، أي أن محور تشابههم يأتي من كونهم كلهم نفس الكائنات الحية»[٢] -كالتشابه بين أبناء العرق الواحد - وإنما بين مجموعة من البشر «جميعهم مختلفون وغير متساويين»[٣]. إذن فالهوية الجمعية، هي ما تجمع بين الأفراد المختلفين، وتدفعهم إلى تجاوز اختلافهم حتى يتمكنوا من التحرك معًا.

---

(1) Arendt, *Human Condition*, 214.

(2) Arendt, *Human Condition*, 212.

(3) Arendt, *Human Condition*, 215.

لم يكن أغلب رجال الفرقة قد سافروا خارج قراهم، ناهيك عن خارج مصر، قبل التحاقهم بها. فكان عادة أكبر انتماء لهم قبل الحرب هو انتمائهم إلى مجتمعهم الصغير في ديارهم. فعلى سبيل المثال، يقول العامل عبد الحميد محمد حسين في مذكراته المنشورة إنه «ابن الخارطة الجديدة في حي الإمام الشافعي»[٤]. قد يكون الانتساب للوطن بمجاز البنوة أسلوبًا معتادًا، لكن له مغزى خاصًا هنا لأن عبد الحميد ينسب نفسه لحي بعينه. وهذا المكان بالأخص يتوسط مجموعة من البقع المباركة من أهمها ضريح الإمام الشافعي القريب من قلوب المصريين ولا سيما من يسكنون بجواره.

لقد رسَّخت سياسات الإنجليز العسكرية في بادئ الأمر هوية عبد الحميد وغيره ممن كان انتماؤهم الأول إلى قريتهم. أوجب ذلك «أن يُضم كل من كان من نفس القرية إلى فريقٍ واحد تحت إمرة كبيرهم نفسه»[٥]. ويؤكد ڤينابلز ذلك قائلًا: «إن المصريين يُستدعون في فرقٍ من خمسين رجلًا، كل من بها من البلد نفسه، وكل خلة عليها «ريِّس» يكون عادة رجلًا ذا شأن في تلك «البلد»[٦]. كان رجال القرية أو المديرية الواحدة يوضعون منذ لحظة ضمهم إلى الفرقة في جماعات من عشرات أو مئات. كانوا يسافرون معًا في القطار إلى مستودعات الإمداد والتموين، وقد ركب المتجهون إلى الجبهة الغربية في إيطاليا والدردنيل في سفينة واحدة[٧]. كانت الكتيبة المتوسطة المكونة من خمسمئة إلى ألف رجل، تنقسم إلى جماعات أو «فصائل» من مختلف بقاع مصر، كل جماعة منها تجند وتجهّز وتسافر معًا، وما إن عمل هؤلاء الرجال معًا حتى حل انتماؤهم إلى تلك الكتيبة أو الفصيلة، التي كانت تعطى رقمًا خاصًا، محل هوياتهم الأصلية. يقول ڤينابلز إن السرية التاسعة والثلاثين، التي انضم إليها في عام ١٩١٨، كانت «وحدةً ذات وعي بهويتها»[٨]. حتى إنه استعمل التعبيرات العامية المصرية ليوضح كيف تحدَّث الرجال تحت إمرته عن هذا الانتماء الجديد: «كان "لتسعة وتلاتين" صدىً مختلف، وعُرفت الفصيلة رقم (8) بفصيلة الأسطوات»[٩]. وكما ذكرنا في الفصل السادس، تزيد نتف العامية المصرية هذه من مصداقية ما يقوله ڤينابلز[١٠]. لا شك أن

---

[٤] سمير عزت، صفحات من مذكرات شيخ مجهول، روز اليوسف، مارس ١٩٦٨.

[5] TNA, WO 107/37: "Report on British Labour" (November 14, 1919), 31.

[6] IWM, EKV 3/1: Sinai (September 3, 1917), 4.

[7] TNA, FO 141/797/2 No. 2689: General Staff Army HQ (July 23, 1915).

[8] IWM, EKV/2: *They Also Served*, 42.

[9] IWM, EKV/2: *They Also Served*, 40.

[10] Clément, "À La Recherche."

شعورًا بالتضامن والترابط قد نشأ بين ضباط الفرقة الإنجليز، وتؤكد ذلك صفحات الجريدة الدورية التي كانت دائمًا بين أيديهم، **أخبار فرقة العمال المصرية**، ويصرح بذلك مقالٌ في العدد الثاني إذ يقول: «لقد بسطت فرقة العمال المصرية أيديها حتى غطت جزءًا كبيرًا من الخريطة، ونرجو أن تُسهم هذه الجريدة في ترسيخ مشاعر التضامن وتوافق الاهتمام والوئام»[١١].

كان يوم العمل المعتاد به ما يكفي من فرص التنافس بين العمال؛ مما شجَّع على تشكل هويات جماعية وأخرى متفرعة عنها. كتب ڤينابلز عن هذه المنافسات الصغيرة في رسائله إلى أسرته قائلًا: «عادة ما نجد عددًا من الرجال يعملون معًا، وتتنافس هذه المجموعات الصغيرة فيما بينها، بينما تتنافس المجموعات الكبيرة فيما بينها أيضًا في أيهم ينهي العمل أولًا»[١٢]. حين انتقل الرجال إلى فلسطين، كان عملهم حفر حفرٍ كبيرة في الأرض لبناء طرق ممهدة على الأرض الصخرية، تصلح لتمر عليها المركبات. في هذه المهمة حكى ڤينابلز عن «مسابقة أو اثنتين للحفر، نتج عنهما تنافس مثير، ولم تكن السجائر وحدها هي الجائزة المغرية، وإنما التنافس على لقب بطلي الكتيبة»[١٣]. تحول التنافس إلى عمل، وصارت قوة كل ضربة مطرقة على صخور التل، وكل حمولة ردم نقلتها كتفا رجل؛ رسالةً موجهة إلى من حوله عن أهمية دوره في المجموعة، وعن قراره أن يلتزم بالمعايير التي وضعها الضباط.

حمل الرجال روح المنافسة هذه معهم خارج نطاق العمل. فيقول ڤينابلز إن الفصيلة إذا انتهت من عملها ...

> كان يُسمح لهم أن يعودوا إلى معسكرهم وهم يغنون بطربٍ ليظهروا أنهم أمهر العمال، ولا يخلو حديثهم من بعض التعليقات الساخرة من أهل الحضر من العمال، ناعتين إياهم ... بشتى الألفاظ المهينة هم ومن كشفوا عن ضعفٍ في الجسد أوقلةٍ في الهمة، فنُقلوا، إن أمكن، إلى عمل يصلح لهم[١٤].

كان رجال فرقة العمال المصرية مكلفين بالعمل الشاق الجاد وبإتمام المهام، فكان من يُتم عمله أولًا يستخدم الغناء والكلام وسيلةً للتعبير عن الفخر والتميز عن غيره في المجموعة. صار الكلام في هذه الحالة فعلًا أيضًا، يرمز إلى الانتماء إلى جماعة

---

(11) "Our Little Say," *ELC News*, January 30, 1919.

(12) IWM, EKV 3/2: Deir-el-Belah (September 12, 1917), 20.

(13) IWM EKV 3/10: Ephraim (June 2, 1918), 101.

(14) IWM, EKV/2: *They Also Served*, 8.

شعورًا بالتضامن والترابط قد نشأ بين ضباط الفرقة الإنجليز، وتؤكد ذلك صفحات الجريدة الدورية التي كانت دائمًا بين أيديهم، **أخبار فرقة العمال المصرية**، ويصرح بذلك مقالٌ في العدد الثاني إذ يقول: «لقد بسطت فرقة العمال المصرية أيديها حتى غطت جزءًا كبيرًا من الخريطة، ونرجو أن تُسهم هذه الجريدة في ترسيخ مشاعر التضامن وتوافق الاهتمام والوئام»(١١).

كان يوم العمل المعتاد به ما يكفي من فرص التنافس بين العمال؛ مما شجَّع على تشكل هويات جماعية وأخرى متفرعة عنها. كتب ڤينابلز عن هذه المنافسات الصغيرة في رسائله إلى أسرته قائلًا: «عادة ما نجد عددًا من الرجال يعملون معًا، وتتنافس هذه المجموعات الصغيرة فيما بينها، بينما تتنافس المجموعات الكبيرة فيما بينها أيضًا في أيهم ينهي العمل أولًا»(١٢). حين انتقل الرجال إلى فلسطين، كان عملهم حفر حفرٍ كبيرة في الأرض لبناء طرق ممهدة على الأرض الصخرية، تصلح لتمر عليها المركبات. في هذه المهمة حكى ڤينابلز عن «مسابقة أو اثنتين للحفر، نتج عنهما تنافس مثير، ولم تكن السجائر وحدها هي الجائزة المغرية، وإنما التنافس على لقب بطلَي الكتيبة»(١٣). تحول التنافس إلى عمل، وصارت قوة كل ضربة مطرقة على صخور التل، وكل حمولة ردم نقلتها كتفا رجل؛ رسالةً موجهة إلى من حوله عن أهمية دوره في المجموعة، وعن قراره أن يلتزم بالمعايير التي وضعها الضباط.

حمل الرجال روح المنافسة هذه معهم خارج نطاق العمل. فيقول ڤينابلز إن الفصيلة إذا انتهت من عملها ...

> كان يُسمح لهم أن يعودوا إلى معسكرهم وهم يغنون بطربٍ ليظهروا أنهم أمهر العمال، ولا يخلو حديثهم من بعض التعليقات الساخرة من أهل الحضر من العمال، ناعتين إياهم ... بشتى الألفاظ المهينة هم ومن كشفوا عن ضعفٍ في الجسد أوقلةٍ في الهمة، فنُقلوا، إن أمكن، إلى عمل يصلح لهم(١٤).

كان رجال فرقة العمال المصرية مكلفين بالعمل الشاق الجاد وبإتمام المهام، فكان من يُتم عمله أولًا يستخدم الغناء والكلام وسيلةً للتعبير عن الفخر والتميز عن غيره في المجموعة. صار الكلام في هذه الحالة فعلًا أيضًا، يرمز إلى الانتماء إلى جماعة

---

(11) "Our Little Say," *ELC News*, January 30, 1919.

(12) IWM, EKV 3/2: Deir-el-Belah (September 12, 1917), 20.

(13) IWM EKV 3/10: Ephraim (June 2, 1918), 101.

(14) IWM, EKV/2: *They Also Served*, 8.

يُحظر على غيرهم دخولها. وكان من يتأخر في عمله يوصف بضعف الجسد وقلة الهمة، وأحيانًا كانوا يُنقلون إلى أنواعٍ أخرى من العمل.

أما في منطقة قناة السويس، فنُظِّمت مسابقات رياضية للحفاظ على روح التنافس بين الفصائل. فذكرت **أخبار فرقة العمال المصرية** أن حشدًا كبيرًا من المشاهدين، بينهم ضباط في البحرية ومدنيون، اجتمعوا في بورسعيد ليلة رأس السنة لعام ١٩١٩، ليشاهدوا مباراة ملاكمة في معسكر فرقة العمال القريب. وتعقَّب المقالة: «عُقدت عدة مباريات شيقة بين أنفار فرقة العمال، وقد أبدوا عزيمة وشجاعة رائعتين ومهارة "ليست بالقليلة"»[١٥]. وفي المناسبة نفسها: «كانت مباريات شد الحبل ممتعة جدًا، تابعها الأنفار بتشوق شديد حتى أنهم أحيانًا كانوا يُمنعون بصعوبة من التدخل في المباراة ليساعدوا أبطالهم إذا اقتربت هزيمتهم»[١٦]. أتاحت تلك المسابقات الرياضية المنظمة المجال لينشأ تنافس بين المجموعات وبعضها، وبين أفراد المجموعة الواحدة، أدى ذلك إلى تبلور هويات جمعية بين رجال فرقة العمال. وشعر الرجال بشيء من التماثل بينهم سواءً في التعامل أو في التنافس.

أظهرت مسابقات العمل والترفيه على نحو استثنائي، وما تبعها من سخرية من الخاسرين «لضعف أجسادهم»، ملامحَ ثقافة ذكورية بين رجال فرقة العمال المصرية، تحبذ القوة الجسدية وطول النفس والتفاني في العمل. ولا تختلف هذه كثيرًا عن ثقافة التنافس الذكوري التي ظهرت بين رجال الطبقة الوسطى الصاعدة في مصر بعد الحرب[١٧]. إذ تروي جريدة **المقطم** في مقال يحتفي بإنجازات الرجال الشجعان في الحرب، قصةً تُظهر هذه الأعراف الثقافية بشكل صريح. وهي قصة جماعة من سيَّاس فرقة النقل بالجمال في فلسطين، «استتروا فلاذوا بالفرار» هاربين من مخاطر الحرب. ويذكر المقال أنهم عُيِّروا بقلة رجولتهم: «زملاؤهم عيَّروهم لفرارهم، قائلين إنهم "بنات" لا يصلحون لمزاملة "الرجال"»[١٨]. وإن كانت مقالات **المقطم** مصممة في الأصل لتكون آلةً إعلامية تدعم البريطانيين في الحرب، فإن كانت تلك الرواية صحيحة فذلك، كما رأينا من قبل، دليل على مدى أهمية الرجولة في معالم الهوية الجمعية الجديدة التي بدأت تظهر بين رجال فرقة العمال المصرية.

---

(15) "Port Said," *ELC News*, January 30, 1919.

(16) "Port Said," ELC News, January 30, 1919.

(17) Jacob, *Working Out Egypt*.

(١٨) «فعال فرقة جمال النقل»، جريدة المقطم، ١ أغسطس ١٩١٧.

ميز رجال الفرقة المصرية أنفسهم حتى عن أهل المناطق الأخرى من العرب تمييزًا عميقًا حين كانوا يعملون بالعراق وفلسطين وسيناء. ولنرى كيف كانوا ينظرون إلى أهل البلاد الأخرى في الشرق الأوسط، سنلقي نظرة على كتاب مسؤول طبي بريطاني وصف سكان العريش، وهم أربعة آلاف تقريبًا، بأنهم «جماعة من المنبطحين البؤساء الفقراء»[١٩]. وعندما دخلت قوات التجريدة المصرية البلدة، بدأوا في حملة تطهير فورية؛ مروا على كل بيت ومعهم طبيب مصري يترجم لهم، ثم أخذوا «ينظفون كل جزء في كل بيت ويرشون المطهرات، ويبحثون في الأرجاء حتى جمعوا القمامة كلها وألقوها في أقرب مستوقد»[٢٠]. وعمل رجال الفرقة المصرية في قطاعات النظافة تلك، وأرسلوا ليجمعوا القمامة، كما ذكر، في العريش وغيرها من القرى التي سكنتها قوات التجريدة المصرية أثناء رحلتها عبر سيناء إلى فلسطين[٢١].

بالإضافة إلى أعمال النظافة، تدرب بعض رجال فرقة العمال المصرية ليكونوا أفراد شرطة في فريقٍ بلغ عدده ألف رجل يحرسون المعسكرات على خطوط الإمداد والاتصال جنوبي فلسطين[٢٢]. وفي العراق، كان من المصريين شرطة «تحفظ النظام والأمن العام في بغداد»[٢٣]. كانت العلاقة بين رجال الفرقة المصرية وأهل البلد آنذاك يحكمها نمطٌ مختلف من آليات القوى في الشرق الأوسط، فكانت لهم مساحة أوسع من حرية الحركة مقارنةً بنظائرهم في فرنسا، ولم يكلَّفوا بأدنى المهام وأكثرها تهميشًا في المعسكر؛ إذ كانت تلك المهام مخصصة «لأهل البلد من العرب». كان ذلك جليًّا في التعامل اليومي بين قطاعات النظافة المصرية وجامعي القمامة وأفراد الشرطة.

وفي حين امتاز رجال الفرقة المصرية عن أهل البلد بكونهم أفرادًا في قوات التجريدة المصرية، فقد انسجموا مع أهل سيناء وفلسطين بطرق شتى. يقول ڤينابلز إن الرجال تحت إمرته كانوا «يحبون التمشية في أرجاء هذا البلد الجديد، ولو أنها ليست كسهول مصر الطينية في خصوبتها وخضرتها، فهي على الأقل أفضل من الصحراء»[٢٤]. فبعد أن يتقاضى الرجال أجورهم يذهبون إلى الأسواق ليتبضعوا ويتزودوا، مما يتيح لهم فرصةً أوسع للتعامل مع الفلسطينيين في قراهم. وكذلك أتاحت المعسكرات التي سكنها

---

(19) RAMC, *With the RAMC*, 141.

(20) RAMC, *With the RAMC*, 141.

(21) RAMC, *With the RAMC*, 280.

(22) Murray, *Murray's Despatches*, 210.

(٢٣) «فرقة العمال»، جريدة المقطم، ١٧ سبتمبر ١٩١٧.

(24) IWM, EKV 3/6: Judaea (December 5, 1917), 60–61.

رجال الفرقة فرصًا للتعامل بين المصريين والفلسطينيين. إذ يذكر ڤينابلز أن أهل البلد «الذين كانوا ينزلون من التلال» كانوا حاضرين طوال الوقت في معسكرات الفرقة، وكثيرًا ما كانوا يأتون بفاكهة اشتروها ليبيعوها للضباط الإنجليز بسعر أعلى[٢٥]. وكانت الرياضة أيضًا مساحة لاختلاطهم، إذ تذكر **أخبار فرقة العمال المصرية**، على سبيل المثال، سباقَ جري لمسافة ميلين جرى في القنطرة. ومن شدة سرعة الفائز، أرسل إليه القائد وطلب منه أن يكون مراسلَ الكتيبة، ولكنه أجابه بأنه فلسطيني من بلدة قريبة، فلا يحق له ذلك[٢٦]. لكن سرعان ما بدأ البريطانيون يجندون «عمالًا مؤقتين» من بين أهل البلد يساعدونهم في الأعمال اللوجيستية التي تلزم الجيش. وذكر المندوب السامي البريطاني في مصر آنذاك أن الإحصائيات الرسمية للعمال في فلسطين كانت تضم: «[عمالًا مؤقتين في العدد الإجمالي للمسجلين في التجريدة المصرية] ويمثل هذا نسبة أكبر كثيرًا من الإجمالي عن العام السابق، وكان الإجمالي نفسه أعلى كثيرًا»[٢٧]. لم يسجل الجيش البريطاني إحصائيات عن أعداد العمال المؤقتين من فلسطين، لكنهم أكدوا أن الأعداد كانت تزيد مع استمرار الحرب.

كان الكلام من أهم الطرق التي تعامَل بها رجال الفرقة المصرية مع أهل البلاد من حولهم في الشرق الأوسط إبان الحرب. وقد عرف الضباط مثل ڤينابلز الفرق بين العربية المصرية التي ينطق بها رجال الفرقة والعربية الشامية التي ينطق بها الفلسطينيون، وبينما عدل البريطانيون ما ينطقون من بسيط الكلام ليوافق اللسان الشامي، كان المصريون، على حد قول ڤينابلز «يطلقون لسانهم المصري الخشن على الفلسطينيين بكل بساطة»[٢٨]. ولكن مع ذلك لم يستعصِ على الفلسطينيين «فهمهم والرد عليهم بلسانهم الأرق والألطف»[٢٩]. وعندما كان الرجال معسكرين في مصر ينتظرون ترحيلهم أو يساعدون في بناء التحصينات لمستودع الإمداد والتموين الخاص بحملة البحر المتوسط في الإسكندرية، كانوا يتحدثون مع من حولهم. فيروي ڤينابلز حدثًا جرى في مستودع الحضرة على أطراف الإسكندرية، حيث أدى اعتياد رجاله فتح حديث مع أهل البلد إلى مشاكل مع الشرطة[٣٠]:

---

(25) IWM, EKV 3/9: K22 (April 24, 1918), 94.

(26) *ELC News*, January 15, 1919.

(27) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/142: Wingate (September 15, 1918).

(28) IWM, EKV 3/6: Judaea (December 5, 1917), 60–61.

(29) IWM, EKV 3/6: Judaea (December 5, 1917), 60–61.

(٣٠) الإشارة إلى أن بطل القصة «سوداني»، ثم الإشارة إلى «أبناء بلده»، توحي بأن العمال الذين ضربوا الشرطي السكندري سودانيون. وربما سبب هذا ارتباكًا للقارئ. ولعل ڤينابلز هنا يستخدم كلمة سوداني للإشارة إلى لون البشرة فحسب. (المترجمان)

> كان لبوابنا السوداني صديقة تسكن بالقرب من مقرّنا، كان يتحدث معها ذات مساء، فإذا بشرطي راكب من قسم الشرطة المقابل يتقدم نحوه راكبًا حصانه ليعترض على فعله، فما كان من السوداني إلا أن سبه مستهزئًا، ونادى بلهجته، فما لبث أن حضر عدد كبير من أهل بلده، وإذا بهم يطرحون الإسكندراني المتطفل أرضًا من فوق حصانه، ويجتمعون حوله كما يجتمع لاعبو الرجبي الضخام على الكرة. أسرع ملازم الشرطة المصري إلى كوخ القش الذي نأكل فيه صائحًا أن شرطيه يُقتَل. أسكتهم صياحي فيهم على الفور، وعلمتُ ما حدث حين رأيت عدد السودانيين الحاضرين[٣١].

استعمل رجال الفرقة الكلام أيضًا في مغازلة نساء البلدان التي يعملون بها. لكن بعض الثرثرة قد يخرج أحيانًا عن السيطرة ويُحدث المصائب. ففي هذه القصة، تحدث عامل مع امرأة فلمحهما أحد رجال الشرطة المحليين، فاتخذها فرصة «ليعترض على فعله». ولربما شجعه حق احتكار القوة الذي يفترض أن يتمتع به رجال الشرطة دون غيرهم، لكن ما لم يلحظه أن القوة الحقيقية هنا في صف فرقة العمال، فعندهم فضل العدد، «وإذا بهم يطرحونه أرضًا من فوق حصانه ويجتمعون حوله كما يجتمع لاعبو الرجبي الضخام على الكرة»، ومن الواضح أن الملازم لم يستطع فض اشتباك العمال وحده فاستعان بضباط الفرقة. فأنقذه ڤينابلز بالكلام أيضًا، «بصياحه فيهم» الذي «أسكتهم على الفور». ويكمل ڤينابلز قصته أنه تعاون مع الشرطة «وألقي القبض على كل من شارك وأرسلوا إلى مقر شرطة الحي»[٣٢].

يسلِّط هذا الحدث الضوء على عملية تكوُّن الهوية الجمعية في معسكرات فرقة العمال المصرية. فقد وصف ڤينابلز الرجل الذي بدأ المشكلة بأنه «سوداني» مركزًا على عرقه. وأضاف إلى ذلك أن من أتوا لعونه سودانيون مثله، لعل ذلك يعطي شيئًا من المصداقية لفكرة أن علاقة الإنسان ببلده قبل الحرب ظلت راسخة في نفوس الرجال الذين يؤدون خدمتهم. ولكن مجرد فكرة حضور رجل الشرطة المعترض أظهرت في الرجال كل ذلك التضامن، ويبين هذا كيف يرسِّخ التعاملُ مع أهل البلد الهويات الموجودة مسبقًا وشعور الهوية الجديد الذي بدأ يظهر على مستوى الفصيلة والسرية نتيجة المرور بتجارب الحرب معًا. فلَكَ أن تتخيل المحادثات الشيقة التي جرت بين رجال الفرقة في قفص الحجز بقسم الشرطة بعد العراك. وأخيرًا، تُظهر لنا هذه القصة كيف يمكن أن

[31] IWM, EKV/2: *They Also Served*, 49.

[32] IWM EKV/2: *They Also Served*, 49.

يتسبب أمرٌ طارئ في التحرك السياسي. فحين يتحرك الأفراد في الحيز السياسي، فإنهم يحاولون أن يخلقوا هوية جمعية أو يعززوها، أما في الحيز المكاني الذي يشغله أفراد كثر؛ فلا يسعهم التأكد من رد فعل غيرهم، ولا تفسير أفعالهم. ففي هذا المثال، أشعل فعلٌ كلامي بسيط سلسلةً من الحوادث أدت إلى مواجهة بدنية بين الشرطة وجماعة من فرقة العمال، ومن ثم إلى القبض على فريق منهم وسجنهم.

ولعل رجال فرقة العمال المصرية شعروا في آخر خدمتهم أنهم كلهم أفراد جماعة واحدة، ويصف أحد كتّاب **أخبار فرقة العمال المصرية** كيف يحدث ذلك قائلًا:

> سرعان ما يجد النفر نفسه عضوًا في جماعة؛ فالأغاني والنكات تصير شأنًا عامًا وليس خاصًا، ويُزرع بينهم اهتمام مشترك بالرياضة والموسيقى. وتسعى كل جماعة إلى تقليد أخرى، وكل فريق إلى تحقيق ما يعلو على فريق آخر. فانظر كيف صنعوا راياتٍ لأنفسهم بعناية شديدة ومهارة ليست بالقليلة يرفعونها وهم عائدين إلى ديارهم، واسمعهم يهتفون في فخر. لقد صاروا رجالًا مختلفين(٣٣).

بغض النظر عما بالمقال من نبرة السيطرة الأبوية الاستعمارية، فإنه يعطينا شهادةً مقبولة عن كيفية تكوُّن انتماءات جماعية وفرعية داخل الجماعة عند رجال فرقة العمال المصرية. فبعد أيام متواصلة من العيش معًا وعدد لا يحصى من فرص التنافس في العمل والرياضة، أصبح رجال الفرقة يرون أنفسهم جسدًا واحدًا. وفي تعاملهم مع سكان المناطق التي نزلوا بها، ميز أولئك الرجال أنفسهم بطرق مختلفة معقدة عن «أهل البلد من العرب». لقد كان رجال فرقة العمال المصرية في الشرق الأوسط في ظل الحرب عربًا وليسوا عربًا في الوقت ذاته. فقد خلقوا لأنفسهم هوية جديدةً، أحيانًا ما تختلف عن بعضها طبقًا للفصيلة أو السرية، لكنها تعيش كلها في الظروف ذاتها.

سلاح الضعفاء: السرقة وتعطيل العمل والفرار

عندما صار رجال الفرقة على وعي بمظالمهم المشتركة، صاروا يعملون سويًا ليُصلحوا حالهم. وكان أحد الأساليب التي يستعملونها، وربما أكثرها انتشارًا، أسلوبًا يسميه جيمس سكوت «سلاح الضعفاء». ينتقد سكوت عادة الباحثين في التركيز على الثورات والتمردات واسعة النطاق في دراساتهم عن سياسة العمال والفلاحين، مشيرًا إلى أن أغلب أشكال ذلك الصراع بين الكادحين ومن يسعون منهم إلى استخلاص العمل

(33) "Editor's Section," *ELC News*, March 1, 1919.

أو الغذاء أو الضرائب أو الكراء أو الفوائد، «لا يبلغ عصيانًا جماعيًا كامل الأركان»(٣٤). يوجِّه سكوت الانتباه نحو «سلاح الجماعات الضعيفة المعتاد» مثل التكاسل، والتمارُض، والفرار، وتعمد إساءة فهم الأوامر، والسرقة، وادعاء الجهل، والتشنيع، وافتعال الحرائق، والتخريب(٣٥). وباستخدام أساليب كهذه، استطاعت جماعات لا قوة لها نسبيًا، مثل رجال فرقة العمال المصرية، أن تجعل من ظروف استضعافها مواقع قوى، وأن ترسم لأنفسها حيزًا تعيش فيه مرتاحة بعض الشيء.

كان تعطيلُ العمل أحد الأساليب التي اتبعها المصريون. لطالما ظنها الضباط البريطانيون تكاسلًا أو قلة همة، فيسرد ڤينابلز بالتفصيل الساعات الطوال التي يقضيها رجاله في ديارهم يعملون في أراضيهم، ولكنه أتبع ذلك فورًا باستياءه من أنهم «حين توفر لهم المأكل والمشرب كل ليلة دون مقابل، وتؤتيهم كساءهم ورعايتهم دون أن يشغل أحد منهم باله بها، يحل بهم الكسل، إلا إذا أديروا كما ينبغي»(٣٦). صمم البريطانيون نظام المهام واضعين في الحسبان كسل «الأهالي الطبيعي»، لكن كما ذكرنا في الفصل الرابع كان نظام المهام يُعلَّق وقت الحاجة(٣٧). وحين نحسب كمية العمل المطلوبة من الرجال، نجد أن تعطيل العمل كان طريقةً لموازنة تراكم العمل على مر الأيام. فمن سُموا «متكاسلين» كانوا يُخرجون ويعاقبون، أحيانًا باستعمال أساليب الضبط والربط العسكرية المعتادة وأحيانًا بالعنف(٣٨)، ليكونوا عبرةً للآخرين، ولكن شكوى ڤينابلز المتكررة من «التكاسل» تُظهر أن الرجال لم يزل عندهم أمل في نجاح هذا الأسلوب.

بحث كثير ممن أنهكهم العمل وجمدهم الشتاء عن راحتهم عند الضباط الأطباء. فحين أمطرت غزة أول مطر في الشتاء، لم يحضر طابور الصباح قرابة خُمْس رجال ڤينابلز، وذهبوا إلى عنبر الكشف كما يسمونه(٣٩). رأى ڤينابلز «أن كثيرًا منهم لم يكونوا مرضى، وإنما كانوا يشكون البلل والبرد وحسب، واتخذوها فرصةً لتجنب العمل مع

---

(34) Scott, *Weapons of the Weak*, 29.

(35) Scott, *Weapons of the Weak*, 29.

(36) IWM, EKV 3/1: Sinai (September 3, 1917), 7.

(37) IWM, EKV 3/2: Deir-el-Belah (September 12, 1917), 15.

(٣٨) كان الحكم المعتاد على المتكاسلين في محاكم ڤينابلز المرتجلة هو «الجزاء الحق بمزيدٍ من العمل، وربما مع طابور ذنب». انظر:

IWM, EKV 3/10: Ephraim (June 2, 1918), 117.

(39) IWM, EKV 3/8: K22 (April 3, 1918).

الفرقة ولو لساعات قليلة[٤٠]. تكرر الأمر، وقد ذكر ڤينابلز أن كثيرًا كانوا يستغلون عنبر الكشف لتجنب العمل[٤١]. وانتقدَ كذلك الضابط الطبيب المصري، فقد انتشرت الشائعات بأن الضباط المصريين كانوا يتلقون «بقشيشًا» أو رشوة من رجال الفرقة ليحجزوهم في المستشفى، ولكن ڤينابلز لم يجد دليلًا على ذلك في كتيبته[٤٢]. مع ذلك فكثرة «التغيب بدعوى المرض» قد تكون أسلوبًا ناجحًا يهرب به الرجال من شدة الجو وكثرة العمل الذي أُجبروا على تحمله في فلسطين.

زِد على العمل الشاق المفرط أن التغذية كانت سيئة، فما كان من الرجال إلا أن نظَّموا جهودهم لِيُهَرِّبوا تعيينات إضافية من المستودعات العسكرية. فعندما عاد ڤينابلز إلى معسكره في غزة وجد أن الجوال الذي من المفترض أن يحوي خمسين رغيفًا ليس فيه إلا خمسة وأربعون، أو أربعون، أو حتى ثلاثة ثلاثون[٤٣]. واكتشف بمرور الوقت أن سائقي الجمال «اعتادوا» سرقة المؤن التي ينقلونها من آخر السكة الحديد حتى معسكر الفرقة[٤٤]. وكانت سرقة التعيينات التي يكلَّفون بنقلها طريقةً يتحايلون بها على القيود التي فرضها عليهم نظام التعيينات البريطاني ويستغلون بذلك تعقيد نظام المؤن العسكرية لصالحهم. لكن ڤينابلز سعى إلى التغلب على هذه الثغرة بإلغاء نظام النقل بالجمال وتولية رجال آخرين أمر المستودعات، ولك أن تتخيل أنواع الحيل الأخرى التي فشل الضباط في كشفها.

كان الفرار حلًا آخر مغريًا أمام الذين لا يطيقون مشقة العمل الزائد وسوء التغذية. وقد توصل سكوت فيما كتب عن سلاح الضعفاء، بعد استعراض الدراسات التحليلية من جنوب شرق آسيا إلى فرنسا بعد الثورة، إلى أن «الفرار والتهرب من الاستدعاء ... كانا بلا شك كابحًا للطموح التوسعية لكثير من الملوك»[٤٥]. وكذلك كان الأمر بين العمال المصريين في فلسطين، الذين كانوا بلا شك مستعدين للفرار والهروب من مواقعهم. ويروي ڤينابلز أنه قابل أحد الفارين من موقع آخر وقد طرحه الإعياء والجوع أرضًا بإحدى القرى الفلسطينية[٤٦]. دفعه ذلك إلى التفكير في تجاربه مع المصريين السارحين في الأرجاء أثناء خدمته بفلسطين:

---

(40) IWM, EKV 3/8: K22 (April 3, 1918).
(41) IWM, EKV 3/8: K22 (April 3, 1918).
(42) IWM, EKV 3/8: K22 (April 3, 1918), 87.
(43) IWM, EKV 3/5: Wadi Gaza (October 21, 1917), 42–48.
(44) IWM, EKV 3/5: Wadi Gaza (October 21, 1917), 42–48.
(45) Scott, *Weapons of the Weak*, 30.
(46) IWM, EKV 3/8: K22 (April 3, 1918).

طوال الشتاء كنت أقابل مصريين على الطريق الآتي من جهة التلال، رجالًا من فرقة العمال أو النقل بالجمال أو النقل بالحمير أو غيرهم. منهم من هم بلا شك فارين، ومنهم كثيرٌ خرجوا من المستشفى ويحاولون العودة إلى وحداتهم، سارحين هنا وهناك، لا يعرفون إلى أين سيذهبون. واتقاءًا لمخاطر تشجيع أولئك الرجال على صنيعهم، أصررنا أن يبيتوا في معسكراتنا، لئلا تأخذهم عاصفة وهم في الطريق، ولإرشادهم إلى وجهتهم عن طريقٍ مباشر إذا تيسر ذلك(٤٧).

يتصور ڤينابلز، أن رؤية مصري شارد وحده بعيدًا عن فرقته في بر فلسطين حدثًا معتادًا. وأعطى ذلك للفارين مساحةً للاختلاط مع من ترك فرقته لسبب مقبول، كأولئك الذين كتب لهم المستشفى إعفاءً. وكذلك ذكرت **أخبار فرقة العمال المصرية** فرارَ العمال المصريين في فلسطين، فتروي أن مصريًا فر من فرقته فأسره العثمانيون(٤٨). ويبدو أن بعض المصريين قد نجحوا في الهروب من فرقهم، لكنهم إذا فعلوا عرَّضوا أنفسهم لخطر العيش في أرض وعرة صعبة لا يُستبعد فيها أن يقتلهم الجوع أو يأسرهم العدو.

كانت كل طرق الفرار السرية تلك، معروفةً عند الضباط الإنجليز، إذ كانوا يتمازحون حولها في صفحات جريدة أخبار فرقة العمال. فيروي مقال هزلي كيف كان الفرار والتمارض أسلوبين معتادين يتبعهما العمال المصريون، قائلًا: «لم يتبقَ من رفاقي الأصليين إلا عددٌ قليل، فقد فر خمسة عشر منهم في أول أسبوع، وتلقى أربعة عشر غيرهم إعفاءً لعدم اللياقة الطبية، ولم يتبق منا إلا عدد قليل متمسك بالعمل. ويؤسفني القول إن رفيقي عبد الموجود «مش موجود»(٤٩). يستخدم الكاتب في آخر سطر التبديلَ اللغوي المعتاد عند ضباط الفرقة ليلعب على الاسم العربي «عبد الموجود» والكلمة العربية المصرية «موجود» (أي حاضر)، في نكتةٍ موجهة لأعضاء الفرقة لما بينهم من تجارب مشتركة ولمعرفتهم بالعربية، بهدف خلق شعور بالوحدة بينهم. ورغم المبالغة في المقال بسبب طبيعته الفكاهية، فإنه يبين كم كان الفرار والخروج عن الصف أمرًا معتادًا.

المظاهرات والإضرابات والتمردات

رغم اتخاذ رجال الفرقة «سلاح الضعفاء»، كانوا أحيانًا يفضلون تحركًا مباشرًا. كان أغلب تعبيرهم عن مظالمهم بالشكوى من أنهم قد أنهوا مدة العقد، وأنهم ماكثون في

---

(47) IWM, EKV 3/8: K22 (April 3, 1918).

(48) *ELC News*, March 1, 1919.

(49) "Love Letters," *ELC News*, March 15, 1919.

الخدمة لمدة أطول من المتفق عليها. لكن هذه المشكلة الإجرائية ما كانت إلا ستارًا لما واجهه رجال الفرقة من ظلم وعنصرية متأصلة في البنية العميقة لنظام العمل، وسرعان ما صارت الانتماءات التي تشكلت في الكتائب والفصائل بعد شهور من التفرقة بينهم وبين غيرهم وعيشهم معًا، الأساسَ الذي بنيت عليه محاولات إعادة توزيع القوى في المعسكر. فصار للعمال مطالب من الضباط، وصاروا يتفاوضون معهم، بل ويواجهونهم بالعنف في بعض الأحيان.

إن أول إضراب سُجِّل لفرقة العمال المصرية كان في أثناء حملة غاليبولي. كان عبد الحميد محمد حسين مشاركًا في تلك الحملة، وكان مكلفًا بالعمل في ميناء مودرُس في جزيرة لِمنُس. وقد نشر في مذكراته: «مكثنا هناك ثلاثة شهور ثم تظلَّمنا بسبب الإجازات ... فأطلق الإنجليز الرصاص علينا لقمعنا»[٥٠]. إسناد الظلم إلى الجمع في «تظلمنا» يشير إلى المتكلم الجمع «نحن»، ويبين هذا كيف تُحول الحركة المنظمة العمال إلى موضوعات تاريخهم. يصف حسين الإنجليز بأنهم «الظَّلَمة»، ويصف كيف أطلقوا النار على العمال؛ فجرحوا سبعة عشر وقتلوا واحدًا[٥١].

تتضمن مذكرات فرِد جاريت أيام الحرب قصةَ حدثٍ جرى بين رجال الفرقة المصرية في غاليبولي. في الخامس والعشرين من أغسطس من عام ١٩١٥، كتب جاريت:

> استدعينا كلنا فجر اليوم لفض الشغب بين المصريين. إذ أبوا أن يعملوا لأن أحدهم حُكِم عليه بالجلد ... كانوا عدائيين جدًا، وأخذوا يرموننا بالعصي والحجارة ... أُطلِق عياران في الهواء أولًا، ثم عياران عند موطئ أقدامهم، فلمَّا لم يردعهم ذلك، أمر الضباط أن يطلقوا عليهم النار. فقُتل خمسة وأصيب تسعة أو عشرة. ولم ينتهِ الأمر إلا بذلك ... كان منظرًا فظيعًا، وكان أثر منظر الدم على المصريين فوريًا. حتى ضباطنا ولَّوا ظهورهم لئلا يروا المنظر [٥٢].

إن شكوى الرجال في هذه الرواية لم تكن متعلقة بطول مدة العقد، وإنما رد فعل على جلد أحد زملائهم. يقول جاريت إن الرجال كانوا «عدائيين جدًا» ومسلَّحين

---

[٥٠] سمير عزت، «صفحات من مذكرات شيخ مجهول»، ص٢٤.
[٥١] سمير عزت، «صفحات من مذكرات شيخ مجهول»، ص٢٤.

(52) "Fred Garrett's War Diary," Grant's Militaria, published August 23, 1915, accessed February 28, 2017, http://www.grantsmilitaria.com/garrett/html/aug1915.htm.

«بالعصي والحجارة». ولكن غياب التعاطف عند الضباط الإنجليز تجاه المصريين لم يقف أمام استيعابهم أنهم بشر مثلهم في هذه اللحظة الدموية. إذ يقول «حتى ضباطنا ولّوا ظهورهم» حين رؤوا ما تبع من القتل. إن قرار الرد بالرصاص الحي متوافق مع القصة التي رواها حسين مسبقًا. لقد كان أي عنف من جهة الرجال يقابله عنف أشد منه من جهة الإنجليز.

كانت هذه الحوادث الأولى نذيرًا لما هو آت في أوروبا، فقد كان رجال فرقة العمال المصرية من أكثر الفرق تمردًا في الموانئ الفرنسية. وكانت أولى علامات الاحتجاج في فرنسا يوم السادس والعشرين من مايو عام ١٩١٧، حين فر أغلب رجال الفرقة في دَنكرك وهربوا إلى القرى المجاورة[٥٣]. لا تُفشي المصادر شيئًا عن سبب هذا الحدث، لكن لعلها متعلقة بغارات الطائرات الألمانية في دَنكِرك آنذاك، إذ أصابت موقعهم وقتلت عددًا منهم[٥٤]. وما زالت مشاكل هذه الفرقة تتكرر حتى أن في الرابع من يونيو ١٩١٧، نُقل عن رجال الفرقة أنهم هددوا ضباطهم هناك[٥٥].

بداية من سبتمبر من عام ١٩١٧، اندلعت أحداثٌ متتالية بين رجال الفرقة في فرنسا، كان أكبر حدث فيها في بولون، حين تمرد رجال السريتين الثالثة والسبعين والثامنة والسبعين وأضربوا عن العمل. تذكر التقارير البريطانية الرسمية في فرنسا أن «[المصريين] لا يقبلون نقاشًا عقلانيًا قط، ولا يصلح معهم إلا العنف، إذ يجب أن يصاب أو يموت بضع رجال منهم حتى يخمد هياجهم»[٥٦]. قصَّ أحد ضباط الفرقة تمرد بولون على وليام بريت سان ليجير (William Brett St. Leger) ، فدوَّنها في مذكراته. وطبقًا لهذا المصدر، شارك في تمرد بولون ألفٌ وأربعمائة رجل مصري «مشتاطون غضبًا» ينوون قتل الضباط الإنجليز. واستعمل المصريون كل ما يصلح أن يكون سلاحًا مثل العصي والدلاء «وأي شيء وكل شيء تطاله أيديهم»، ثم «أخذوا يخربون كل ما حولهم». رد الجنود الإنجليز بإطلاق النار عليهم من «ثلاثة جوانب، فاختفى المصريون فجأة»[٥٧]. فقُتل ثلاثة وعشرون مصريًا وأصيب أربعة وعشرون في هذه الحادثة[٥٨].

---

(53) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 275.
(54) TNA, WO 107/37: "Report on British Labour" (November 14, 1919), 31.
(55) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 275.
(56) TNA, WO 107/37: "Report on British Labour" (November 14, 1919).
(57) IWM, WSL/1/6: WB St. Leger (November 6, 1917).
(58) TNA, FO 371/2945 no. 204955: Taranto (1917).

وقعت حادثة كبيرة أخرى في العاشر من سبتمبر من عام ١٩١٧ في مدينة كاليه، حين أضربت السرية الرابعة والسبعون عن العمل. أطلق الإنجليز الرصاص فقَتل أربعة وأصيب خمسة عشر(٥٩). واستمرت هذه الحوادث على نطاق أضيق طوال خريف ١٩١٧. وفي السادس عشر من سبتمبر، تمرد عمال الفرقة بمستودع مرسيليا، واستمر عمال الفرقة بفرنسا في الإضراب والثوران طوال شهر أكتوبر. فبدأ الإنجليز في اتخاذ أسلوب ألطف. إذ بحلول الخامس والعشرين من أكتوبر من عام ١٩١٧، كانت كل من السرية الرابعة والسبعين بكاليه، والخامسة والسبعين بآفر، والسادسة والسبعين بروو مضربين جميعًا(٦٠). رد الإنجليز بالتفاوض مع العمال وفي النهاية نقلوهم كلهم إلى معسكر راحة في مرسيليا. وبنهاية عام ١٩١٧، كان كل عمال الفرقة المصرية قد رُحِّلوا خارج فرنسا، لكنهم ظلوا عمال احتياط حتى نهاية عام ١٩١٨، رغم أنهم لم يرجعوا مرة أخرى(٦١).

تتضمن سجلات وزارة الحرب البريطانية إجراءات المحكمة العسكرية الميدانية العامة التي انعقدت للنظر في تمرد مرسيليا يوم السادس عشر من سبتمبر من عام ١٩١٧، والتي تقدِّم لنا تفاصيل دقيقة لا نحظى بها في أي حدث مشابه. وطبقًا لتلك السجلات، حوكم عامل يدعى محمود محمد أحمد بتهمة «السلوك المنافي للضبط والربط العسكري» لضربه ضابطًا أبيض برتبة ملازم ثانٍ يدعى أ. ج. تيرلي (A. G. Turley)، بعصا على رأسه»(٦٢). اتُهم محمود بقيادة مجموعة عددها بين خمسين ومائة عامل وتحريضهم على الإضراب عن العمل أثناء طابور الصباح، ثم تسليح الرجال بالعصي، وضرب الضابط، ثم أمر الرجال أن يهدموا الأسوار ويقطعوا السلك الشائك وفي يديه بندقية وسونكي(٦٣). حاكمته المحكمة العسكرية الميدانية العامة في السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩١٧. وأدانته بتهمة التعدي على ضابطه في المعسكر، «وجناية مدنية هي الجرح بقصد القتل»(٦٤). فحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص، ونفذ الحكم في العاشر من أكتوبر من عام ١٩١٧.

نجد بين تلك السجلات روايةَ محمود لما جرى مترجمةً إلى الإنجليزية. إذ قال، حين استُدعي للشهادة بوصفه الشاهد الوحيد، إن العقد الذي اتفق عليه قد خُرِق: «حين

---

(59) TNA, FO 371/2945 no. 204955: Taranto (1917).
(60) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 275.
(61) Starling and Lee, *No Labour, No Battle*, 275.
(62) TNA, WO 71/600: Court Martial.
(63) TNA, WO 71/600: Court Martial.
(64) TNA, WO 71/600: Court Martial.

استدعيت، قال لي الباشا إن مدة الخدمة ستكون سبعة أشهر من ضمنها مدة السفر من مصر وإليها»، ونلاحظ هنا أن محمود يلقي باللوم عن سوء التفاهم على الباشا، أي المسؤولين المصريين لا الإنجليز. ولكن لا يتضح أكان ذلك قصده بالفعل أو مجرد خطأ بسبب تحيز من جانب المسؤول البريطاني الذي كتب شهادته. أيًا كان، يقول محمود إن الرجال قد أرسلوا رؤساءهم في الخامس عشر من سبتمبر «إلى الضباط المسؤولين ليقولوا لهم أنهم قد أتموا مدة عقدهم».

لم يُقدَّم الأمر حتى الآن إلا بوصفه سوء تفاهم ولبس في الإجراءات؛ فقد كانت شكوى محمود الأساسية أن الرجال قد قضوا أكثر من مدة عقدهم. وإن دور الباشا في نقل مضمون العقد إلى العمال يعطي مساحة للضابط الإنجليزي، الذي كتب التقرير ليقرأه المؤرخون من بعده، لُيبرئ فرقة العمال المصرية تبرئةً مقبولة من أي مشاكل نظامية تجعل لها ذنبًا فيما حدث. ولكن طبقًا لشهادته، قد حاد الأمر إلى العنف حين قوبلت شكوى محمود بهذا الرد: «ستبقون هنا بالقوة يا أولاد الكلاب»[٦٥]. كتب الضابط شهادة محمود كالآتي:

> حين وجدنا أن المعاملة كانت كذلك، اتجهنا كلنا إلى خيامنا وجلبنا بعض العصي. وحين تسلحنا بالعصي، أشهر [الضابط الإنجليزي] بندقية وسونكي، وقال إن عنده تعليمات بإطلاق النار [ضع: و] استخدام بندقيته إن لم ~~يعملوا~~ [ضع: نعمل]. حميت وجهي بذراعي حين رفع في وجهي السلاح. ثم أخذت السونكي والبندقية من الرقيب ومكثتُ صامتًا حتى حضر قائد القاعدة ... وسلمته السلاحين. وحين أمرنا أن نسلم عصينا، أطعنا كلنا الأمر. ثم أتى رؤساء العمال ووضعونا تحت الحراسة. لم يعرف القائد أينا قائد التمرد، وما قبضوا عليَّ إلا من أقوال ضباط الصف[٦٦].

إن تدخل المترجم الإنجليزي بيِّن، إذ يظهر في زلة لسانٍ في استخدامه للضمائر، حين شطب الكاتب على «يعملوا» وكتب «نعمل» ليبدو أن محمود هو من يقول هذا الكلام. كأن المترجم صاغ أقوال المتهم لتَسهُل إدانته. ولكن حتى مع وضع ذلك في الاعتبار، يبدو من التقرير أن محمود يقول إنه فعل ما فعل دفاعًا عن النفس. لم ينكر أن تمردًا صغيرًا مسلحًا بأسلحة خفيفة قد قام، ولكنه يرى أن في معاقبته دونًا عن زملائه ظلم.

---

(65) TNA, WO 71/600: Court Martial.
(66) TNA, WO 71/600: Court Martial.

طبقًا لشهادة محمود المسجلة والمترجمة، كان أهم سبب في هذا التمرد هو أن عمال الفرقة المصرية ظنوا أنهم أتموا مدة عقدهم، والتي كانت في اعتقاده «سبعة أشهر تشمل مدة السفر من مصر وإليها». أما من وجهة نظر وزارة الحرب البريطانية، فكانت مدة العقد ستة أشهر لا تشمل السفر. وفي الواقع، يذكر التقرير الرسمي الذي عن العمالة البريطانية في فرنسا: «لم يكن لأي ضابط في فرقة العمال المصرية الذين أتوا إلى فرنسا علمٌ بطبيعة العقد الذي وقَّع عليه رجاله. ولم يكن لديهم إلا فكرة عامة مشوشة عنه»[٦٧].

كان ذلك «التشويش» بشأن العقد سببًا عامًا في الخلاف بين العمال والضباط، ولكن يبدو أن سوء معاملة العمال زاد الوضع سوءًا. عبَّر محمود عن ذلك حين اتهم الضابط الإنجليزي أنه قال لهم «ستبقون هنا بالقوة يا أولاد الكلاب». إن هذا الوصف النازع للإنسانية عن الموصوف بـ «أولاد الكلاب» هو ما حرك سلسلة الأحداث تلك. إن العواقب الخطيرة للأفعال اللغوية، التي قد تفسَّر تفسيرًا سياسيًا، قد تبدأ عنفًا يزيد خطورة الوضع وحرجه. يخرق العنف حدود حياة المعسكر المادية والذهنية، مثلما صنع محمود حين «هدم الأسوار وقطع السلك الشائك»، وحين ضرب ضابطًا أبيض. يمكن لأفعال كهذه أن تحيدَ بالهويات الجمعية الموجودة في المعسكر بالفعل نحو أبعاد سياسية جديدة.

وأخيرا من المهم ملاحظة أن محمود قد عوقب مرتين قبل ذلك، مرةً بتهمة عصيان الأوامر في الثاني عشر من أبريل من عام ١٩١٧، ومرةً بتهمة التسبب في «شغب في المعسكر» في الحادي والثلاثين من مايو من عام ١٩١٧. فبهاتين السابقتين، كان سهلًا على الإنجليز أن يحمّلوا هذا «المحرِّض على التمرد» ذنب ما حدث في مرسيليا. لم يكن محمود وحده صاحب السوابق في فرنسا، بل إن التقرير الرسمي للعمالة البريطانية في فرنسا ينص على أنه «قد حُكم على حوالي خمسين من أسوأ العمال طباعًا بالسجن لفترات متباينة»[٦٨]. وكان رد فعل الإنجليز على كل من يميل إلى الإخلال بالتراتبية بالفرقة هو عزلهم مكانيًا، فبذلك ينزعوا منهم احتمال تأثيرهم على غيرهم بأي شكل ممكن.

شهد شهر سبتمبر من عام ١٩١٧ أيضًا ثورات أخرى لعمال الفرقة المصرية في تارانتو بإيطاليا. إذ طبقًا لسجلات وزارة الخارجية البريطانية: «أثارت السرية الحادية

---

(67) TNA, WO 107/37: "Report on British Labour" (November 14, 1919).

(68) TNA, WO 107/37: "Report on British Labour" (November 14, 1919).

والثمانون اضطرابًا في السادس والعشرين من سبتمبر، إذ فهموا من السرية الثانية والثمانين أنهم (الأخير ذكرهم) عائدون إلى مصر بعد يومين»[٦٩]. وحين اعتقد رجال السرية الحادية والثمانين أن زملاءهم عائدين إلى بلادهم بينما هم مجبرون على البقاء، أضربوا عن العمل. فاستُدعي الرجال إلى طابور «وشُرح لهم الموقف بالكامل» ولكنهم رفضوا العودة إلى المعسكر في نهاية الطابور، بل «بدأوا في الشغب». وتصف الوثيقة رد الفعل البريطاني بقولها:

> أخمد الشغبَ ضباطُ الفرقة والحرس المسلح الذي استُدعي إلى الحدث. لم يكن للحرس أي دور إلا إظهار القوة. وحينئذ، أحيطت السرية بسورٍ من السلك الشائك وأمضوا الليلة حيث هم، ولما طلع صباح السابع والعشرين من سبتمبر، استسلم الرجال وقالوا إنهم سيعودون للعمل... ومنذ ذلك اليوم، لم يسببوا أي مشاكل»[٧٠].

رد الإنجليز عليهم بالعنف، لكن يصعب تحديد عدد الضحايا. أسرع المصدر بزعم أنه «لم يكن للحرس أي دور». ولكن كما رأينا من قبل، لم يكن ضبط النفس هو المعتاد في التعامل مع الإضرابات في ساحة الحرب الأوروبية. أنشأت السلطات سورًا من السلك الشائك حول معسكر العمال لمنع أي تمرد آخر في المستقبل، ويبين هذا أن البيئة المصنوعة يمكن التحكم فيها سياسيًا بغرض تحييد الجماعات التي تمثل خطرًا.

لقد تحرك رجال فرقة العمال المصرية تحركات سياسية مختلفة في ساحات الحرب المتنوعة، منها الإضرابات والتمردات والاحتجاجات. وكانت الساحات الأوروبية أشدها اضطرابًا، حيث تمرد المصريون على ضباطهم في غاليبولي وفرنسا وإيطاليا. وعادةً كانت هذه المظاهرات تفسَّر بأنها رد فعل على إخلالات بالعقد. لكن هذه الإخلالات حدثت في ظل أذىً منهجي وسوء معاملة، وبذلك كان خرق العقد شرارة ثوران العمال لا جذر المشكلة.

الخلاصة

لقد تحرك رجال فرقة العمال المصرية تحركات سياسية مختلفة في معسكراتهم. واستخدموا ما يسميه جيمس سكوت «أسلحة الضعفاء» ليأثروا على الوضع من حولهم بطرق حذرة هادئة تخلو من المواجهة. فعلى سبيل المثال، حين وجدوا أن التعيينات لا تكفيهم، اتفقوا مع رجال النقل بالجمال أن يسرقوا الطعام الذي يحتاجونه. وكانت نسبة

---

(69) TNA, FO 371/2945 No. 204955: Taranto (1917).
(70) TNA, FO 371/2945 No. 204955: Taranto (1917).

التغيب الجماعي بدعوى المرض طبقًا لڤينابلز تصل إلى رجل من بين كل خمسة رجال، وشاع الفرار بين العمال. فمن الخطأ إذن تصور أن كل تحرك سياسي في المعسكرات كان عنيفًا لافتًا للنظر.

وفي بعض الأحيان، رأى الرجال أنه لا بد من المواجهة المباشرة بأفعال صريحة. فنشبت الاحتجاجات والإضرابات والتمردات. كانت تلك متركزة أكثر في ساحات الحرب الأوروبية كفرنسا وإيطاليا والدردنيل. فهنالك رأى الرجال أشد ألوان التفرقة، ولاقى احتجاجهم أشد ألوان العنف وحشية. ثار المصريون في أوروبا على نطاق واسع، حتى بلغ تعداد المشاركين في أحد المظاهرات في بولون ألفًا وأربعمائة رجل.

وحين اخترق رجال الفرقة السور الشائك الذي أحاط بهم، وأخذوا أسلحة الضباط البيض، ورفعوها دفاعًا عن أنفسهم، فقد كانوا يتحركون بأساليب تخرق الحدود المادية والذهنية. لابد أن هذه الأفعال بدت كالمعجزات، إذ استطاع الرجال ولو للحظة قلب التراتبية المهيمنة –حيث يعلو الأوروبي على من دونه في المعسكرات. لكن هذه الأساليب كانت وخيمة العواقب؛ حين رد البريطانيون بعنف بالغ وقتّلوا العمال في فرنسا وتارانتو وغاليبولي. أما في فلسطين، فلا نرى من الاحتجاجات والتمردات والإضرابات إلا القليل نسبيًا، ولكن يبرز من بينهم حدث واحد، إذ تذكر سجلات وزارة الحرب إصدار حكمين بالإعدام على عاملين: حسين محمد العرابي ومحمد عبد الله حسن، بتهمة ضرب رئيسهم حتى الموت في القنطرة[٧١].

لقد كانت الهوية الجمعية أساس التحرك السياسي والتغيير الذي يجري في المعسكرات. فقد استعمل الرجال كلامهم، وعملهم، ومشاركتهم في الرياضة المنظمة؛ لِيُنسقوا تحركاتهم. فنتج عن ذلك عادات وأفكار تعظّم القوة الجسدية الذكورية في العمالة والاستعداد للتعرض للألم الجسدي. بينما كانت تلك الأفكار تساعد السلطات العسكرية البريطانية في استخدام فرقة العمال المصرية كوقود لمدافعهم، كان يسهُل تحويلها إلى تحركات أكثر مواجهةً وعنفًا وسياسيةً تجاه قادتهم بالمعسكر. وحين استخدم الرجال قوتهم الجسدية لضرب رؤسائهم وضباطهم، كسروا الحواجز التي حافظت على تراتبية فرقة العمال المصرية، وخلقوا فرصةً لإنشاء نظام جديد، لكن سرعان ما هدمتها القوة البريطانية المدمرة. يحوّل الفصل التالي النظر نحو الناس في مصر، الذين بدءوا بدورهم يشعرون بهوية جمعية ذات طابع سياسي، استفزتها معاملة فرقة العمال المصرية. وكان الجمع الناتج عن ذلك هو الذي تحرك في ثورة عام ١٩١٩، ولو غاب عن تحركاته التناسق أحيانًا.

---

(71) TNA, WO 71/690.

[٨]

«العبودية لا أرضاها!»

بانتهاء الحرب، كافح السياسيون القوميون في مصر لينشئوا وفدًا يشارك في مؤتمر السلام بباريس. وصار ذلك الوفد فيما بعد الحزبَ الأكثر شعبيةً في مصر في فترة ما بين الحربين. كان رأس الوفد هو سعد زغلول، الأخ الأكبر لأحمد فتحي زغلول، وقد ناقشنا في الفصل الثاني دوره الآخر في نشر الفكر الدارويني الاجتماعي. كان سعد زغلول الابن الأكبر لعمدة إحدى قرى الدلتا، وانتقل في سن الرابعة عشر إلى القاهرة للدراسة بجامعة الأزهر، ودرس هنالك على يد أقطاب الحداثة الإسلامية من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده[١].

لكن سرعان ما بدل زغلول بجبته الأزهرية بذلة الرجل المعاصر. وفي ١٨٩٣، كان في عطلة في إسطنبول حين كان يعمل محاميًا، والتقى هنالك صحفيين شابين أولي تأثير، يجاهران بمعارضة الاحتلال البريطاني، هما أحمد لطفي السيد وإسماعيل صدقي[٢]. وفي عام ١٩٠٦، عُيِّن سعد زغلول وزيرًا للمعارف، وهنالك حدث صدامه الشهير مع مستشار الوزارة البريطاني حين أصر على أن تكون العربية لغةَ التعليم في المدارس الحكومية[٣]. وحين بدأت الحكومة الاستعمارية البريطانية تجربة الديمقراطية النيابية المصرية في عام ١٩١٣، فاز سعد زغلول بمقعدٍ في الجمعية التشريعية، لكنها عُلقت في السنة التالية عند اندلاع الحرب وإعلان الأحكام العرفية.

وفي الثامن من مارس من عام ١٩١٩، ألقي القبض على سعد زغلول وقادة الوفد ونفوا إلى مالطا، وسرعان ما اشتعلت الاحتجاجات في القاهرة. نظَّم عدد من أصحاب المهن التخصصية من الطبقة المتوسطة، منهم محامون ووزراء في الحكومة، وطلبة، وأزاهرة أكابر، إضرابًا انتشر في البلد كلها. وفي الوقت ذاته، ثار واحدٌ من أكبر التمردات الريفية في تاريخ الشرق الأوسط الحديث، إذ انطلقت حشودٌ من الناس في القرى والبلدات تهاجم البنية التحتية لدولة الاستعمار[٤].

---

[١] مذكرات سعد زغلول، تحقيق عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ج١، ص٥٢.

[٢] قصة حياتي، أحمد لطفي السيد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٣، ص١٥.

[3] Goldschmidt, *Biographical Dictionary*, 234.

[4] Schülze, "Colonization and Resistance"; E. Goldberg, "Peasants in Revolt."



صورة (٨,١): سعد زغلول في عام ١٩٢٦. المصدر : W. Hanselman. Wikimedia Commons.

أرْخَت السلطات الضغط على الوفد، فسمحت لهم بالسفر إلى باريس والتفاوض معهم في عملية انتهت بقرار أحادي كثير الشروط بجلاء الجنود الإنجليز عن مصر. في الوقت ذاته احتشدت قوات التجريدة المصرية لسحق التمرد بالريف، فقتلت حوالي ثلاثة آلاف[٥]. وتعرف هذه الأحداث في الدراسات التاريخية المصرية باسم ثورة ١٩١٩، وقد ترسخت في الذاكرة الشعبية المصرية بأنها لحظة تأسيس الدولة الوطنية المصرية الحديثة[٦].

كان لفرقة العمال المصرية دور رمزي مهم لدى النشطاء والمفكرين القوميين في أثناء الثورة. وكان في خطاب الوفد السياسي نقد لاذع لكذب البريطانيين فيما أسموه تجنيدًا «تطوعيًا»، مصرِّين على أن ما يحدث مع فرقة العمال المصرية كان أقرب «للعبودية». وقد استمد تشبيه عمال الفرقة المصرية «بالزنوج» أو «الملوَّنين»، أو «الوحوش الأفريقية»، قوته المحرِّكة من التصورات الشعبية للهوية الوطنية التي أكدت

(٥) ثورة ١٩١٩، عبد الرحمن الرافعي، الفصل السادس [وخاصة ص ٢٦٢ -م].

(6) Heshmat, *Egypt 1919*.

على اختلاف المصريين عرقيًا عن الأفارقة السود وعلوّهم عليهم. وفي الوقت ذاته، استُخدِمت إنجازات فرقة العمال المصرية ودورها في انتصار بريطانيا في الحرب، لدحض ادعاءات التفوق السياسي الأبيض. وردًا على تصنيف المصريين أنهم ملوّنون، ركز السياسيون والمفكرون القوميون على الفلاحين، كرجال فرقة العمال، بوصفهم رموزًا للأصالة المصرية الوطنية والعرقية. وكان اتجاه الخطاب القومي الذي ظهر في العقد التالي للثورة -والذي أقام رابطةً جينية وثقافية بين المصريين المعاصرين، وبالأخص الفلاحين، وبين الفراعنة القدماء نسخةً مصرية من القومية العرقية. وكان الهدف من ذلك الخطاب تمييز الزعماء الذين أتوا من الريف إلى الحضر، من أمثال سعد زغلول، بوصفهم ورثة «حضارة» قديمة، لا يستحقون الإخضاع الإمبريالي.

لقد أشار كثيرٌ من الباحثين من قبل إلى العلاقة التاريخية بين فكرة العرق ونشأة الدولة الوطنية الحديثة[٧]. فنجد الفيلسوف دافيد ثيو غولدبرغ (David Theo Goldberg) يتتبع تحول فكرة العرق في أوروبا من معناها الأصلي المتعلق بالنسب والنسل الأرستقراطي؛ حتى مفهومها الحديث الذي يرى أن المجموعات الشعبية هي التي ترث السمات العرقية. ومن أهم اللحظات في سردية غولدبرغ التاريخية العامة الانتقال من التصور الكتابي عن الأصل الواحد بأن البشر كلهم من آدم وحواء، وأن ما بينهم من اختلافات ما هي إلا نتيجة العوامل البيئية المحيطة، إلى تصور أصول مختلفة لأعراق البشر المختلفة، وجعل بينها تراتبية تقوم على الاختلاف البيولوجي بين الجماعات وليس على نسبٍ بينها.

يختتم غولدبرغ القصة بتقريره أن «كلمتي العرق والأمة يشيران إلى تداخل خطابات التجهيل الحداثي للهوية»[٨]. وطبقًا لغولدبرغ، كلما تعقدت علاقاتنا الاجتماعية، وفر لنا مفهوم العرق إطارَ فهمٍ نستخدمه لنعرف من نتماهى معه ومن نُقصيه ونقهره ونستغله ونمحوه. يشبه مفهوم العرق عند غولدبرغ مفهوم «الجماعة المُتَخَيَّلة» للأمة عند بِندكت أندرسون (Bendict Anderson)، لكنه يمد منطق التماهي القومي إلى أقصى درجة بإدخال شيء من الحتمية البيولوجية في تعريفاته للجماعة[٩]. يذكّرنا ذلك التاريخ المتقلب لفكرة العرق في سرد غولدبرغ أن العرق ليس له تعريفًا ثابتًا عبر الزمان والمكان. ويظل

---

[٧] انظر للمزيد عن القومية العرقية:
Wiendling and Turda, *Blood and Homeland*; Brennan, "Realizing Civilization"; Brennan, *Taifa*; Sautman, "Racial Nationalism and China."

[8] D. Goldberg, "Semantics of Race," 557.

[9] Anderson, *Imagined Communities*.

مطلوبًا على الدوام استكشافُ المعاني المتباينة للمصطلحات التي استُخدِمت في التعبير عن فكرة العرق في سياقات تاريخية بعينها(١٠).

لكن تركيز غولدبرغ على العلمنة في تطور فكرة العرق في أوروبا، لا ينطبق انطباقًا تامًا على مصر الحديثة. فكما سيوضح هذا الفصل، ظهرت تصورات العرق في مصر في لحظة التقاء خطاب العرقية العلمية العالمي، مع مفاهيم الهوية والأمة المستقاة من تراث الخطاب الإسلامي. وعلى رغم تحول التعريف الحاكم للجماعة السياسية الغالبة (الأمة) في مصر من أن [أبناءها] مسلمون إلى أنهم «مصريون أصليون»، بقي التركيز على الجوانب الروحية عاملًا من عوامل الانتماء إلى الأمة، في مقابل العوامل المادية المحضة. ورأى المفكرون القوميون بمصر، كنظرائهم القوميين العرقيين في رومانيا ويوغوسلافيا في فترة ما بين الحربين، أن الفلاحين هم حجر زاوية الهوية العرقية(١١). بذلك صار ما لاقاه فلاحو فرقة العمال المصرية من ظلم على يد الإنجليز مجازًا عن انتهاك الجوهر القومي، ووجد السياسيون والمفكرون ذوو الأصول الريفية أنفسهم في موقع قيادة حركة جماهيرية.

جذور القومية العرقية في مصر

لم تنتشر كلمتا «race» و«nation» في الإنجليزية إلا في نهاية القرن السادس عشر، لكن اللغة العربية استعملت كلمات تضع الفرد ضمن جماعات متجانسة من الناس يتكاثرون بيولوجيًا. وقدّمت إليس ك. بورتون (Elise K. Burton)، في دراستها التاريخية التي نُشرت مؤخرًا عن علم الأعراق في الشرق الأوسط، إطارًا عامًا يساعد في فهم هذه الكلمات العربية. يتعلق بعض هذه الكلمات بالتصنيف أو تجريد أنماط التشابه بين الحالات الفردية المختلفة، منها كلمتا صنف (والجمع أصناف) ونوع (والجمع أنواع). وحين صار من يكتب بالعربية من المفكرين على درايةٍ بعلم الأعراق الأوروبي، بدأت كلمة جنس (والجمع أجناس) تُستعمل في ترجمة المفهوم الحديث للعرق، وهي كلمة مشتقة من نفس الجذر اليوناني الذي أدى إلى كلمة «genus» الإنجليزية(١٢). وقد يلتبس إدراك ذلك على قارئ هذه الكلمة من العلماء وقراء العربية، فكلمة جنس، التي عادةً ما تعني «النوع»، تُستخدم اليوم في الإشارة إلى الوطن (الجنسية) أو التمييز الجنسي بين الأنوثة والذكورة. وكذلك كانت الكلمة الأكثر استخدامًا في الإشارة إلى الأعراق في

---

(10) D. Goldberg, "Semantics of Race."

(11) Bucur, "Fallen Women," 337; Yeomans, "Of 'Yugoslav Barbarians,'" 87.

(12) Burton, *Genetic Crossroads*, 14.

العربية هي كلمة عنصر. وتأتي هذه الكلمة من مجموعةٍ أخرى من الكلمات تشير إلى النسب أو الجذور العائلية، منها عرق، وسلالة، ونسب. وكما تذكر راشيل شاين (Rachel Schine)، فإن لتلك الكلمات شواهد في العربية قبل عصر النبي [صلى الله عليه وسلم] واستمر استخدامها في اللغة الأدبية الفصيحة[١٣].

وفي أواخر القرن التاسع عشر، استُخدمت فئة ثالثة من الكلمات كانت تشير قبل ذلك إلى الجماعات الدينية -ككلمتي أمة وملة (*millet* بالتركية)لتحمل أيضًا معاني متعلقة بالوطن والعرق[١٤]. يذكر لويس ماسينون (Louis Massignon) أن كلمة أمة تعني في القرآن «جماعة من الناس يرسل الله إليها نبيًا، وبالأخص من يسمعون قوله فيؤمنون بدعوته»[١٥]. وبهذا، فإن أمة المسلمين بمعناها القرآني «جاوزت التمييزات الاجتماعية السابقة [القائمة على الروابط العائلية والنَسَبية] لكنها لم تمحها»، وذلك في استعمال القرآن لكلمات من قبيل قوم، وشعب، وقبيلة[١٦].

بدأ الحداثيون الإسلاميون في الكتابة عن الأمة في أواخر القرن التاسع عشر في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا (كما ذُكر في الفصل الأول) تصنِّف المسلمين عرقيًا في مصر والهند والدولة العثمانية، واصفةً إياهم بالمحمديين[١٧]. كان جمال الدين الأفغاني عالمًا إيرانيًا مسلمًا كثير التنقل بين البلاد، وعاش في مصر بين عامي ١٨٧١ و١٨٧٩، وكان أهم من وقف ضد تصنيف المسلمين عرقيًا آنذاك. وكان رفضُ ما أسماه «التقليد» فكرةً كثيرة الذكر عنده، طبَّقها على التراث الإسلامي والعلم الأوروبي على حد سواء، قائلًا إن على المسلمين النظر إلى كليهما بشيء من الشك المتعقل. كان ذلك التنقيح الحذِر لتراثين مختلفين -برفض بعض عناصرهما والإبقاء على البعض الآخرهو ما أتاح للأفغاني أن يجمع بين مفاهيم الأمة الإسلامية التراثية وهويتها وبين الخطابات الأوروبية الحداثية، تاركًا وراءه إرثًا مهجّنًا يأخذ منه المفكرون في مصر ويدعون إليه.

كان الأفغاني بلا شك متأثرًا بأفكار الداروينية الاجتماعية الأوروبية. وفي ذلك مفارقة لأن كتابه الوحيد المتبقي مشتهر بأنه نقدٌ للداروينية. ونقلت مروة الشاكري أن

---

(13) Schine, "The Racialized Other."

(14) Burton, *Genetic Crossroads*, 15.

(١٥) منقولة عن:

Wendell, Evolution, 24.

(16) Zafer, *Ecumenical Community*.

(17) Aydin, *Idea of the Muslim World*.

الكتاب نُشر للمرة الأولى بالفارسية أثناء إقامة الأفغاني القصيرة بالهند بين عامي ١٨٧٩ و ١٨٨٢، وتُرجم إلى العربية بعنوان **«الرد على الدهريين»** في عام ١٨٨٦، وذلك حين كانت ترجمات شبلي شميِّل لداروين في أوج انتشارها[١٨]. رفض الأفغاني أفكار داروين أولًا لأنها تدّعي الجِدة، واضعًا إياها في حوارٍ مع نظريات سابقة كنظريتي الذرية والمادية الإغريقيتين، وقد ضرب بهذه النظريات كلها عرض الحائط كما فعل علماء العرب المتقدمون الذين دحضوا العلم الإغريقي بعلم الكلام الإسلامي.

أملى الأفغاني على تلميذه النجيب محمد عبده ما نشر من مقالات في جريدة **العروة الوثقى** (١٨٨٤)، وفيها يطرح رؤيةً للتاريخ وعلم الاجتماع يظهر عليها التأثر بمصطلحات المدرسة الداروينية التي سعى إلى دحضها في مصنفه السابق. ومن المقالات التي يظهر فيها ذلك مقال بعنوان «الجنسية في الديانة الإسلامية»، يقول فيها إن المسلمين أعرضوا «على اختلاف أقطارهم، عن اعتبار الجنسيات، ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ما عدا عصبيتهم الإسلامية»[١٩]، لكنه رغم ذلك يسلِّم بمدى تأثير «التعصب للجنس» معرِّفًا إياه أنه سمة تطورية نشأت من صراع البقاء، فقال إن البشر «اضطروا بعد منازلة الشرور أحقابًا طوالًا إلى الاعتصاب بلُحمة النسب على درجات متفاوتة، حتى وصلوا إلى الأجناس؛ فتوزَّعوا أممًا، كالهندي والإنكليزي والروسي والتركماني ونحو ذلك؛ ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادرًا على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر»[٢٠]. هنا نرى الأمة تقارن بأعراق وأقوام أخرى كالهنود والإنجليز، لا بأديان أخرى كاليهود والمسيحيين.

وفي مقالات أخرى، قال الأفغاني إن «المِلة الإسلامية كجسمٍ عظيم»[٢١]. كانت أفكار من نوع فكرة الجسم الاجتماعي هذه موجودة في كتب التراث العربي كما نرى عند ابن خلدون، إذ يضع «العصبية» في موقع القوة التي تصل بالأسر الحاكمة إلى الحكم ثم تسقطها في دورات متكررة على مر التاريخ[٢٢]. ولكن هذه الأفكار ترجع صدى علم الاجتماع العضوي الذي وضعه هربرت سبنسر، وسك مصطلح «البقاء للأصلح»

---

(18) Elshakry, *Reading Darwin*, 119.

(١٩) **العروة الوثقى**، السيد جمال الدين الأفغاني، ع٢، ص١٣٠. [نقلنا نصوص الأفغاني عن إصدارة العروة الوثقى التي حققها الأستاذ عبد الرحمن أبو ذكري، ونشرتها دار تنوير للنشر والإعلام بالقاهرة في عام ٢٠٢١ – المترجمان]

(٢٠) المصدر السابق.

(٢١) المصدر السابق، ص٢٠٥.

(٢٢) مقدمة ابن خلدون.

في كتابه المؤثر **مبادئ علم الأحياء** (١٨٦٤)[٢٣]. إذن يمكن للأمة، عند تصورها تصورًا بيولوجيًا، أن تتطور تطورًا طبيعيًا، وحين رأي الأفغاني أن سبب «التمدن» الأوروبي هو الإصلاح البروتستانتي، اعتبر أن التاريخ الأوروبي هو المسار التطوري الذي يجب على المسلمين أن يسلكوه[٢٤]. ولمّا كان الأفغاني يرى التاريخ حركة تطورٍ بها مراحل مختلفة تمر بها كل حضارة، فإنه بذلك يتبع تفكيرًا غائيًا تقدميًا أقرب إلى سبنسر منه إلى ابن خلدون.

وعلى يد محمد عبده، أثّرت الأفكار الحداثية الإسلامية المنسوبة إلى لأفغاني على جيل صاعد في مصر، ولكن محور جهودهم تحول من الأمة الإسلامية إلى الأمة المصرية، وبالأخص أولئك الذين أحاطوا بأحمد لطفي السيد بعد أن صار رئيس تحرير جريدة **الجريدة** والمتحدث الرسمي باسم الحزب الذي روّجت له: حزب الأمة[٢٥]. أُنشئ الحزب في عام ١٩٠٧، وكان أعضاؤه في بادئ الأمر خمسمائة من الأعيان، وهم من الأرستقراط المصريين العثمانيين، والمفكرين[٢٦]، وكان رجال الوفد الذين قادوا ثورة ١٩١٩ فيما بعد، كلهم من صفوف ذلك الحزب، ومنهم سعد زغلول وعلي شعراوي وعبد العزيز فهمي.

رفض أحمد لطفي السيد في كتاباته المختلفة وأحاديثه ما دافع عنه الأفغاني من فكرة أن الأمة الإسلامية تصلح لأن تكون كيانًا سياسيًا. واتفق السيد مع المستشرق البريطاني إدوارد غرانفيل براون حين كتب أن «الوحدة الإسلامية [Pan-Islamism] هي خرافة خلقها دماغ مكاتب التيمس في فينا»[٢٧]. وفي مقال نُشر في **الجريدة** عام ١٩١٢، استطرد أحمد لطفي السيد في نقد خرافة الوحدة الإسلامية فيقول:

> [هناك من] يقول إن مصر ليست وطنًا للمصريين فقط، بل هي وطنٌ لكل مسلم يحل في أرضها سواءً كان عثمانيًا أو غير عثماني، فرنساويًا أو إنكليزيًا، صينيًا أو يابانيًا. على ذلك تكون القومية المصرية أو الجنسية المصرية معدمة»[٢٨].

---

(23) Wendell, Evolution, 173.

(٢٤) تاريخ الأستاذ الإمام، محمد رشيد رضا، ١٩٣١، ص٨٢.

(٢٥) كان أحمد لطفي السيد صاحبًا ملازمًا لمحمد عبده إبّان إقامته في جنيف بسويسرا. انظر: قصة حياتي، أحمد لطفي السيد، ص ١٨-١٩.

(26) Landau, *Parliaments and Parties*, 139.

(٢٧) قصة حياتي، أحمد لطفي السيد، ص٤١.

(٢٨) المنتخبات، أحمد لطفي السيد، دار النشر الحديث، ١٩٣٧، ص٣٠٨-٣٠٩.

إن أمة المصريين ترتبط بوطن بعينه، لا كالأمة الإسلامية غير القُطرية. لكنها رغم ذلك لا تقتصر على هذه الأرض فحسب، وإنما تضم جماعةً من الناس يناظرون جماعاتٍ أخرى لها أراضيها في جميع أنحاء العالم. إن الوطن عند لطفي السيد يترك شيئًا في نفس كل من ولد به، مسلمًا كان أو غير مسلم. وتتجانس هذه الفكرة مع نظريات الحتمية البيئية التي نجدها عند ابن خلدون وعلم الأعراق الأوروبي الحديث.

إن التشابه بين روابط القومية المصرية والجنسية المصرية تظهر في استعمال أحمد لطفي السيد للكلمتين كأنهما مترادفتان في النقل السابق. ويُظهر في مقال له بعنوان «تضامننا» دورَ مفاهيم العرق التي رآها محوريةً في ربط أمة المصريين بعضهم ببعض:

> لا شُبهة عند أحد مِنَّا في معنى كوننا أمة متميزة عمَّا عداها بمشخصات خاصة بنا، قد لا يشاركنا فيها غيرنا من جميع الأمم، لنا لون خاص وميول خاصة ولغة واحدة شاملة، ودين للأكثرية واحد، وكيفيات في تأدية أعمالنا ودَمٌ يكاد يكون واحدًا يجري في عروقنا».[٢٩]

هنا يصف أحمد لطفي السيد الهوية المصرية بطرائق لا شكَّ متأثرةٍ بعلم الأعراق الحديث. فإذا كانت بعض عناصر الانتساب إلى الأمة قد تُكتَسب مثل اللغة والدين، فإن هناك بجانبها سمات بيولوجيةً كاللون والدم. تجتمع هذه الروابط، المكتسبة والطبيعية معًا في كتابات أحمد لطفي السيد لتكوِّن الأمة المصرية ذات «المشخصات الخاصة».

انطلق أحمد لطفي السيد من صلةٍ مفترضة بين البيئة والتشكل الثقافي، فأشار إلى أصوله الريفية ليرسي ما جعله أهلًا للتحدث باسم المصريين. فقد كان هو الآخر، مثل محمد عبده وسعد زغلول، ابن عمدة لإحدى قرى الدلتا. ويبدأ سيرته الذاتية بعبارة صريحة عن أهمية ذلك النسب، فيقول:

> نشأتُ في أسرة مصرية صميمة لا تعرف لها إلا الوطن المصري، ولا تعتز إلا بالمصرية، ولا تنتمي إلا إلى مصر؛ ذلك البلد الطيب الذي نشأ التمدن فيه منذ أقدم العصور، وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفل له الرقي والمجد[٣٠].

هنا، يذكر لطفي السيد أصله الريفي ليعرِّف نفسه وأسرته أنهم من «أسرة مصرية صميمة»، ويربط قريته ومن بها من الفلاحين بالمصريين القدماء الذين أنشأوا «التمدن» منذ آلاف السنين. إن مفهوم التمدن هنا منفصل عن علاقته اللفظية بالمدينة وما تشير

---

[٢٩] تأملات، أحمد لطفي السيد، دار المعارف، ١٩٤٦، ص٦١.
[٣٠] قصة حياتي، ص٧.

إليه اصطلاحًا من الناس الذين يسافرون هنالك للدراسة (انظر الفصل الثاني). وإنما أتت دالةً على الحق الموروث لشعب بعينه. لكن أحمد لطفي السيد لم يكن وحده من ربط بين الفلاحين المصريين والهوية المصرية الجوهرية التي يمكن تتبعها حتى الفراعنة[٣١]. فطبقًا لتشارلز وندل، كان مصطفى كامل مؤسس جريدة **اللواء** «كثير الفخر بدمه الريفي، مُصِرًّا على أن ... غالبية المسلمين في مصر [كحال المسيحيين] من دم الفراعنة القدماء»[٣٢].

بالطبع عاش المصريون الأصليون مع «عناصر أجنبية» أخرى في مصر تحت الاستعمار، وكان مفهوم الانتساب إلى الأمة عند أحمد لطفي السيد متأرجحًا بين أنماطٍ متعددة من القومية العرقية والقومية المدنية. ويظهر هذا التذبذب في مقالٍ كتبه في عام ١٩٠٩ في **الجريدة** تحت عنوان «الجامعة المصرية» يقول فيه:

> تتألف الجامعة المصرية من المصريين الأصليين ومن عناصر أخرى جديدة من الأجانب حلُّوا مصر على سبيل القرار، وجعلوها موضع سعيهم، فصارت بعد قليل محل ثروتهم وموطن حياتهم في الحال والاستقبال[٣٣].

هنا يفرّق لطفي السيد بين «المصريين الأصليين» و«عناصر أخرى جديدة من الأجانب» في مصر، لكنه يفتح بابًا للمواطنة لهؤلاء الذين استقروا في مصر واتخذوها موطنًا. يحاول وندل في تحليله هذه الفقرة رسم خارطة تصل بين العنصر المدني والعنصر العرقي في قومية لطفي السيد، لكنه يغوص حتى ركبتيه في مخاضة الدلالات المحيطة بأفكار العرق في اللغة العربية:

> لم يبرز في خطابه جو «الدم والأرض» الذي أحيانًا كان يحمل في طياته إقصاءً للأقليات التي تعيش بين شعب بعينه ... ليس لخلو تصوره للأمة المصرية من هذا الجو تمامًا بل لأن تصوره كان أميل إلى تراث القومية الرومانسي الألين منه إلى التصور الشوفوني العنيف الذي قد تنزلق القومية إليه[٣٤].

أي أن القومية العرقية كانت موجودة وغير موجودة في كتابات لطفي السيد، وعلى رغم تسليم وندل باحتمال «انزلاق» تلك الأفكار إلى التطرف، فإنه نسب ذلك الصحفي المؤثر إلى اتجاه قومي «ألين».

---

(٣١) للمزيد عن الربط بين الفلاحين و«المصرية»، انظر:
Gasper, *Power of Representation*.
(32) Wendell, *Evolution*, 247.
(٣٣) المنتخبات، ص١٧٠.
(34) Wendell, *Evolution*, 13–14.

فعوضًا عن التوغل في المميزات الجسدية لبني الأمة، كان لطفي السيد كثير التركيز على نشأة الأمة نشأةً تكاد تكون ميتافيزيقية. لكن الأمة التي يتصورها لطفي السيد لا تنشأ بأمر إلهي يتجلى في بعث نبي برسالة بل إنها أقرب إلى منحة تمنحها الطبيعة. إذ قال في خطاب ألقاه بمناسبة إعادة العمل بالدستور العثماني في عام ١٩٠٨:

> من المسلَّم علمًا أن كل اجتماع سياسي، أي كل أمة، هي عمل من أعمال الطبيعة أو كائن من الكائنات الطبيعية، يتمشى في حياته على مقتضى النواميس الطبيعية التي تنظم حركات كل المخلوقات. وأن القوانين الطبيعية ... أعطت كل فرد حقه من الحرية. فلم يخلق الله إنسانًا رقيقًا. غير أن الإنسان إذا ضعفت قواه وقع في الرق ... كذلك الأمة أخذت من الطبيعة حريتها العامة، فإذا عرض لها الضعف وقعت في الرق، أي حُكِمت على غير ما تهوى بحكومةٍ مطلقة تجعل أفراد الأمة عبيدًا لها[٣٥].

يرى لطفي السيد، كما رأى الأفغاني قبله، أن الأمة تخضع لقوانين الطبيعة. لكنه لا يتحرك بهذا التصور باتجاه التطور الدارويني وفكرة سبنسر عن «البقاء للأصلح»، إنما قانون الطبيعة الذي يشغل لطفي السيد يتبدى في فكرة الحق الطبيعي في الحرية: فما إن تعي أمة بنفسها، حتى ترفض أن يحكمها غيرها. وإن الإنجليز باحتلالهم مصر وإعادة هيكلة الدولة المصرية، أنزلوا الأمة المصرية كلها منزلة العبيد.

وكما بين المؤرخ آرون جيكس، لم يتفرد لطفي السيد باستخدام العبودية مجازًا لوصف العلاقة بين البريطانيين والمصريين. ففي عام ١٩٠٧، نشر الصحفي أحمد حلمي مقالًا في جريدة **اللواء** طرح فيه السؤال: «كيف تحررون أمَةً وتستعبدون أُمَّة؟» قال حلمي إنه حينما كان الإنجليز يعملون على فك «قيود الرق من أيدي أفراد الزنوج» طرحوا «بجانبها فكرةً سيئة»؛ إذ دعوا إلى «مذهب محبي التوسع في الاستعمار القائلين باستعباد الأمم واسترقاق الشعوب»[٣٦]. يشدد جيكس في كتابه الأخير وفي مقال سابق له مع أحمد شكر، على أن العبودية تحول المستعبَدين إلى سلعة، ويفسر تمثيلات

---

[٣٥] صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر، أحمد لطفي السيد، مكتبة النهضة العربية، ١٩٤٦، ص ٤٣-٤٤.

(36) Jakes and Shokr, "Finding Value," 108.

[المقال المذكور هو «يا محرري الأرقاء» للصحفي أحمد حلمي، والمنشور في الصفحة الأولى من عدد جريدة اللواء الصادر يوم الثالث والعشرين من مايو من عام ١٩٠٧ -المترجمان]

العبودية في الخطاب القومي المصري بأنها مجاز عن تورط مصر الاقتصادي المتزايد مع الاحتلال البريطاني(٣٧).

لكن كما رأينا، لم تكن العبودية في مصر مجرد مجاز. فحينما ألغي الرق في طفولة جيل لطفي السيد، كان غالبية العبيد من الأفارقة السود. وحتى بعد إلغاء الرق رسميًا في عام ١٨٧٧، استمرت سوق النخاسة سرًا، واستمر معها ارتباط السواد والأصول الإفريقية بالعبودية في الثقافة الشعبية المصرية. ومن ثم، تضمَّن تمثيل المصريين بوصفهم عبيدًا للبريطانيين رفضًا لخط اللون العالمي، وقد اكتسب الجمع بين «الزنوج» الأحرار والمصريين «المستعبَدين» قوة دافعة إلى حدٍ ما من النفور الشائع من السود.

ففي كتابات لطفي السيد، لم يرقَ السودانيون السود جنوب مصر لأن يكونوا أمة تحكمها قوانين الطبيعة من استقلالٍ وحكم ذاتيٍ. وأحيانًا كان يمحو الفارق بين المصريين والسودانيين باستخدام تعبير «وحدة وادي النيل»، الذي اعتبرته إيف تروت بُول تعبيرًا شاع على ألسنة «المستعمِرين المستعمَرين المصريين».(٣٨) يقول لطفي السيد في مقالٍ نشر في أكتوبر عام ١٩١٠:

> سأل سائل من هم أبناء النيل؟ هم أولئك الذين بين منبعه ومصبه. هم الذي يسكنون تلك البقاع الحارة فاسودَّ لونهم، والذين يسكنون البقعة المعتدلة فبقي لونهم كما تراه بين الأسود والأبيض ... وإن من البله أن يكون لون الوجه قاطعًا الرحم بين الأخوين.(٣٩)

يسلم لطفي السيد هنا بالفرق في اللون بين المصريين والسودانيين، لكن هذا لا يمنعه من التأكيد على وجود علاقة «رحم» بينهما. إن ذكر صلة الدم هنا لا يُعنى بها صلة جينية حقيقية كالتي في العرقية العلمية الأوروبية، إنما صلة روحية آتية من عيش الشعبين من ماء النيل ذاته. وتتسق هذه الأمثلة مع تأكيد لطفي السيد على الروابط الميتافيزيقة في الأمة في مقابل الروابط المادية.

لكن لطفي السيد يشدد في أحيان أخرى على أن الغزو بالقوة هو ما ضم السودان إلى مصر. إذ قال في مقالٍ له في يوليو عام ١٩١٠ «إن السودان ملك لمصر بحق الاحتلال ... واستعمار السودان حق المصريين دون سواهم»(٤٠). أما التأكيد على

---

(37) Jakes and Shokr, "Finding Value"; Jakes, *Egypt's Occupation*, 222.

(38) Troutt-Powell, *A Different Shade*.

(39) Wendell, *Evolution*, 261–262.

(40) Wendell, *Evolution*, 262-263.

الأخوة بين الشعبين فسمح للطفي السيد باعتبار الثورة المهدية خلافًا عائليًا لا أكثر، إذ قال: «وكل ما في المسئلة أن بعض السودانيين قد ثار على الجامعة المصرية، فأُدّب الثائرون وانتهت الفتنة»[٤١]. هنا يلوم السودانيين المتمردين على إحداث الفتنة، مما يجيز إعادة احتلال السودان بقوات مصرية إنجليزية عام ١٨٩٨.

في الوقت الذي أثنت فيه **العروة الوثقى** على الثورة السودانية ولامت المصريين على «إراقة دماء مِلَّتِهِمْ بمجرد أوامر تصدر إليهم من مخالفهم في الجنس والاعتقاد»[٤٢]، كان المصريون مستحقين للوم عند لطفي السيد ومعاصريه، لا لأنهم هاجموا السودان، بل لأنهم فعلوا ذلك دون حسم وقوة. وقد أوضح مصطفى كامل تلك النقطة بشكل صريح في عام ١٨٩٦: «لئن أحسنتم الإصغاء سمعتم سرائركم تجيبكم أنكم أذل الأمم اليوم، وأن الزنوج الذين كنتم تستخدمونهم عبيدًا أرقاء أصبحوا أشد محافظةً منكم على حقوق الأوطان!!!»[٤٣]. ربما يسلط هذا المقال، الذي كتبه أهم كاتب في **اللواء**، الضوءَ على الفرق بين المصريين و«الزنوج» في كتابات أحمد حلمي في الجريدة نفسها لاحقًا.

إن كلمة «زنوج» هي الكلمة الفصيحة التي تصف العبيد الآتين من مرتفعات تنزانيا وكينيا، ويعد استخدامها مثالًا على العلاقة بين السواد والعبودية في الثقافة الفكرية للقوميين المصريين[٤٤]. فحينما وصف مصطفى كامل قوات المهدي «بالزنوج»، نزع أية خصوصية للانتفاضة السودانية، ووضع كل الأفارقة جنوب الصحراء تحت تصنيف واحدٍ واسع هو أنهم سود أحفاد عبيد. يمكننا تفسير موقف أحمد لطفي السيد المتناقض -بتأكيده أن كل الأمم أحرار بحكم القانون الطبيعي، رغم تشديده أيضًا على الحق المطلق لمصر في استعمار السودان – بالإشارة إلى ما ساد لدى المفكرين القوميين المصريين في ذلك الوقت من شعور بالتفوق على الشعوب السوداء.

تطوع أم اختطاف؟

حين رأى المصريون الذين تشرَّبوا ذلك التراث الفكري الفلاحين مكبَّلين بحبال سميكة وعلى غير إرادتهم يرسلون إلى فرقة العمال المصرية، كان ذلك دافعًا جديدًا لتصويرهم

---

(41) Wendell, *Evolution*, 262.

(٤٢) العروة الوثقى، ص١٨٧.

(43) Wendell, *Evolution*, 264.

[نقلنا النص الأصلي عن: مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعا، علي فهمي كامل، مطبعة اللواء، ١٩٠٨، ج٥، ص٧٨. –المترجمان].

(44) Talhami, "The Zanj Rebellion."

بصورة «أرقاء» الإمبراطورية البريطانية. فالأمة لم تعد كيانًا مُتخيَّلًا في حالة استعباد مجازية لا تُرى ولا يفهمها إلا المتعلمون وحسب. بل صار الآن شبابٌ من الريف المصري، ممن اعتُبِرت جذورهم الريفية جوهر الهوية المصرية، يُستعبدون على الملأ.

وقد بيَّن سعد زغلول وغيره في خطبهم وكتاباتهم أن المقاومة العنيفة التي مارسها الفلاحون المصريون للتجنيد في فرقة العمال فضحت مدى تناقض الإنجليز بدحض ادعاء دولة الاستعمار أن عمال الفرقة «متطوعون». وكثيرًا ما كتب زغلول في مذكراته عن رحلاته حين كان يذهب ليطمئن على أطيانه، مما أتاح له الفرصة ليتعامل مع المجتمعات التي استهدفها تجنيد فرقة العمال المصرية. فذكر في الثامن والعشرين من مايو من عام ١٩١٨، أحداثًا شهدها بنفسه:

> ضج الناس من وسائل الجمع والإكراه التي استعملها رجال الإدارة في حمل الشبان على التطوع للخدمة في الجيش البريطاني. فهم يختطفون الناس من الأسواق والشوارع والطرقات، ومن المساجد والمحاكم، ويدعونهم للختم على طلب التطوع! ومن أبى الختم منهم ضربوه حتى يختم! وفي أغلب المراكز ختَّام يصنع الأختام لمن يُكرَهون على التطوع! ولقد حدثت حوادث كثيرة بين الأهالي والحكام بسبب هذا الخطف، قُتل وجرح فيها الكثيرون[٤٥].

يذكر سعد زغلول «التطوع» هنا ساخرًا، ثم يستعمل لاحقًا كلمة «خطف». وتنقل المؤرخة لطيفة سالم نقلًا مشابهًا مما لم ينشر من مذكرات سعد زغلول في نوفمبر من عام ١٩١٨، حين قال: «افتخر رجال الحكومة بأنهم عارضوا في التجنيد الإجباري حتى منعوه، ولكن الحكام في سائر أنحاء القطر أخذوا يتخطفون الناس من الأسواق ومن الطرقات ومن المساكن في القرى»[٤٦]. وعلى نفس نهجه، أشار المحامي والسياسي البارز أحمد شفيق إلى الكذب في تجنيد فرقة العمال في مذكراته، فيقص حكاية رجل «قاوم بعنف تخلصًا من "التطوع" الذي لم يكن بالطبع بناءً على رغبته، فمات المسكين لساعته»[٤٧]. ويستخدم شفيق هنا كلمة «التطوع» ساخرًا كما فعل سعد زغلول ليصف حال رجال فرقة العمال.

---

[٤٥] مذكرات سعد زغلول، ج٧، ص٣٦.

[٤٦] مصر في الحرب العالمية الأولى، لطيفة سالم، ص٢٥٣.

[٤٧] حوليات مصر السياسية، أحمد شفيق باشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢، ج١، ص١٣٤.

كلما سافر السياسيون والمفكرون القوميون إلى الريف في أثناء الحرب، أدهشتهم الصدمة وأصابهم السخط جرَّاء ما شاهدوه من جماعات رجال فرقة العمال المصرية المكبلين بالأصفاد، تربطهم السلاسل، ويساقون إلى حجز أقرب مركز. وفي إحدى الخطب، وصف سعد زغلول صورة جندي بريطاني «يسوق مصريًا مكبلًا في الحديد»[٤٨]. ويروي كذلك فيما لم ينشر من مذكراته في نوفمبر من عام ١٩١٨، قصة رجال من مجندي فرقة العمال من قرية أطسا بمديرية المنيا حاولوا مقاومة تجنيدهم، فلاقاهم الجنود والخفر بالقوة وساقوهم إلى المركز «مكبلين بالحديد»[٤٩]. وكذلك كتب عبد الرحمن الرافعي، الذي كان ممن شهدوا الحرب العالمية الأولى، أن مجندي فرقة العمال المصرية كانوا «يُربطون بالحبال ويُساقون كالأنعام»[٥٠]. ووصف سلامة موسى مشهد تجنيد رآه وهو شاب، قائلًا:

> ورحلتُ إلى الريف، ورأيت كيف كان يسلّط الإنجليز علينا الموظفين المصريين من مأمورين ومديرين وحكمداريين وشرطة، لخطف محصولاتنا ... فكان الرجل يُربَط بالحبل الغليظ من وسطه، وخلفه أمثاله، ويسيرون على هذه الحال صفًا إلى أن يبلغوا «المركز»، فيُحبسون في غرفة المتهمين ثم يُرحَّلون إلى فلسطين[٥١].

إن أكثر صورة ظلت جليةً في عقل موسى هي صورة خطف المصريين من حقولهم، وربطهم بحبل غليظ، ليُلقى بهم في صفوف فرقة العمال المصرية.

ظلت هذه الصورة عالقة بعقول جماهير المصريين زمنًا طويلًا بعد انتهاء الحرب. ففي عام ١٩٦٩، نُشر مقال في مجلة **المصور** الشهيرة، تضمن رسومًا لمجندي فرقة العمال تربطهم ببعضهم حبال حول خصورهم. ويصف كاتب المقال، المؤرخ المصري أمين عز الدين، تجنيد فرقة العمال في بادئ الأمر بأنه «تعاقد اختياري»، لكنه يصفه فيما بعد «بالخطف»[٥٢]. وحين لخَّصت لطيفة سالم، وهي مؤرخة مصرية من جيل تالٍ، الأدلة التي وثقتها عن فرقة العمال المصرية، كتبت قائلة: «من هذا نرى أن إمداد الجيش البريطاني [بالعمال] أصبح ضريبةً إجبارية تزداد باتساع العمليات الحربية، وسارت مواكب العبيد المقيَّدة بالحديد والأغلال لتحارب معركة الحرية كما كان يسميها

---

[٤٨] مصر في الحرب العالمية الأولى، لطيفة سالم، ص٢٥٣.

[٤٩] مصر في الحرب العالمية الأولى، لطيفة سالم، ص٢٥٢.

[٥٠] ثورة ١٩١٩، ص٧٠.

[٥١] تربية سلامة موسى، ص١١٢.

[٥٢] أمين عز الدين، أول دراسة.

الإنجليز».[٥٣] يصف إليس جولدبرج تطورًا زمنيًا مشابهًا، حيث «عرض [البريطانيون] على الفلاحين العمل مقابل المال في فرقة العمال، ولما لم يتطوع إلا القليل، أخذوهم غصبًا»[٥٤]. ومن ثم فإن الباحثين المهتمين بفرقة العمال المصرية، أعادوا في كتاباتهم الإنجليزية والعربية صياغة ثنائية التعارض بين الحرية والعبودية فجعلوها تطورًا تاريخيًا من «التطوع» إلى «الاختطاف».

الزنوج والقومية العرقية

تذكِّرنا كتابات سلامة موسى بأن المصريين بخلفياتهم المتنوعة تأثروا بمشاهد تجنيد فرقة العمال تأثرًا شديدًا. ولد سلامة موسى في الزقازيق لعائلة مسيحية ميسورة الحال إلى حدٍ ما، وتخرَّج في المدرسة الخديوية في عام ١٩٠٧. توفيَ أبوه تاركًا له ميراثًا أنفق منه على رحلاته الكثيرة بين لندن وباريس بين عامي ١٩٠٧ و١٩١٣. ويحكي موسى في مذكراته عن أثر هذه الرحلات في حياته. إذ انضم إلى الجمعية الفابية وصار على دراية بالتيارات الجارية للفكر الدارويني الاجتماعي الذي كان في نظره مفتاح تقدم الأمم التي سحقها الاستعمار[٥٥]. وفي أثناء إقامته في أوروبا، تابع موسى مناظرات حول اليوجينيا (التحسين الجيني)، وأرسل مقالات إلى مجلة **المقتطف** العلمية لصاحبها فارس نمر حين أنشئ معمل اليوجينيا وجمعية تعليم اليوجينيا في لندن في عامي ١٩٠٧ و١٩١١[٥٦].

عاد سلامة موسى إلى مصر عدة مرات خلال تلك الفترة، ومر بتجارب فارقة أسهمت في تشكيل آرائه آنذاك. فباريس كانت مسلوبةً «بالهوس بمصر»، وفوجئ موسى بكمية الأسئلة التي وُجِّهت له عن مصر القديمة، وراعه أن الأوروبيين هم الخبراء الكبار في مصر القديمة، وأن مواطنيه من المصريين إما لا يعرفون شيئًا عن الفراعنة أو يرونهم كفرة ملعونين. فكان أول ما فعله حين عاد إلى مصر حجز تذكرة مع شركة توماس كوك للسفر إلى الأقصر[٥٧]، وأمضى شهرين يجوب الصعيد ويدرس الآثار الفرعونية قبل أن يعود إلى أوروبا. وحين استقر في مصر أخيرًا في عام ١٩١٤، بدأ يعمل مع شبلي شميل –المترجم الشهير لأعمال داروين إلى العربيةعلى مجلة **المستقبل**. نشرت المجلة مقالات حول مواضيع مباشرة وواضحة كثيرة منها العلم،

---

[٥٣] سالم، **مصر في الحرب**، ص ٢٥٣.

[54] E. Goldberg, "Peasants in Revolt," 263.

[55] El Shakry, *Great Social Laboratory*, 62; Egger, "A Fabian in Egypt," 123–126.

[56] Elshakry, *Reading Darwin*, 246.

[٥٧] تربية سلامة موسى، ص٧٢.

والاشتراكية الإصلاحية، وتقدم العصر. ولكن المجلة أُغلقت بيد الرقابة الإنجليزية الصارمة، فعاد موسى محبطًا إلى أطيان عائلته قرب الزقازيق وانهمك في الكتابة والدراسة.



في السلطة
وفيلق العمال

صورة (٨,٢): «الشغل في السلطة»، ١٩٦٩. أمين عز الدين، أول دراسة، مجلة **المصور**، مارس ١٩٦٩.

كانت التي شهد فيها سلامة موسى تجنيد فرقة العمال هي الفترة التي أعاقت فيها حكومة الاستعمار طموحاته المهنية وفيها بدأت كتاباته في رسم مستقبلٍ جديد للمصريين يرجعون فيه إلى ماضيهم الفرعوني. وكتب في مذكراته قائلًا إن المشهد كان «كأنهم في قرية زنجية» والإنجليز كالنخاسين كبسوها «لخطف سكانها وبيعهم في سوق

الرقيق»[٥٨]. لابد أن معاملة المصريين كأنهم «زنوج» أهانت موسى أكثر من غيرها بسبب نفوره الواضح من الأفارقة السود. فكما أوضحت مروة الشاكري، اختلف موسى مع محرري **المقتطف** وهو مراسل خارجي يكتب تقاريره عن أبحاث اليوجينيا، مصرًا أن «العلم أثبت أن أدمغة الزنوج أقرب لأدمغة القرود»[٥٩]. وقد فزع من فكرة أن يُجمع المصريون مع الأفارقة السود فيما يسمى «بفرق العمال الملونين» إبان الحرب، فبدأ التأكيد في كتاباته على التميز العرقي والسمو الحضاري للمصريين.

وضع سلامة موسى في كتابه **مصر أصل الحضارة** (١٩٣٥) نظرية كاملة للقومية العرقية المصرية. ومجرد العنوان يظهر كم تغيرت مفاهيم الانتماء الجماعي في فترة ما بين الحربين. فبينما قابل الجيل السابق كلمة (civilization) بكلمة «التمدن» في العربية، والتي تشير إلى السفر إلى المدينة، يمكن لأي أحد نظريًا أن يفعل ذلك في حياته؛ استخدم موسى كلمة «حضارة» ليبرز اختلافًا في فهم الحضارات يجعلها جماعات بشرية متمايزة بعضها عن بعض، يمكن تصنيف شعوب العالم فيها. فيقول عن جميع المسلمين والمسيحيين المقيمين في مصر، والفلاحين منهم على وجه الخصوص، إنه «يجري في عروقنا الدم الذي كان يجري في جدودنا قبل خمسة آلاف سنة»[٦٠].

بنى موسى على التحليل التشريحي المقارن للعالم الأسترالي البريطاني إليوت سميث (Eliot Smith)، فأشار إلى رحلاته الاستكشافية العلمية في الريف، والتي وجدت تشابهًا بين الفلاحين والمصريين القدماء في بنية العظام و«السحنة»[٦١]. وقال إن الناس ست «سلالات بشرية»، ورتب تلك السلالات ترتيبًا زمنيًا طبقًا «لمستوى» تحضرهم. فكانت أحط السلالات هي الأستراليين الأصليين، يعلوهم الزنوج الأفارقة، ثم السلالة الميديترانية (سكان حوض المتوسط)، ومن بعدُ السلالة الألبية (سكان الألب)، والخامسة هي السلالة النوردية (شعوب شمال أوروبا)، وأخيرًا المغول[٦٢]. ينتمي المصريون في رأي موسى إلى السلالة الثالثة. وتلك السلالات لها وجود طبيعي كأن كلًا منها فرد واحد، فتطور كل منها لنفسها شخصية تتبني على ظروف بيولوجية وبيئية. وبمرور الزمن،

---

(٥٨) المصدر نفسه، ص ١١٢.
(٥٩) المصدر نفسه، ص٢٤٦-٢٤٧.
(٦٠) سلامة موسى، مصر أصل الحضارة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص٩.
(٦١) مصر أصل الحضارة، ص٩.
(٦٢) المصدر السابق، ص١٧-٢١.

تنقسم تلك السلالات إلى «أمم»، ولكل أمة خصوصياتها[٦٣]. وبناء على الأفكار الداروينية الاجتماعية التي أثرت عليه في شبابه، وعلى ضبابية معنى كلمة «أمة» التي أعيد تعريفها مرارًا، أسس موسى مفهوم «الشخصية المصرية» الذي كان، كما تقول أمنية الشاكري، «شديد الشبه» بالمفاهيم المنتشرة عن العرق آنذاك[٦٤].

حينما كان موسى يشاهد جماعات الرجال يُبعث بهم للعمل في فرقة العمال المصرية، كان محمد صبري [السوربوني] في باريس يدرس التاريخ. ولد محمد صبري لمفتش زراعي بالدلتا، وبدأ تعليمه في كُتّاب القرية، ثم انتقل إلى القاهرة ليتم تعليمه. ثم التحق بالسوربون في عام ١٩١٣ وظل يدرس هناك طوال فترة الحرب. وحين حصل على الليسانس في عام ١٩١٩، عمل سكرتيرًا خاصًا للوفد في أثناء مؤتمر السلام بباريس[٦٥]. ونشر في عام ١٩١٩ أولَ جزء من جزأي كتابه الذي أرخ فيه لثورة ١٩١٩، على نحو الكتب التي أرَّخت للثورة الفرنسية التي كتبها معلمه ألفونس أولار (Alphonse Aulard).

يبدأ الكتاب بتحليل مطول لسياستين وضعهما الإنجليز غيرتا الطبيعة المعقدة للاحتلال البريطاني تغييرًا شديدًا، وجعلت وضع مصر واضحًا مفهومًا، هما فرض الحماية البريطانية على مصر وتجنيد رجال فرقة العمال المصرية. ذكر صبري ما قال الليبراليون ممن ينتقدون الحكومة البُريطانية في مصر في خمس صفحات كاملة، لكنه اختلف مع الليبراليين البريطانيين الذين رأوا في سياسات فترة الحرب انحرافًا عن الأصل ليس إلا، وأصر على أن البريطانيين كانوا يتصرفون تصرف «حكومةٍ أجنبية سيئة النية» (un gouvernement étranger et malveillant) منذ عهد محمد علي باشا[٦٦]. لم تكن أهمية فرقة العمال المصرية في جدة أسلوب الظلم الواقع على أفرادها، وإنما لأن «الظلم الذي راح الفلاح ضحيته، خاصةً أثناء الحرب، أيقظ أو بالأحرى قوَّى لديه الشعور بحقوقه ... ولهذا السبب، أظهر الفلاح المظلوم منذ زمنٍ بعيد وبطريقةٍ مفاجئة

---

[٦٣] المرجع السابق، ص١٠.

[64] El Shakry, *Great Social Laboratory*, 61.

[65] Goldschmidt, *Biographical Dictionary*, 172.

[66] Sabry, *La Révolution*, 12.

[نقلنا نصوص محمد صبري السوربوني من ترجمة مجدي عبد الحافظ وعلي كورخان الصادرة عن المجلس الأعلى للثقافة في عام ٢٠٠٣، بتصرف يسير وضعناه بين معقوفين. انظر: الثورة المصرية: من خلال وثائق حقيقية وصور التُقطت أثناء الثورة (الجزء الأول)، محمد صبري السوربوني، ترجمة مجدي عبد الحافظ وعلي كورخان، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣. والعبارة المنقولة في ص٣٨. -المترجمان].

أنه قادر على أن يقاوم من أجل ما يعتقد أنه حقوقه السياسية»[٦٧]. رأى صبري أن الظلم الذي تعرض له فلاحو فرقة العمال سمح لهم بأن يعوا هويتهم الجوهرية المصرية.

كذلك طور صبري صورةً للأمة المصرية متأثرًا بشدة بتصور أحمد لطفي السيد عن القومية العرقية. فشبَّه الأمة بالأسرة، وجماعات المصريين المختلفة بأفراد تلك الوحدة العضوية، قائلًا: «ولم يكن ثمة عائلة واحدة ليس منها فرد ينتمي إلى إحدى هذه الوحدات»[٦٨]. يستخدم صبري هنا ليصف ما تشترك فيه الجماعات المختلفة في الأمة الواحدة لفظ (sein) الفرنسي، الذي قد يُترجم كذلك إلى «رحم». وانتقد السياسات البريطانية التي سعت لأن «تبذر الفرقة وتثبت الاختلاف بين طبقات أمة هي بمثابة عائلةٍ واحدة»[٦٩]. إن المصريين عند صبري «أمة متناغمة ... فمصر ليست "تعبيرًا جغرافيًا". إنها أمة حقيقية لا تنتظر إلا استرجاع سيادتها لكي تؤدي دورها الحضاري، كما كان في الماضي»[٧٠]. وهنا يربط صبري بين مصر «الحضارة» وبين الدولة الوطنية التي نشأت من رحم ثورة ١٩١٩.

إن إعلان الحماية البريطانية على مصر وتجنيد رجال فرقة العمال المصرية هو ما جعل صبري يدرك كيف وضعت الحرب المصريين على الجانب الخاطئ من خط اللون العالمي. فنجده يقول:

> [عانت مصر] من أن تجد نفسها تُعامَل باحتقار وقسوة، وكأنها من «[الزنوج] الملعونين» أو من الغجر، وذلك من قِبل الأفواج العديدة من الموظفين الجاهلين المملوئين بالعجرفة، ممن كانت ترسلهم إنجلترا إلى مصر بدءًا من إعلان الحماية، ومن قبل الجنود الإنجليز ممن كانوا يعتقدون «أن مصر إنجليزية، وأن أهلها من الملوَّنين الذي استُجلبوا إليها»[٧١].

لقد درس صبري الثورة وشهدها عيانًا، وفهم أن تصنيف المصريين عرقيًا بأنهم «ملونون» كان من أهم جوانب السياسة البريطانية التي دفعت الناس للحركة. أشار إلى الألفاظ العنصرية التي كان يلقى بها المصريون، حتى أنه وضعها بين علامتي

---

(٦٧) المرجع السابق، ص٤١.
(٦٨) المرجع السابق، ص٤٢.
(٦٩) المرجع السابق، ص٤٣.
(٧٠) المرجع السابق، ص٤٤.
(٧١) المرجع السابق، ص٤٣.

تنصيص ليشير بذلك إلى أنها أفعال كلام من الجنود والضباط المنتشرين في أرجاء البلاد.

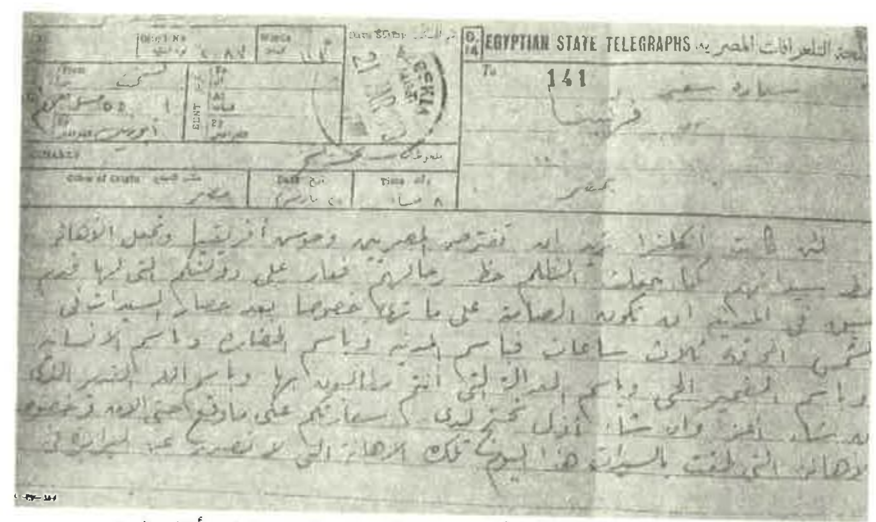
حين ينتقد صبري «الجنود الإنجليز» الذين تصرفوا وكأن «أهل مصر كانوا من الملوَّنين الذي استُجلبوا إليها»، عساه كان يضع المشاهد التي رآها في مصر إلى جانب ما رآه من مشاهد في فرنسا في أثناء الحرب. فقد ذكرنا في الفصل الخامس كيف كانت «فرقة العمال الملونين» في فرنسا تتعرض لفصل صارم ولقوانين جيم كرو وقتما ذهبوا إلى المدن والبلدات المجاورة. لكن رجال فرقة العمال كانوا يُعامَلون المعاملةَ نفسها في مصر، فكانوا يُفصلون في نظام المستشفى الأهلية كما أسموه، ويُحجزون في زنازين منفصلة، ويساقون من قراهم مربوطين بحبال غليظة. لقد فرض الإنجليز، بإنشائهم فرقة العمال المصرية، نظامَ فصل عنصري في مصر. ووفقًا لرواية صبري، أشعل المصريون ثورة ١٩١٩ ردًا على هذا، رافضين مساواتهم «بالملونين».

تحتفظ سجلات وزارة الخارجية الفرنسية بعريضةٍ يظهر فيها شعور المصريين أنهم أعلى منزلة من الأفارقة السود، مما يتوافق مع ذلك الرفض. ففي يوم العشرين من مارس من عام ١٩١٩، وإثر المذبحة والاغتصاب الجماعي البشعين بقرية نزلة الشوبك[٧٢]، أرسل محام أسمى نفسه «أبو شادي» تلغرافًا إلى السفارة الفرنسية بالقاهرة، احتج فيه قائلًا: «لئن كانت إنكلترا تريد أن تفترض أن المصريين وحوش أفريقيا، وتجعل الإهانة حظ سيداتهم كما جعلت الظلم حظ رجالهم، فعار على دولتكم! .... نحتج لدى سفارتكم على ما وقع حتى الآن»[٧٣]. لم يكن الاغتصاب الذي وقع بنزلة الشوبك وحده ما صدم أبا شادي، ذاك المحامي المجهول الذي لا يظهر اسمه في السجلات مرة أخرى، وإنما صدمه وأهانه كذلك محاولة معاملة المصريين على أنهم «وحوش أفريقيا». ورغم أنه لم يصرِّح بما يقصد، فالأرجح أنه يعني بما قال تجنيدَ فرقة العمال المصرية. تتوافق تلك البرقية مع القول بأن وضع المصريين تحت نفس التصنيف العرقي مع الأفارقة السود -كما تجلى في إنشاء فرقة العمال المصرية – أشعل احتجاجات واسعة أثناء الثورة.

---

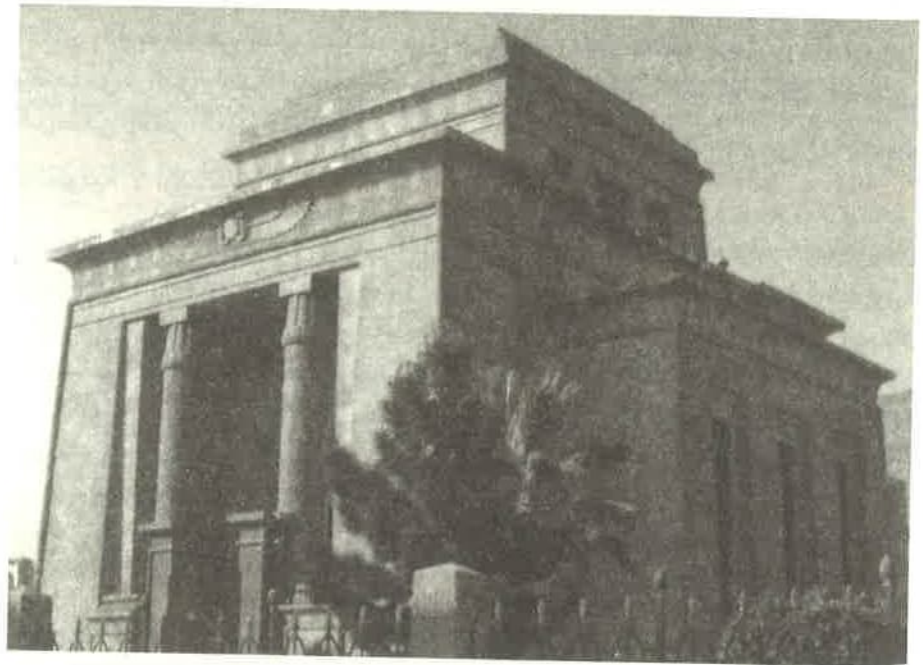
(72) Halls, "'Not Worthy of Belief.'"

(73) Archives Diplomatiques, Ministère des Affairs Étrangères, La Courneuve (hereafter cited as MAE) K/56/1/12: "Africa, Consular" (April 21, 1919).


EGYPTIAN STATE TELEGRAPHS مصلحة التلغرافات المصرية

141

صورة (٨,٣): عريضة من أبي شادي للسفارة الفرنسية في أثناء ثورة ١٩١٩. مصدر الصورة: Archives Diplomatiques, Ministère des Affairs Étrangères, La Courneuve K/56/1/12.



صورة (٨,٤): ضريح سعد زغلول. مصدر الصورة: Wikimedia Commons by Ashashyou-Own work, CC BY-SA 3.0.

انطلاقًا من مفاهيم القومية العرقية المصرية التي نشرها مفكرون مثل محمد صبري وسلامة موسى، بدأ خطاب زعماء الوفد القومي يتخذ منحىً فرعونيًا في فترة ما بين الحربين[٧٤]. فوفقًا لجرشوني وجانكوسكي، لم يكن في خطابات زغلول قبل الثورة وصفٌ للمصريين أنهم «أبناء الحضارتين العربية والفرعونية» إلا في بضع مواضع متفرقة[٧٥]. لكن تأثير الفرعونية بلغ منتهاه في الفترة التي بعد الثورة مباشرة، ونرى جماليات الفرعونية وسياستها واضحين في بناء ضريح سعد زغلول. فكما بيَّن رالف كوري (Ralph Coury)، كان أول اقتراح لتخليد ذكرى سعد زغلول بعد مماته في عام ١٩٢٧ هو «بناء عربي إسلامي أشبه بالمسجد» يمكن الصلاة فيه[٧٦]. لكن هذه الاقتراحات قوبلت بفكرة أن «الضريح يجب أن يكون قوميًا لا دينيًا، فقد كان زغلول زعيمًا قوميًا لا زعيمًا دينيًا»[٧٧]. لقد كان القومي عند الوفد هو الفرعوني، وعلى ذلك، تم بناء ضريح سعد زغلول على الطراز الفرعوني في ثلاثينيات القرن. ومن ثم، صارت الفرعونية حينئذ هويةً مشتركة بين المسلمين والمسيحيين تصل بين المصريين المعاصرين والماضي العريق. كانت الأفكار الفرعونية في أثناء الخلاف حول بناء قبر زغلول مقابلةً للربط بين المصريين والمسلمين، الذي انتشر تعريفه بتعبيراتٍ عرقية في أثناء فترة الاحتلال العسكري البريطاني (انظر الفصل الأول).

«العبودية لا أرضاها»

ربما تأثر الخطاب الوفدي في أثناء الثورة بالربط بين تجنيد فرقة العمال وبين العبودية، كما استلهم البحث عن التميز العرقي للمصريين. إذ رُوي عن علي شعراوي، رفيق سعد زغلول، أنه قال في لقاء مشهور مع المفوض السامي البريطاني ريجنالد ونجِت في الثالث عشر من نوفمبر من عام ١٩١٨ مقاطعًا الحوار: «العبودية لا أرضاها، ولا تحب نفسي أن تبقى تحت ذلها»[٧٨]. وذكر عبد الرحمن فهمي، الذي كان حاضرًا، في مذكراته أن اعتراض شعراوي الشديد صار عبارة يرددها الشعب حين شاع

---

(74) Gershoni and Jankowski, *Egypt, Islam, and the Arabs*, 164–190.

(75) Gershoni and Jankowski, *Egypt, Islam, and the Arabs*, 50.

(76) Coury, "Politics of the Funereal," 191.

(77) Coury, "Politics of the Funereal," 191.

(٧٨) خمسون عامًا على ثورة ١٩١٩، أحمد عزت عبد الكريم، مؤسسة الأهرام، مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة، ١٩٧٠، ص١٣٥.

خبر اللقاء في مصر[٧٩]. ومن المفارقات أن شعراوي نفسه ينتمي لوسط اجتماعي من البيوت المصرية العثمانية التي اعتمدت على الرق للتكاثر، واستمرت كذلك حتى بعد إلغاء العبودية رسميًا في مصر في عام ١٨٧٧[٨٠]. يرفض شعراوي أن تكون علاقة المصريين بالبريطانيين كعلاقة العبد بسيده، وبهذا يتوافق خطابه مع الأفكار المعاصرة عن سمو المصريين على الأفارقة السود، حتى وإن كانت تحرّك الناس إلى توجه مضاد للعنصرية التي ترفع البيض على من دونهم[٨١].

كذلك استخدم سعد زغلول الأفكار المعاصرة عن الهوية العرقية للمصريين في مراسلاته مع الوجهاء الأجانب. انتشر في رسائله الخلط بين مفهومي العرق والأمة، وقد جُمعت تلك الرسائل وتُرجمت فيما يسمى **بالكتاب الأبيض**. فعلى سبيل المثال، في إحدى الرسائل في الحادي عشر من يناير عام ١٩١٩، يذكر «الأحقاد التي تزرعها في نفوس الشعوب [الأعراق (races)] الصغيرة، سيادة الشعوب الكبيرة عليها بالقوة القاهرة» وفي الصفحة التالية يكتب عن الحاجة إلى «حرية الشعوب المظلومة [الصغيرة (small)]» لحل تلك الأزمة[٨٢]. إن التماثل بين العرق والأمة عند زغلول ينعكس هنا باستخدامه الصفة ذاتها بعد الكلمتين، رغم قربهما بعضهما من بعض في النص.

---

(٧٩) مذكرات عبد الرحمن فهمي: يوميات مصر السياسية، إشراف وتحقيق د. يونان لبيب رزق، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٨، ص ٥١-٥٢.

(٨٠) للمزيد عن عبودية البيوت في وسط علي شعراوي الاجتماعي، انظر الفصل الأول من كتاب (Baron, Egypt as a Woman)، وعن استمرار استرقاق الأفارقة السود حتى تسعينيات القرن التاسع عشر، حتى بعد إلغاء العبودية رسميًا، انظر:

Troutt-Powell, *A Different Shade*.

(81) Cuno and Walz, *Race and Slavery*, 10.

(82) Zagloul, White Book, 12–13.

[الكتاب الأبيض هو كتاب نشره محمد محمود باشا في الولايات المتحدة في عام ١٩١٩ باللغة الإنجليزية، وضم فيه مجموعةً من خطابات ومراسلات الوفد المصري ومجموعةً من الملحقات من تقارير عن عسف الاحتلال بالمصريين، وذلك لحث المجتمع الأمريكي على دعم قضية الاستقلال. ولذلك أوردنا النصوص المنقولة عنه من مصادرها الأصلية إن توفرت لنا. وهذه الرسالة المذكورة هي بيان مستفيض أعلنه الوفد على النزلاء الأجانب في مصر بتاريخ العاشر من يناير في عام ١٩١٩، وفقًا لعبد الرحمن فهمي في مذكراته ولأحمد شفيق باشا في حولياته، لكنها مؤرخة بالحادي عشر من يناير في الكتاب الأبيض، وهي كذلك أكثر استفاضةً في النسخة الإنجليزية عن العربية، ويبدو من ذلك أنها صدرت بالإنجليزية بالأساس ثم تُرجمت. ونقلنا النص العربي هنا عن: مذكرات عبد الرحمن فهمي: يوميات مصر السياسية، ج١، ص٨٢-٨٣.

ومن المهم هنا لفت الانتباه إلى أن النص العربي يختلف عن النص الأجنبي الذي بنى عليه المؤلف تحليله التالي. فأوردنا في متن الاقتباس الكلمة العربية، ووضعنا مقابلها الإنجليزي بين معقوفين. ونميل إلى أن النص الإنجليزي هو من تدوين محمد محمود باشا الذي كان ممثل الوفد في الولايات المتحدة، وأشدهم إتقانًا للإنجليزية.

استند سعد زغلول إلى فكرة الوحدة شبه العرقية التي دعمت تصورات الأمة آنذاك، وطرح فكرة وجود هوية «مصرية» جامعة في محاولة لدفع الإنجليز أن يعوضوا المصريين عن تضحيات فرقة العمال بمنح مقعد للوفد في مؤتمر باريس للسلام. وفي برقيةٍ لرئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد جورج بتاريخ الثاني عشر من يناير من عام ١٩١٩، أشار سعد زغلول إلى أن «[التضحيات الضخمة التي بذلناها في الحرب، بأنفسنا وأموالنا، لصالح قضيتكم، كانت لا غنى عنها،] وقد صرَّحتم في مواطن شتى بأن ذلك كان من أكبر العوامل في إحراز النصر»[٨٣]، وإن استخدام سعد زغلول ضمير المتكلم «ـنا» يجعل الوفد وفرقة العمال المصرية كيانًا واحدًا. كان سعد زغلول على دراية بثناء السلطات العسكرية البريطانية على عمل فرقة العمال المصرية في الحرب، وقد ذكرنا ذلك في الفصل الرابع، فجعل من إسهامات الفرقة في الحرب ذخيرة في خطاباته[٨٤]. ففي رسالة أخرى إلى أعضاء مجلس العموم البريطاني بتاريخ الرابع عشر من يوليو من عام ١٩١٩، قال زغلول: «إن الجنرال إدموند إللنبي، وهو أجدر من في العالم بالكلام عن ذلك الأمر، قد أعلن صراحة بأن معونة مصر كانت العامل الأهم في نجاح الحملة البريطانية الحاسمة على الأتراك»[٨٥].

فتحت إنجازات رجال فرقة العمال المصرية بابًا للوفد بأن يماثلوا هويتهم بهوية الفلاحين الذين كانوا أغلب من بالفرقة. وذلك رغم أن أخا سعد زغلول الأصغر، قبل أقل من عقدين، وصف الفلاح بأنه «أبو الجهالة المحقَّر المرذول»،[٨٦] وكان شعور كثير من مثقفي الحضر بمصر[٨٧] تجاه أهل الزراعة في الريف شعور المشفق على البائس، ومرشد الجاهل. وما إن انتهت الحرب العالمية الأولى، حتى صار لدى مثقفي

ومن ثم نبني عليه سؤالنا: هل ينطبق التحليل الذي أورده المؤلف على سعد زغلول أم على محمد محمود باشا؟ -المترجمان]

(83) Zagloul, *White Book*, 27.

[يختلف هنا أيضًا النص العربي عن النص الأجنبي و، وقد أوردنا الترجمة الحرفية للنص الأجنبي بين معقوفين، ومقابل ذلك في النص العربي هو قول سعد زغلول للويد جورج: «وانتفعتم في هذه الحرب برجالها وأموالها»، أي أنه يتحدث عن مصر، لا عن الوفد، ولا «عنا»، أما النص الأجنبي فيتحدث بضمير المتكلم فعلًا كما أورد المؤلف. انظر: مذكرات عبد الرحمن فهمي، ج١، ص٨٩. -المترجمان]

(84) Murray, *Murray's Despatches*, 123.

(85) Zagloul, *White Book*, 42.

[لم نتمكن من تحصيل النسخة العربية لهذا الخطاب. -المترجمان]

(٨٦) انظر: أحمد فتحي زغلول، سر تقدم الإنكليز السكسونيين، ص٢٣.

(٨٧) عبد الكريم، **خمسون عامًا**، ص ١٣٥.

الحضر دافع جديد ليماثلوا هويتهم بهوية العمال والفلاحين الذين شكلوا أغلب من في فرقة العمال.

كانت أهم نقطة عند سعد زغلول هي أن الدور الحاسم الذي أداه العمال المصريون وغيرهم من غير البيض في الحرب يقلب النظام العالمي القائل بتفوق البيض رأسًا على عقب، وأبرز ذلك بإيضاح مدى اعتماد دولة الاستعمار على مستعمراتها لا العكس. ففي رسالة إلى مجلس العموم البريطاني، قال سعد زغلول:

> أوضح البريطانيون بالتجائهم إلى مستعمراتهم وللأعراق التي يحكمونها، كي يحصلوا على الرجال والمال، أن العالم ما عاد يتسع لنظامين أخلاقيين، أحدهما تُعامَل به أوروبا، والآخر لآسيا وإفريقيا[٨٨].

كسرت حركة العمال والجنود المهاجرين في الحرب الحواجز المفاهيمية والمكانية التي فصلت «أوروبا» عن «آسيا وإفريقيا»، لتخلق مساحةً متشابكة لا تتوافق مع التقسيم العرقي الذي ساد الأجيال السابقة. وإن خلق هذا التصور المكاني الجديد، والذي أطلقته هجرة الملايين من العمال من شتى بقاع الأرض للمشاركة في الحرب العالمية الأولى، تضمَّن خبرات وتجارب مشتركة من التضحيات، كانت أساسًا للحيد عن فكرة تفوق البيض العالمية إلى السيادة لكل أمة.

"العبور إلى" الهوية المصرية

اعتمدت مصداقية سعد زغلول كحاملٍ لهذه الرسالة على مصداقية عبوره إلى الهوية المصرية (أي تمثله إياها). ففي أوائل القرن العشرين، كتب الأمريكيون من أصل أفريقي من أمثال تشارلز وادل تشسنت (Charles Waddell Chesnutt)، وجيسي فوسيت (Jessie Fauset)، وجيمس ولدن جونسون (James Weldon Johnson)، ونيلا لارسن (Nella Larsen) عن العبور العرقي ليستكشفوا جوانب السلوك في العرق وتعددية الهوية العرقية وتجاوزها مجرد الشكل الظاهري[٨٩]. يُعرَّف العرق في سياق الولايات المتحدة بأنه قسمان، ثنائية الأبيض والأسود؛ والعبور العرقي يُفهم عادةً بأن فردًا من جماعةٍ عرقية معينة (الأسود فاتح البشرة في غالب الأمر) يتمكن من «العبور» وتحصيل عضوية جماعةٍ لا ينتمي لها حقًا. وليس هذا مرادي من استعمال مصطلح العبور، إنما أتبع هنا خطوات الباحثين الذين درسوا نظريات العبور العرقي بوصفها بابًا للتشكيك في

---

(88) Zagloul, *White Book*, 42.

(89) Rottenberg, "Passing."

طبيعة تصنيفات الهوية العرقية والجنسية التي ينشئها المجتمع[٩٠]. وتوحي ظاهرة العبور العرقي بأن العرق يظهر في علامات مرئية مثل لون البشرة، لكن بعض الروايات، كرواية نيلا لارسن **العبور**، تُذكِّرنا مرارًا بأن لون البشرة ليس العامل الوحيد ولا حتى أهم عامل في تعريف عرق أحدهم.

تعتمد ثقافة الأمريكيين من أصل أفريقي على فكرة أن الهيئة الغامضة لأصحاب العرق المختلط هي ما يعطيهم المجال أن «يعبروا» في سياقاتٍ مختلفة[٩١]. أما في مصر كما رأينا، فمفهوم العرق المصري ملتبس ومرن بالفعل، وهو ما جعل الكثيرين على اختلاف ملامحهم يدَّعون «المصرية». وقد حاول مثقفون من أمثال أحمد لطفي السيد أن يرسموا خطًا عرقيًا للمصريين يقع في موضعٍ ما بين السواد والبياض، وأكدوا أن الفلاح المصري هو مثال النقاء العرقي المصري الواقع بين هذين القطبين. وذلك ما شق الطريق لسعد زغلول، ابن العمدة الذي يشبه الريفيين شكلًا ولسانًا، أن يجسِّد أمل الأمة في تقرير مصيرها بنفسها. لقد كان الأصل الريفي ونسل العائلة، لا مجرد لون البشرة، هو ما يجعل أحدهم «يعبر» إلى جانب المصريين.

وهذا تعليق علقه عباس العقاد، الصحفي الصعيدي المولود بأسوان والذي شهد الثورة، يوضِّح كيف كانت هوية الفلاح هي ما جعلت سعد زغلول مصريًا خالصًا عند الناس:

> يقول لنا علماء التوحيد: إنَّ المعجزة الكبرى لنبي من الأنبياء هي المعجزة التي تطابق خلائق الأمة المبعوث فيها ... محمد بُعث بالقرآن في أمة الفصاحة والبيان ... فما أصدق ما يقول العلماء فيما رأيناه في عصرنا من سير الزعماء! ... سعد خير زعيم في مصر لأنه فلاح من أمة الفلاحين ... وليست آية أفصح من هذه الآية على صدق النهضة السعدية وجريانها مع طبائع الأمور[٩٢].

يقارن العقاد سعد زغلول بالأنبياء، فككل أنبياء الأديان الإبراهيمية، اختاره الله لأن صفاته تماثل تمامًا الأمة التي يريد الله أن يبعث إليها رسالة. فإن كانت الرسالة مبعوثة إلى المصريين، فلا خير من فلاح يختاره الله ليحملها. وفي هذه الحالة، كانت أصول سعد زغلول الريفية هي ما يلزمه لأن يكون مصري العرق.

---

[90] Ginsberg, "Politics of Passing," 2.

[91] Williams, "Race-ing and Being Raced," 62.

[٩٢] سعد زغلول زعيم الثورة، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص٩٢.

سمى العقاد الحركة التي جذبها زغلول بالنهضة السعدية، مبرزًا الصلة الشخصية بين سعد زغلول والثورة في المخيلة الشعبية. ويردد محمد صبري هذه الرؤية حين يصف سعد زغلول بأبي الثورة (père de la révolution)[٩٣]. فمع رؤية الأمة بوصفها عائلة، بإمكان سعد زغلول أن يؤدي دور الأب، إذ بسبب ميلاده في الريف وسفره إلى القاهرة للتعليم، جسّد زغلول شخصية المصري «المتمدن» التي تنتمي لأكثر من عالَم. وكان زغلول بالنسبة للمفكرين المتنقلين أولي الأصول الريفية، من أمثال صبري والعقاد، الشخصية التي يمكنها قيادة المصريين «نحو المسار الطبيعي للأمور».

وحتى أولئك الذين مكثوا في الريف انجذبوا لزغلول بسبب هوية الفلاح الظاهرة عليه. نرى ذلك في الكتاب المميز المعنون «**مذكرات قرية**» (١٩٩٦) لعصمت سيف الدولة. ولد عصمت سيف الدولة في عام ١٩٢٣ بقرية الهمامية بأسيوط، وطُلب منه أن يكتب «سيرة قريته»، لأنه كان «ابن القرية التي تسربت حكاياتها إلى مسامه»[٩٤]. فلم تكن تلك الحكايات هي التي شهدها سيف الدولة بنفسه وحسب، وإنما أيضًا الحكايات التي سمعها طوال حياته بما جعله أهلًا لكتابة سيرة أهل الهمامية. إن الأصول الشفهية والسماعية لحكايات سيف الدولة تتجلى في استخدامه العامية المصرية باستفاضة على لسان الشخصيات في النص، كما تظهر في الطبيعة الحوارية للحكاية.

يقص الراوي دخول الثورة قرية الهمامية في حوار بينه وبين شخصية اسمها فكري عبد النبي، ففي خضم الثورة، يأتيه رجل يطلب منه أن ينضم إليها، فيصفه بأنه «رجل عظيم من رجال سعد باشا»[٩٥]. أعطى الرجل أسلحةً لفكري ووافق على الانضمام قائلًا: «سمعتُ في أسيوط أن قد سقطت حكومة الباشوات التي يرأسها رشدي بك، وغدًا تنتصر الثورة وتقوم حكومة الفلاحين». وفقًا لقصة سيف الدولة، إن ما أقنع فكري أن ينضم إلى الثورة هو صفات سعد زغلول الشخصية، وبالأخص كونه واحدًا من الفلاحين. وحينها، كانت حكومة رئيس الوزراء حسين رشدي، ابن العائلة التركية الذي تزوج امرأة فرنسيةً بيضاء[٩٦]، توصف تحقيرًا بأنها «حكومة الباشوات»، وهي الكلمة التي تصف رجال الأرستقراطية العثمانية، وأكثرهم مولودون لأمهات بيضص، الذين كانوا يشكلون الطبقة العليا من المجتمع المصري لقرون.

---

(93) Sabry, *La Révolution*, 28.

(٩٤) سيف الدولة، **مشايخ جبل البداري**، ص ٢

(٩٥) سيف الدولة، **مشايخ جبل البداري**، ص١٦٨.

(96) Goldschmidt, *Biographical Dictionary*, 167.

لذا، كانت القومية العرقية تعمل في اتجاهين. فمن جهة، في التعامل مع جمهور عالمي، كان لزغلول ومن مثله من القادة الحق في الانتساب إلى تضحيات فرقة العمال المصرية، فيضع لنفسه وللوفد الاستقلال السياسي تحت مسمى رد الحلفاء الذيْن للمصريين وتقديرهم لدورهم في نصرهم في الحرب. وفي الوقت نفسه، كانت الفئات في شتى أنحاء مصر ، ممن أرادوا تحرير أنفسهم من بطش الإنجليز وفساد الأتراك، على استعداد لأن ترى في سعد زغلول وأمثاله فلاحين مثلهم وبدأوا في اعتباره «أبًا للثورة».

الخلاصة

ركز هذا الفصل على الدور الرمزي لفرقة العمال المصرية في ثورة عام ١٩١٩. ففي رسائل سعد زغلول المنشورة في **الكتاب الأبيض**، كانت صور الوحدة العرقية للمصريين كلهم، مسلمين ومسيحيين ونخبًا حضرية وفلاحين ريفيين، تعني أن الخدمة المجيدة لفرقة العمال المصرية في الحرب منحت الوفد الحق في الجلوس في مؤتمر باريس للسلام. فالأمة المصرية كانت تُرى وكأنها كيان ميتافيزيقي، يشبه العائلة أو الجسد الواحد، وخدمة بعض أعضائه ومعاناتهم هي خدمتهم كلهم ومعاناتهم كلهم. وإن اعتماد الحلفاء على العمال المصنَّفين عرقيًا من شتى أنحاء العالم هدم نظام تفوق البيض العالمي الذي يتسع كذبًا «لنظامين أخلاقيين، أحدهما تُعامَل به أوروبا، والآخر لآسيا وإفريقيا». فقد تبين أن المصريين في المستعمرات لم يكونوا يعتمدون على البريطانيين ليصيروا "متمدنين"؛ بل إن البريطانيين هم الذين اعتمدوا على العمال المصريين لكسب الحرب.

وعلى رغم أن ثورة ١٩١٩ كانت حركةً مضادة للعنصرية من هذا الجانب، فقد كان تمثيل فرقة العمال المصرية بأنهم «زنوج» أو «وحوش إفريقيا» يشعل ردودَ أفعالٍ شديدة بسبب شعور المصريين بإهانة هويتهم العرقية. فتجنيد الفلاحين في فرقة العمال المصرية كان دليلًا واضحًا على تصنيف الإنجليز العرقي للمصريين بأنهم «شعبٌ ملوَّن». ردًا على ذلك، طرح مثقفون، من أمثال سلامة موسى وقادة حزب الوفد في فترة ما بين الحربين، تصورًا فرعونيًا للهوية القومية يميز المصريين عرقيًا، ويعطيهم الحق التاريخي في حكم الأفارقة السود جنوبًا.

جعل القوميون المصريون الفلاحين مثالًا لجوهر «المصرية» بطرق تضع حدودًا عرقية فاصلة، تخط للمصريين طريقًا بين جانبي خط اللون العالمي. وكثير من القادة السياسيين ورؤوس الفكر الذين ذكرناهم في هذا الفصل، من أمثال محمد عبده، وأحمد لطفي السيد، ومحمد صبري، وسلامة موسى، وسعد زغلول، يشتركون في أصولهم؛ فقد وُلدوا وتربوا في الريف ثم بعث بهم إلى المدن للتعلم. لقد كانوا فلاحين فتمدنوا، وبسبب

أصولهم الريفية «عبروا» إلى جانب المصريين. إن ظاهرة العبور العرقي تلفت النظر إلى جوانب في الهوية العرقية غير لون البشرة وحسب، وفي السياق المصري، تضمَّن ذلك موطنك الأصلي، ولسانك، وأصل أبويك. لقد صار الفلاحون مستودع الأمة العرقي، وصار الدور الذي أدوه في ثورة ١٩١٩ عاملًا رئيسًا في رؤية الأجيال التالية للثورة بعدسة قومية.

[٩]

فرقة العمال المصرية وثورة ١٩١٩

قدّمت الأيديولوجيا القومية «الأمة» في خطابها السياسي بوصفها كيانًا واحدًا يستحق أن يمثّل نفسه على المسرح العالمي؛ وقد أخذ المؤرخون هذا الكلام على عواهنه؛ فقالوا إن الاحتجاجات التي اجتاحت البلاد بعد القبض على سعد زغلول وأعضاء الوفد ونفيهم، مظاهرَ مختلفة لإرادة هذا الكيان الجمعي. فقال الرافعي إن الثورة «شبّت ... في شهر مارس سنة ١٩١٩ ... وامتدت الحركة إلى الأقاليم ... [و] شملت البلاد فجأة؛ وعلى غير انتظار، وكان ذلك من مظاهر جلالها وروعتها، وظهر فيها فضل الشعب»[١]. ويقول نداف صفران بمثل ذلك: «اندلعت ثورة ١٩١٩، وكانت الأمة كلها من الفلاحين والباشاوات والأميين والمتعلمين ... وراء سعد زغلول يقاتلون بشجاعة عظيمة وتضحيات كبرى، دفاعًا عن المُثل الوطنية الليبرالية التي يمثلها»[٢]. ويتردد صدى هذا الكلام فيما كتبه جرشوني وجانكوسكي عن الثورة، حين قالا: «بدأت في [نوفمبر] ١٩١٨ بمناورات سلمية قام بها السياسيون المصريون ... وفي ١٩١٩ تصاعدت حتى صارت احتجاجات عامة وأعمال عنف موجهة ضد الوجود البريطاني في مصر»[٣].

يعيب هذه السردية ما أشرنا إليه في الفصل الثاني، وهو صعود موجة من المقاومة العنيفة اجتاحت الريف في صيف عام ١٩١٨؛ أي **قبل** عامٍ تقريبًا من القبض على سعد زغلول وأعضاء الوفد ونفيهم. وكان سعد زغلول يعلم بهذه الاحتجاجات منذ مايو ١٩١٨[٤]. وكان رجال فرقة العمال المصرية، وأهاليهم في مصر، قد اتخذوا إجراءً سياسيًا لم يتوقف عند كتابة المقالات وإلقاء الخطب؛ بل إنهم عرّضوا أنفسهم للخطر، وهم يقاومون أعمال التجنيد لفرقة العمال المصرية، وذلك طوال صيف ١٩١٨. وكان سعد زغلول شاهد عيان على هذا، مما دفعه إلى الدفاع عن قضيتهم وتوليها بنفسه.

يحلل إليس جولدبرج وراينهارد شولتز (Reinhard Schülze) هذه الاحتجاجات التي اجتاحت الريف تحليلًا دقيقًا مفصّلًا، ووجدا أن أهم أسباب الثورة ليس مسألة الوفد بل المظالم التي جرّتها سياساتٌ فرضت نقل الماشية والمنتجات الزراعية والعمال من الريف

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩، ص١٧.

(2) Safran, *Egypt in Search*, 101.

(3) Gershoni and Jankowski, *Egypt, Islam, and the Arabs*, 40.

(٤) سعد زغلول، مذكرات سعد زغلول، ج٧، ص٣٦.

من أجل الحرب[٥]. ويصيب جولدبرج إذ يقول إنه «من الخطأ أن نتصور أن أعمال التخريب الواسعة التي قام بها أفراد أو مجموعات صغيرة تعني بالضرورة وجود شبكة واسعة الانتشار من الأعمال الجمعية»[٦]. لكن نموذجه الآلي الذي يعتمد على الاختيار العقلاني الفردي، يغفل ما ظهر في ذلك المنعطف الخطير من صور التضامن الكثيرة التي تعارض المصالح الشخصية. ومنها التضامن مع عمال الفرقة المصرية الذين لم يتوقف إرسالهم إلى فلسطين بمئات الآلاف طوال الثورة. أما شولتز، فقد حلل أنواع النشاط السياسي المختلفة التي انتشرت في الريف، وقال إنها دالة على مدى «تغلغل» الاستعمار البريطاني في قريةٍ بعينها أو مكانٍ بعينه «فأعاد هيكلة» الاقتصاد الريفي. وهو بهذا يراعي السياق العالمي شديد الأهمية، إلا أن محاولته مطابقة خارطة الاحتجاجات الشعبية بخارطة الاقتصاد الاستعماري؛ يختزل الأولى ويجعلها مجرد ظواهر هامشية تابعة.

يحلل هذا الفصل الثقافة الشعبية وأعمال الاحتجاج من ١٩١٨ و١٩١٩، بغرض رسم صورة أدق للذاتية أو الذاتيات السياسية التي كانت وراء حراك الثورة. ومقولتنا الأساسية فيه تخالف التصورات التي تجعل المصريين ذاتًا جمعية تتصرف على نحو موحَّد؛ إذ نرى أن المحتجين في مختلف أرجاء البلاد كانت تدفعهم أسباب كثيرة مختلفة، وكانت تلك الأسباب تتعارض أحيانًا. وربما كان التضامن مع الوفد مجرد سببٍ ثانوي لهذا الحراك الذي يستهدف ظروفًا أقرب إلى المحلية. وفي أحيانٍ أخرى، كان المحتجون متضررين تضررًا شديدًا بأعمال التجنيد لفرقة العمال المصرية؛ ولا سيما في المديريتين الأقرب إلى الشمال في الصعيد ذي الطابع الثقافي المميز.

تجنيد فرقة العمال المصرية و(إلغاء) التعبئة [وتسريحهم]

لاحظ المصريون جميعًا ازدياد عملية تجنيد العمال، منذ عام ١٩١٧، وقد حاول أحد كتاب جريدة **المقطم** تخفيف القلق الشعبي على من أُخذوا من الرجال، فقال: «في شهر مارس الماضي، أُرسلت بعثات من العمال المصريين من مديرية جرجا للخدمة في فرنسا؛ فبات أهلهم على أحر من الجمر منتظرين ورود الأخبار عنهم. وبينما هم كذلك، حمل **المقطم** إليهم في ١٣ أبريل الحالي بشائر الاطمئنان بوصولهم سالمين»[٧].

لكن مثل هذه التقارير دعائية مفضوحة؛ إذ كانت قصص الظروف السيئة التي تواجهها فرقة العمال المصرية تنتشر في البلاد بالشائعات وما يتناقله الناس من

---

(5) E. Goldberg, "Peasants in Revolt"; Schülze, "Colonization and Resistance."

(6) Golberg, "Peasants in Revolt," 272.

(٧) «العمال المتطوعون»، جريدة المقطم، ٢١ أبريل ١٩١٧.

معلومات. إذ يقول المؤرخ أمين عز الدين إن قصص سوء المعاملة التي يلقاها العمال وارتفاع معدَّل الوفاة بينهم، وصلت إلى مصر مع العائدين من الحرب مما أثنى الناس عن قبول العمل مع الجيش البريطاني، وأدى ذلك إلى نقصٍ كبير في المجندين. وقد قالت إحدى الشائعات إن السلطة قررت حشد جميع البنات والنساء غير المتزوجات، فكان لهذه الشائعة بالتحديد أثر النار في الهشيم، وأدت إلى ارتفاعٍ شديد في معدلات الزواج في الريف[٨]. وفي مايو من عام ١٩١٨، انتشرت شائعات مفزعة بأن مئات الرجال من عمال الفرقة المصرية قُتلوا حين اقتحم الألمان الجيش الخامس في فرنسا، ووصلت الشائعة إلى سلطان مصر وأطلع البريطانيين عليها في مقر المندوب السامي[٩]. وإننا نرى أن تكرار ذكر هذه الشائعات على هذا النحو ليشبه قمة جبل الجليد الذي يمثل القلق الاجتماعي بشأن فرقة العمال المصرية.

تسببت الرقابة الواسعة على الصحف في نقل أي انتقاد لسياسات الحرب إلى وسائل الإعلام الشعبية المختلفة الناطقة بالعامية المصرية، ومنها المسرح والشعر والأغاني. وكان سيد درويش تحديدًا من أشد منتقدي الحرب في أغانيه، وهو يوصف بأنه «أهم شخصية موسيقية مصرية في أوائل القرن العشرين»[١٠]. ولد سيد درويش في الإسكندرية في عام ١٨٩٢، وبدأ مسيرته المهنية بالغناء في المقاهي. وكانت أول شركة اسطوانات تطلبه هي شركة اسطوانات ميشان في مصر في ١٩١٤.

كانت أغلب موضوعات أغانيه مرحة خفيفة، لكن عددًا منها في هذه الفترة المبكرة كان يهاجم سياسات التعبئة الحربية التي تتبعها الدولة الاستعمارية. ومثال ذلك أغنية «استعجبوا يا أفندية» (١٩١٤)، التي يصف فيها نقص الكيروسين والغازولين في مصر جراء تخزين الجيش البريطاني الوقود في بداية الحرب[١١]. وعنوان الأغنية جملة تعجب يُخاطب بها الأفندية، أي أبناء الطبقة الوسطى العليا من أمثال سعد زغلول والمثقفين الذين سبق ذكرهم في الفصل الثامن[١٢]. وفي صياغة هذه الأغنية على هذا النحو، يبرز سيد درويش الاختلاف الكبير بين الطبقات الاجتماعية والاقتصادية في مواجهة صعوبات زمن الحرب؛ فالفقراء يعانون كما كانوا يعانون دائمًا، والأفندية «يتعجبون» مما يجري. ويحمل عنوان أغنية أخرى من هذه الفترة شيئًا من المفارقة،

---

(٨) أمين عز الدين، أول دراسة.

(9) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/75: Meeting at Residency (May 6, 1918).

(10) Z. Fahmy, Ordinary Egyptians, 115.

(11) Z. Fahmy, Ordinary Egyptians, 115.

(12) Ryzova, *Age of the Efendiyya*.

وهي «الكُترة» (١٩١٩)، وقد كُتبت لتكون رسالة إلى النخب التي لا يراها الفقراء[١٣]. ويمكن أن نعد أغاني سيد درويش التي ظهرت في زمن الحرب دليلًا على ما واجه مختلف الفئات الاجتماعية في مصر وقت تنفيذ الجيش البريطاني عمليات التعبئة للحرب.

وقد صارت أغنية «سالمة يا سلامة» (١٩١٨) واحدةً من أشهر أغاني سيد درويش التي كتب كلماتها بديع خيري احتفالًا بعودة أحد عمال الفرقة المصرية من الحرب سالمًا، وشاعت الأغنية في طول البلاد وعرضها. يقول زياد فهمي إن الأغنية «معروفة لدى الجميع» في مصر اليوم، وإنها تُغنى حتى حين يعود الأطفال من الرحلات المدرسية[١٤]. وكلماتها كما يلي:

سالمة يا سلامة ... آه يا سالمة يا سلامة
صفر يا وابور واربط عندك ... نزلني في البلد دي
بلا أميركا .. بلا أوروبا .. ما في شي أحسن من بلدى
دي المركب اللي بتجيب أحسن من اللي بتودي
يا اسطى بشندي
سالمة يا سلامة ... آه يا سالمة يا سلامة
سُلطة ما سُلطة اهو كله مكسب ... حوّشنا مال وجينا
شُفنا الحرب وشفنا الضرب وشفنا الديناميت بعنينا
ربك واحد ... عمرك واحد ... ادى احنا اهو رحنا وجينا
ايه خَسّ علينا؟!
سالمة يا سلامة ... آه يا سالمة يا سلامة[١٥]

---

(١٣) كلمات الأغنية هي:
عايشين في وادي النيل نشرب بالعدّادات على مللي وسنتي
من جاز لمّلح ومن سُكر لتُرمايات لخواجة كريانتي
ربنا ما يوَريكش لوصتنا، الجيب نضيف أمّا البيت أنضف
والهدمة دي اللي على جتتنا محجوز عليها؛ دي عيشة تقرَف
نقلنا النص العربي والإنجليزي للأغنية من مقابلة شخصية مع ليلى سليمان في العشرين من يناير من عام ٢٠١٦.
[نقلنا النص العربي المذكور بالأعلى عن تسجيل للأغنية متوفر على الإنترنت عبر الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=kvu0_9Iqxxo –المترجمان]

(14) Ryzova, *Age of the Efendiyya*, 116, n90.

(١٥) نقلنا النص العربي والإنجليزي للأغنية من مقابلة شخصية مع ليلى سليمان في العشرين من يناير من عام ٢٠١٦. وانظر أيضًا:

Z. Fahmy, *Ordinary Egyptians*, 116n89.

لا تصوّر هذه الأغنية عمال الفرقة المصرية بصورة «العبيد» كما تفعل كتابات الأفندية؛ بل تصورهم معتدّين بأنفسهم، مقتصدين، يعتبرون العمل في الحرب فرصة لادخار المال وخوض المغامرات. مع ذلك تقر الأغنية بصعوبات التجربة وخطورتها، وتحمل كلماتها موضوعات وطنية، تظهر في رغبة المغنى في العودة إلى بلده. وتفرض الأغنية قراءة وطنية لكلمة بلد بوضعها مقابل غيرها من البلاد «بلا أميركا .. بلا أوروبا.. ما في شي أحسن من بلدى». وهكذا أسهمت هذه الأغنية الذائعة في مرحلة الإعداد للثورة في نشر الموضوعات الوطنية التي تؤكد عظمة مصر في مواجهة القوى الاستعمارية.

وتستغل أغنية أخرى اشتهرت عن فرقة العمال المصرية ذلك التداخل في المعنى الذي يسكن كلمة بلد؛ وهي أغنية «يا عزيز عيني». فكما رأينا في الفصل السادس، تقول مصادر بريطانية عديدة إن العمال المصريين كانوا يغنون هذه الأغنية وقت الحرب(١٦). ووفقًا لوثيقةٍ في الأرشيف البريطاني، توجد صيغة وطنية من هذه الأغنية تركز على خبرات فرقة العمال المصرية وعملية تجنيدهم التي شاعت في مصر في صيف عام ١٩١٨:

آه يا عزيز عيني ... وانا بدّي أروح بلدي / يااللي ركباكوا نفوسكم .. روحوا للسلطة

هياخدوا هدومكم ويدوكوا مخالي / ياخدوكو الجبل وأهاليكو حزانى

بلدي يا بلدي والسلطة خدت ولدي / بلدي يا بلدي والسلطة هدت بلدي

يا عزيز عيني وانا بدي أروح بلدي / لما كتبوا اسمي ما كنتش راضي

بلدي يا بلدي والسلطة خدت ولدي / خدوني بالسخرة من الغيط ... والقطر عمل تيت

«على فين واخدين ولدي» ... «هيغيب سنة ولا اتنين؟!»(١٧)

---

(١٦) IWM, EKV 3/10: Ephraim (June 2, 1918), 112; "Love Letters," *ELC News*, March 15, 1919.

(17) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/135: "Confidential: Complaints" (August 10, 1918).

[لم نجد أيّ مصدر دوّن النص العامي للأغنية، فارتجلناها قدر الإمكان، والحِمل على باحثي التاريخ الشفاهي أن يسدوا هذه الثغرة في البحث بأن يصلوا لمنطوق الأغنية الأصلي، وما يلي هو النص المترجم عن نص الوثيقة:

يا عزيز عيني ... وانا بدّي أروح بلدي / «يا من تسعون وراء رغباتكم ... اذهبوا للسلطة»

«سيأخذون ملابسكم ويعطونكم ملابس موحّدة» / «سيأخذونكم إلى الجبل ويتركوا آباءكم وأمهاتكم في حزنهم»

بلدي يا بلدي والسلطة خدت ولدي / بلدي يا بلدي والسلطة هدت بيتي

يبدو أن «يا عزيز عيني» صيغةٌ معدلة من أغنية شعبية قديمة عن السخرة سجلتها
نعيمة المصرية عام ١٩١٥، ثم تحولت إلى احتجاج صريح على تجنيد فرقة العمال
المصرية. وكما بينا في الفصل السادس، كان تغيير الأغاني بارتجال كلمات جديدة
أمرًا شائعًا بين عمال الفرقة المصرية. وتشير الكلمات المضافة في الأغنية الواردة
أعلاه أنها تحوي موضوعات مناهِضة للبريطانيين قائمة على خبرات هؤلاء الرجال.
وتُعرِّض كلمات الأغنية بادعاء الكسل الذي يوصم به المتعاقدون في فرقة العمال
المصرية، فتسأل: «هيغيب سنة ولا اتنين؟» ولعل عمال الفرقة المصرية ارتجلوا بعض
هذه التغييرات في فرنسا أو في فلسطين، وأتوا بها إلى مصر معهم. ففي المرحلة التي
هيأت لثورة ١٩١٩، ظهرت صيغة من الأغنية مشحونة بالسياسة وانتشرت في شوارع
القاهرة في سياق الاحتجاج على تجنيد فرقة العمال المصرية.

ولعل وصول هذه الصيغة المعدَّلة من «يا عزيز عيني» إلى القاهرة في أغسطس
من عام ١٩١٨، لم يكن مصادفة، فهو العام نفسه الذي وصلت فيه مقاومة تجنيد فرقة
العمال المصرية إلى ذروتها في الريف المصري. وقد أورد الفصل الثاني خمسًا وثلاثين
تقريرًا من وزارة الداخلية عن حوادث تتعلق بهذا الموضوع[١٨]. وكان سبعة منها أعمال
شغب جماعي تضم مجموعات تتجاوز صلة القرابة، منها ما حدث في طلخا، ووصفناه
في الفصل الثاني، والاعتصام الذي شهد اعتقال العشرات في فارسكور الذي وصفناه
في الفصل الثالث. أحدث هذا العنف أثرًا كبيرًا في الدولة الاستعمارية التي تراجعت
عن سياستها الرسمية التي امتدت لعقود، وأعادت أعمال السخرة لتجنب هذه الحوادث.
وربما نجح هذا في أول الأمر لغياب تقارير أحداث العنف من خريف ١٩١٨ وفق
المتاح في سجلات المحفوظات الموجودة حاليًا.

وما إن بدأت الحرب تضع أوزارها، وانتشرت أنباء الهدنة في مصر في نوفمبر،
حتى اتسعت الهوة بين توقعات إلغاء التعبئة وواقع استمرار التجنيد مما أدى إلى تجدد
العنف. ووصلت أنباء هزيمة العثمانيين إلى المصريين في بداية نوفمبر[١٩]. لكن عملية
التجنيد لفرقة العمال المصرية استمرت بوتيرة سريعة. ووفقًا لأحد التقارير، بلغ المجندون
١٧٨ ألف رجل، بين العاشر من مايو والحادي والثلاثين من ديسمبر ١٩١٨ [٢٠].

يا عزيز عيني وانا بدي أروح بلدي / «عندما دوّنوا اسمي لم أكن راضيًا»
بلدي يا بلدي والسلطة خدت ولدي / «أخذوني فجأة (أو بالقوة) من الحقل ... وأصدر القطار صفارته للرحيل»
«إلى أين تأخذون ولدي؟ ... عامًا أم عامين؟» -المترجمان]

(١٩) «بعد صلح تركيا»، جريدة الوطن، ٤ نوفمبر ١٩١٨.

(18) TNA, FO 141/797/2.

(20) TNA, FO 141/667 No. 2689/163: Haines (January 11, 1919).

وفي التاسع من نوفمبر، اشتكى رئيس الوزراء حسين رشدي باشا إلى المندوب السامي البريطاني «مما سببه استمرار تجنيد العمال للفرقة المصرية، من إرباكٍ للزراعة في البلاد»[٢١]. لكن الحاجة إلى العمال ظلت شديدة، ولم يكن من طريقةٍ لسد العجز إلا استمرار التجنيد. ويرد إللنبي على شكوى رئيس الوزراء المصري مبيِّنًا أسباب زيادة الطلب على العمال، فيقول:

> إن الخدمات المطلوبة كثيرة، مثل إنشاء السكك الحديدية وصيانة الطرق للنقل بالسيارات وشحن السفن وأعمال الإمداد والتموين والموانئ العسكرية والقواعد المتقدمة. وإن إيقاف الاشتباكات لا يعني نقص الأعمال المطلوب إنجازها. كما توجد خدمات أخرى مثل الإسعاف ونقل العتاد الحربي ونقل المؤن إلى القاعدة، والتخلص من الحيوانات والمواد الزائدة، وكل هذا يزيد الطلب على العمالة[٢٢].

كان عدد الرجال الذين يُسرَّحون كل شهر بعد الهدنة بين عشرين إلى خمس وعشرين ألفًا من فرقة العمال المصرية، وكان على السلطات العسكرية تعويض غيابهم. أما رجال فرقة العمال المصرية، فلم يجدوا تغييرًا يذكر في المعاملة القاسية التي كانت وقت الحرب بعد انتهائها.

وحتى من أتموا مدة خدمتهم، لم يكن تسريحهم بالأمر السهل. إذ يصف مسؤول طبي بريطاني رجال فرقة العمال المصرية حين انتهت عقودهم فيقول إنهم «استولت عليهم نوبات من الفرح بخلاصهم، فأسرعوا بلملمة متاعهم. وتوجهوا إلى محطة السكة الحديد تغمرهم السعادة وتنطلق منهم أصوات الفرح ... وكثيرًا ما كانت الحماسة تغلبهم، فيقطعون المسافة إلى المحطة عدوًا»[٢٣]. لكن القطارات لم تكن تأخذ هؤلاء الرجال إلى الوطن مباشرة؛ بل كانوا ينتظرون في الحجر الصحي.

اجتاحت الكوليرا فلسطين في صيف عام ١٩١٨[٢٤]. وتشكلت لجنة في وزارة الصحة العامة في الحكومة المصرية الإنجليزية، مهمتها استقصاء مسألة التعامل مع رجال فرقة العمال المصرية المقررة عودتهم إلى مصر من الأحياء الفلسطينية التي تفشت فيها الكوليرا. وقد أوصت في أول الأمر «بعدم السماح بعودتهم من فلسطين إلى مصر

---

(21) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/152: Rushdi (November 9, 1918).
(22) TNA, FO 141/667/1 No. 2689/154: Allenby (November 17, 1918).
(23) RAMC, *With the RAMC in Egypt*, 291–292.
(24) Fawaz, *Land of Aching Hearts*, 202.

قبل زوال الخطر». لكن هذه الفكرة رُفِضت لأنها تقتضي «مخالفة العقود المبرمة، وقد يؤثر هذا على عملية التجنيد والانضباط في فلسطين»[٢٥]. وسعى المسؤولون في الحكومة الاستعمارية إلى حلٍ وسط بين الاقتراح اللائق سياسيًا وتوصيات مسؤولي الصحة العامة. وأخيرًا قرروا فرض خمسة أيام من الحجر الصحي على كل رجال فرقة العمال المصرية العائدين من فلسطين. وفي نهاية يناير ١٩١٨، بدأ حوالي خمسة آلاف منهم يمرون على معسكرات الحجر الصحي في القنطرة كل أسبوع في رحلة عودتهم من الحرب إلى الوطن.

والراجح أن مسؤولي الصحة العامة كانوا يشعرون بالقلق لأن فرقة العمال المصرية كانت من قبل ناقلةً لأمراض معدية إلى مصر. وتبين دراسة كريستوفر روز صلةَ وباء الحمى الناكسة بعمال الفرقة المصرية العائدين من حملة غاليبولي في ١٩١٥-١٩١٦. وفي الوقت نفسه، أبلغ في مصر عن ثلاثين ألف حالة تيفوس من بكتيريا أخرى يحملها القمل، وتتركز في دلتا النيل وقناة السويس[٢٦]. ويقول أحد المسؤولين إن «أحد أسباب زيادة حمى التيفوس والحمى الناكسة، كان انتقال العمال المصريين الذين عمِلوا في الأشغال العسكرية»[٢٧]. وفي عام ١٩١٨، ضربت جائحة الإنفلونزا «الإسبانية» مصر حتى بلغ مجمل الوفيات في البلاد في أحد التقديرات مئةً وسبعين ألف حالة[٢٨]. لقد كان الحجر الصحي قرارًا رشيدًا من منظور الصحة العامة، لكنه زاد قلق رجال الفرقة المصرية وعائلاتهم.

وفي أثناء ذلك، استمر سلب الحيوانات والمنتجات الزراعية من الريف، وقد وضعت لجنة مراقبة التموين حدودًا قصوى للأسعار على السلع الزراعية الأساسية اللازمة للمجهود الحربي. وقد حافظت على سقف أسعارها طوال النصف الأول من سنة ١٩١٩[٢٩]. وفي الوقت نفسه، اجتمعت زيادة الصادرات الغذائية مع تراجع الأغذية المستوردة، وزيادة التنافس على المستلزمات الزراعية مثل أسمدة النترات بسبب الحرب؛ فاستنزفت الاحتياطي منها وأدت إلى بداية أزمات غذائية خطيرة في مصر كلها[٣٠]. وحين أدرك المزارعون أنهم يستطيعون الحصول على أسعار أعلى في السوق السوداء

---

(25) TNA, FO 141/797/2 No. 2689/57a: Brunyate (February 3, 1918).

(26) Rose, "Famine, Disease, and Death."

(27) Rose, "Famine, Disease, and Death."

(28) Johnson and Mueller, "Updating the Accounts."

(29) TNA, FO 371/3713/20835: "Egypt and the War" (February 6, 1919), 7–8.

(30) E. Goldberg, "Peasants in Revolt."

المحلية تفوق الأسعار التي حددتها لجنة مراقبة التموين، بدأوا في الامتناع عن توريد منتجاتهم. نتيجةً لهذا، لجأ المسؤولون في وزارة الداخلية إلى الاستيلاء على الحبوب بالقوة من الريف بطريقةٍ تشبه تجنيد الرجال في فرقة العمال المصرية[٣١]. ومع نهاية عام ١٩١٨، قل استهلاك الغذاء في مصر بنسبة قُدرت بين ثلاثة وعشرة في المئة، حسب نوع المحصول، بسبب أعمال الاستيلاء[٣٢].

وتعود آثار المقاومة العنيفة لعملية تجنيد فرقة العمال المصرية إلى الظهور في سجلات المحفوظات بعد الهدنة. تورد وزارة الداخلية تقريرين عن حادثتين منفصلتين، إحداهما في ديسمبر من عام ١٩١٨ والثانية في يناير من عام ١٩١٩[٣٣]. ويشير تقرير آخر في يناير إلى «عشرات الحالات ... التي جُرح فيها الخفراء وهم يجلبون المجندين للخدمة في فرقة العمال المصرية»[٣٤]. وللأسف ضاعت التقارير التفصيلية بشأن «عشرات الحالات» تلك. لكن هذه الإشارة المبهمة تشير إلى أن انتشار المقاومة العنيفة للتجنيد في فرقة العمال المصرية عاد في ذلك الوقت تقريبًا.

معنى ذلك أن فكرة تكوين «الوفد»، لم تأت من فراغ. فقد عانى أهل الريف أزمات غذائية واستُلبت مواشيهم واجتاحهم الوباء. كما أن مئات الآلاف من الشباب ظلوا يُرسَلون إلى الحرب، حتى بعد أن ذاعت أنباء انتهائها. وكما ذكرنا في الفصل الثامن، كانت القيادات الوطنية والسياسيون والمثقفون المهتمون بالشأن العام في مصر على وعي بهذا الغضب الشعبي، ويملأهم كثير من مخاوف الناس.

فرقة العمال المصرية واحتجاجات الريف وتخريب السكك الحديدية

كان الغضب من سياسات الحرب هو وقود أعمال الاحتجاج في طول البلاد وعرضها وقت الثورة. ويتضح هذا تمامًا في الأغاني التي شاعت بين الناس. فإحداها يشير إلى ونجت في ذروة الثورة، وقد وُصفت بأنها «الأغنية التي يغنيها الصبية في شوارع القاهرة والسيدات في الحريم»[٣٥]. وتحتفظ سجلات المحفوظات البريطانية بترجمة لها، وهي بعنوان «بردون يا ونجِت»:

---

(31) E. Goldberg, "Peasants in Revolt." P. 264.

(٣٢) لعل نسب النقص كانت أكبر كثيرًا، مع تدني مستوى استهلاك المواد الغذائية طوال وقت الحرب. وإن أي نقص هامشي صغير في مستويات الاستهلاك في عام ١٩١٨ ليمثل انخفاضًا دالًا عن مستويات ما قبل الحرب. E. Goldberg, "Peasants in Revolt." P. 267.

(33) TNA, FO 141/667 No. 2689/158: Haines (December 26, 1918); TNA, FO 141/667/1 No. 2689/162; Haines (January 9, 1919).

(34) TNA, FO 141/667 No. 2689/163: Haines (January 11, 1919).

(35) TNA, FO 371/3714/50207: "Egyptian Unrest" (April 1, 1919).

بردون يا ونجت بلدنا غلبت

خدتوا الشعير وجمال وحمير

والقمح كتير اعتقونا

طلبوا الإعانة يا غلبي يانه

شوفوا المدير ياما لم كتير

من غير تقدير ارحمونا

أنفار تسافر وكمان عساكر

سابوا الغيطان وراحوا الميدان

لجبل لبنان في الخنادق

قال بيلومونا شوفم رزونا

لولا العمال ما مشيلهم حال

وسط الرمال بالبنادق

يا سلطة انتي اشّطري انتي

ع الدردنيل يسي مكسويل

ياما شفت الويل اشربوها

المصري حازم ناوي وعازم

يعمل أمور سعيه مشكور

علشان دستور وابوها

أولاد فرعنة من غير مطاعنة

عند اللزوم نمسك أدوم

نضرب بالشوم والروسية

فلتحيا مصر فلتحيا مصر

خيرة الأوطان أم الجدعان

ودا من زمان بس هيا

حياة جديدة مصر السعيدة

نلنا المرام وع الدوام

من غير كلام فارقونا

بكره نشقى نكرم ضيوفنا

حتى الستات ولا امتيازات

ولا تأييدات سيبونا

يا ولسن احنا وفد اجتمعنا

حنقول لمين ولا فيش جرانين

وكلام مجانين المقطم

ما تقوم يا مصري ما تقولش بدري

دا الوقت راح عشان الإصلاح

دستورنا لاح المقطم

يا وفد سافر عباسنا حاضر

دول كلمتين وفي غمضة عين

نرجع ناهبين القضية

عاوزينها عامة حرية تامة

بس الخلان يخلوا الأوطان

نفوق اليابان مدنية

ياالله بلادكم شيلوا عزالكم

دي تباتت ايه دي رزالت ايه

دي مصيبة ايه هي لزءه

أنا ارجعلكم اهو راح يجلكم

عالعين والراس ده سيد الناس

هو العباس المنسب

طلع يهاجر عند الأكابر

ودول شالوه عمه ولوه

وابنه حرموه بأنهِ مذهب[٣٦]

تخاطب الأغنية المندوبَ السامي نفسه، وتذكر سلسلةً من المظالم التي سببتها الحرب. فالإشارة إلى الشعير والذرة والحمير والجمال، تعني الإشارة إلى الموارد الطبيعية والحيوانية التي استلبتها لجنة مراقبة التموين، وغيرها من سلطات الدولة الاستعمارية. تتناول كلماتها عملية التجنيد لفرقة العمال المصرية تحديدًا، وتفخر بإسهامات العمال في انتصار الحلفاء في الحرب، واستعمال الخدمة التي قدموها أداةً لمقاومة استمرار النفوذ البريطاني في مصر. وقد أدت التقارير المكتوبة عن أغاني من هذا النوع إلى وضع البريطانيين تفسيرًا للثورة يلقي بلائمة اضطرابات الريف على «الطرائق المستخدمة لاستجلاب العمالة المصرية إلى فلسطين، والطريقة التي كانت تُجمع بها الإمدادات للجيش البريطاني»[٣٧]. وينبغي أن نحذر قبول آراء سجلات المحفوظات الاستعمارية، لكن أغاني مثل «بردون يا ونجت» تشير إلى أن هذه القضايا كانت تشغل بال الناس.

أما انتشار تدمير البنية التحتية فينبغي أن يُفهم في إطار الاحتجاج على عمليات التعبئة الحربية، ذلك أن السكك الحديدية تحديدًا صارت مرتبطة بمساعي السلطات العسكرية إلى نقل الطعام والحيوانات والأيدي العاملة خارج الريف. يصف فينابلز في مخطوطته غير المنشورة مشهدًا رآه في إحدى محطات القطار كالتالي: «كان رحيل كل دفعة مجندين يسبب جلبةً وحزنًا شديدًا، فيمشي الرجال معًا بصحبة الشرطة المحلية التي نُبِّه عليها تنبيهًا شديدًا بأن تسيطر على حشد النساء والأقارب الذين جاءوا إلى المحطة ليودِّعوا ذويهم»[٣٨]. كان أهل الريف على حافة المجاعة، فكان تدمير السكك الحديدية لمنع القطارات المحملة بالحبوب المتجهة إلى القاهرة، عملًا يجذب كثيرًا من

---

(36) TNA, FO 371/3714/50207: "Egyptian Unrest" (April 11, 1919).
[آثرنا نقل الأغنية بكاملها عن الوثيقة البريطانية الذي زودنا بها المؤلف، لأننا لم نجد أي مصدر عربي قد دوَّنها كاملة. -المترجمان]

(37) TNA, FO 371/3714/49561: "Situation in Egypt" (March 22, 1919)

(38) IWM, EKV/2: *They Also Served*, 5.

صغار الفلاحين في الريف(٣٩). وكما بيَّن المؤرخ أون باراك، ارتبطت البنية التحتية الخاصة للهاتف والتليغراف بالدولة الاستعمارية زمنًا طويلًا، ولما كان الهاتف والتليغراف ومحطات السكك الحديدية موجودة معًا في بلدات وقرى كثيرة، فقد سهلت نسبيًا عمليات تخريبها(٤٠).

وقعت أولى عمليات تخريب السكك الحديدية في طنطا في الثاني عشر من مارس من عام ١٩١٩، حين أحاط آلاف الأهالي بمحطة القطار ودمروا الخط أحادي المسار الرابط بين طنطا وطلخا(٤١). ووقعت حوادث مماثلة على نطاق أصغر في الريف كله، إذ خُرِّبت خطوط بركة السبع ودسوق ورشيد وزفتى وكفر الشيخ والقليوبية والشرقية والزقازيق والواسطى وأسيوط وقنا(٤٢). وفي الثاني والعشرين من مارس أرسل رئيس سكك حديد مصر مذكرةً إلى المندوب السامي يذكر فيها «وقوع أضرار شديدة بخطوط السكك الحديدية والتليغراف في الاضطرابات الأخيرة ... ولا تتوافر تفاصيل كاملة عن الأضرار لانقطاع الاتصال بالقطارات والتليغراف جنوبي القاهرة في أماكن كثيرة، لكن قدرًا من المعلومات ورد عن طريق النقل النهري والجوي يؤكد أن السكك الحديدية تحتاج وقتًا طويلًا لتعود إلى سابق سعتها في النقل من الصعيد»(٤٣).

لم يكن تخريب البنية التحتية في صالح مسؤولي الدولة الاستعمارية ولا «الوفد». فإن خطوط السكك الحديدية والتليغراف هي أهم وسائل التواصل بين القاهرة والأقاليم؛ وكلما تعذر استخدامها صعُب التنسيق. كانت السلطات البريطانية تملك الاستعانة بالنقل النهري والقدرة على المراقبة الجوية بطائرات سلاح الجو الملكي، ولا يملكها ناشطو الحركة الوطنية. وتتجلى دلالة أعمال تخريب البنية التحتية أكثر ما تتجلى إذا أدركنا أنها محاولات من المجتمعات المحلية لعزل أنفسهم عن أذى السلطة، التي تجتمع فيها قوة المسؤولين المحليين المصريين والإداريين البريطانيين المسؤولين عن تجنيد أفراد فرقة العمال المصرية، وسبق ذكرها في الفصل الثاني. أدرك عمال الفرقة المصرية وذووهم قهر هذه القوة وغنوا عنها أغاني مثل «يا عزيز عيني» بصيغها المختلفة(٤٤).

(39) E. Goldberg, "Peasants in Revolt."

(40) Barak, *On Time*.

(٤١) عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩، ص ٢٤٣.

(٤٢) عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩، الفصل السادس.

(43) TNA, FO 371/3715/56539: "Damage Done" (March 22, 1919).

(44) Mossallam, "Ya Aziz 'Aini"; Mossallam, "Strikes, Riots, and Laughter."

دفع تخريب كثير من خطوط السكك الحديدية والتليغراف التي تربط القرى بالدولة المركزية المسؤولين الاستعماريين إلى استخدام النقل الجوي والبحري في إنزال قوات تهدئ الريف. ففي أسيوط، دافعت الحامية البريطانية هناك عن مقار الأجانب في المدينة واتخذت وضع الدفاع في المدينة بالقرب من المدرسة الثانوية(٤٥). وفي الرابع والعشرين من مارس من عام ١٩١٩، استُخدمت طائرتان من سلاح الجو الملكي لقصف تجمع للمتظاهرين وقتلت منهم ثلاثة(٤٦). وفي الوقت نفسه جهَّز مسؤولو الدولة باخرة نيلية بالدروع والمدافع الرشاشة، وأرسلوها جنوبًا. وبرغم ما لاقته من مقاومة في الطريق، وصلت إلى أسيوط في اليوم التالي وأحاط الجنود الذي كانوا على ظهرها بالمدينة. وحين استسلم المتظاهرون، اعتُقِل أربعمائة منهم وألقوا في السجن(٤٧).

صارت أيضًا حماية البنية التحتية على قمة الأولويات. ففي الثالث عشر من مارس من عام ١٩١٩، أصدر رئيس أركان القوات البريطانية في مصر إنذارًا بعقوبة كل المتظاهرين الذين يشتركون في تخريب السكك الحديدية أو قطع أسلاك البرق أو الهاتف. وفي الثالث والعشرين من مارس، أرسل الأسطول الملكي السفينة الملكية «فيرفينا» إلى بورسودان لحراسة محطة البرق اللاسلكي(٤٨). وتلخِّص مذكرة صادرة في يوم العشرين من مارس من عام ١٩١٩، من وزارة الطيران إلى وزارة الخارجية أنشطةَ القوات الجوية الملكية في أثناء الاضطراب، كما يلي:

> تُستخدم قوات جوية كبيرة للحفاظ على الاتصال بين المدن الساحلية والحاميات النائية. ففي أثناء اليومين الماضيين، أطلقت الطائرات النار من مدافعها الرشاشة، وأصابت حشودًا ضلعت في تخريب السكك الحديدية. وهي الآن مأمورة باستخدام القنابل إذا ظهرت مثل هذه الأهداف. وقد تشكلت خمسة من أسراب التدريب وأكثر من مائة مدفع رشاش يُستخدمون حاليًا(٤٩).

---

(٤٥) يروي الرافعي أنه كان هناك مئة وستة وأربعين أجنبيًا مرابطين في المدرسة، منهم سبعون من النساء والأطفال. انظر: عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩، ص ٢٦٠.

(٤٦) عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩، ص ٢٦٠.

(٤٧) عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩، ص ٢٦٠.

(48) TNA, FO 371/3714/45823: Royal Admiralty (March 23, 1919).

(49) TNA, FO 371/3714/45524: Air Ministry (March 20, 1919).

واستُخدمت الطائرات لأغراض الاتصال والاستطلاع، كما استُخدمت لقتل وعقاب الحشود وردعها عن تدمير خطوط السكك الحديدية. وفي أثناء الثورة، جلب المسؤولون البريطانيون تقنيات عنف جديدة من الحرب، واستخدموها ضد المتظاهرين المناهضين للاستعمار، ففرقوا بها الحشود وحموا بها البنى التحتية اللوجستية التي كانت تستهدفها الجماهير الغاضبة.

استخدم المسؤولون البريطانيون التقنيات العسكرية التي اختُرعت وقت الحرب للقضاء على المظاهرات في الريف، كما لجأوا إلى العقاب الجماعي[٥٠]. واتبعوا سياسة حرق القرية الأقرب إلى السكك الحديدية المخرَّبة[٥١]. ففي الخامس والعشرين من مارس وردت تقارير عن تخريب السكك الحديدية بالقرب من قريتي العزيزية والبدرشين في مديرية الجيزة، فأُرسِلت قوة من مائتي جندي وانقسمت قسمين لتفتيش كل قرية منهما. ويقول صلاح عزام إن الجنود بدأوا ببيت العمدة؛ ففتشوا كل فرد فيه حتى النساء والأطفال وصادروا الأسلحة. ثم فتشوا بقية بيوت القرية. ثم أخليت القرية من السكان وأحرقت عن آخرها[٥٢].

أسيوط والمنيا

لعل أثر تجنيد رجال فرقة العمال المصرية الكبير في تحفيز أعمال الاحتجاج يظهرُ أوضح ما يظهر في المديريتين الشماليتين في صعيد مصر؛ المنيا وأسيوط. وتبعد هاتان المديريتان عن القاهرة حوالي مئتي كيلومترًا حتى أربعمئة كيلومترًا جنوبي القاهرة على مجرى النيل. وقد كانت أسيوط تحديدًا مدينة مهمة في المنطقة أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فكانت أول مدينة بُنيت بها محطة قطار، وأول من استضاف الرئيس الأمريكي يوليسيس إس. جرانت (Ulysses S. Grant) في جولته حول

---

[٥٠] عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩، ص ٢١٨.

[51] Z. Fahmy, *Ordinary Egyptians*, 139.

[52] ‘Azzam, “Maris 1919,” chap. 2.

العالم[٥٣]. وقد بيَّن البحث التاريخي والأنثروبولوجي أن صعيد مصر اختلف ثقافيًا لفترة طويلة عن الشمال. وتبدَّى هذا أكثر ما تبدى في تميز لهجته العربية[٥٤]. ففي نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين، ظهرت في القاهرة صناعةُ ثقافة شعبية أنتجت منشورات وتسجيلات وعروضًا مسرحية ونكات باللهجة القاهرية تمثِّل أهل الصعيد بالجهل والتخلف، وكأنهم «الآخر الداخلي»[٥٥].

والأدلة كثيرة على أن أهل أسيوط والمنيا خاصة كانوا متضررين من عملية التجنيد لفرقة العمال المصرية تضررًا شديدًا. فإذا حللنا تقارير المقاومة العنيفة من صيف عام ١٩١٨ والمحفوظة في سجلات المحفوظات البريطانية، سيبدو أن نصيب المديريتين من هذه الحوادث كان أكبر من غيرهما. فقد وقعت اثنا عشرة حادثة، بحسب هذه التقارير، في مديرية أسيوط وحدها من جملة خمس وثلاثين حادثة، أي أربعة أضعاف العدد الذي يتناسب مع التوزيع المتساوي على المديريات[٥٦]. وكان أغلب هذه التقارير عن أعمال فردية، وتضم أفرادًا من أسر العمال المجندين في أربع حالات. وفي المجمل، أدى العنف في إحدى قرى أسيوط في صيف عام ١٩١٨ إلى موت خفيرين وأحد رجال القرية، وجُرح تسعة خفراء واعتُقِل اثنان من أهل القرية. وقد شهدت مديرية المنيا المجاورة حوادث أقل عددًا لكنها كانت أشد عنفًا وكثافة، منها انتفاضتان من بين سبع انتفاضات جماهيرية. وكان مجمل ضحايا أحداث المنيا ثمانية قتلى من أهل القرى وأحد عشر جريحًا وجُرح ثلاثة خفراء. الأهم أن هذا العنف تواصل بعد صيف عام ١٩١٨ واستمر في عام ١٩١٩. إذ تشتكي مذكرة من المستشار البريطاني لوزارة الداخلية في عام ١٩١٩ من «عشرات الحالات في منطقتي أسيوط وجرجا؛ حيث جُرح الخفراء وهم يجلبون المجندين». ويرد في المذكرة أن في «المديريات الأخرى لا يكاد يوجد اضطراب بهذا الخصوص»[٥٧]. والواضح أن أحداث العنف الموجهة إلى مسؤولي تجنيد العمال كانت على أشدها في هذه المنطقة في الشهور السابقة على الثورة.

---

(53) Hopkins and Saad, "Region."

(54) Gran, "Upper Egypt"; Abul-Magd, *Imagined Empires*; Hopkins and Saad, "Region."

(55) Z. Fahmy, *Ordinary Egyptians*; Gasper, *Power of Representation*.

(٥٦) كان هناك في ذلك الوقت أربعة عشر مديرية ريفية وخمسة محافظات مدينية. ولمَّا كان تجنيد فرقة العمال المصرية متركِّزًا في المناطق الريفية، يستتبع ذلك توزيعًا غير متناسق على المديريات.

(57) TNA, FO 141/667 No. 2689/163: Haines (January 11, 1919).

جدول (٩,١): المقاومة العنيفة لتجنيد فرقة العمال المصرية حسب المديرية في صيف عام ١٩١٨

المديرية	الحوادث	الوفيات	الإصابات	الاعتقالات
أسوان	1	2	0	0
أسيوط	12	3	9	2
بني سويف	1	3	1	0
البحيرة	1	1	1	0
الدقهلية	2	0	5	0
الغربية	5	0	6	36
جرجا	2	1	0	0
المنوفية	3	0	14	47
المنيا	4	8	14	0
قنا	4	5	4	0
الإجمالي	35	23	54	85

جمعها المؤلف من سجلات المحفوظات الوطنية البريطانية

وزارة الخارجية. ٢/ ٧٩٧ /١٤١

وحين قامت الثورة في مارس وأبريل من عام ١٩١٩، استُهدف مسؤولو تجنيد فرقة العمال المصرية مرة أخرى في هذه المنطقة. وكانت أول حادثة وأشهرها هي ما سميت بمذبحة قطار ديروط. فقد غادر قطار الأقصر ليلًا في السابع عشر من مارس من عام ١٩١٩ متجهًا إلى القاهرة وعليه ضباط بريطانيون، ومنهم أربعة قادة لسرايا في فرقة العمال المصرية في فلسطين. وحين وصل القطار إلى نجع حمادي، أحاط به حشد من الرجال وهددوا الجنود، ودخل المتظاهرون القطار بحثًا عن الإنجليز الذين كانوا على متنه، لكن الضباط استطاعوا الاختباء في عربة الدرجة الأولى. ثم غادر القطار المحطة ووصل إلى أسيوط بعد منتصف الليل، واستقله ألكسندر بوب (Alexander Pope)، وهو مفتش في مصلحة السجون بوزارة الداخلية. ثم غادر القطار أسيوط في الصباح التالي، وقوبل بحشود تلقي عليه الحجارة في المحطات الثلاثة التالية[٥٨].

يقول التقرير البريطاني إنه حين وصل القطار المحطة التالية في ديروط «هاجم القطار عددٌ من مثيري الشغب المسلحين بالنبابيت (يقال إنهم فلاحون وليسوا بدوًا، رغم أن الحشد جمع كل الفئات، حتى الصبية والنساء)»[٥٩]. ومرة أخرى، اقتحم المتظاهرون القطار وضربوا بوب واثنين من الجنود ضربًا أفضى إلى موتهم. واستطاع القطار أن ينطلق مرة أخرى ويفر من المتظاهرين، لكنه حين وصل دير مواس هشَّم حشد كبير آخر من المتظاهرين النوافذ وقتلوا بقية الجنود البريطانيين. وفي النهاية، وُجِدت جثامين الجنود السبعة، ومنهم أربعة من ضباط فرقة العمال المصرية[٦٠].

وفي حادثة منفصلة، بعدها بأيام، في بلدة قريبة اسمها شلش من نواحي ديروط، قُتل المقدم وليام هازل (William Hazel) على يد حشد من المتظاهرين[٦١]. وكان هازل مفتش التجنيد البريطاني المسؤول عن الصعيد، وبذلك يكون واجهة العسكرية البريطانية المسؤولة عن تجنيد العمال في المنطقة[٦٢]. ومن الصعب التيقن من دوافع هؤلاء المحتجين، لكن الهجومين يمثلان قرائن على أن ضباط فرقة العمال المصرية كانوا يُستهدفون في هذه المنطقة، ربما بسبب كراهية عملية التجنيد.

---

(58) TNA, FO 141/753: "Luxor Train Murders," 2.

(59) TNA, FO 141/753: "Luxor Train Murders," 2.

(60) TNA, FO 141/753: "Luxor Train Murder

(٦١) عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩، ص ٢٦٠.

(62) TNA, FO 141/797/2: "Raising."

ولعلنا نضع أيدينا على عامل آخر من عوامل تصاعد الثورة في أسيوط، أو جانبًا منها، إذا قرأنا **مذكرات قرية** لعصمت سيف الدولة (١٩٩٦). يبدأ الراوي بالإشارة إلى صعوبة سرد حياة قرية كاملة، ففي كل مرة سأل أحدًا فيها «يستبدل بمذكرات القرية جميعًا ذكرياته عن ذاته فردًا»[٦٣]. هو يتلقى إجابة من الشيخ الكبير الذي كان شيخًا للخفراء، يقول فيها إن أي قصة من أي فرد تُقدَّم بوصفها القصة الجماعية، ستسبب المشكلات لأن «ناس الهمامية مثل كل الناس يختلفون فيما بينهم»[٦٤]. ولا يجتمع الناس، كما يقول الشيخ، إلا في مواجهة الكوارث[٦٥]. ويسأله الرواي «أي كوارث؟» فيرد الشيخ: «اسألهم عن أيام السلطة ... أو اسألهم عن اغتصاب أرضهم في الجزيرة»[٦٦].

يدبِّج سيف الدولة في الصفحات التالية حوارًا بين الراوي وشخصية يسميها يونس عبد الله وهو ضمن من جُنِّدوا في فرقة العمال المصرية مع أربعةٍ وعشرين من أبناء قريته. أُرسِلَ يونس للخدمة في كاليه حيث شارك في واحدة من أكبر حركات التمرد على الضباط البريطانيين. ونفهم من هذا أن الشيخ يقصد بالسلطة القوة التي في أيدي المسؤولين البريطانيين والمصريين المسؤولين عن تجنيد فرقة العمال المصرية. وتعد فرقة العمال المصرية «كارثة» تجمع أهل القرية وتتيح سرد تاريخها كذاتٍ جمعية. وقد سبق أن رأينا أن أغنية يا عزيز عيني تقول باكيةً إن «السلطة خدت ولدي».

تواصل **مذكرات قرية** سرد حكاية تجنيد شباب فرقة العمال المصرية وكيف استثارت العمل الثوري في قرية الهمامية. وترِدُ مسألة دخول الثورة القرية في حوار بين الراوي وشخصية فكري عبد النبي الذي يصف شعور الناس بالثورة كالتالي:

> لم تزِدْهم الحرب فقرًا على فقر، ولكنها زادت من شعورهم بالفقر حين تجاوزت آثارها الاقتصادية حدود الحاجات المادية الأساسية، فأشاعت الاضطراب في علائقهم الاجتماعية المستقرة ... كان لابد لهم من موارد مالية ليعود إليها الاستقرار فتطلَّعوا إلى الجزيرة التي خرجت من أحلامهم[٦٧].

---

[٦٣] عصمت سيف الدولة، مشايخ جبل البداري، ص ٩.

[٦٤] عصمت سيف الدولة، مشايخ جبل البداري، ص ١٠.

[٦٥] «اسألهم إن شئت أو اسأل من تشاء عما مر بقريتهم من مصائب عامة، فتسمع منهم جميعًا ... يذكره كل واحد منهم لا يختلفون فيه». انظر: عصمت سيف الدولة، مشايخ جبل البداري، ص ١٠.

[٦٦] عصمت سيف الدولة، مشايخ جبل البداري، ص ١٠.

[٦٧] عصمت سيف الدولة، مشايخ جبل البداري، ص ص ١٥٤-١٥٥.

لم تكن المشكلة في أن الحرب جعلت القرية أقل ثراءً، فليس لها من الثراء نصيب، بل في أنها جارت على مكونات حياتهم الأساسية. فقد اجتمع الجوع والوباء والجائحة والتهجير القسري للرجال من الريف، حتى استحال إنتاج ضروريات الحياة بها. ويصوِّر فكري الحرب بأنها انتهاك لما يسميه جيمس سكوت «اقتصاد الفلاحين الأخلاقي»، وهو اتفاق ضمني بين الفلاحين وأغنياء الريف على توفير الحد الأدنى من الطعام للجميع(٦٨). كانت البيئة الطبيعية توفر ما يعيد التوازن إلى الاقتصاد الأخلاقي وهو الطمي الخصب الذي تراكم عبر الأجيال هناك فكوَّن ما سموه «الجزيرة». لقد كانت تلك القطعة من الأرض تُستخدم لزراعة محاصيل أخرى لسد حاجة القرية من الغذاء الأساسي، لكن الجزيرة كان لها مالك غائب.

يحكي فكري أن ذلك المالك كان على متن القطار وقت مذبحة قطار ديروط التي يزعم أنها بدأت حين أطلق الضباط البريطانيون النار على قائد القطار لأنه رفض مواصلة السير(٦٩). وبعد عودة فكري إلى بلده يوافق على الانضمام إلى الثورة، ولكنه يشترط: «بعد الثورة لن يسترد أحد السلاح منا، فنسترد جزيرتنا بإذن الله إذا لم يردوها لنا»(٧٠). لم يكن غرض فكري هو نفسه غرض «الوفد»، بل كان يريد الاستيلاء على «الجزيرة» التي بدت كالجزيرة على الجانب الآخر من القرية. كانت تلك الجزيرة قبل الثورة تعامَل كأنها ملكية خاصة، لكن الثورة أتاحت الفرصة لاستعادتها، بالقوة إن لزم الأمر. وتقدم **مذكرات قرية** روايةً مقبولة لكيفية تداخل الثورة مع السياسات المحلية. أتت الثورة إلى الهمامية في ظروف صعبة زادها صعوبة تجنيدُ الرجال من أمثال يونس عبد الله لفرقة العمال المصرية. لقد كانت دوافع فكري الأساسية لانضمامه إلى الثورة دوافع محلية، مثل الاستيلاء على الجزيرة، وكانت ثورة «الوفد» الوطنية هدفًا ثانويًا(٧١).

عند تحليل حركة الاحتجاج الشعبي في أثناء الثورة التي وقعت في المنيا وأسيوط، نجد أدلة على أن الأحداث تطورت على نحو يخالف المشروع الوفدي. إذ يقول الرافعي إن الطلاب والمحامين بدأوا، في الخامس عشر من مارس من عام ١٩١٩ حركةَ احتجاجات في أسيوط تشبه الاحتجاجات المنسقة في غيرهما. لكن الحوادث تسارعت

---

(68) Scott, *Moral Economy*.

(٦٩) عصمت سيف الدولة، مشايخ جبل البداري، ص ١٦٦.

(٧٠) عصمت سيف الدولة، مشايخ جبل البداري، ص ١٦٩.

(٧١) بيَّنت لنا قصة النزاع بين عمدة برمشا وأهل قرية منشية حلفا، التي سردناها في الفصل الثاني، أن تجنيد عمال الفرقة المصرية كان سببًا في إثارة تقلبات السياسة المحلية.

حتى خرجت عن سيطرة الناشطين الوطنيين المحليين[٧٢]. فقد أضرم المحتجون النار في مخزن حبوب ضخم مليء بأجولة التبن التي استولت عليها السلطات العسكرية. وكان التبن المضغوط وقودًا للنار التي ظلت مشتعلة لأيام[٧٣]. غادر المسؤولون المحليون المدينة، وشكَّل المحامون في المنطقة وغيرهم من الأعيان لجانًا. يقول الرافعي، وهو المؤرخ الوطني بامتياز، إن اللجان بدأت «الطواف في الشوارع وتطمين الناس على حياتهم وأموالهم، ومنع اندساس بعض الأشرار إلى المدينة لأغراضٍ غير وطنية»[٧٤]. ويبدو أن المحتجين لم يكونوا كلهم يعدون أنفسهم من الوطنيين؛ رغم مخالفة هذه القراءة للسائد في هذا الموضوع. وقد كان يشار إلى المحتجين لأغراضٍ أخرى «بالأشرار». ويصف عبد العظيم رمضان حادثةً أخرى في أسيوط في مارس ١٩١٩؛ حيث «أحاط بعض الثائرين ببيت محمد محمود باشا سليمان في أسيوط، وهو أحد كبار المعتقلين مع سعد زغلول، لتخريبه وإحراقه، وأراد البعض أن ينبههم إلى شخص من يحرقون بيته، أجابوا: وهل وزع محمود باشا سليمان أرغفة العيش على الجائعين؟ نحن طلاب قوت»[٧٥]. وتقدم هذه الرواية أوضح دليل على وجود مواقف صريحة مناهضة للوفد في المظاهرات الثورية. ونجد رؤية أعمق عن آليات الحراك الطبقي في المنيا في مذكرات هدى شعراوي، الرائدة النسوية والناشطة الوطنية وزوجة الزعيم الوفدي على شعراوي، وكان والدها هو محمد سلطان، الملقب بـ«ملك الصعيد»[٧٦]. عُيِّن سلطان مديرًا لمديرية المنيا، وكان رئيسًا لمجلس شورى النواب الذي أنشأه الخديو إسماعيل في عام ١٨٦٦[٧٧]. ولم تأت سنة ١٨٨٢، حتى صار أكبر ملاك الأراضي في المنيا، فكان يمتلك أكثر من ثلاثة عشر ألف فدان[٧٨]. وقد أنجب ابنته هدى من وصيفة ملكية قوقازية بيضاء، وربتها أمةٌ من السودان. وكما تقول إيف تروت بُول «تكشف مذكرات هدى شعراوي كفاحها ضد قيود طفولتها ونشأتها، وطريقتها الفريدة في النظر في المسلَّمات التي بُنيت عليها بيوتات الصعيد واكتسبت صورة مثالية في نهاية القرن التاسع عشر»[٧٩].

---

[٧٢] عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩، ص ٢٥٨.

[٧٣] عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩، ص ٢٥٨.

[٧٤] عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩، ص ٢٥٨.

[٧٥] عبد العظيم رمضان، تطور الحركة الوطنية، ص ١٣١.

[76] Baron, *Egypt as a Woman*, 20.

[77] Baron, *Egypt as a Woman*, 20.

[٧٨] تختلف مساحة الفدان المصري قليلًا عن مساحة الفدان المعروف في إنجلترا وأمريكا.

[79] Troutt-Powell, A Different Shade, 181.

يتضح نهج هدى شعراوي النقدي لبيئة الطبقة العليا التي نشأت فيها في المنيا، حين تروي قصة أحد الاحتجاجات التي رأتها هناك في أثناء الثورة:

> وبالغ بعض الأهالي في ثورتهم، فحاولوا الهجوم على بيوت الموظفين الإنجليز. ولكن بعض الأعيان تصدوا لهم ومنعوهم من ذلك ... عرَّض [أحدهم] نفسه بذلك لغضب مواطنيه وهجومهم ... ووقف [آخرُ] أمام باب أحد الموظفين الإنجليز، وفتح صدره أمام الناس قائلًا: "لا تقتلوه إلا بعد أن تقتلوني"![٨٠]

فهي تصف أهالي المنيا وهم يهاجمون منازل المسؤولين البريطانيين البيض فيها. تدخَّل الأعيان ومنعوهم، وعرَّضوا حياتهم للخطر لحماية حياة الإنجليز. وتعارُض الأغراض واضح في هذه القصة بين الأهالي والأعيان. وسبب الاختلاف هنا حماية عدد من المقيمين البيض في المدينة.

وهكذا، يتوفر الدليل على أن ذخائر سياسات النزاع، ومنها استخدام العنف، وُضعت في سياق عملية تجنيد الرجال لفرقة العمال المصرية، وضغط التفاوت الاجتماعي في أسيوط والمنيا بدايةً من صيف عام ١٩١٨[٨١]. اشتدت هذه الاحتجاجات مرة أخرى في نهاية خريف عام ١٩١٨ وشتاء عام ١٩١٩، واستمرت طوال الربيع، في خطٍ موازٍ للمشروع الوفدي. وكان المحتجون في هذه المنطقة يتعمدون استهداف مسؤولي تجنيد فرقة العمال المصرية. وفي ذلك السياق، وقعت مذبحة قطار ديروط ومقتل وليام هازل. وكانت الاحتجاجات في هذه المنطقة تدعم الجهود الوطنية أحيانًا، وفي أحيانٍ أخرى كان الغضب الشعبي يتعارض مع التوجه الوفدي. وإن اختزال حركة الاحتجاج الشعبي في هذه المنطقة في فكرة الوطنية يُغفِل أجزاءً مهمة من هذه القصة.

العمال الموالون

ظل كل رجال فرقة العمال المصرية موالين لضباطهم البريطانيين، كما تشهد المصادر، بينما يقوم غيرهم بثورة من أجلهم ومن أجل أشياء أخرى. فقد انتقل ڤينابلز من القنطرة إلى الإسكندرية في الثاني عشر من مارس من عام ١٩١٩. وكان على علمٍ باجتياح العنف الثوري البلاد؛ لكن يومياته تشير إلى أنه لم يشهده بنفسه[٨٢]. فقد

---

(٨٠) هدى شعراوي، مذكرات هدى شعراوي، ص ص ١٧١-١٧٢.

(٨١) للتوسع في فهم ذخائر السياسات النزاعية، انظر:

Shorter and Tilly, *Strikes in France*.

(82) IWM, EKV 1/4: Diary of EK Venables, 1919 (March 12, 1919).

لاحظ عند وصوله إلى الإسكندرية «الخضوع في سلوك الأهالي»(٨٣). وبعد عدة أسابيع، في بداية أبريل، شهدت الإسكندرية إضرابات ضخمة. وتحتفظ يوميات ڤينابلز بما يبين احتقاره لها؛ إذ يذكر «الاشمئزاز من سلوك المنتصرين الذي يبدو على المصريين»(٨٤). لكن ڤينابلز يذكر في يومياته ليوم الثامن من أبريل من عام ١٩١٩، أن الرجال كانوا «يعملون بهدوء وسعادة» وهو ما يتعارض مع انتشار حشود المتظاهرين الوطنيين(٨٥).

يورد ڤينابلز تفاصيل أخرى عن مزاج رجاله في أثناء الثورة، فيقول في مخطوطته غير المنشورة إن عمال الفرقة المصرية كانوا «يسخرون من مطالب المتظاهرين المارين، ويقولون إنهم حثالة المدينة، وما شابه ذلك»(٨٦). وبالنظر إلى نزوع ڤينابلز إلى عدم الثقة بالثورة، فإن وصفه هذا لا ينبغي أن يُقبل على عواهنه. لكن إن صح لأتاح فهمًا جديدًا لامتناع العمال المصريين، ولا سيما من كانوا في معسكراتٍ خارج الإسكندرية، عن الانضمام إلى المظاهرات. فقد كانوا مهاجرين من مناطق ريفية لا يشعرون بالانتماء إلى هذا السياق الاجتماعي والهوية الجمعية التي تغلب على المتظاهرين الحضريين.

وسواء صح تصوير ڤينابلز أو لم يصح، فالواضح أن المصريين ظلوا يعملون في فرقة العمال المصرية طوال مدة الثورة، ولمدة طويلة بعد انتهائها. وفي نهاية مارس وبداية أبريل من عام ١٩١٩، أبدت السلطات البريطانية حاجتها إلى إعادة استعمال رجال فرقة العمال المصرية في فلسطين وسوريا، ليعملوا في السكك الحديدية في مناطق إدارة أراضي العدو المحتلة.(٨٧) ويزعم مفتش بريطاني في وزارة الداخلية في يوليو من عام ١٩١٩، أنه قابل شخصيًا أربعة وتسعين مجندًا كانوا متجهين إلى نوبات خدمة في فرقة العمال المصرية. ويرد في تقرير هذا المفتش أن «قليلًا منهم كانوا يذهبون لأول مرة، وكان أغلبهم يذهبون للمرة الثالثة والرابعة والخامسة»(٨٨). وقد نُشرت كل أعداد **أخبار فرقة العمال المصرية** «بعد» الحرب، بين يناير ويوليو من عام ١٩١٩،

---

(83) IWM, EKV 1/4: Diary of EK Venables, 1919 (March 12, 1919).

(84) IWM, EKV 1/4: Diary of EK Venables, 1919 (April 7, 1919).

(85) IWM, EKV 1/4: Diary of EK Venables, 1919 (April 8, 1919).

(86) IWM, EKV/2: *They Also Served*.

(87) TNA, FO 141/667 No. 2689/164: Tweedy (March 20, 1919), and TNA, FO 141/667 No. 2689/165: MacCauley (April 7, 1919).

(88) TNA, FO 141/667 No. 2689/168: Davidson (July 19, 1919).

ويظهر فيها تواصل نشاط هذا الكيان(٨٩). وقد ظلت فرقة العمال المصرية موجودة حتى يناير ١٩٢١ واستعملتها سلطات الانتداب في فلسطين في أيام إدارتها الأولى(٩٠).

وفي إحدى الحالات الدالة، شغل عمال الفرقة المصرية مكان عمالٍ في بورسعيد أضربوا تضامنًا مع الأهداف الوطنية. وبورسعيد هي أهم ميناء على مدخل القناة الشمالي. وكانت تشهد منذ زمن طويل إضرابات عمال الفحم احتجاجًا على ظروف عملهم السيئة(٩١). وفي الثالث عشر من مايو من عام ١٩١٩، خُطط لإضراب جديد في شركة قناة السويس، لكنه انتشر وتحول إلى إضراب عام في المدينة كلها(٩٢). وشعر مدير الشركة بأن الإضراب كان «ذا طبيعة سياسية ... وله دافع محدد في منطقة حساسة، هي مركز الثروة والنشاط الذي تستفيد منه بريطانيا باحتلالها مصر»، ومن ثم فهو يتوافق مع ثورة ١٩١٩(٩٣). ووفقًا لبرقية أُرسِلت في السابع عشر من مايو من عام ١٩١٩، فإن قائد مؤخرة البحرية الملكية تولى السيطرة على إمدادات الفحم في بورسعيد. وكان «يعتمد على فرقة العمال المصرية للوفاء بمتطلبات الحكومة من العمالة»(٩٤). وهذا ما جعل البحرية تستدعي عمال الفرقة المصرية لشغل أماكن العمال المضربين تضامنًا مع القضية الوطنية. ويبدو أن رجال فرقة العمال المصرية قد أدوا هذه الواجبات دون احتجاج.

لم يكن تعارض أغراض رجال فرقة العمال المصرية مع الحركة الوطنية مقصورًا على سياق عملهم مع السلطة العسكرية البريطانية وحسب؛ إذ توجد وثيقة تشير إلى وجود حزبٍ سياسي رسمي شكَّله رجال فرقة العمال المصرية يختلف عن المسار الوفدي في أثناء المفاوضات مع البريطانيين. وبعد الثورة، وفي بداية المفاوضات التي تعثرت، انهالت الالتماسات والبرقيات من فئات مختلفة في البلاد على الحكومة الاستعمارية. وبحلول صيف عام ١٩٢١، كان على رأس الحكومة المصرية رابع رئيس وزراء في ثلاثة أعوام، وهو عدلي يكن باشا، الذي كان في طريقه إلى لندن للتفاوض مباشرة مع السلطات البريطانية.

---

(89) British National Library, *ELC News*.

(٩٠) إذ تحتفظ سجلات وزارة الحرب البريطانية بحكم إعدام من محكمة عسكرية ميدانية على رجلٍ اسمه «حسين محمد العرابي» في يناير من عام ١٩٢١، بسبب حادثة وقعت في القنطرة الخريف السابق. انظر:

TNA, WO 71/690: "Husein Mohamed el Arabi."

(91) Chalcraft, "Coal Heavers."

(92) TNA, FO 371/3717/75612: Strike at Port Said (May 19, 1919).

(93) TNA, FO 371/3717/75612: Strike at Port Said (May 19, 1919).

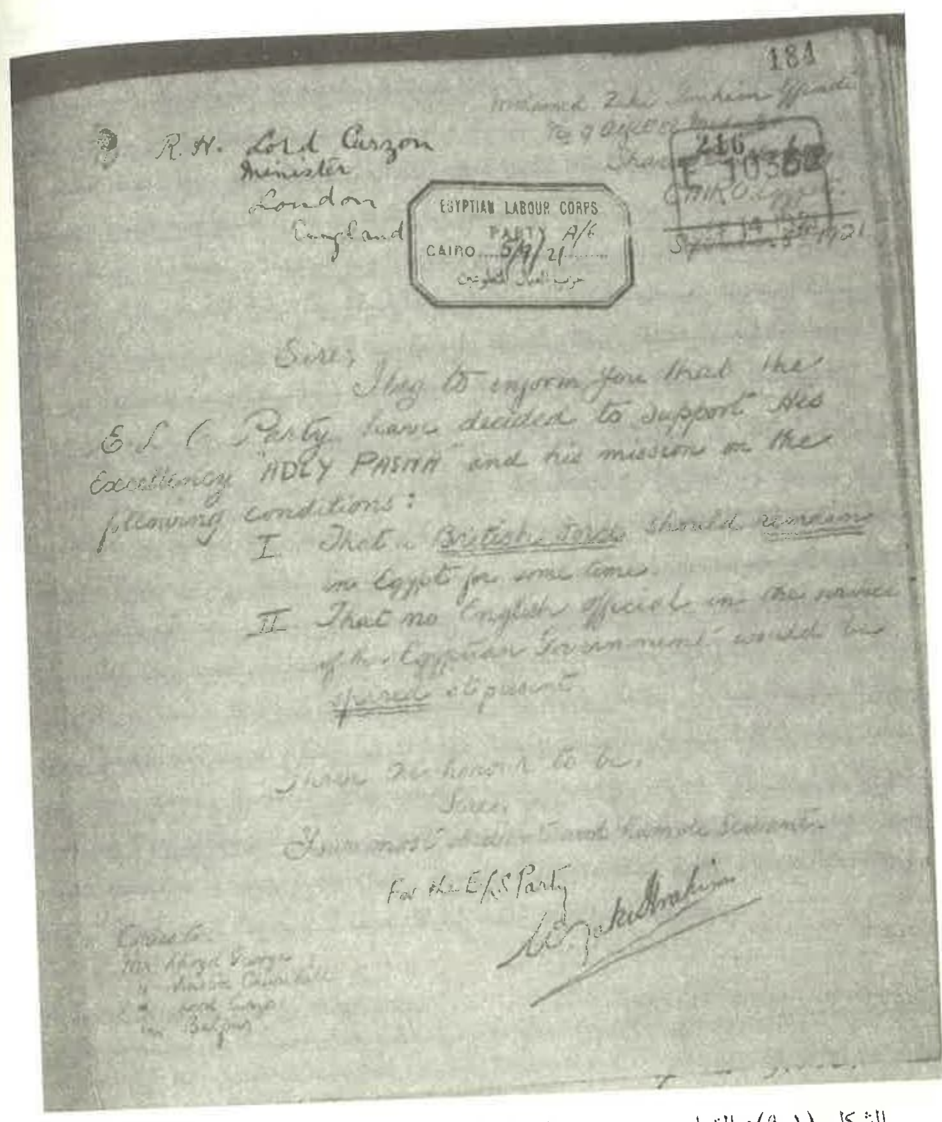
(94) TNA, FO 371/3717/75612: Strike at Port Said (May 19, 1919).

وفي سبتمبر من عام ١٩٢١، وصل التماس من جماعة تسمي نفسها «حزب فرقة العمال المصرية»، تبدي فيه رأيها في تصرفات الحكومة الجديدة. وكان كاتب الالتماس اسمه محمد زكي إبراهيم أفندي، وقد عيَّن القاهرة مقرًا لمنظمته، ومُهِر الالتماس بما يبدو أنه خاتم الحزب الرسمي، به اسم الحزب بالعربية والإنجليزية، لكنه سماه بالعربية «حزب العمال المتطوعين». ويبين وجود هذا الحزب استمرار ارتباط بعض الناس بفرقة العمال المصرية في السنوات التالية للثورة. وتكتسب الكلمات المنقوشة على الخاتم دلالةً من صفة المتطوعين التي أُلصِقت بالعمال فيما يخالف تمثيل عملية تجنيد فرقة العمال المصرية بأنها «خطف» أو «عبودية» في الخطاب الوفدي. وإن مفهوم حزب سياسي للعمال الذين «تطوعوا» للخدمة في الحرب، يرتكز على وجود إرادة للعمال وليس على القهر البريطاني. وهذا أقرب إلى نغمة الفخر الموجودة في أغنية سيد درويش الكلاسيكية «سالمة يا سلامة». وربما يروق هذا التأويل للرجال الذين أنفقوا شهورًا أو أعوامًا في الحرب، ويكسبهم هوية في إطار ثقافة فرقة العمال المصرية الذكورية التنافسية.

ويتميز التماس «حزب العمال المتطوعين» كذلك باختلافه عن الأجندة الوطنية الرسمية في ذلك الوقت. إذ كان الحزب يؤيد مهمة عدلي يكن بشرط «**بقاء** القوات البريطانية في مصر إلى حين» و«ألا **يُستغنى** عن أي مسؤول إنجليزي في خدمة الحكومة المصرية في الوقت الحاضر (التوكيد في الأصل)»[٩٥]. تعارض هذه الرغبات مطالب حكومة عدلي يكن، وكما توضح وثائق سجلات المحفوظات البريطانية؛ فقد كان عدلي يكن يطالب بانسحاب الاحتلال إلى منطقة القناة فقط لتأمين «الاتصالات الإمبراطورية»، مع عدم وجود جنود بريطانيين غيرهم في البلاد[٩٦]. أما الموقف الرسمي لحزب العمال المتطوعين فكان مؤيدًا لبقاء الجنود البريطانيين في البلاد. ولعل بعض رجال فرقة العمال المصرية كانوا يخشون ضياع مصدر دخلهم الأول، وأما الزعماء الوطنيون الذي كانوا ينظرون إلى العنف المرتبط بعملية التجنيد لفرقة العمال المصرية، ورأوها «خطفًا» أو «عبودية» (انظر الفصل الثامن)، فكان يرون أن مطالبات حزب العمال المتطوعين المزعوم لا تفهم إلا في سياق متلازمة ستوكهولم.

---

(95) TNA, FO 371/6304/10360: Egyptian Negotiations (September 5, 1921).
(96) TNA, FO 371/6304/9814: Egyptian Negotiations (August 30, 1921).



184

R.H. Lord Curzon
Minister
London
England

EGYPTIAN LABOUR CORPS
PARTY A/6
CAIRO 5/9/21
حزب العمال المتطوعين

Sirs,
I beg to inform you that the E.L.C. Party have decided to support His Excellency "ADLY PASHA" and his mission on the following conditions:

I. That a British force should remain in Egypt for some time.

II. That no English official in the service of the Egyptian Government would be spared at present.

I have the honour to be,
Sirs,
Your most obedient and humble servant

For the E.L.C. Party

الشكل (٩,١): التماس من حزب العمال المتطوعين إلى المندوب السامي البريطاني. محفوظ في سجلات المحفوظات الوطنية البريطانية، وزارة الخارجية ٦٣٠٤/٣٧١.

وقد أثار رجال فرقة العمال المصرية وعائلاتهم مشكلة مع الحكومة التي تلت الثورة حول معاشاتهم وتعويضات العجز. ففي التاسع والعشرين من يناير من عام ١٩٢١، أصدرت الحكومة المصرية قرارًا رسميًا بأن كل من جُرح أو أصيب بعجزٍ كامل أو جزئي في الخدمة في أثناء الحرب العالمية الأولى، سيتلقى معاشًا يكفي «ضرورات الحياة» فوق الراتب الذي كان يخصص له[٩٧] تقول المؤرخة المصرية لطيفة سالم إن ملفات أذونات المعاش الخاصة بالعمال الحكوميين تحوي طلبات من عمال يطالبون بتعويض عاجل وفقًا لهذا القرار، وبعضها يعود إلى عام ١٩٣٣[٩٨]. ومن هؤلاء جمَّال اسمه منصور شحاتة فقد إحدى عينيه في معركة في فلسطين، ورجل اسمه محمد إبراهيم كان يعمل في فرقة العمال المصرية وجُرح. يكشف بحث لطيفة سالم في ملفات الشرطة بمدينة القاهرة شكاوى مماثلة من أبٍ يطالب بتعويض لوفاة ابنه في أثناء خدمته[٩٩]. وكما رأينا، فإن رجال فرقة العمال المصرية عانوا للحصول على اعتراف مادي من حكومة ما بعد الثورة في مصر بأكثر من عشر سنوات. ورغم أن قرار التاسع والعشرين من يناير من عام ١٩٢١ يشير إلى أن الحكومة ستعوض هؤلاء العمال عن خدمتهم المخلصة، فإن الحصول على هذه التعويضات كان أصعب في التنفيذ. واضطر المجندون في فرقة العمال المصرية من أهل الريف مرة أخرى إلى الكفاح من أجل سد الهوة بين الكلام والواقع.

تتوفر هنا أدلة كثيرة على أن عمال الفرقة المصرية الذين خدموا بالفعل، كانوا يتصرفون ويفكرون على نحو يخالف نهج الثورة والمشروع الوطني بعدها. ولا شك أن فرقة العمال المصرية واصلت العمل أثناء الثورة وبعدها؛ بينما قرر آخرون، مثل عمال الفحم المضربين في بورسعيد، أن يتضامنوا مع الأهداف الوطنية. وإن صدَق ڤينابلز، فإن بعض عمال الفرقة المصرية كانوا يصرِّحون باغترابهم عن الحركة الوطنية الأكبر ورغبتهم الصادقة في الاستمرار في عملهم. وإن أبرز وثيقة في هذا الصدد هي الالتماس الذي قدمه حزب العمال المتطوعين؛ لأنه ليس مجرد دليل على وجود هذا التنظيم بهذا الاسم العربي الذي يرفض صراحةً ربط الوفدِ فرقةَ العمال المصرية «بالخطف» و«العبودية»؛ بل لأنه يبين أن جماعات العمال المنظمة كانت تعبّر عن مصالحها السياسية التي تختلف مع مسار المشروع الوطني الأكبر، بل تتعارض معه. وبينما كان الوفد المصري الذي ذهب إلى لندن يطالب بانسحاب الجنود البريطانيين إلى منطقة قناة السويس، كان التماس حزب العمال المتطوعين يطالب **ببقائهم** في البلاد. واستمرت

---

(٩٧) لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص ص ٢٦٢-٢٦٤.
(٩٨) لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص ص ٢٦٢-٢٦٤.
(٩٩) لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص ص ٢٦٢-٢٦٤.

الخلافات بين رجال فرقة العمال المصرية والحكومة المصرية لأكثر من عقد، وظل بعضهم يطلب معاشات حتى عام ١٩٣٣. لذلك فمن المقبول أن نقرر أن مصالح العمال أنفسهم الذين خدموا في الحرب، لم تكن في قلب المشروع الثوري، فإذا لم تكن الحرب حربهم فالثورة حتمًا ليست ثورتهم.

الخلاصة

إذا حللنا الثقافة الشعبية، وأعمال الاحتجاج الشعبية التي انتشرت في البلاد في أثناء ثورة ١٩١٩، لوجدنا أن المشروع السياسي التوحيدي الذي استندت إليه القومية العِرقية المصرية في ذلك الوقت، كان مشروعًا متهافتًا. فإن كثيرًا ممن حكوا قصة ثورة ١٩١٩ وقالوا إنها حركة نشأت مع تشكل الوفد وانتشرت إلى الأقاليم **بعد** القبض على سعد زغلول ونفيه، أغفلوا وقوع حركة احتجاج واسعة بدأت في صيف عام ١٩١٨، أي **قبل** تأسيس الوفد بشهور. عادت هذه الحركة بعد الحرب حين لم توف توقعات التسريح أو إلغاء التعبئة، فلم ينعم المصريون بالسلام؛ بل ظلوا لسنين يُجنَّدون بمئات الآلاف للوفاء بالطلب على حاجات العمل اللوجستي في المنطقة المحتلة. وحين نشبت الثورة في مارس ١٩١٩، بُعثت ألوان المقاومة العنيفة لعملية التجنيد، وتأججت الاحتجاجات تضامنًا مع عمال الفرقة المصرية في طول البلاد وعرضها. وكان العنف الموجَّه إلى مسؤولي فرقة العمال المصرية من ملامح الاحتجاج الثوري البارزة في مديريتي الصعيد الأقرب إلى الشمال. وإن التركيز على فرقة العمال المصرية ليساعدنا على تقدير تأثير الفلاحين المصريين في إشعال فتيل الاحتجاج والحفاظ عليه طوال ثورة ١٩١٩.

لقد ادَّعى الاحتجاج الشعبي الداخلي وخطاب الناشطين في الخارج أنهم يقومون بثورة باسم العمال الذين «خُطفوا» و«استُعبدوا»؛ أما العمال أنفسهم فظلوا موالين لضباطهم البريطانيين طوال الثورة. وتشهد كتابات الضباط على هذا الولاء؛ بل إن عمال الفرقة المصرية استُخدموا لشغل مكان عمال مضربين متضامنين مع الحركة الوطنية. وتحتفظ سجلات المحفوظات البريطانية بالتماس من حزب العمال المتطوعين يبين أن عمال الفرقة المصرية نظَّموا أنفسهم ليمثلوا مصلحتهم الجمعية على المسرح السياسي بعد ثورة ١٩١٩. وقد فعلوا ذلك على نحو يعارض أهداف الوفد. لا شك أن المسؤولين البريطانيين كان لديهم حافز قوي لتمثيل المصريين بصورة المتطوعين. ولذلك فإننا ينبغي أن ننظر بعين الشك إلى أي دليل محفوظ في سجلات المحفوظات البريطانية يؤيد مفهوم التطوع هذا؛ رغم أن الوثيقة التي تبين هذا وثيقةٌ أصلية. فإذا كانت هذه الوثيقة صادقة، فإنها تشير إلى الحفاظ على الصلات الاجتماعية والتنظيمية بين العمال

الذين خدموا معًا في سنوات الحرب بعد الهدنة والثورة[١٠٠]. وإذا نظرنا إلى الواقع نجد أن العمال الأفراد قد سعوا إلى عام ١٩٣٣ لمطالبة حكومة ما بعد الثورة بمعاشات لم يحصلوا عليها، ويشير هذا إلى أن تأثير فرقة العمال المصرية كان محسوسًا في مصر مدة طويلة بعد انتهاء الحرب.

تضيف قصة فرقة العمال المصرية عمقًا وتفصيلًا لتصورات المؤرخين عن ثورة ١٩١٩. فهي تعقِّد التصورات الحضرية التوحيدية شبه العرقية عن الذات السياسية المصرية في أثناء الثورة؛ إذ تبين أن العمال المهاجرين من الريف كانوا يطرحون أشكالًا أخرى من التضامن السياسي لا يسهل اختزالها في مفهوم الوطنية. وبعض الأدلة على ذلك مجرد قرائن مقصورة على جماعات سكانية بعينها. لكنها تتعارض مع السردية التاريخية المروية، وتساعدنا على فهم تنوع المخيلات السياسية التي كانت موجودة في مناطق مختلفة من البلاد عند بداية ثورة ١٩١٩.

---

[١٠٠] كشفت نفرتيتي تكلا (Nefertiti Takla) عن أدلة تؤكد حفظ عمال الفرقة المصرية للعلاقات بينهم بعد الحرب في الإسكندرية. انظر:
Takla, "Murderous Economies."

الخاتمة

بينما كان أشرف صبري يمثل فرقة العمال المصرية على شاشة التلفزيون المصري في ٢٠١٤ بصورة الجنود، كان فريق من الباحثين والفنانين والناشطين يروون قصص هؤلاء الرجال من منظور مختلف. كان عرض «هوى الحرية» (٢٠١٤) تجربةً مسرحية فريدة تجمع بين البحث الأرشيفي والمسرح الموسيقي والمحاضرة الأكاديمية. كان العرض من إخراج ليلى سليمان وهي من رواد هذا الأسلوب الفريد في المسرح الوثائقي، وقد تعاونتْ في هذا العرض مع المؤرخة عالية مسلَّم وخبير الموسيقى الإثنية مصطفى سعيد. ظل الفريق يعمل لشهور في القاهرة ولندن يجمع المصادر الأرشيفية عن تاريخ مصر بين ١٩١٤ و١٩١٩[1]. ثم قدَّمت ممثلتان الدورين الرئيسين، فكانت زينب المحاضِرة الأكاديمية التي تتنقل بسلاسة بين العامية القاهرية والإنجليزية الراقية، وكانت ناندا هي المهاجرة السورية ذات الصوت الجميل[2]. وطوال العرض كانت زينب تحاضِر عن وثائق من سجلات المحفوظات البريطانية والصحف المصرية، وناندا تجسد أعلام الثقافة الشعبية المصرية في مطلع القرن العشرين أمثال نعيمة المصرية وسيد درويش.

حامت الثورةُ –المشهورة بـ «الربيع العربي»التي عاشتها ليلى سليمان وفريقها فوق العرض كالطيف. وفي أحد المشاهد تتتبع ناندا وزينب أصول «قوانين الطوارئ» المأفونة التي كانت في عهد الرئيس الأسبق حسني مبارك صعودًا إلى الأحكام العرفية البريطانية في أثناء الحرب العالمية الأولى. ثم تعرض على شاشة المسرح صورةً لنسخة من مجلة **اللطائف المصورة** بها صورتان كبيرتان لفرقة العمال المصرية، يقول عنوانها الرئيس «ربع مليون من المصريين الأشداء يشدون أزر الحلفاء»[3]. تقف زينب أمام الصورة وتقدم رؤيتها النقدية قائلة: «رغم اللي شايفينه ده، فتجنيد العمال في الجيش اتعمل بالسلطة»، ثم تقول «وده كان أحد أسباب الانتفاضات الضخمة [في ١٩١٨] في الدلتا وبعض مدن الصعيد»، وتشير بذلك إلى موجة العنف التي ثارت ردًا على التجنيد القسري للعمال التي وثقناها في الفصلين الثاني والتاسع من كتابنا هذا. وتجول زينب في أجواء هذه الانتفاضات العنيفة المنسية وتقول «بالوقت، حسيت بمقارنة بين ١٩١٧ و١٩١٩ وبين ٢٠١١ و٢٠١٣»، وفجأة تقاطعها ناندا قائلة «التشبيهات بتحبس الخيال وتسطَّح الأمور!»، فتُخرج مقاطعة ناندا المحاضرة عن مسارها ويتحول المشهد وتختفي صورة فرقة العمال المصرية.

---

[1] مقابلة شخصية مع ليلى سليمان (٢٠ يناير ٢٠١٦)؛ ومقابلة شخصية مع عالية مسلم (٢٩ أكتوبر ٢٠١٥).

[2] مقابلة شخصية مع زينب مجدي (٢٨ أكتوبر ٢٠١٥).

[3] «ربع مليون»، **اللطائف المصورة**، ٢٤ سبتمبر ١٩١٧.

فرقة العمال المصرية والحرب العالمية الأولى في مصر

يحذو كتابنا هذا حذو فريق الباحثين والناشطين في عرض «هوى الحرية»، إذ حاول أن يروي قصة فرقة العمال المصرية ليقاطع رواية السرديات التاريخية المختزلة التي روّجت لها السلطات الإمبريالية البريطانية والسلطات الوطنية المصرية. أدى عمال الفرقة المصرية عدة أدوار ترتبط باللوجستيات العسكرية ومن أهم أهداف كتابنا هذا توثيق إسهاماتهم المنسية في الحرب العالمية الأولى. فأغلب مؤرخي الحرب يركزون على ساحة القتال الأوروبي ويغفلون ساحة الشرق الأوسط، ويروجون قصة الجنود على الجبهة ويغفلون قصة عمال اللوجستيات الذين كانوا على خطوط الإمداد والاتصال. لكن فرقة العمال المصرية تعقّد فهمنا للحرب على الجبهتين. فعلى الرغم من أن عشرات الآلاف من العمال المصريين عملوا في فرنسا؛ يتوارى ذلك أمام دور مئات من الآلاف الذين خدموا في المعارك ضد الدولة العثمانية في غاليبولي والعراق؛ ولا سيما من اشتركوا في الهجوم على فلسطين عبر سيناء وهو أقل شهرة وأشد أثرًا. فقد أنشأت فرقة العمال المصرية آلاف الأميال من السكك الحديدية وأنابيب المياه التي مثلت «جسرًا يعبر الصحراء» بما أحدث تحولًا ضخمًا في إمكانات الانتقال بين القاهرة والقدس، وأرسى بذلك دعائم إمبراطورية بريطانية جديدة في الشرق الأوسط.

إن قرب رجال فرقة العمال المصرية من البنى التحتية اللوجستية الحيوية ومعرفتهم بها، يضع في أيدي رجالها القدرة على توجيه ضربة إلى قلب آلة الحرب العسكرية البريطانية، وكانت الفرقة تحتج في كل خطوة يخطونها في رحلتهم الطويلة من وطنهم إلى الجبهة. فقد قاوموا مسؤولي التجنيد، واستخدموا العنف أحيانًا، ومن ورائهم أهلهم يقاومون. وحين وصلوا أماكن الحجز في المركز نظموا اعتصامات وانضم إليهم أبناء القرى المجاورة. وكان رجال فرقة العمال المصريين، ولا سيما في فرنسا وإيطاليا، من أصعب العمال قيادًا في قوات العمل العسكرية. ردت السلطات البريطانية على هذه الاحتجاجات بتغييرات في سياستها، فأعادت السخرة وأحاطت مستودعات الإمداد والتموين بالأسلاك الشائكة ونقلت فرقة العمال من فرنسا قبل هجوم الشتاء في ١٩١٧. ويبين هذا أن عمال اللوجستيات يستطيعون تعزيز مواقفهم في شبكات التوزيع؛ فيضعون «عوائق فيها يمتد أثرها ويتضاعف في كل أنظمة الإنتاج والتوزيع»(٤).

لقد عاش رجال فرقة العمال المصرية ما سمته ديبورا كُوِن «حياة اللوجستيات المميتة». وتقول كُوِن إن الدور المهم الذي أداه عمال اللوجستيات في شبكات التوزيع

---

(4) Cowen, *Deadly Life*, 94.

يجعلهم أهدافًا لتقنيات ضبطٍ حكومي عنيفة لا تنفك تزداد[5]. فقد استُخدِم العنف في عملية التجنيد منذ بدايتها، إذ كان العُمد يَجرُّون الرجال من الحقول ومن بيوتهم جرًا، ويلقون بهم في أقرب مراكز الحجز. فإن قاوموا ضُربوا أو قُتلوا، وإن خرجت حركة المقاومة عن السيطرة، كانت أقرب نقطة شرطة ترسل قوتها لإخماد المعارضة. وكان الرجال المقهورون يتنقلون بين الجبهة والوطن مرة بعد مرة، وتتعرض أجسادهم لوكز ونغز مسؤولي الصحة البريطانيين ومفتشيها والأطباء العسكريين. وحين يصلون إلى مواقع العمل يجدون أنفسهم تحت رحمة الضباط البريطانيين. وقد أنشأ الضباط تراتبية داخل سراياهم وكانوا يفتشون على العمال صباح مساء ويفرضون عليهم الانضباط العسكري والمحاكمات العسكرية. وحين نشبت الاحتجاجات الجماعية على هذه الظروف في فرنسا وإيطاليا وغاليبولي، استدعى الضباطُ الجنودَ المحيطين بهم الذين استخدموا العنف لإخمادها؛ فقتلوا عشرات الرجال من فرقة العمال المصرية. لقد كان تعطيل مسار الإمداد والتموين أمرًا لا يقبل التفاوض، ويفسر هذا تمسك الإمبراطورية البريطانية بقناة السويس لمدة طويلة بعد ثورة ١٩١٩.

لا يمكن تفسير ما تعرَّض له رجال فرقة العمال المصرية من عنف بأهمية دورهم اللوجستي فحسب. فإن البنى التحتية اللوجستية جمعت أناسًا شتى لكن منطق العنصرية الاستعمارية فرَّق بينهم. وقد بيَّن الفصل الخامس أن عمال الفرقة المصرية في فرنسا أودعوا معسكرات منفصلة ووُضِعت تحركاتهم قيد المراقبة. فإذا سمح لهم بالذهاب إلى المدن المجاورة؛ كانوا يتعرضون لقوانين مثل قوانين جيم كرو العنصرية في أمريكا حتى يحولوا بينهم وبين التعرف على أهل البلاد البيض. وكان لهم في مصر وفلسطين منظومة مستشفيات منفصلة يراقبها ضباطٌ بيض يسوِّغون استخدام السياط لفرض الانضباط بطرائق لا شك ترتبط بما في أذهانهم من «تصورات عن الصفات العرقية المميزة» للمصريين.

من هذا المنظور تبدو الحرب من أوضح تجليات ما سماه دو بوا «خط اللون العالمي». كانت فرقة العمال المصرية مجرد جزء من فرق العمال «الملونين» أو فرق عمال «الأهالي». ففي أثناء سلسلة حروب استعمارية طويلة في القرن التاسع عشر الطويل، التي لخصناها في الفصل الأول، بنى البريطانيون والفرنسيون أفكارًا عنصرية الجوهر عن صفات من يستأهل القيام بأعمال عسكرية معينة. فلما فرضت الحرب العالمية الأولى تحديات لوجستية غير مسبوقة، لجأ الحلفاء إلى هذه الحلول الجاهزة وجنَّدوا العمال المصنفين عرقيًا من كل أرجاء المعمورة، في المجهود الحربي.

---

(5) Cowen, *Deadly Life*, 4.

العنف ومفهوم التطوع في الإمبراطورية البريطانية

حاول مسؤولو الإمبراطورية البريطانية تسويغ سياساتهم في مصر بإعلان أنهم أخذوا موافقة المعنيين على نحو ما[٦]. ولهذا كانوا يرددون مقولة إن العمال كانوا «متطوعين». يقول آرون جيكس إن الإمبراطورية البريطانية «اصطنعت» الموافقة في مصر من خلال خطابٍ يسميه «النزعة الاقتصادية الاستعمارية»[٧]. وهذه النزعة الاقتصادية الاستعمارية تطويرٌ للهوية العرقية المصرية التي مثّلت المصريين بأنهم يتأثرون تأثرًا فريدًا بالدوافع الاقتصادية الصغيرة ويعجزون عن إدراك الرؤية السياسية الشاملة مما يُسقط استحقاقهم للحقوق السياسية. يوثّق جيكس نهج الاحتلال البريطاني من ١٨٨٢ إلى ١٩١٤ في إرساء سياسات تبدأ من مبحث الاقتصاد السياسي الآخذ في النمو؛ إلى تحويل مصر إلى آلة ضخمة لإنتاج الثروة القومية. واعتقد المسؤولون البريطانيون أنهم لو نجحوا في هذا المخطط، فإن المصريين، كعرقٍ يتأثر تأثرًا فريدًا بالدوافع الاقتصادية، سيوافقون على الاندماج في الإمبراطورية.

ولا شك أن النزعة الاقتصادية الاستعمارية أثّرت على تصورات البريطانيين لفرقة العمال المصرية، كما تبين سجلات المحفوظات البريطانية، إذ نجد محاولات مسؤولين كثيرين أن يثبتوا بأدلة كثيرة أن رجال الفرقة المصرية كانوا بالفعل «متطوعين». وتبرز الدعايةُ الموالية للبريطانيين في الصحافة المصرية الأجورَ التنافسية والمزايا المادية التي يكتسبها المنضمون إليها. هناك الكثير بالفعل من الأدلة العربية والإنجليزية، التي تؤكد -على رغم أصولها الاستعمارية أن بعض الرجال تقدّموا إلى السلطات ووقّعوا بإرادتهم عقودًا للعمل مددًا محددة في فرقة العمال. كانت الصحافة المصرية تحت رقابة بريطانية صارمة ولعل هذا يشكك في روايتها للموقف، لكن المصدر المباشر الوحيد الذي كتبه أحد عمال الفرقة يروي قصة شاب وجد العمل في الفرقة مقبولًا فكرر العمل فيها دورةً بعد أخرى. إذ يصور عبد الحميد محمد حسين نفسه في رحلة ارتقاء في فرقة العمال المصرية، ورويت قصته مرة أخرى في مجلة روز اليوسف المصرية في ١٩٦٨ بوصفها حكاية تتجاوز الحدود الوطنية، فتربط مصر بفلسطين في الماضي القريب، وليس بوصفها من مساوئ البريطانيين التي تُحكى لكي تُدان.

وبصرف النظر عن حضور المتطوعين في فرقة العمال المصرية أو غيابهم، من المهم أن ندرك أن سنوات الاحتلال البريطاني لمصر غيرت البيئة الطبيعية والاجتماعية

---

(٦) يقول هارولد نيكلسون: «لا يقوم تسويغ وجودنا في مصر على حق الغزو الذي لا نزاع فيه، ولا على القوة، بل على إيماننا بعنصر الموافقة». انظر: Nicolson, Curzon, 166.

(7) Jakes, *Egypt's Occupation*, 3.

تغييرًا كبيرًا، جعل ملايين العمال أُجراء تعتمد حياتهم على من يستعملهم. ويقر حسين نفسه بأن حاجته إلى المال هي ما أكرهه على الانضمام لفرقة العمال. فهو يقول «الفقر هو الذي يحكم كل شيء في الحي المتواضع ... ومع الفقر تولد المُثُل والقوانين»[٨]. وهو هنا يضرب مثلًا من مجال الفقه، إذ يقول إنه في حين أن القانون الإلهي المستمد من القرآن والسنة يُعبَّر عنه بلفظة «الشريعة» العربية، فإن القانون يستند إلى سلطة الدولة التي ترسخها بالغزو العنيف. ويستخدم حسين المصطلح استخدامًا بديعًا يبين أن نوعًا ثالثًا من العنف نشأ في آخر عصر الاحتلال. فكما حاول البريطانيون أن ينشئوا علاقة سياسية بالمصريين على أساس إنتاج الثروة الوطنية، مارسوا نوعًا جديدًا من القوة يكمن عنفه في ضغط الفقر. وقد درس الفصل الثاني تفصيلًا التوسع في الري الدائم وتوجيه الزراعة المصرية إلى القطن بغرض التصدير، وكيف أحدث هذا تحولًا في حياة الفلاحين. فقد انتقلوا من زراعة محاصيل كالقمح الذي كانوا يأكلون منه في أوقات الأزمات المالية وانهيار السوق، إلى جني القطن على مساحات شاسعة بتمويلٍ مصدره بورصات السلع العالمية التي تتيح تبادل السلع.

ولا ينبغي أن تقف فاعلية التقنيات الجديدة التي زادت الثروة الوطنية المصرية أو محتها، عائقًا أمام فهم المؤرخين آليات حركة الإمبراطورية البريطانية الأوسع. فإن الإمبريالية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين كانت تنافسًا بين الدول القومية الأوروبية، وقد خشي سياسيون كثر أن تبدد ثروتهم الوطنية بسهولة كما زادتها بسهولة[٩]. وما إن اتبعت الدول القومية في أوروبا منطق التراكم المستمر مبدأً منظِمًا للكيان السياسي كله، وليس الاقتصاد السياسي وحده، أنشأوا نوعًا جديدًا من الحكم. وكان السلام والاستقرار النسبيان اللذان سادا أوروبا بعد الحرب الفرنسية البروسية قد سمح بدرجة من التضامن الأوروبي العام، تجلى في «البياض» بوصفه هوية جمعية. وتعزز ذلك عبر عقود من الحروب الاستعمارية التوسعية في العالم كله. وقد مثَّل هذا سابقةً لخطط معقدة لنقل العمال المصنفين عرقيًا عبر مسافات شاسعة، كما بيَّنا في الفصل الأول. وبينما وصف لينين الإمبريالية، كما هو معروف، بأنها أعلى مراحل تطور الرأسمالية؛ تقول هنَّا آرنت إنها أولى مراحل ظهور نوع جديد من الكيان السياسي، لا ينفك يقوم على دمج الاختلاف العرقي[١٠].

---

[٨] سمير عزت، "صفحات من مذكرات شيخ مجهول"، روز اليوسف، ١٧ يونيو ١٩٦٨.

[9] Hobson, *Imperialism*.

[10] Arendt, *Origins of Totalitarianism*, 148; Lenin, "Imperialism."

لكن التزام آرنت بمنظومة تصنيفية معيبة، يمنعها من إدراك أن العنف المناهض للعنصرية عمل «سياسي»[11]. فهي تعترض على كتاب فرانز فانون التأسيسي **معذبو الأرض** في مقالها «في العنف». ورغم أنها تقر بأن اللجوء إلى العنف الذي صوَّره فانون ربما ينشيء هويات جمعية، كما تفعل «كتائب الإعدام والأخويات الثورية». فإنها تقول: «لا أعرف كيانًا سياسيًا نشأ على المساواة أمام الموت وتحقيقها بالعنف»[12]. كتبت آرنت المقال ردًا على تكتيكات العنف التي تمارسها حركة القوة السوداء في الوطن الذي لجأت إليه -أي الولايات المتحدةالتي كانت تعامل كتاب فانون كأنه نبوءة[13].

لكن القراءة المتأنية لكتاب **معذبو الأرض** تبين أن نص فانون ليس به معنى اليقين الغائي الذي تنتقده آرنت؛ إذ يرى فانون أن «المواجهة الأولى» بين المستعمِر والمستعمَر «بدأت بالعنف»، وأن وجودهما معًا «استمر بقوة صفوف البنادق ذات السناكي والمدافع»[14]. وفي مواجهة آلة الحرب الاستعمارية، يقول فانون إن السياسة المناهضة للاستعمار يجب أن تستخدم «كل وسيلة لقلب الموازين، بما في ذلك العنف طبعًا»، الذي ينبغي «أن يستعمله الأهالي ويتبعوه لحظة أن قرروا تجسيد التاريخ بأشخاصهم، فيقومون ... بتحطيم العالم الاستعماري»[15].

لكن ما يقوله فانون بعد ذلك، يبيِّن أن اليقين الغائي الذي يستند إليه خطابه الأول، ويتحدث عن «تجسيد التاريخ»، يتلاشى. وهو يصف زوال يقين مناهضة الاستعمار في إحدى الفقرات الدالة:

> إن ذلك الاندفاع الطوعي الذي كان يريد أن ينقل الشعب المستعمَر إلى مستوى السيادة المطلقة دفعةً واحدة، وذلك الاعتقاد الذي كان يخامر النفوس بأن في إمكاننا أن نجر جميع أجزاء الأمة إلى حركةٍ واحدة يجمعها منظور واحد ... ثبت على ضوء التجربة أنه عيب خطير. إن المستعمَر، ما ظل يتخيل أن في إمكانه أن ينتقل رأسًا، بلا مراحل، من حالة المستعمَر إلى حالة المواطن الذي يملك السيادة في أمة مستقلة،

---

(11) Gines, *Hannah Arendt and the Negro Question*.

(12) Arendt, *On Violence*, 68–69.

(13) Bhabha, "Framing Fanon," xxi, xxviii–xxxi.

(14) Fanon, Wretched of the Earth, 36.

(15) Fanon, Wretched of the Earth, 40.

وما ظل يستسلم **لسراب** ترسخه قوة عضلاته، **لا يحقق تقدمًا حقيقيًا في طريق المعرفة، بل يظل** وعيه بسيطًا ساذجًا[١٦]. **(التوكيد من عندي).**

وهنا ينتقل فانون من النمط الذاتي في التحليل إلى الموضوعي؛ لأنه لا يسعى لفهم سبب لجوء المستعمَر إلى العنف، بل لفهم آثار هذه الأعمال على ضوء خبرات التاريخ. فإن وعد العنف لا يجعل المستعمَر نوعًا جديدًا من البشر؛ بل إنه يبدو «سرابًا يرى فيه المحرومون انعكاس صورهم، لكنهم لا يروون ظمأهم منه»[١٧]. وترى آرنت تمجيدًا للعنف عند فانون، وترى العنف مناقضًا للسياسة في جوهره، أما هومي بابا فيقول عن عنف فانون «إنه لا يقدم اختيارًا واضحًا بين الحياة والموت ولا العبودية والحرية، لأنه يواجه الحالة الاستعمارية بالحياة-في-موات»[١٨]. وبهذا يختلف العنف من جانب المحرومين من الصوت عن العنف الذي يمارسه من يملكون القوة لفرض إرادتهم. وإن مقارنة فانون بآرنت ليساعدنا على فهم الأبعاد السياسية للعنف المضاد للعنصرية، وهو آخر ما بوسع من حُرموا صوتًا يعبِّر عنهم في المجال العام وفرصةً لأن يُسمعوا.

قُمِعت الاحتجاجات العنيفة في الريف في أثناء ثورة ١٩١٩ بقوة قاهرة؛ حيث جاءت التجريدة المصرية في النيل بالبواخر تدعمها الطائرات. وعلم المسؤولون البريطانيون أن مشهد العنف في أثناء الثورة قد هدم أي أمل كان عندهم في ادِّعاء «موافقة» المصريين على احتلال بلادهم. فأطلقوا سراح سعد زغلول ورفاقه من السجن وسمحوا لهم بالذهاب إلى باريس. وبدأوا المفاوضات مع الوفد، التي انتهت بمنح المصريين درجة من السيادة الوطنية.

العرق والمكان والدولة القومية ما بعد الاستعمار

كيف نتصور فضاءً يجمع المصريين من أهل الريف والحضر في جماعة واحدة؟ لقد وجد الوطنيون الذين كانوا ينظِّمون العمل السياسي ضد الاحتلال البريطاني في عام ١٩١٩ الإجابة في حدود الدولة القومية القُطرية ذاتها. فالمساحة التي تحيط بها خطوط الحدود ستكون فضاء السيادة المصرية. انطلق الوطنيون في مصر من الفراغ -وهو تصور مسبق عن الفضاء انتقده لوفيفر (انظر الفصل الثالث)ومن رؤيةٍ عرقية للعالم برزت في أواخر القرن التاسع عشر، فانتهوا إلى أن الإمبريالية مواجهة بين أمم/أعراق

---

(16) Fanon, Wretched of the Earth, 88.

[الاقتباسات المنقولة عن فرانز فانون، أوردناها بتصرف يسير من ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، الصادرة عن دار مدارات للأبحاث والنشر عام ٢٠١٤. وللاقتباس المذكور، راجع ص ١١٦. -المترجمان]

(17) Bhabha, "Framing Fanon," xl.

(18) Bhabha, "Framing Fanon," xxxvi.

مختلفة على فضاء المسرح العالمي، واعتبروا السيادة القومية آليةً قانونية تفض هذا النزاع. وإن ما سعى رجال القانون المتعلمون في الوفد إلى فهمه، وكان الفلاحون في وضع يجعلهم يفهمونه بالبداهة؛ هو أن الإمبريالية عملية مكانية تُنتج مخيلات عنصرية؛ وليست مواجهة بين أعراق موجودة موضوعيًا في حيز فارغ. ولهذا وجَّه الفلاحون طاقتهم إلى تخريب خطوط السكك الحديدية والبرق والهاتف في أثناء الثورة. وقد رأوا أن الظلم الذي يتعرضون له نتيجة تغير في الحيز المكاني، وأدركوا أن البنى التحتية اللوجستية توازي خطوط الأماكن التي تحيط بهم وتقيدهم. وكانت هذه الأعمال هي ما هدد الإمبراطورية البريطانية أكبر تهديد، وليست رغبة الوفد في السفر إلى باريس لمؤتمر السلام. ويفسر هذا تخفيف قبضتهم عن سعد زغلول ورفاقه، وفي الوقت نفسه، سحق من يقومون بتخريب المرافق في الريف (انظر الفصل التاسع).

لم تلغ البنى التحتية اللوجستية والعمال المهاجرون الذين يبنونها ويحافظون عليها الحدودَ العشوائية التي خُطَّت للمديريات أو للدولة القومية؛ بل تجاوزوا هذه الحدود وسهلوا الحركة وتدفق الأشياء مما أزكى الحرب والتجارة معًا. وإن تتبع رجال فرقة العمال المصرية وهم ينتقلون من قراهم إلى الجبهة، ثم إلى قراهم، ليُجبرنا على رسم حدود جديدة حول شبكات التوزيع هذه. ومن شأن هذا أن يقلب تاريخ مصر «رأسًا على عقب»، فينسبها إلى جغرافيات تتجاوز الإمبراطورية والأمة[19].

لقد تمنى القوميون في جميع أنحاء المعمورة في نهاية الحرب العالمية الأولى أن يرسموا الخطوط الصحيحة على الخريطة حتى تتوافق مساحة الأرض التي بها الدولة القومية مع حدود الذات السياسية العرقية/القومية؛ وساعتها يستطيعون حل المشكلات التي جلبتها الإمبريالية. لكن فضاء السياسة والهوية الجمعية فضاء ذهني كما هو فضاءٌ قُطري. فإذا رأينا أن ظهور القومية الحديثة من صنع فئة صغيرة من المثقفين الحضريين المتعلمين الذين يفرضون إرادتهم وليست ثمرة عمل سياسي جمعي؛ فإننا ربما نخلط الفضاء الذهني للنظام السياسي المثالي بالفضاء الأرضي للدولة القومية. ويحذِّر فانون من أن يؤدي هذا إلى ضياع مفهوم الطوعية الذي تستند إليه المشاركة الجماهيرية في الأمواج الأولى من الوطنية المناهضة للاستعمار.

تكمن أهمية هذه التأملات النظرية لمفكرين من أمثال فانون في أنها تمنحنا بصيرةً تجعلنا ندرك الرؤى الكونية التي تعتمد عليها رؤى مصادرنا وما يتعلق بها من مزالق وعثرات. لكن أعمال رجال فرقة العمال المصرية وأهاليهم هي التي أتاحت الفرصة لكتابة هذه الملاحظات التي لم تكن لتُكتب من دونها. وإن هؤلاء العمال هم الذين هيأوا

---

(19) Harper, "Singapore, 1915."

البيئة التي كُتبت فيها المصادر التي ورثناها. ففي رحلتهم من قراهم إلى مدن مصر الكبرى والصغرى إلى خدمتهم في الحرب تعاملوا مع بعض أعلام التاريخ المصري. مع ذلك فإننا نعرف قصص رجال مثل إللنبي وكرومر وسعد زغلول وسلامة موسى، وعدد من أعلام النساء مثل هدى شعراوي، لكن رجال فرقة العمال المصرية يكاد يطويهم النسيان. إن الرجال والنساء الذين يؤدون العمل الخفي إنتاجًا ومعاودة إنتاج وتوزيعًا هم الذين منحوا الفرصة للكثيرين كي يعيشوا حياة العقل. وعلى المؤرخين فرضٌ أخلاقي للبحث عن الفئات التحليلية التي يمكن أن تُخرج قصصهم إلى النور.

الملاحق: ملحق (١)
الصور[٢٠]



(١) مجموعة من عمال الفرقة المصرية المجندين في حملة سيناء/فلسطين.(AWM J03149)



(٢) طفلان من ميت غمر يلعبان مع أبيهما الذي فقد قدمه في العمل مع فرقة العمال المصرية. (AWM J06018)

---

[٢٠] من وضع المترجمين.



(٣) عمال الفرقة المصرية في جزيرة لمنُس باليونان في عام ١٩١٥. (AWM A01429)



(٤) مجموعة من العمال المصريين على جزيرة لمنُس باليونان في عام ١٩١٥. (AWM H00293)



(٥) كشف دوري على عمال الفرقة المصرية في معسكر رمانة في سيناء. (AWM A01620)



(٦) كشف دوري على عمال الفرقة المصرية في معسكر رمانة في سيناء. (AWM A01619)



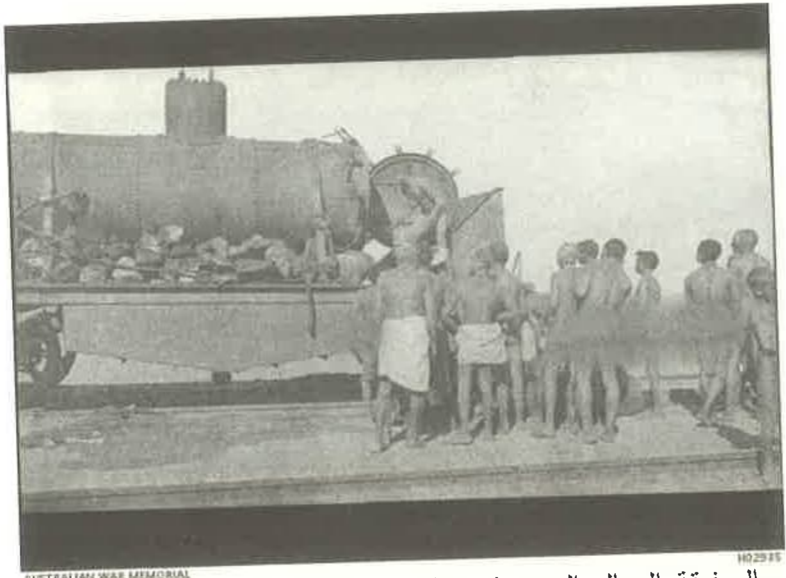
(٧) عمال الفرقة المصرية وهم ينتظرون تعقيمهم بالكريسول في يونيو من عام ١٩١٦.
(AWM A01716)



(٨) مجموعة من العمال المصريين ينتظرون دورهم للكشف عليهم في المستشفى الميداني الثالث في القنطرة. (AWM H00832)



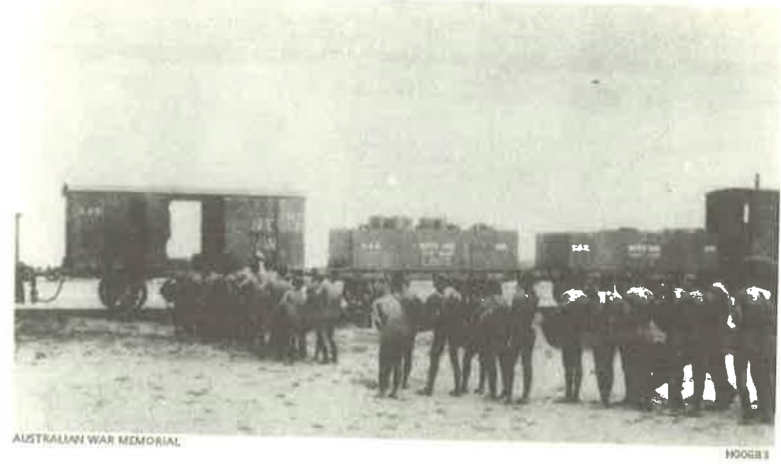
(٩) مجموعة عمال مصريين يستحمون علنًا بالإكراه في عام ١٩١٧، في معسكر خان يونس بفلسطين. (AWM J05981)



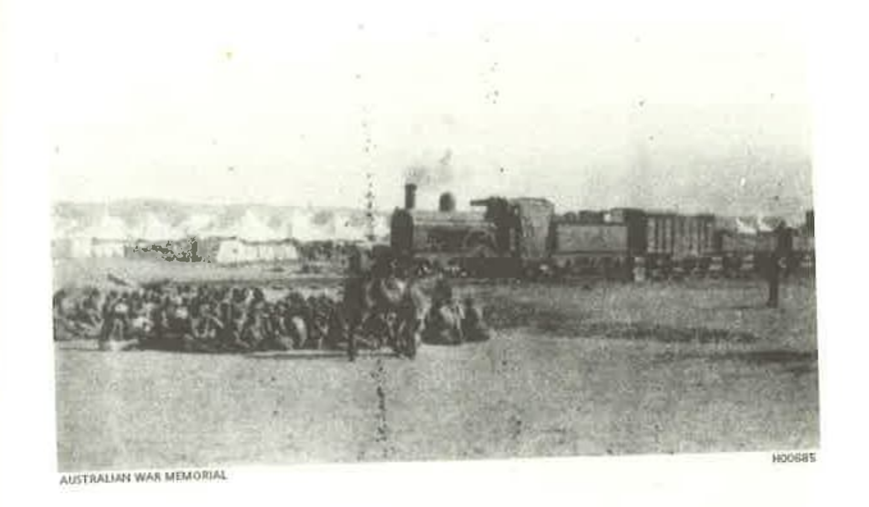
(١٠) رجال فرقة العمال المصرية ينتظرون ملابسهم وهم عراة تمامًا بعد تعقيمها. (AWM H02935)



(١١) رجال فرقة العمال المصرية ينتظرون ملابسهم وهم عراة تمامًا بعد تعقيمها.
(AWM H00680)



(١٢) رجال فرقة العمال المصرية ينتظرون ملابسهم وهم عراة تمامًا بعد تعقيمها.
(AWM H00683)



(١٣) رجال فرقة العمال المصرية ينتظرون ملابسهم وهم عراة تمامًا بعد تعقيمها. (AWM H00685)



(١٤) فرقة النقل بالجمال في العريش. (AWM A01616)



(١٥) عمال من الفرقة المصرية يبنون جانب خط سكك حديدية في موقع المستشفى البريطاني العام رقم ٦٩. (AWM H00650)



(١٦) مجموعة عمال مصريين يحملون كوخًا في مدينة اللد بفلسطين في عام ١٩١٨. (AWM H02870)



(١٧) رجال فرقة العمال المصرية وهم يعملون على مكافحة الملاريا. (AWM H00913)



(١٨) رجال فرقة العمال المصرية وهم يعملون على مكافحة الملاريا. (AWM H00912)



(١٩) رجال فرقة العمال المصرية في غاليبولي يحفرون قبورًا في إحدى مقابر قوات الأنزاك. (AWM H16579)

ملحق (٢)

قائمة بأسماء بعض العمال المتوفين المدفونين خارج مصر[١]

الاسم	تاريخ الوفاة	الوحدة	رقم الخدمة	بلد الدفن	المقبرة	معلومات إضافية
ABDUL ASYNE ABDEL KARIM	1919-04-01	السرية ١٢٦	'112776'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
ABDUL MORGANHOHD	1920-02-13		'158106'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
AHMED AXABS	1920-02-23		'8760'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
BISLU KARRAWLLA	1920-08-31		'860'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	

---

(١) الملحق من وضع المترجمين. وقد نقلنا هذه البيانات عن موقع مفوضية الكومنولث لمقابر الحرب (https://www.cwgc.org/)، ويبدو عليها ما كرره المؤلف مرارًا عن عدم اهتمام السلطات البريطانية بتسجيل أي شيء عن العمال أو بياناتهم. ترجمنا إلى العربية كل الأسماء الواضحة، وتركنا غير الواضح منها على حاله.

G. DE BISHI KARAWALLIS	1920-08-31		'471'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
GILADISHAKIR إبراهيم	1917-09-06	السرية ٧٣	'F/4372'	فرنسا	مقابر بولون الشرقية	
HADJI KEGHKEGIAN	1917-08-26		'424'	فرنسا	مقابر زويدكوت العسكرية	
خليلKhalia	1920-02-13		'16085'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
حسن علي Mahbradi	1920-08-26		'15740'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
MISHAN ZALAMYAN	1915-12-11		'2058'	اليونان	مقابر بورتيانوس العسكرية	
MOH MADGERED	1921-02-15	السرية ٣٨	'182928'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	

NASAR MANAUR ABDALLA	1918-1921		'1819'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
حسن RAIONBI	1918-11-03		"	سوريا	نصب الهنود ١٩١٤-١٩١٨ بدمشق	
عوض السيد TARYA	1917-09-06	السرية ٧٣	'2214'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
TBR ABBASA	1920-10-25		'18812'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
TUMERING	1918-10-23		"	سوريا	نصب الهنود ١٩١٤-١٩١٨ بدمشق	
السيد أمينوش...	1919-01-05	السرية ١٠٤	'99055'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
إبراهيم مطلب علي	1919-03-20	السرية ٢٢	'107350'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
إبراهيم المولوي	1918-11-26	السرية ١٢	'1851'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	

إبراهيم سالم الراكشي	1919-10-05	السرية ١٠٤	'148253'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
إبراهيم سيد أحمد	1918-12-02	السرية ٣٢	'10322'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
إبراهيم شحاتة	1917-11-22	المعسكر (ي)	'33317'	فلسطين المحتلة	مقابر غزة العسكرية	
إبراهيم علي عطا الله	1917-08-20	السرية ٧٤	'11529'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	
إبراهيم محمد	1920-02-19		"	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
إبراهيم محمد	1920-04-27		"	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
إبراهيم محمد المرسي	1917-09-06	السرية ٧٨	'4473'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
إبراهيم محمد أحمد	1917-08-02	السرية ٧٠	'S/443'	اليونان	مقابر ميكرا العسكرية، كالاماريا	

إبراهيم محمد سلطان	1917-11-28	الكتيبة ٨٢	'8038'	إيطاليا	ملحق مقابر بلدة تارانتو	
إبراهيم مسعد	1918-12-29	السرية ٢٢	'84062'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
إبراهيم موسى	1920-02-20		"	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
إبراهيم نعمة الله	1918-12-01	السرية ٧	'26607'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
إسماعيل أبو …	1920-02-09		'9096'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
إسماعيل أبو الأم…	1920-02-11		'149096'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
إسماعيل محمد عثمان	1917-09-12	السرية ٧٥	'12585'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	
إيوس ميخائيل	1914-1921		'4974'	فلسطين المحتلة	مقابر غزة العسكرية	

أبو عيد محمد	1917-09-21	السرية ٧٨	'4130'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
أحمد السيد العطار	1919-04-23	السرية ٢٢	'103508'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
أحمد أبو زيد فرح	1917-08-28	السرية ٨٤	'7250'	فرنسا	مقابر بريه العسكرية	توفي بالالتهاب الرئوي في ٢٨ أغسطس في عام ١٩١٧. وهو زوج (؟؟) عبد الرحيم محمدين ماضي، الشعارنة، نجع النجار، سوهاج، جرجا.
أحمد حسين محمد	1917-07-17		'3737'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
أحمد رأفت	1919-01-02	السرية ٢٢	''	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	

أحمد ريس حسن حمدي	1919-02-10	السرية ٢٢	'41151'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
أحمد سليمان عبد الله	1917-09-06	السرية ٧٣	'1051'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
أحمد سيد	1920-08-23		'2694'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
أحمد عبد المشهور	1919-04-06	السرية ١٢٦	'51423'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
أحمد عبده	1919-04-11		'6241'.	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
أحمد علي حمزة	1917-09-06	السرية ٧٣	'2792'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
أحمد عمر مرسي	1917-05-14		'4205'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
أحمد محمد	1917-11-23	المعسكر (ي)	'24517'	فلسطين المحتلة	مقابر غزة العسكرية	

أحمد محمد حامد	1918-11-10		'5090'	سوريا	نصب الهنود ١٩١٤–١٩١٨ بدمشق	
أحمد محمود محمد	1917-10-10		'385'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
أمين عبد الرحيم	1917-09-13	السرية ٧٣	'1516'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
بدر إبراهيم علي	1917-09-14	السرية ٨٢	'7430'	فرنسا	مقابر بريه العسكرية	توفي بالتهاب السحايا. هو ابن إبراهيم علي الشريف، من المزالوة، جرجا، سوهاج.
بركة حميد نعمان	1917-03-29		'257'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
بشارة أندراوس	1917-09-06	السرية ٧٣	'1038'	فرنسا	مقابر بولون الشرقية	
بطرس جراس	1916-12-02		'1772'	العراق	مقابر البصرة العسكرية	

بكر محمد بكر	1917-06-12	السرية ٧٩	'4481'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	
بيومي أحمد **Helowan**	1919-12-11	السرية ٥	'156400'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
تادرس قلتة	1917-05-30		'F/11393'	فرنسا	مقابر بلدة دنكرك	
ثابت هارون محمد	1917-09-06		'8267'	بلجيكا	مقابر أدِنكرك العسكرية	
جاب الله موسى شلبي	1919-03-05		'13438'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
جاد الرب ضيف	1917-06-12	السرية ٧٣	'2606'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
جاسم	1917-06-20		"	مالطة	المقابر التركية العسكرية، مرسى	
جلاديوس حبيب	1916-12-20		'2046'	العراق	مقابر البصرة العسكرية	

جمعة	1917-09-21	السرية ٧٥	'11516'	فرنسا	مقابر سانت ماري العسكرية، آڤر	
جودة جندي	1919-01-31	السرية ٢٢	'41168'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
حافظ علي	1920-02-02	السرية ١٢٢	"	مالطة	المقابر التركية العسكرية، مرسى	
حامد عثمان Gaudil	1919-01-17	السرية ١٢٦	'65704'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
حجازي سيد حسين	1917-10-16	السرية ٨٠	'5428'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	
حسب علي عطية	1917-08-04	السرية ٨٢	'6495'	فرنسا	مقابر بريه العسكرية	زوج بخيتة بنت إبراهيم أحمد، من مزاتة، جرجا، سوهاج.
حسن السيد حسن	1919-04-13		'16073'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
حسن أحمد	1920-11-26		"	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	

حسن أحمد حباش	1917-08-04	السرية ٨٢	'6197'	فرنسا	مقابر بريه العسكرية	ابن أحمد حنتوش (؟) عمر، من قرية المال القبلي، نجع حمادي، قنا.
حسن آدم محمد	1919-10-02	السرية ١٢٦	'501192'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
حسن شيخون إسماعيل	1917-09-06	السرية ٧٣	'1784'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
حسن عتيك محمد	1918-12-25	السرية ٩٤	'5794'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
حسن فرج الله حسن	1919-03-25	السرية ٣٢	'116207'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
حسن محمد	1920-02-28		'159404'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
حسن محمد علي	1918-01-01		"	مالطة	المقابر التركية العسكرية، مرسى	
حسن مصطفى	1917-09-11	السرية ٧٤	'11031'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	

حسين إبراهيم عمر	1917-10-13		'8989'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
حسين أحمد	1920-02-20		"	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
حسين جاد الكريم	1917-09-06	السرية ٧٣	'2827'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
حسين حسن خميس	1919-03-21	السرية ٢٢	'112260'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
حسين علي هيكل	1920-04-18	السرية ١١٢	'167293'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
حسين محمد سليمان	1919-02-08	السرية ١٠٩	'99017'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
حسين معوض	1917-09-06	السرية ٧٣	'F/4046'	فرنسا	مقابر بولون الشرقية	

حماد شحاتة أحمد	1917-09-06	السرية ٧٣	'1571'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
حمادة فرج	1917-05-25		'1692'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
حمد السيد درويش	1919-04-15	السرية ٢٢	'101321'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
حمودة حمد الله	1917-09-01		'6849'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
حنا سالم تادرس	1919-03-09		'14671'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
دياب عبد الرحمن	1917-08-01	السرية ٧٣	'2685'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
رزق خضر	1920-10-30		"	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
رزق خضر حسن	1918-1921		'183258'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	

رشوان سليمان	1919-01-29		'6840'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
رمضان	1917-08-02		"	اليونان	مقابر ميكرا العسكرية، كالاماريا	
رمضان شحاتة محمد	1919-03-11		'14240'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
ريس درويش مصطفى Mahass	1919-09-15	السرية ٢٢	'134229'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
ريس زكي مصطفى ملكاني	1919-07-13	السرية ٢٢	'137221'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
ريس منصور حسن منصور	1917-09-11	السرية ٧٤	'1118'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	

زكي خليل	1917-10-09		'F/1271'	فرنسا	ملحق مقابر سان سيفير العسكرية، روو	
زيدان عثمان حفظي	1917-09-06	السرية ٧٣	'1563'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
سالم أحمد	1917-10-27		'8484'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
سعيد أحمد سعيد	1920-04-22		'173532'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
سعيد حسن	1920-03-21		'176589'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
سلطان عبد القادر	1917-09-06	السرية ٧٨	'1576'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
سليمان جمعة	1920-10-07		'126642'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
سليمان شاكر إبراهيم	1917-09-06	السرية ٧٣	'1543'	فرنسا	مقابر بولون الشرقية	

سمعان خليفة	1920-12-26		'164613'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
سيد أحمد عمر	1917-09-10		'397'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
سيد حبيب	1919-01-22	السرية ١٢٦	'71860'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
سيد علي قمصان	1919-08-30	السرية ١٠٤	'136037'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
سيد عياد	1919-01-22	السرية ١٠٤	'99009'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
سيد محمد Ghizaur	1918-12-04	السرية ٩٢	'39615'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
سيد محمد الجميل	1920-09-17	السرية ٦٢	'179684'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
سيد محمد حلمي	1917-05-27	السرية ٧٥	'F/10943'	فرنسا	مقابر بلدة دنكرك	
سيد محمد سناري	1917-09-06	السرية ٧٨	'12439'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	

سيد محمد سنجاب	1919-03-15	السرية ٢٢	'84066'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
سيف عبد الشهيد عبد الباسط	1917-08-29	الكتيبة ٨٥	'9114'	إيطاليا	ملحق مقابر بلدة تارانتو	
شاكر برسوم	1920-12-10	السرية ٥	'164983'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
شبلي شبلي محمد	1920-02-24		"	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
شرابة جرجس	1921-03-09	السرية ١٢٨	'183524'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
صادق خليل	1915-07-17		'388'	اليونان	مقابر بورتيانوس العسكرية	
صالح علي سلام	1917-09-30		'3981'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
صبرا م. يوسف	1917-07-26	الكتيبة ٨٥	'10293'	إيطاليا	ملحق مقابر بلدة تارانتو	
طنطاوي زيدان يوسف	1917-07-16	السرية ٨٤	'4943'	فرنسا	ملحق مقابر سان سيڤير العسكرية، روو	

عامر **Skematen**	1920-10-07		"	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
عباس إسماعيل عبد الله	1919-04-03	السرية ١٢٦	'71007'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عباس محمد	1920-12-05		"	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
عباس مورجن	1920-03-03		"	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
عبد الجواد فرج علي	1917-07-02		'F7867'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
عبد الحميد سيد	1919-01-24	السرية ١٢٦	"	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عبد الحميد عبده عيسى	1919-05-08	السرية ١٠٩	'91611'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عبد الخان إبراهيم	1920-08-11		'461'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	

عبد الرحمن حسن	1919-02-12	السرية ١٢٦	'1385'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عبد الرحمن سيد	1919-02-24	السرية ١٢٦	'50438'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عبد الرحمن علي	1919-02-11		'14591'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عبد الرحيم الشريف	1919-01-18		"	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عبد السلام عبد الله حسين	1917-09-06	السرية ٧٣	'1747'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
عبد السيد سعيد السوداني	1917-09-06	السرية ٧٣	'2799'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
عبد العال علي	1917-05-31	السرية ٧٥	'11464'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	
عبد العال محمد	1917-09-15	السرية ٧٤	'12150'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	

عبد العال محمد علي	1917-05-05	السرية ٧٣	'2808'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
عبد العال محمدين	1917-09-06	السرية ٧٣	'1606'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
عبد الغني مصطفى	1918-11-30		'330'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عبد القادر شافي	1918-12-31	السرية ٣٢	'26602'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عبد الله أحمد	1917-11-24	المعسكر (ي)	'21757'	فلسطين المحتلة	مقابر غزة العسكرية	
عبد الله عبد الغني	1919-01-25	السرية ٣٢	'63327'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عبد الله عثمان عمارة	1919-03-28	السرية ١٢٦	'112304'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عبد الله ماجد علي	1920-10-12		'162286'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	

عبد المبدي عبده	1918-1921		'184752'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
عبد المجيد السيد	1918-12-17	السرية ١٠٤	'51839'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عبد المنصف خليل	1921-02-13	السرية ١٢٧	'188069'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
عبد المهدي عبد الله	1918-1921		'184152'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
عبد الموجود سلامة	1917-09-06	السرية ٧٣	'2613'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
عبده محمد بركات	1919-03-15		'112775'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عبيد علي أحمد	1921-01-16		"	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	

عبيد كريم **Damed**	1920-05-03		"	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
عثمان بدين عبد الله	1921-02-02		'180926'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
عرابي محمد عثمان	1917-08-25	السرية ٨٤	'6538'	فرنسا	مقابر بريه العسكرية	توفي جراء إصابته خطئًا. هو ابن محمد عثمان من طهطا، سوهاج.
عزمي سليم	1920-03-11		'920'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
علي أبو عيسى	1918-12-05	السرية ١١٢	"	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
علي أحمد الدرملي	1920-10-02	السرية ٦٣	"	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
علي أحمد الظاهر	1917-09-11	السرية ٧٤	'11584'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	
علي أمير	1917-12-10		'3704'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	

علي سلامة	1917-10-14		'69'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
علي سليم محمد	1917-11-01	الكتيبة ٨٢	'7639'	إيطاليا	ملحق مقابر بلدة تارانتو	
علي سليمان	1920-04-19		'167771'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
علي سيد	1918-11-09		'13221'	سوريا	نصب الهنود ١٩١٤-١٩١٨ بدمشق	
علي عبد الرحيم	1917-09-06	السرية ٧٣	'1607'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
علي عبد الرحيم	1917-10-29	الكتيبة ٨٢	'6446'	إيطاليا	ملحق مقابر بلدة تارانتو	
علي عبد الظاهر gabin	1918-11-27		'15098'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
علي عبد الله عثمان	1921-02-09		'156177'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	

علي عبد الله عمر	1917-09-21	الكتيبة ٨٥	'8119'	إيطاليا	ملحق مقابر بلدة تارانتو	
علي علي الشهاوي	1919-04-19	السرية ١٢٦	'54408'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
علي علي العثيمي	1918-11-26		'12324'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
علي فريد	1918-07-15		'140389'	فلسطين المحتلة	نصب الرملة ١٩١٤-١٩١٨	مدفون في المقبرة العسكرية بجيريكو رقم ٢
علي محمد الرواس	1918-12-10	السرية ١١	"	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
علي مصطفى ممنن	1919-03-11	السرية ١٢٦	'61371'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عمر حسن	1919-03-01	السرية ١٠٤	'43591'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
عوض عبد الرحيم	1917-09-11	السرية ٧٤	'12333'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	

عوض محمد الشربيني	1919-04-10	السرية ٢٢	'76515'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
فاضل إبراهيم	1920-05-05		'173921'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
فرج عبد الحليم	1919-09-15	السرية ٢٢	'134244'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
فرج ناصر	1917-11-27		'1431'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
قطان	1918-08-17		'792'	مصر	مقابر القنطرة العسكرية	
متولي إبراهيم	1917-05-27		'F/11371'	فرنسا	مقابر بلدة دنكرك	
محارب إبراهيم سعيد	1917-08-03	السرية ٨٢	'6510'	فرنسا	مقابر بريه العسكرية	زوج رسم بنت منصور، من بيندا الشرقية، جرجا.
محمج ROTB RHETTAB	1919-07-06	السرية ٢٦	'103505'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	

محمد BACAVI	1917-12-13	الكتيبة ٨٥	'12641'	إيطاليا	ملحق مقابر بلدة تارانتو	
محمد Haudi	1919-02-11	السرية ١٢٦	"	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد Jabis عبد الله	1920-09-13		'17856'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
محمد Miksem معوض	1920-09-30		'114921'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
محمد SALUR	1918-11-14		'1619'	سوريا	نصب الهنود ١٩١٤-١٩١٨ بدمشق	
محمد إبراهيم	1920-10-02		'115500'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
محمد أحمد الحسيني	1921-01-13		"	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	

محمد أحمد خليفة	1917-09-03	السرية ٨٤	'5240'	فرنسا	مقابل لا شابيليت البريطانية والهندية، بيرون	
محمد أحمد عبد الله	1919-01-28	السرية ٢٢	'74543'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد أحمد علي	1917-09-06	السرية ٧٨	'3435'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
محمد أحمد محروس	1917-10-08	السرية ٧٣	'1125'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
محمد حسن إسماعيل	1920-11-11		'182832'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
محمد حسن أحمد	1919-08-24	السرية ٢٢	'136957'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد حسن حسنين	1919-03-07	السرية ٢٢	'59102'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	

محمد حسن سعد	1917-08-27	السرية ٨٤	'5073'	فرنسا	مقابل لا شابيليت البريطانية والهندية، بيرون	
محمد حسن علي	1918-12-07	السرية ٣٢	'17013'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد خليل الجياوي	1919-01-26	السرية ١٢٦	'66855'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد درويش	1917-11-22	المعسكر (ي)	'35005'	فلسطين المحتلة	مقابر غزة العسكرية	
محمد زهار	1920-08-28		"	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
محمد سعيد أحمد	1920-04-16		'7216'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
محمد سيد الضاحي	1919-12-10	السرية ٢٢	'140999'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد سيد أحمد	1919-04-15	السرية ٢٢	'134076'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد شحاتة	1921-01-31		"	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	

محمد عبد الحميد أبو عيشة	1919-01-30	السرية ١٢٦	'50444'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد عبد الله	1917-11-22		'5507'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
محمد عبد الله عبد Herion	1918-12-14	السرية ٣٢	'2902'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد عبد الوهاب يوسف	1919-12-10	السرية ١٠٤	'148138'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد عبد ربه	1920-03-03		'7937'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
محمد عبده الجندي	1917-05-27	السرية ٧٥	'F/10995'	فرنسا	مقابر بلدة دنكرك	
محمد علي حسين	1917-08-27	السرية ٧٩	'4581'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	

محمد علي رمضان	1919-03-27	السرية ١٠٤	'65699'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد علي سلامة	1917-09-11	السرية ٧٤	'12264'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	
محمد علي عبد الله	1918-12-02	السرية ١٢٦	'45439'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد علي عبد الله	1920-02-05		"	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
محمد علي يوسف	1917-09-06	السرية ٧٣	'2813'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
محمد غراب عبد الجيد	1917-09-10	السرية ٨٤	'9962'	فرنسا	مقابل لا شابيليت البريطانية والهندية، بيرون	
محمد قنديل	1918-11-17		'145563'	سوريا	نصب الهنود ١٩١٤-١٩١٨ بدمشق	
محمد مبروك	1920-02-28		'2274'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	

محمد محمود خليل	1917-09-06	السرية ٧٣	'1114'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
محمد مصطفى المصري	1918-11-30	السرية ٩٤	'16638'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد هلال علي	1919-02-14		'13801'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمد يوسف	1920-01-30		"	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
محمد يونس	1917-11-29		'2533'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
محمود أحمد عباس	1918-1921	السرية ٥	'132492'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
محمود حسين سيد	1917-10-04	السرية ٨٢	'7123'	فرنسا	مقابر بريه العسكرية	قُتِل بالخطأ. زوج ولانة بنت عثمان، من قرية أولاد عزاز، جرجا.
محمود دسوقي علي	1920-11-15		'183315'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	

محمود رمضان	1920-11-02		'184770'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
محمود ساجد علي شكري	1918-12-12	السرية ٣٢	'43836'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمود علي سيد أحمد	1918-12-19		'61423'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
محمود علي عامر	1917-07-26	السرية ٧٩	'4828'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	
مدبولي محمد	1917-09-11	السرية ٧٤	'11088'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	
مرسي حسن علي	1917-09-06	السرية ٧٣	'1487'	فرنسا	مقابر ميروت العسكرية، سان مارتان دو بولون	
مرسي سرحان إبراهيم	1917-09-07		'1017'	فرنسا	مقابر مزارج العسكرية، مارسيليا	
مرسي م. قاسم	1917-10-22	الكتيبة ٨٢	'7233'	إيطاليا	ملحق مقابر بلدة تارانتو	

مسعود إبراهيم بخيت	1918-11-27	السرية ٥٤	'13930'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
مصطفى بشير	1920-03-21		'173519'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
مصطفى حسن	1919-01-08		"	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
مصطفى سيد محمد	1917-11-01	الكتيبة ٨١	'8764'	إيطاليا	ملحق مقابر بلدة تارانتو	
مصطفى عبد الكريم	1918-11-28	السرية ٩٤	'13559'	لبنان	مقابر بيروت العسكرية	
مصطفى عبده الحجازي	1920-04-14		'177'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
معوض نسيم	1916-12-20		'2023'	العراق	مقابر البصرة العسكرية	
ملاتو غبريال	1917-05-26		'129BM'	العراق	مقابر البصرة العسكرية	
منصور **Bukizan**	1915-11-10		'C16'	اليونان	مقابر بورتيانوس العسكرية	

منصور حسين سرور	1917-08-13	السرية ٧٩	'3830'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	
ميلاد مهران	1917-06-30	السرية ٧٧	'4190'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	
نصر علي	1917-09-11	السرية ٧٤	'12334'	فرنسا	مقابر ليه باراك العسكرية، سانجات	
نفر كرم جرجس	1919-09-05		'6580'	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
نقولا تاكيدي	1920-07-07		"	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	
واصف غبريال عبده	1917-12-27	الكتيبة ٨٥	'10365'	إيطاليا	ملحق مقابر بلدة تارانتو	
يوسف أحمد	1920-02-21		"	فلسطين المحتلة	مقابر حيفا العسكرية	
يوسف عبد الله	1920-02-28		'179'	فلسطين المحتلة	مقابر الرملة العسكرية	

يونس أحمد حسين	1917-12-06	الكتيبة ٨١	'5198'	إيطاليا	ملحق مقابر بلدة تارانتو	
يونس محمد سليمان	1917-12-03	السرية ٨٠	'5346'	إيطاليا	ملحق مقابر بلدة تارانتو	

المصادر والمراجع

سجلات المحفوظات والمصادر غير المنشورة

London, United Kingdom, The British National Archives (TNA),
Kew Gardens Cabinet Files (CAB)
Foreign Office Files (FO) 141—Embassy and Consular Archives, Egypt, Correspondence
FO 371—General Correspondence, Political
FO 848—Evidence Presented to the Milner Commission
War Office Files (WO) 71—Field General Court Martials
WO 95—War Diaries
WO 107—Controller of Labor
Ministry of Transport Files (MT) 23—Military Transport in World War I
London, United Kingdom, Imperial War Museum (IWM)
E. K. Venables Papers
World War I Diaries of W. B. St. Leger
Notes on Palestine by Thomas Brookes Minshall
W. Knott Papers
London, United Kingdom, British National Library
Humanities Reading Room—Periodicals
ELC News

القاهرة، مصر، دار الكتب المصرية
الجرائد والدوريات
المقطم
الأفكار
الوطن
الأهالي
الكتب
أشرف صبري، رحلة الأسرار: مصر سبب النصر في الحرب العالمية الأولى.
كتاب غير منشور، القاهرة، ٢٠١٢.

القاهرة، الجامعة الأمريكية في القاهرة، قاعة الدوريات والكتب النادرة:
الأهرام
روز اليوسف
المصور

Paris, France, Archives Nationales, Pierrefitte-sur-Seine F/14—Guerre de 1914–1918

Paris, France, Archives Diplomatiques, La Courneuve K—Consular Archives, Africa

Minneapolis, Minnesota, USA, Kautz Family YMCA Archives, University of Minnesota Y.USA.9-2-22—Egypt

Y.USA.4-1—Armed Services: World War I

Biographical Records—William Mort and Louise Jessop

المصادر الأساسية والثانوية المنشورة

'Abbas, Raouf [Ra'uf 'Abbas], and Assem El-Dessouky. *The Large Landowning Class and the Peasantry in Egypt, 1837–1952*. Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2011.

رؤوف عباس، **النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الزراعية الكبيرة**، القاهرة: دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، ١٩٧٣.

أحمد عزت عبد الكريم، **خمسون عامًا على ثورة ١٩١٩**، القاهرة: مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة، ١٩٦٩.

Abu-Lughod, Janet. "Tale of Two Cities: The Origins of Modern Cairo." *Comparative Studies in Society and History* 7, no. 4 (1965): 429–457.

Abu-Lughod, Lila. *Remaking Women: Feminism and Modernity in the Middle East*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998.

Abul-Magd, Zeinab. *Imagined Empires: A History of Revolt in Egypt*. Berkeley: University of California Press, 2013.

جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، **العروة الوثقى**، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢.

عباس محمود العقاد، **سعد زغلول زعيم الثورة**، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٣.

عبد الرحمن الرافعي، **ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومي من ١٩١٤ إلى ١٩٢١**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٧.

عثمان أمين، **رائد الفكر المصري: الإمام محمد عبده**، القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٩٦.

Anderson, Benedict. *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*. Rev. ed. London and New York: Verso, 2006.

Anghie, Anthony. "Francisco de Vitoria and the Colonial Origins of International Law." In *Laws of the Postcolonial*, edited by Eve Darian-Smith and Peter Fitzpatrick, 89–108. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1999.

محمد أنيس، **تطور المجتمع المصري من الإقطاع إلى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢**، القاهرة: مطبعة الجبلاوي، ١٩٧٧.

نجوى إبراهيم أنوس، **شخصية العمدة في المسرح المصري: من الحرب العالمية الأولى إلى ثورة ١٩٥٢**، القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٨٩.

Aoki, Keith. "Race, Space, and Place: The Relation between Architectural Modernism, Post-Modernism, Urban Planning, and Gentrification." *Fordham Urban Law Journal* 20, no. 4 (1992): 699–829.

———. "Space Invaders: Critical Geography, the 'Third World' in International Law, and Critical Race Theory." *Villanova Law Review* 45, no. 5 (2000): 913–957.

Arendt, Hannah. *The Human Condition*. 2nd ed. Chicago: University of Chicago Press, 1998.

———. *On Violence*. New York: Harcourt Brace & Co., 1970.

———. *The Origins of Totalitarianism*. New York: Harcourt Brace & Co., 1968.

Armbrust, Walter. *Mass Culture and Modernism in Egypt*. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1996.

At-Tirmidhi. *Jami' At-Tirmidhi*. Vol. 4. Translated by Abu Khaliyl. Darussalam, Tanzania: Maktaba Dar-us-Salam, 2007.

Avci, Remzi. "Pan-Islamism and the Jihad Discourse of the German Orientalists in the First World War." *Jurnal al-Tamaddun* 2, no. 3 (2019): 25–35.

Aydın, Cemil. *The Idea of the Muslim World: A Global Intellectual History*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2017.

———. *The Politics of Anti-Westernism in Asia: Visions of World Order in PanIslamic and Pan-Asian Thought*. New York: Columbia University Press, 2007.

صلاح عزام، "مارس ١٩١٩ الدامي والفلاحون"، اخترنا للفلاح ٢، ع٥، ١٩٦٧.

Badcock, G. E. *A History of the Transport Services of the Egyptian Expeditionary Force 1916–1918*. London: Hugh Rees, Ltd., 1925.

Baer, Gabriel. "The Village Shaykh, 1800–1950." In *Studies in the Social History of Modern Egypt*. Chicago: University of Chicago Press, 1969: 30–61.

Bakhtin, Mikhail. *Problems of Dostoevsky's Poetics*. Edited by Caryl Emerson. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1984.

———. *Rabelais and His World*. Bloomington: Indiana University Press, 1984.

Barak, On. *On Time: Technology and Temporality in Modern Egypt*. Berkeley: University of California Press, 2011.

علي بركات، تطور الملكية الزراعية في مصر وأثره على الحركة السياسية ١٨١٣-١٩١٤، القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٧.

Barker, A. J. *The Bastard War: The Mesopotamia Campaign of 1914-1918*. New York: Dial Press, 1967.

Baron, Beth. *Egypt as a Woman: Nationalism, Gender, and Politics*. Berkeley: University of California Press, 2005.

Barret, Michèle. "Subalterns at War: First World War Colonial Forces and the Politics of the Imperial War Graves Commission." In *Can the Subaltern Speak? Reflections on the History of an Idea*, edited by Rosalind C. Morris, 156–176. New York: Columbia University Press, 2010.

Barua, Pradeep. "Inventing Race: The British and India's Martial Races." *The Historian* 58, no. 1 (Autumn 1995): 107–116.

Bayor, Ronald H. *Race and the Shaping of Twentieth-Century Atlanta*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2000.

Bean, C. E. W. *The Story of Anzac: From 4 May 1915 to the Evacuation*. Vol. 2 of *The Official History of Australia in the War of 1914–1918*. 11th ed. Sydney: Angus & Robertson Ltd., 1924.

Beckert, Sven. *Empire of Cotton: A Global History*. London: Penguin Books, 2014. Beinin, Joel, and Zachary Lockman. *Workers on the Nile: Nationalism, Communism, Islam, and the Egyptian Working Class, 1882–1954*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1987.

Bennett, Richard Allen. "The Anglo-Egyptian Sudanese Influence in the Occupied Enemy Territory Administration, South, 1917–1920." PhD diss., Florida State University, 1992.

Bernes, Jasper. "Logistics, Counterlogistics, and the Communist Prospect." *Endnotes* no. 3 (2013).

Bhabha, Homi. "Foreword: Framing Fanon." In Frantz Fanon, *The Wretched of the Earth*. New York: Grove Press, 2004.

Blackman, Winifred. *The Fellahin of Upper Egypt*. London: Frank Cass & Co., 1963 [1927].

Blyden, Edward W. "Mohammedanism and the Negro Race." In Edward W. Blyden, *Christianity, Islam, and the Negro Race*, 2nd ed., 1–79. Baltimore: Black Classic Press, 1994 [1887].

Bou, Jean. *Light Horse: A History of Australia's Mounted Arm*. Port Melbourne, Australia: Cambridge University Press, 2009.

Brennan, James R. "Realizing Civilization through Patrilineal Descent: The Intellectual Making of an African Racial Nationalism in Tanzania, 1920–1950." *Social Identities* 12, no. 4 (July 2006): 405–423.

———. *Taifa: Making Nation and Race in Urban Tanzania*. Athens: Ohio University Press, 2012.

A Brief Record of the Advance of the Egyptian Expeditionary Force under the Command of General Sir Edmund H. H. Allenby. London: His Majesty's Stationery Office, 1919.

Brown, Judith M. "The Anglo-Boer War: An Indian Perspective." *Kunapipi* 21, no. 3 (1999): 24–35.

Brown, Nathan J. *Peasant Politics in Modern Egypt: The Struggle Against the State*. New Haven, CT: Yale University Press, 1990.

———. "Who Abolished Corvee Labor in Egypt and Why?" *Past & Present* 144, no. 1 (August 1994): 116–137.

Buckley, Roger N. "The British Army's African Recruitment Policy, 1790–1807." *Contributions to Black Studies: A Journal of African and Afro-American Studies* 5 (2008): 1–12.

Bucur, Maria. "Fallen Women and Necessary Evils: Eugenic Representations of Prostitution in Interwar Romania." In *"Blood and Homeland": Eugenics and Racial Nationalism in Central and Southeast Europe, 1900–1940*, edited by Paul Weindling and Marius Turda, 335–352. Budapest and New York: Central European Press, 2007.

Burke, Edmund, III. "Changing Patterns of Peasant Protest, 1750–1950." In *Peasants and Politics in the Modern Middle East*, edited by Farhad Kazemi and John Waterbury, 24–37. Miami: Florida International University Press, 1991.

Burton, Elise K. *Genetic Crossroads: The Middle East and the Science of Human Heredity*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2021.

Can, Lale. *Spiritual Subjects: Central Asian Pilgrims and the Ottoman Hajj at the End of Empire*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2020.

Carman, Barry, and John McPherson, eds. *Bimbashi McPherson: A Life in Egypt*. London: British Broadcasting Corporation, 1983.

Carminati, Lucia. "Alexandria, 1898: Nodes, Networks, and Scales in NineteenthCentury Egypt and the Mediterranean." *Comparative Studies in Society and History* 59, no. 1 (2017): 127–153.

Chalcraft, John. "The Coal Heavers of Port Sa'id: State-Making and Worker Protest, 1869–1914." *International Labor and Working-Class History* 60 (October 2001): 104–124.

———. "Engaging the State: Peasants and Petitions in Egypt on the Eve of Colonial Rule." *International Journal of Middle East Studies* 37, no. 3 (August 2005): 303–325.

———. *The Striking Cabbies of Cairo and Other Stories: Crafts and Guilds in Egypt, 1863–1914*. Albany, NY: SUNY Press, 2005.

Chatterjee, Partha. *The Nation and Its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1993.

Chittick, William C. "On the Cosmology of Dhikr." In *Paths to the Heart: Sufism and the Christian East*, edited by James S. Cutsinger, 48–63. Bloomington, IN: World Wisdom, 2002.

Clément, Anne. "À La Recherche Des Voix Des Fallah¯ın Dans un Dossier d'archives Judiciaries Égyptiennes." *Ateliers d'anthropologie* 26 (2012): 1–16.

———. "Rethinking 'Peasant Consciousness' in Colonial Egypt: An Exploration of the Performance of Folksongs by Upper Egyptian Agricultural Workers on the Archaeological Excavation Sites of Karnak and Dendera at the Turn of the Twentieth Century (1885–1914)." *History and Anthropology* 21, no. 2 (2010): 73–100.

Colla, Elliott. "How *Zaynab* Became the First Arabic Novel." *History Compass* 7, no. 1 (2009): 214–225.

Cookson-hills, Claire. "Historical Perspectives on Whole-of-Government Approaches: The 1882 British Occupation of Egypt." *Canadian Army Journal* 15, no. 1 (2013): 65–71.

Corbin, Alain. *Village Bells: Sound and Meaning in the Nineteenth-Century French Countryside*. New York: Columbia University Press, 1998.

Coury, Ralph M. "The Politics of the Funereal: The Tomb of Saad Zaghlul." *Journal of the American Research Center in Egypt* 29 (1992): 191–200.

Cowen, Deborah. *The Deadly Life of Logistics: Mapping Violence in Global Trade*. Minneapolis: University of Minnesota Press, 2014.

Cromer, Evelyn Baring. *Modern Egypt*. London: Macmillan, 1908.

Cuno, Kenneth. "African Slaves in Nineteenth Century Rural Egypt: A Preliminary Assessment." In *Race and Slavery in the Middle East: Histories of Trans-Saharan Africans in Nineteenth-Century Egypt, Sudan, and the Ottoman Mediterranean*, edited by Kenneth Cuno and Terrance Walz, 77–98. Cairo: American University in Cairo Press, 2010.

———. *Modernizing Marriage: Family, Ideology, and Law in Nineteenthand Early Twentieth-Century Egypt*. Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2015.

Cuno, Kenneth, and Terrance Walz. *Race and Slavery in the Middle East: Histories of Trans-Saharan Africans in Nineteenth-Century Egypt, Sudan, and the Ottoman Mediterranean*. Cairo: American University in Cairo Press, 2010.

Davis, Muriam Haleh. "Colonial Capitalism and Imperial Myth in French North Africa." In *A Critical Political Economy of the Middle East and North Africa*, edited by Joel Beinin, Bassam Haddad, and Sherene Seikaly, 161–178. Stanford, CA: Stanford University Press, 2020.

Derr, Jennifer. *The Lived Nile: Environment, Disease, and Material Colonial Economy in Egypt*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2019.

Di-Capua, Yoav. *Gatekeepers of the Arab Past: Historians and History Writing in Twentieth-Century Egypt*. Berkeley: University of California Press.

Douglass, Frederick. "The Color Line." *North American Review* 132, no. 295 (June 1881): 567–577.

Doumani, Beshara. *Rediscovering Palestine: Merchants and Peasants in Jabal Nablus, 1790–1900*. Berkeley: University of California Press, 1995.

Du Bois, Duncan. "Towards a New Labour Dispensation: Background to the Arrival of Indians in Natal in 1860." *Natalia* 40 (December 2010): 12–19.

Du Bois, W. E. B. "Dusk of Dawn: An Essay Toward an Autobiography of a Race Concept." In *Du Bois Writings*, edited by Nathan Higgins, 549–802. New York: Library of America, 1986 [1940].

———. "The Souls of Black Folk." In *Du Bois Writings*, edited by Nathan Higgins, 357–548. New York: Library of America, 1986 [1903].

Egger, Vernon. *A Fabian in Egypt: Salamah Musa and the Rise of Professional Classes in Egypt, 1909–1939*. Lanham, MD: University Press of America, 1986.

Elgood, P. G. *Egypt and the Army*. Oxford, UK: Oxford University Press, 1924.

Ellis, A. B. *The History of the First West India Regiment*. Project Gutenberg Ebook #29984. http://www.gutenberg.org/ebooks/29984?msg=welcome_stranger.

Elshakry, Marwa. *Reading Darwin in Arabic, 1860–1950*. Chicago: University of Chicago Press, 2013.

El Shakry, Omina. *The Great Social Laboratory: Subjects of Knowledge in Colonial and Postcolonial Egypt*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2007.

Evans-Pritchard, Edward. *The Sanusi of Cyrenaica*. Oxford, UK: Clarendon Press, 1949.

عبد الرحمن فهمي، **مذكرات عبد الرحمن فهمي: يوميات مصر السياسية**، مج١، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.

Fahmy, Khaled. *All the Pasha's Men: Mehmed Ali, His Army and the Making of Modern Egypt*. 2nd ed. Cairo: American University in Cairo Press, 1997.

———. "The Great Theft of History: World War I and the Prelude to Revolution." Paper presented at the Egyptian Revolution of 1919 Conference. London, 2019.

Fahmy, Ziad. *Ordinary Egyptians: Creating the Modern Nation through Popular Culture*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2011.

Falls, Cyril, and A. F. Becke. *Military Operations Egypt and Palestine from June 1917 to the End of the War, Part 1*. London: His Majesty's Stationery Office, 1930.

Falls, Cyril, and George MacMunn. *Military Operations in Egypt and Palestine: From the Outbreak of War with Germany to June 1917*. London: His Majesty's Stationery Office, 1930.

Fanon, Frantz. *The Wretched of the Earth*. New York: Grove Press, 1963.

Fawaz, Leila Tarazi. *A Land of Aching Hearts: The Middle East in the Great War*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2014.

Fogarty, Richard S. *Race and War in France: Colonial Subjects in the French Army, 1914-1918*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2008.

Foucault, Michel. *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*. New York: Vintage Books, 1995.

Fuchs, Ron. "Sites of Memory in the Holy Land: The Design of the British War Cemeteries in Mandate Palestine." *Journal of Historical Geography* 30, no. 4 (October 2004): 643–664.

Gasper, Michael Ezekiel. *The Power of Representation: Publics, Peasants, and Islam in Egypt*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2009.

Gaylor, John. *Sons of John Company: The Indian and Pakistan Armies, 1903–1991*. London: Spellmount, 1992.

Gelvin, James L. "The 'Politics of Notables' Forty Years After." *Middle East Studies Association Bulletin* 40, no. 1 (June 2006): 19–29.

Gershoni, Israel, and James P. Jankowski. *Egypt, Islam, and the Arabs: The Search for Egyptian Nationhood*. Oxford, UK: Oxford University Press, 1986.

Gines (Belle), Kathryn T. *Hannah Arendt and the Negro Question*. Bloomington: Indiana University Press, 2014.

Ginsberg, Elaine K. "Introduction: The Politics of Passing." In *Passing and the Fictions of Identity*, edited by Elaine K. Ginsburg, 1–16. Durham, NC: Duke University Press, 1996.

Goldberg, David Theo. "The Semantics of Race." *Ethnic and Racial Studies* 14, no. 4 (1992): 543–569.

Goldberg, Ellis. "Peasants in Revolt—Egypt 1919." *International Journal of Middle East Studies* 24, no. 2 (1992): 261–280.

Goldschmidt, Arthur. *Biographical Dictionary of Modern Egypt*. Cairo: American University in Cairo Press, 2000.

Gran, Peter. "Upper Egypt in Modern History: A Southern Question?" In *Upper Egypt: Identity and Change*, edited by Nicholas Hopkins and Reem Saad, 79–96. Cairo: American University in Cairo Press, 2004.

Griffin, Nicholas. "The Use of Chinese Labour by the British Army, 1916–1920." PhD diss., University of Oklahoma, 1973.

Gullett, H. S. *Australian Imperial Force in Sinai and Palestine*. Sydney: Angus & Robertson Ltd., 1923.

Halls, Katharine. "'Not Worthy of Belief': Testimonies of Rape in Egypt, 1919." Paper presented at Interwar Revolutions in the Middle East/North Africa Conference. London, 2019.

Hammad, Hanan. *Industrial Sexuality: Gender, Urbanization, and Social Transformation in Egypt*. Austin: University of Texas Press, 2016.

Hannaford, Ivan. *Race: The History of an Idea in the West*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1996.

Harper, Tim. "Singapore, 1915, and the Birth of the Asian Underground." *Modern Asian Studies* 47, no. 6 (November 2013): 1782–1811.

Hayden, Dolores. *The Power of Place: Urban Landscapes as Public History*. Cambridge, MA: MIT Press, 1995.

Helal, Emad Ahmed. "Muhammad Ali's First Army: The Experiment in Building an Entirely Slave Army." In *Race and Slavery in the Middle East: Histories of TransSaharan Africans in Nineteenth-Century Egypt, Sudan, and the Ottoman*

Mediterranean, edited by Kenneth Cuno and Terrance Walz, 17–42. Cairo: American University in Cairo Press, 2010.

Heshmat, Dina. *Egypt 1919: The Revolution in Literature and Film*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 2019.

Hirschkind, Charles. *The Ethical Soundscape: Cassette Sermons and Islamic Counterpublics*. New York: Columbia University Press, 2006.

Hoad, T. F. *The Concise Oxford Dictionary of English Etymology*. Oxford, UK: Oxford University Press, 1996.

Hobson, J. A. *Imperialism: A Study of the History, Politics, and Economics of the Colonial Powers in Europe and America*. Monee, IL: Adansonia Press, 2018 [1902].

Hofstadter, Richard. *Social Darwinism in American Thought*. Boston: Beacon Press, 1944.

Hopkins, Nicholas, and Reem Saad. "The Region of Upper Egypt: Identity and Change." In Nicholas Hopkins and Reem Said, eds., *Upper Egypt: Identity and Change*, 1–24. Cairo: American University in Cairo Press, 2004.

Horne, John. "Immigrant Workers in France during World War I." *French Historical Studies* 24, no. 1 (1985): 57–88.

Hourani, Albert. "Ottoman Reform and the Politics of Notables." In Albert Hourani, *The Emergence of the Modern Middle East*, 36–66. Berkeley: University of California Press, 1981.

———. "Rashid Rida and the Sufi Orders: A Footnote to Laoust." *Bulletin d'Études Orientales* T. 29 (1977): 231–241.

Ibn Khaldun. *The Muqaddimah: An Introduction to History*. Translated and introduced by Franz Rosenthal, abridged and edited by N. J. Dawood, with a new Introduction by Bruce B. Lawrence. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005.

أمين عز الدين، "أول دراسة عن سبب هام من أسباب ثورة ١٩١٩: **الشغل في السلطة؛ قصة فيلق العمال المصري وفليق الجمال**"، المصور، مارس ١٩٦٩.

———، **الفيلق**، القاهرة: مركز الفسطاط للدراسات، ١٩٩٩.

سمير عزت، "صفحات من مذكرات شيخ مجهول: خمسة وسبعين عامًا بين قباب المساجد وجيش الإنجليز وسجون إسرائيل"، روز اليوسف، ١٧ يونيو ١٩٦٨.

Jackson, Louis. *Our Caughnawagas in Egypt*. Montreal: W. M. Drysdale & Co., 1895. Jacob, Wilson Chacko. *Working Out Egypt: Effendi Masculinity and Subject Formation in Colonial Modernity, 1870–1940*. Durham, NC: Duke University Press, 2011.

Jakes, Aaron. *Egypt's Occupation: Colonial Economism and the Crises of Capitalism*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2020.

Jakes, Aaron, and Ahmad Shokr. "Finding Value in Empire of Cotton." *Critical Historical Studies* (Spring 2017): 107–136.

Johnson, Niall, and Juergen Mueller. "Updating the Accounts: Global Mortality of the 1918–1920 'Spanish' Influenza Pandemic." *Bulletin of the History of Medicine* 76, no. 1 (Spring 2002): 105–115.

مصطفى كامل، الشمس المشرقة، القاهرة: مطبعة اللواء، ١٩٠٤.

Kazziha, Walid. "The Jaridah-Ummah Group and Egyptian Politics." *Middle Eastern Studies* 13, no. 3 (1977): 373–385.

Khalifa, Atef M. *The Population of the Arab Republic of Egypt*. Cairo: Institute of Statistical Studies and Research, 1973.

Khoury, Philip S. "The Urban Notables Paradigm Revisited." *Revue Du Monde Musulman et de La Méditeranée* 55, no. 1 (1990): 215–230.

Kiernan, V. G. *The Lords of Human Kind: Black Man, Yellow Man, and White Man in an Age of Empire*. New York: Columbia University Press, 1972.

Klein, Ernest. *Klein's Comprehensive Etymological Dictionary of the English Language*. Amsterdam: Elsevier B.V., 1971.

Koerver, Hans Joachim. *German Submarine Warfare 1914–1918 in the Eyes of British Intelligence: Selected Sources from the British National Archives, Kew*. Berlin: Schaltungsdienst Lange o.H.G., 2010.

Koller, Christian. "The Recruitment of Colonial Troops in Africa and Asia and Their Deployment in Europe during the First World War." *Immigrants and Minorities: Historical Studies in Ethnicity, Migration, and Diaspora* 26, no. 1–2 (2008): 111–133.

Korda, Michael. *Hero: The Life and Legend of Lawrence of Arabia*. New York: HarperCollins, 2010.

Lalonde, Suzanne. *Determining Boundaries in a Conflicted World: The Role of Uti Possidetis*. Montreal: McGill-Queen's University Press, 2002.

Landau, Jacob M. *Parliaments and Parties in Egypt*. New York: Taylor and Francis, 2015 [1953].

Laqueur, Thomas. "Memory and Naming in the Great War." In *Commemorations: The Politics of National Identity*, edited by John R. Gillis, 150–167. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

Lawrence, T. E. *Seven Pillars of Wisdom*. Oxford, UK: Alden Press, 1935.

Lefebvre, Henri. *La Droit À La Ville*. Paris: Anthopos, 1968.

———. *The Production of Space*. Vol. 9. Translated by Donald Nicholson-Smith. Cambridge, MA: Blackwell, 1991.

———. *Writings on Cities*. Selected and translated by Eleonore Kofman and Elizabeth Lebas. Cambridge, MA: Blackwell, 1996.

Lenin, V. I. "Imperialism, the Highest Stage of Capitalism." In *Lenin's Selected Works*, 667–766. Moscow: Progress Publishers, 1963.

Lloyd, Nick. *The Amritsar Massacre: The Untold Story of One Fateful Day*. London: I. B. Tauris, 2011.

Longworth, Philip. *The Unending Vigil: A History of the Commonwealth War Graves Commission, 1917–1984*. London: Leo Cooper, 1985.

Loring, William Wing. *A Confederate Soldier in Egypt*. New York: Dodd, Mead & Co., 1884.

أحمد لطفي السيد، **المنتخبات**، مج١، جمع وتحرير: إسماعيل مظهر، القاهرة: دار النشر الحديث، ١٩٣٧.

ـــــــــــ، **قصة حياتي**، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٣.

ـــــــــــ، **صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر**، تحرير إسماعيل مظهر، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٦.

ـــــــــــ، **تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع**، القاهرة: دار المعارف للطباعة والنشر بمصر، ١٩٤٦.

Makdisi, Ussama. *Age of Coexistence: The Ecumenical Frame and the Making of the Modern Arab World*. Berkeley: University of California Press, 2019.

———. *The Culture of Sectarianism: Community, History, and Violence in NineteenthCentury Ottoman Lebanon*. Berkeley: University of California Press, 2000.

Mantena, Karuna. *Alibis of Empire: Henry Maine and the Ends of Liberal Imperialism*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2010.

Massey, W. T. *How Jerusalem Was Won: Being the Record of Allenby's Campaign in Palestine*. New York: Scribner, 1920.

McClendon, Thomas V. *White Chief, Black Lords: Shepstone and the Colonial State in Natal, South Africa, 1845–1878*. Rochester, NY: University of Rochester Press, 2010.

McGarry, Fearghal. *The Rising: Ireland, Easter 1916*. Oxford, UK: Oxford University Press, 2006.

Mikhail, Alan. *Nature and Empire in Ottoman Egypt: An Environmental History*. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2011.

Miles, Robert. *Racism*. London: Routledge, 1989.

Mitchell, Timothy. *Colonising Egypt*. Berkeley: University of California Press, 1988.

———. *Rule of Experts: Egypt, Techno-Politics, Modernity*. Berkeley: University of California Press, 2002.

Morrison, Toni. *Playing in the Dark: Whiteness and the Literary Imagination*. New York: Random House, 1993.

عليا مسلَّم، **الوجه الآخر لثورة ١٩١٩ المصرية: ثورة فلاحي الهمامية**، مجلة بدايات، ع٢٣-٢٤، ٢٠١٩: https://bidayatmag.com/node/1052

______. "Strikes, Riots, and Laughter: Al-Himamiyya Village's Experience of Egypt's 1918 Peasant Insurrection." *Social Movements and Popular Mobilisation in the MENA* 40 (September 2020).

______. "'Ya Aziz 'Aini Ana Bidi Arawah Baladi': Voyages of an Egyptian Tune from Estrangement at Home to Longing on the Fronts of WWI." In *Cultural Entanglement in the Pre-Independence Arab World: Arts, Thought and Literature*, edited by Anthony Gorman and Sarah Irving. London: I. B. Tauris, 2020.

Mughazy, Mustafa A. "Pragmatics of the Evil Eye in Egyptian Arabic." PhD diss., Georgia State University, 1999.

Murphy, Gretchen. *Shadowing the White Man's Burden: U.S. Imperialism and the Problem of the Color Line*. New York: New York University Press, 2010.

Murray, Archibald. *Sir Archibald Murray's Despatches: June 1916–June 1917*. London: J. M. Dent & Sons Ltd., 1920.

سلامة موسى، **مصر أصل الحضارة**، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١١.

______، **تربية سلامة موسى**، الطبعة الرابعة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢.

Nicholas, I. C. "British Supply Operations during the Palestine Campaign, with Particular Reference to Operations Following the Capture of Gaza." Unpublished thesis, Command and General Staff School, Fort Leavenworth, Kansas, 1931–1932.

Nicolson, Harold. *Curzon: The Last Phase 1919–1925*. London: Constable and Co., Ltd., 1934.

Ong, Walter. *Orality and Literacy: The Technologizing of the Word*. New York: Methuen, 1982.

Owen, Roger. *Cotton and the Egyptian Economy, 1820–1914: A Study in Trade and Development*. Oxford, UK: Oxford University Press, 1969.

Pakenham, Thomas. *The Boer War*. New York: Random House, 1979.

Paternek, Margaret A. "Norms and Normalization: Michel Foucault's Overextended Panoptic Machine." *Human Studies* 10, no. 1 (March 1987): 97–121.

Racy, Ali Jihad. "Improvisation, Ecstasy, and Performance Dynamics in Arabic Music." In *In the Course of Performance: Studies in the World of Musical Improvisation*, edited by Bruno Nettl and Melinda Russell, 95–112. Chicago: University of Chicago Press, 1998.

عبد العظيم رمضان، **تطور الحركة الوطنية في مصر ١٩١٨-١٩٣٦**، القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٩٦٨.

RAMC, Sejeant-Major. *With the RAMC in Egypt*. London: Cassell and Company, Ltd., 1918.

Rashid, Syeda Rozana. "Colonial Labour Migration from India during the First World War: Present Implications." Paper presented at War and Colonies: 1914–1918 Conference. Dhaka, 2014.

Raymond, Andre. *Artisans et Commerçants Du Caire Au XVIIIe Siècle*. Damascus: Presses de l'Ifpo, 1973.

Reid, Donald Malcolm. *Whose Pharaohs? Archaeology, Museums, and Egyptian National Identity from Napoleon to World War I*. Berkeley: University of California Press, 2002.

Reimer, Michael J. "Colonial Bridgehead: Social and Spatial Change in Alexandria, 1850–1882." *International Journal of Middle East Studies* 20, no. 4 (1988): 531–553.

Reynolds, Nancy Y. *A City Consumed: Urban Commerce, the Cairo Fire, and the Politics of Decolonization in Egypt*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2012.

محمد رشيد رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، مج١، القاهرة: مطبعة المنار، ١٩٣١.

Riddick, John F. *The History of British India: A Chronology*. London: Greenwood Publishing Group, 2006.

Rose, Christopher S. "Famine, Disease, and Death in Egypt: 1914–1919." Paper presented at Egypt and the Great War Conference. Oxford, 2018.

Rottenberg, Catherine. "Passing: Race, Identification, and Desire." *Criticism* 45, no. 4 (Fall 2003): 435–452.

Roy, Kaushik. "Race and Recruitment in the Indian Army: 1880–1918." *Modern Asian Studies* 47, no. 4 (2013): 1310–1347.

Ruiz, Mario M. "Manly Spectacles and Imperial Soldiers in Wartime Egypt, 1914–19." *Middle Eastern Studies* 45, no. 3 (2009): 351–371.

———. "Photography and the Egyptian Labor Corps in Wartime Palestine, 1917–1918." *Jerusalem Quarterly* 56–57 (Winter/Spring 2014): 52–66.

Russell, Thomas. *Egyptian Service, 1902–1946*. London: John Murray, 1949.

Ryzova, Lucie. *The Age of the Efendiyya: Passages to Modernity in National Colonial Egypt*. Oxford, UK: Oxford University Press, 2018.

Sabry, Mohammed. *La Révolution Égyptienne: D'Après des Documents Authentiques et des Photographiers Prises au cours de la Révolution*. Paris: Librairie J. Vrin, 1919. Safran, Nadav. *Egypt in Search of Political Community: An Analysis of the Intellectual and Political Evolution of Egypt, 1804-1952*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1961.

Said, Edward W. *Orientalism*. New York: Pantheon Books, 1978.

لطيفة سالم، **مصر في الحرب العالمية الأولى**، الإسكندرية: الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، ١٩٨٤.

Sartori, Andrew. *Bengal in Global Concept History: Culturalism in the Age of Capital*. Chicago: University of Chicago Press, 2008.

Sautman, Barry. "Racial Nationalism and China's External Behavior." *World Affairs*, 160, no. 2 (Fall 1997): 78–95.

عصمت سيف الدولة، **مشايخ جبل البداري، الجزء الثاني من مذكرات قرية**، القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٦.

Schine, Rachel. "The Racialized Other in Early Arabic Literature: Literature as an Institution of Community." In *Routledge Handbook of Islam and Race*, edited by Zain Abdullah. New York: Routledge, forthcoming.

Schülze, Reinhard. "Colonization and Resistance: The Egyptian Peasant Rebellion in 1919." In *Peasants and Politics in the Modern Middle East*, edited by Farhad Kazemi and John Waterbury, 171–202. Miami: Florida International University Press, 1991.

Scott, James C. *The Moral Economy of the Peasant: Rebellion and Subsistence in Southeast Asia*. New Haven, CT: Yale University Press, 1979.

———. *Weapons of the Weak: Everyday Forms of Peasant Resistance*. New Haven, CT: Yale University Press, 1985.

Selim, Samah. *The Novel and the Rural Imaginary in Egypt, 1880–1985*. New York: Routledge, 2004.

أحمد شفيق باشا، **حوليات مصر السياسية**، القاهرة: مطبعة شفيق باشا بشارع سامي رقم ٢٨، ١٩٢٦.

هدى شعراوي، **مذكرات هدى شعراوي: رائدة المرأة العربية الحديثة**، القاهرة: دار الهلال، ١٩٨١.

Shorter, Edward, and Charles Tilly. *Strikes in France, 1830–1968*. London: Cambridge University Press, 1974.

Smith, Charles D. *Islam and the Search for Social Order in Modern Egypt: A Biography of Muhammad Husayn Haykal*. Albany, NY: SUNY Press, 1983.

Soja, Edward. *Thirdspace: Journeys to Los Angeles and Other Real-and-Imagined Places*. Cambridge, MA: Blackwell, 1996.

Spivak, Gayatri. *A Critique of Postcolonial Reason: Toward a History of the Vanishing Present*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999.

Starling, John, and Ivor Lee. *No Labour, No Battle: Military Labour during the First World War*. London: History Press, 2009.

Stoler, Ann. *Along the Archival Grain: Epistemic Anxieties and Colonial Common Sense*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2009.

Stovall, Tyler. "The Color Line behind the Lines: Racial Violence in France during the Great War." *American Historical Review* 103, no. 3 (June 1998): 737–769.

Summer, Ian. *The Indian Army 1914–1917*. Oxford, UK: Osprey, 2001.

Takla, Nefertiti. "Murderous Economies: Sex Trafficking and Political Economic Change in Alexandria, Egypt: 1941–1921." *Égypte/Monde Arabe* 17 (2018): 23–48.

Talhami, Ghada Hashem. "The Zanj Rebellion Reconsidered." *International Journal of African Historical Studies* 10, no. 3 (1977): 443–461.

"Temporary Crusaders." *Bookman* 57, no. 337 (1919): 45.

Tignor, Robert. *Modernization and British Colonial Rule in Egypt, 1882–1914*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1966.

———. *State, Private Enterprise, and Economic Change in Egypt, 1918–1952*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984.

Toledano, Ehud. *As if Silent and Absent: Bonds of Enslavement in the Islamic Middle East*. New Haven, CT: Yale University Press, 2007.

Troutt-Powell, Eve. *A Different Shade of Colonialism: Egypt, Great Britain, and the Mastery of the Sudan*. Berkeley: University of California Press, 2003.

Tuma, Habib. *The Music of the Arabs*. Translated by Laurie Schwartz. Berlin: Amadeus Press, 1996.

Turda, Marius, and Paul J. Weindling, eds. *"Blood and Homeland": Eugenics and Racial Nationalism in Central and Southeast Europe, 1900–1940*. Budapest and New York: Central European Press, 2006.

Ukpabi, S. C. "West Indian Troops and the Defence of British West Africa in the Nineteenth Century." *African Studies Review* 17, no. 1 (April 1974): 133–150.

Ulrichsen, Kristian Coates. *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the Middle East, 1914–22*. London: Palgrave Macmillan, 2011.

Virilio, Paul. *Speed and Politics*. Los Angeles: Semiotext(e), 1977.

Vitalis, Robert. *America's Kingdom: Mythmaking on the Saudi Oil Frontier*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2006.

———. *White World Order, Black Power Politics: The Birth of American International Relations*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2015.

Walz, Terrance. "Black Slavery in Egypt during the Nineteenth Century as Reflected in the Mahkama Archives of Cairo." In *Slaves and Slavery in Muslim Africa*, edited by John Ralph Willis, 137–160. London: Frank Cass and Co. Ltd., 1985.

Welch Jr., William M. *No Country for a Gentleman: British Rule in Egypt, 1883–1907*. New York: Greenwood Press, 1988.

Wendell, Charles. *The Evolution of the Egyptian National Image: From Its Origins to Ahmad Lutfi Al-Sayyid*. Berkeley: University of California Press, 1972.

White, Shane, and Graham White. *The Sounds of Slavery: Discovering African American History through Songs, Sermons, and Speech*. Boston: Beacon Press, 2005.

Williams, Teresa Kay. "Race-ing and Being Raced: The Critical Interrogation of 'Passing.'" *Amerasia Journal* 23, no. 1 (1997): 61–65.

Wimmer, Andreas. "Elementary Strategies of Ethnic Boundary Making." *Ethnic and Racial Studies* 31, no. 6 (August 2008): 1025–1055.

Wood, John G. *The Natural History of Man; Being an Account of the Manners and Customs of the Uncivilized Races of Men—Australia, New Zealand, Polynesia, America, Asia, and Ancient Europe*. London: George Routledge and Sons, 1870.

Xu Guoqi. *Strangers on the Western Front: Chinese Workers in the Great War*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011.

Yeomans, Rory. "Of 'Yugoslav Barbarians' and Croatian Gentlemen Scholars: Nationalist Ideology and Racial Anthropology in Interwar Yugoslavia." In *"Blood and Homeland": Eugenics and Racial Nationalism in Central and Southeast Europe, 1900–1940*, edited by Paul Weindling and Marius Turda, 83–122. Budapest and New York: Central European University Press, 2006.

Yousef, Hoda A. *Composing Egypt: Reading, Writing, and the Emergence of a Modern Nation*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2016.

Zafer, Hamza. *Ecumenical Community: Language and Politics of the Ummah in the Qur'an*. Boston: Brill, 2020.

أحمد فتحي زغلول، **سر تقدم الإنكليز السكسونيين**، القاهرة: المشروع القومي للترجمة، د.ت.

سعد زغلول، **مذكرات سعد زغلول**، مج١، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.

________، **مذكرات سعد زغلول**، مج٧، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.

Zagloul, Saad [Sa'd Zaghlul]. *The White Book: Collection of Official Correspondence from November 11, 1918, to July 14, 1919*. Paris: The Delegation, 1919.

المؤلف في سطور:

كايل جون أندرسون

مؤرخ أمريكي، وأستاذ التاريخ المشارك بجامعة ولاية نيويورك بالولايات المتحدة. درس أندرسون في جامعات ميتشجن وكورنل، وحصل على الدكتوراه في عام ٢٠١٧ عن «فرقة العمال المصرية».

يعمل حاليًا أستاذًا مساعدًا للتاريخ في جامعة ولاية نيويورك بأولد ويستبري، وله العديد من مشاركات المؤتمرات والمحاضرات عن مصر في الحرب العالمية الأولى، وعن فرق العمال المصرية بالأخص. وينتسب إلى العديد من المؤسسات الأكاديمية والبحثية، أبرزها مجلس بحوث العلوم الاجتماعية (SSRC)، والجمعية التاريخية الأمريكية (AHA)، ومركز البحوث الأمريكي في مصر (ARCE).

المترجمان فى سطور

شكري مجاهد

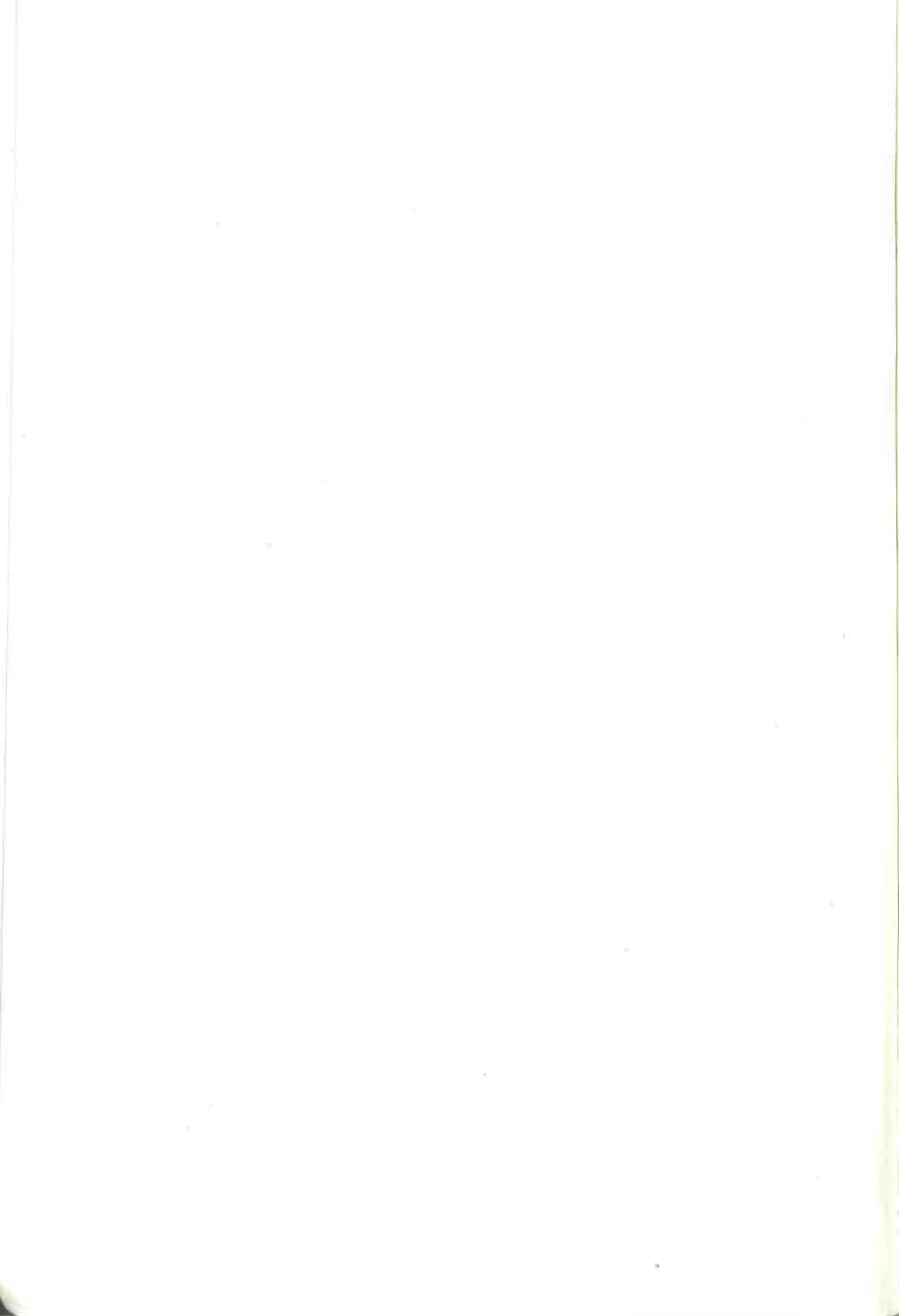
يشغل درجة أستاذ الأدب الإنجليزي بكلية التربية جامعة عين شمس
شغل منصب رئيس قسم اللغة الإنجليزية في كلية التربية بجامعة عين شمس، له عدد من الترجمات، منها:

*اللغة الإنجليزية لغةً كوكبية – تأليف ديفيد كريستال
*الوقائع الجديدة – تأليف بيتر دركر.
*ثورة في التعليم : من المدرسة إلى العمل – تأليف لين أولسون
*البط الدميم يذهب إلى العمل – تأليف ميتي نورجارد
*آثار استعمارية : تشكل الهوية الوطنية في الأردن، تأليف جوزيف مسعد
*إعادة النظر في العلمانية، تحرير كريغ كالهون

محمد صلاح علي

محمد صلاح علي: باحث ومترجم مصري، تخرج في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة القاهرة، وحصل على دبلومة الفلسفة التطبيقية من كلية الآداب في الجامعة ذاتها، ومهتم بالعلوم الاجتماعية والتاريخ والفلسفة.

ونشر عددًا من الكتب المترجمة منها «ابن خلدون» للسيد فريد العطاس عن مركز نماء للبحوث والدراسات؛ و«الدولة في المجتمع» لجويل مجدال عن دار عالم الأدب للترجمة والنشر؛ و«في سبيل الله والفوهرر» لديفيد معتدل عن دار مدارات للأبحاث والنشر.





طبع بمطابع دار المعارف



ليس الحكي وحده غرض هذا الكتاب؛ بل "استحضار" مرحلة تاريخية كاملة بدلالات الاستحضار "الروحية" والدرامية، حيث يبعث المؤلف الروح في أحداثٍ سياسية داخلية وخارجية يرى فيها القارئ المصري ما لا يتسنى له رؤيته في غير هذا الكتاب من ملامح ثورة 1919، وتَشكُّل الحياة السياسية المصرية في مطلع القرن وما لها من تأثير حتى يومنا هذا.

يستكشف الكتاب فضاءً في الحرب العالمية الأولى غاب؛ بل غُيِّب، عن تواريخها التي دونتها الأيادي البيض، كما غاب أو غُيِّب عنها عمل الأيادي السمر. يبدل كايل أندرسون عناصر المشهد؛ فيحصل عمال المسرح على أهم شخصياته، ويجعل من حياتهم حبكة المسرحية الأساسية.، ويجعل الضابط الإنجليزي في دور الكورس في الدراما اليونانية؛ حيث يقرأ رسائله ويعلق عليها كاشفًا تناقض مواقفه وأفكاره. ومن رسائله يبعث ما يسميه "المشهد الصوتي" لمعسكرات فرقة العمال المصرية؛ حيث يفهم القارئ ما شاع من أغاني أول القرن فهمًا مختلفًا مدهشًا. يهيمن المصري على الفضاء المكاني والصوتي، ويكشف في ظل أقسى الظروف عن روح الفنان الذي يقابل بأصوات الغناء أصوات الرصاص، وعزم البناء الذي يقابل أعمال الهدم بمد السكك الحديدية وتعبيد الأرض. وهنا، تكمن أهم مفارقات الكتاب؛ انتصر الحلفاء في الحرب العالمية الأولى بهدم الجسور والمباني وخطوط الإمداد وغيرها، وانتصر المصريون فيها بالبناء؛ فإن كل هدم أحدثه صاحب السلاح قابله صاحب الفأس و"الشاحوطة" ببناء خير منه.

وأخيرًا، ليس هذا كتابًا ينعى جريمة، ولا يحكي قصة قهر واختطاف؛ بل يحكي قصة مصريين فرضوا الحياة وسط مشاهد الموت. أراد لهم مؤرخو الحرب أن يطويهم النسيان؛ وأراد لهم هذا الكتاب حياة جديدة في الذاكرة الغربية في أصله الإنجليزي، وأردنا له بهذه الترجمة بعثًا في الذاكرة المصرية والعربية.

تصميم الغلاف: أحمد بلال

